IBRAHIM AL-KONI

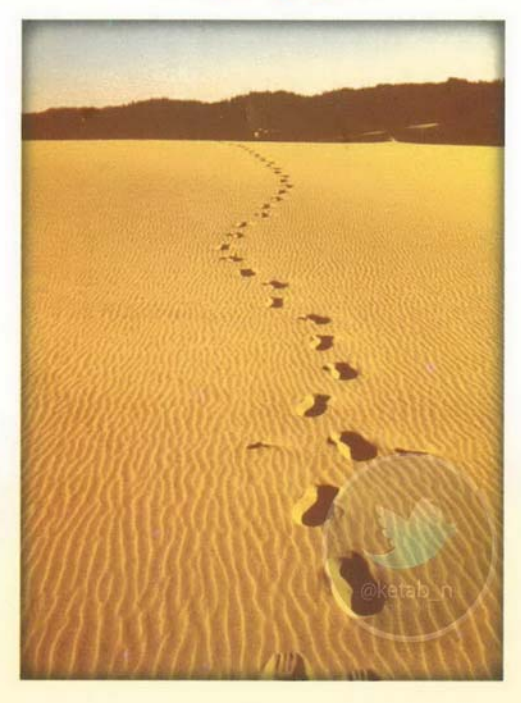
سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

إبراهيم الكوني

عدوس السرى

روح أمم في نزيف ذاكرة

الجزء الأول







إبراهيم الكوني

عدوس السرى

روح أمم في نزيف ذاكرة

الجزء الأول




عُدُوسُ السُّرَى
رُوحُ أمٍّ في نَزيفِ ذاكِرَة

عدوس السرى (روح أم في نزيف ذاكرة) (1) / سيرة ذاتيّة
إبراهيم الكوني / مؤلف من ليبيا
الطبعة الأولى ، 2012
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سيب ®

خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / عمّان**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**

(ردمك) ISBN 978-614-419-125-5

«ألا إنّ أهل الليل أهل تنزُّلٍ وأهل معاريجٍ وأهل تنقّلِ
فمن صاعدٍ نحو المُقام بهمّةٍ ومن نازلٍ يبغي اللّحوق بأسفَلِ
بحكم التداني والتّدلّي هُما وعن وجود الترقي والتلقي بمعزلِ
فإن قلت فيهم إنّهم خير عُصبةٍ صدقت فقد حلّوا بأكرمِ منزلِ
وإن قُلت فيهم إنهم شرُّ فتيةٍ صدقت فليسوا بالنبيّ ولا الولي
فهمْ لا هُمو ليسوا بهم وبغيرهم ولكنّهم في معقلٍ مُتزلزلِ
عزيزُ الحِمى بين المشاهد والنهى وبين جنوبٍ في الهبوب وشمألِ
فما منهموا إلاّ إمامٌ مسوّد إذا أصبحوا نالوا المُنى بالتّأمُّلِ
لهم نظرةٌ لا يعرف الغيرُ حُكمها لهم سطوةٌ في كُلّ تاجٍ مكلّلِ

(. . . .) إنّ الله جعل الليل لأهله مثل الغيب لنفسه، فكما لا يشهد أحدٌ فِعل الله في خلقه الغيب الذي أرسله دونهم، كذلك لايشهد أحدٌ فِعل أهل الليل مع الله في عبادتهم لحجاب ظلمة الليل التي أرسلها الله دونهم. فهم خير عُصبةٍ في حقّ الله، وهم شرّ فتيةٍ في حقّ أنفسهم!»

محي الدِّين إبن عربي، «الفتوحات المكيّة»

* * *

«ربّما لم أعِش حياتي فقط، ربّما عشتُ حياةَ أغيارٍ أيضاً»

بابلو نيرودا، «المذكّرات»

* * *

«إنّ أعجز العجز وصف المرء نفسه»

الأصفهاني، «الأغاني»

إستدلال

ما الذي يستهوي في إستنطاق الذاكرة بكتابة المذكرات؟

إذا كنّا نستطيع أن نفهم إنساناً يُراهن بهذا العمل على إستبقاء الأثر ليُبرهن حضوراً في الوجود قبل حلول الغروب، فهل نستطيع أن نفهم سرّ هوس المحترفين (سيّما الروائيّين) بخوض هذه التجربة وهم منْ حفر بنزيف الروح السيرة الدنيوية في المتن؟

وإذا كانت التجربة الإبداعية في الأساس سفرٌ مُميتٌ لتورية التجربة الدنيويّة في بُعدها الذاتي، أفلا تبدو الإعترافات عملاً مضاداً بكلّ معنى الكلمة: أي كفاحٌ مميتٌ أيضاً لإسترداد السيرة من إغترابها بمحاولة تحريرها من ستور التورية، أي من روح الإستعارة، وعرضها أمام الملأ عاريةً؟

بلى! الإبداع تورية، أو تغييبٌ للتّجربة بقدر ما يبدو الإعتراف تصريحاً. أي أن الرحلة بجملتها لعبة بين **الحرف وظلّ الحرف**، أو لعبة بين المبدأ الوقتيّ الذي يُرَى، وقرينه الأبديّ المغمور في الغيوب الذي يؤكّد حضوراً برغم إحتجابه بستور البعد المفقود.

الإبداع، إذاً، إعترافٌ آخر إرتحل بمتون الإستعارة ليسكن

المنافي. بالمقابل يبدو إستجواب الذاكرة عراكاً مع سلطان النسيان لإستكشاف حقيقة الحرف، ولكنه إستبسالٌ لإسترداد الغنيمة من براثن المجاز إستكمالاً لشروط الصفقة التي لا تعترف بكمال الحضور في الوجود ما لم تكتمل وحدة الضدّين الخالدين: الروح والجسد؛ لأن المبدع إذا كانت رسالته أن يُخفي، فإن رسالة المفكّر أن يُظهر بوصفه البطل في سيرورة الإستجواب.

وإذا كان الإبداع رحلة لإستجلاء الحقيقة: حقيقة إغترابنا في هذا الوجود (لأنّنا كلّنا بغياب الألوهة غُرباء)، فإنّ شهيّتنا لإستكشاف طبيعة هذا الإحساس التراجيدي سوف تتأجّج، سيّما إذا كان هذا الإغتراب بسجيّة مركّبة. فإلى جانب الإغتراب الوجوديّ كإنسان، هناك خصوصيّة الإغتراب عن الهوية الثقافية بسبب الإنتماء إلى أقليّة عرقية. وإغترابٌ آخر قهريّ تمثّل في هجرة قسريّة عن مسقط الرأس وأرجوحة التكوين (الصحراء) ليتواصل هذا الإغتراب في إغترابٍ أشمل تمثّل في الخروج من الوطن الأمّ لتصير الإقامة في الإغتراب هي وطن مريد البيان، لأن ماهي إرادة البيان أساساً إن لم تكن ضرباً من إرادةٍ لإغتراب؟

الإبداع، إذاً، ليس تعبيراً عن إغتراب، ولكنّه إرادة إغتراب؛ لأننا لا نُفلح عادةً في التعبير عن شيء لم نُرِده كثيراً، لم نعشقه كثيراً. بل قوّة تعبيرنا عنه رهينة مدى حبّنا له. فلماذا نهوى الإغتراب برغم يقيننا من مأساويّة هذا الهوى؟ نهوى الإغتراب لأن

الإغتراب حرّية! ولا تتغنّى المتون (بما فيها المتون المقدّسة) بالإغتراب إلاّ إدراكاً لحقيقته كحميمٍ لهذه الهِبة الإلهيّة: الحريّة!

فلماذا يأمرنا النصّ المقدّس بضرورة إستضافة الغرباء؟ هل لأنّنا نستضيف في الغرباء ملائكةً دون أن نعلم كما تقول الوصيّة الدينيّة؟

ولماذا الغرباء دون الناس جميعاً؟

الغرباء ملائكة لأنهم وحدهم ملّة حريّة، لأنّ حضورهم في البُعد المفقود أقوى من حضورهم في بعد الوجود.

وإذا كنّا قد حاولنا رصد الحضور في البُعْد المفقود من خلال عشرات الأعمال الإستعاريّة الصادرة حتّى الآن، أفلا يحقّ لنا أخيراً أن نشهد رصد الحضور في بُعْد الوجود بتأمُّل الرحلة من هذا الجانب أيضاً؟ لأنّ ما هي دنيانا إن لم تكن متاهة إغترابِ كلٍّ منّا فيها عَدوس سُرَى؟

القسْم الأوّل

الشّاة المائة

«إذا كان لإنسانٍ مائة خروفٍ وضلّ واحدٌ منها، أفلا يترُك التّسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضّال؟ وإن اتّفق أن يجده فالحقّ أقولُ لكم أنّه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل».

إنجيل مَتَّى

(18 : 12، 13)

1
الهباء

الإنطباع الذي خلّفه في وجداني ذلك المشهد إخترقني عميقاً كوحيٍ مجهولٍ ولم أتخيّل يومها أنه سيصير سرّ تكويني الروحي؛ مشهدٌ شحيحٌ. مشهدٌ لم يكن ليعني شيئا على الإطلاق. مشهدٌ تخفّت حجّته فيما يبدو من هذه اللاّشيئية، أو في هذا اللاّ معنى، كما حاولتُ أن أفكّك طلسمه بعد ذلك التاريخ، من نهاية خمسينيّات القرن العشرين، بعد أن تلقيت في قلبي كمّاً كافياً من طعنات هذا المعشوق الغادر الذي لم يخطيء مَن خلع عليه إسم الدُّنيا.

المشهد كان هبّةً في الطبيعة البادية. راكبان خرجا من الواحة إلى صحراء الجوار، يمتطيان دابّتين أسطوريّتين (أسطوريتين بعقلٍ يراهُما أناسه بهيمتين لا تنتميان إلى هذا الزمان). في المدى تتقاطع السّيوف الرملية التي تبدو من فرط بكارتها كأنّها خُلقت للتوّ. تتشبّث بأحاضيضها بعض النبوت البريّة ذات الروح البطوليّة في مقاومة جدب الدّهور. وفجأة تنطلق الأنفاس. تنطلق الأنفاس

من نزول الغشاوة التي تسبق حلول الغروب. تهبُّ الهبّة. تهبُّ الهبّة لتغمر المدى بالهباء. تتسلق السيوف الرملية بفتنة. تُهدهد الغضون الملتوية المرسومة على جسد الوعوثة في خطوطٍ متوازيةٍ، كأنّها عُروقٌ من معدن الذهب، لتستعير من مخزونها نصيباً من زاد؛ لأن حضورها في هبّة الهباء رهينة الزاد. لأن بدن ذلك الهباء اللّعوب (الذي لا يلتئم في ذلك الجرم الهشّ حتّى يتحلل ويتهلهل وينجلي كأنّه الوهم) ماهو إلا صنيعٌ مستعارٌ من ذاك الزّاد. من تلك الذرّات التي تستلقي في الحضيض نسيجاً فاتناً من رمل. في الوهلة التالية تتوثّق متون الحلف في الثالوث الذي أبدع الإنطباع الذي لا يُنسى: صرامة المدى، وكآبة الغروب، وفتنة الهباء المجبولة بالغموض.

إنها وحدة الهويّة بين لانهائية الفراغ، وعماء العتمة، ووحي الهباء. وحدةٌ يعجز وعي إبن العاشرة أن يُدركها وعياً، ولكنه يستطيع أن يحياها حَدَساً. هذا الحَدَس الذي ما لبث أن تحوّل، في وجدان إنسانٍ مازال يتماهى مع الطبيعة، وسوسةً، بل هاجساً.

فأبديّة البادية توقظ إحساساً قاسياً بالضّياع، ولون الظلمة التي تُهيمن على الإمتداد الخالد تُحيي لهفةً للإستكشاف، وسيرة الهباء بفتنته المجبولة بذلك القدر السخيّ والملهم من الغموض تورث نزيفاً مميتاً لأنها رطانةٌ تُترجم رسالة العدم! ضياعٌ، وحمّى فضول، وعدمْ. ألن تكفي أركان هذا الثالوث في صفقتها

الوجودية بتشييد صرح اللّعنة (لعنة الهَوَس المقبل المسربل بشهوة البحث عن. . عن ماذا؟ هل نُخطيء إذا قلنا إنّه لن يعني في النّهاية سوى شهوة البحث عن الله؟).

ولكن تحقيق حُلم الخروج يستوجب العدّة. ولا وجود بين يديّ المريد هنا سوى هذه الأشباح التي تُثقل كاهل الصحراء، وتتحجّب باللثام كأنها تتحمّم بفيوض الإستسرار تيمُّناً بالغاية القصوى المتمثّلة في الألوهة. ناموس اللعبة يقتضي، إذاً، أن أتسلّح بإغتراب هؤلاء، وبضياع هؤلاء، وبروح هؤلاء العدميّة التي لا ترى في حضورها في هذه القارّة الخاوية اللاّنهائية سوى خيالاتٍ عابرةٍ إلى حدٍّ رأت فيه أيّ فعلٍ عملاً من قبيل العدم حتى صار لها يقين اللاّجدوى المبدأ الأقدس المعبّر عن حقيقة دُنيا هُم فيها عنوان شقاء، لأنهم أمّةٌ أبتُليت بالضّياع ثلاثاً: وطنٌ ضائعٌ؛ لأنّ الصحراء لم تكن يوما لإنسانٍ وطناً؛ وهويةٌ ضائعةٌ لأنهم أسطورة تتردّد علّى الألسُن، ولكنها لم تدوّن لنفسها تاريخاً؛ وكتابٌ مقدّسٌ ضائع هو «آنهي» ليقينهم أيضاً بأن الإنسان لن يكون جديراً بحمل لقب إنسان إذا أضاع كتابه المقدس!

فهل تصلح أمّة الضياع رسولاً للتعبير عن شهوة مريدٍ مجبولٍ بالضياع غير رسالة الضياع؟

2
التِّيْه

تلك كانت تجربة الضياع الممهور بأنفاس الروح التي تُحيي، في مقابل ضياعٍ ممهورٍ بإمضاء الحرف الذي يُميت قُدّر لي أن أعيشه قبل ذلك التاريخ بأعوام، أي في الزمن الذي سبق الخروج من الصحراء والنزول إلى أحاضيض الواحة في الجنوب. ففي الأرجوحة التي ترتفع عن سطح الأرض بألف متر المتمثلة في صحراء الشمال الملقّبة في لغة القوم بإسم «تينغرت»، والمعروفة في لسان القبائل المجاورة بإسم «الحمادة الحمراء»، جاء اليوم الذي كان عليّ فيه أن أبرهن على إنتمائي إلى هويّة أهل الصحراء بالخضوع لتلك التجربة التي خاضها الأنبياء: رعي الشاة!

كأنّ إتقان رعي الرسالة عملٌ رهينٌ بإجادة رعي هذه المخلوقات الشقيّة، فما كان منّي إلاّ أن أطعمتها للذئاب لأقدم الدليل على عدم أهليّتي لهذا العمل الجسيم: الرّعي! وهو إخفاقٌ لم يكن ليمُرّ من دون قصاصٍ بالطبع، لأنّ استهتاري بالإمتحان قادني إلى التيه. تيهٌ كان من شأنه أن يُعمّق الإحساس بالضياع في

وجدان إبن الخامسة الهشّ. والحقيقة أنّي لم أكن لأتخلى عن المخلوقات الشقية لو لم أيأس في العثور على السبيل إلى المضارب. لأنّ ما جدوى الإحتفاظ بالقطيع إذا كان صاحب القطيع قد فقد الأمل في الخلاص؟ ألن يكون ما فعلته في ذلك اليوم ما هو إلا إستجابةً فطريّةً للوصيّة القدسية القائلة بلا جدوى أن نكسب العالم إذا كنّا قد خسرنا أنفسنا؟

لن أنسى حُلول غسق ذلك اليوم من شتاء ذلك العام. هل لهويّة الغروب المسكونة بالجنّ وأرواح الأسلاف في مُعتقدات القوم الباعثة على الخوف من المجهول الزاحف في أعطاف الظلمات دور؟ أمْ لأنّ ذلك الوقت المُهيب حفر في قيعان الروح الجرح الناتج عن هزيمة ذات دلالةٍ عميقةٍ لأنها البُرهان على القطيعة مع دنيا الصحراء؟

قُبيل المغيب أدرتُ ظهري لرعيّتي ويمّمتُ صوب قدري. يمّمتُ صوب القرص الزائل واستسلمتُ لقدري. تعلّقت بالجُرم الوحيد الذي إمتلك حضوراً حقيقياً في تلك المتاهة الخُرافية الخالية. ومن لمْ تطأ قدمه تلك القارّة الرهيبة هيهات أن يتخيّل هول الإحساس الذي سيستولي عليه فيما إذا وجد نفسه في أحضانها وحيداً بلا زادٍ، بلا ماء، بلا دليل! إنّه موقف الحضور في العدم. إنه الحضور في الموت برغم الإحتفاظ بأنفاس النزع الأخير. إنّها التجربة المُميتة التي ليس على من جرّبها أن يخشى

الموت، لأن ليس للإنسانِ أن يموت مرّتين ما لم يولد مرّتين. ففضاء «تينغرت» ليس خلاءً، ولكنّه خواء. خواءٌ ينطلق إلى كُلّ الأركان فلا يعترض الرُّؤية في رحابه سوى السّماء العارية اللاّمُبالية في الأعالي أمّا في الأسافل فلا وجود لغير أفقٍ صارمٍ، لا يرحم، يُهيمن على الدنيا مزموماً، عبوساً، مفروشاً بالحجارة المطروحة على رقعةِ إستواءٍ أبديّة.

وكي يكتمل مشهد المتاهة حقّا لابُدّ أن ينتصب الصّمت شاهداً. صمتٌ ليس كصمت الأمكنة، ولكنه صمت اللاّمكان الذي يغزو السّمع بالصّخب. صخبٌ ينجم عن فرط الصمت، برغم أن القوم يقولون أنه لغو الأرواح وهمس أهل الخفاء الذين كانوا أمّة الصحراء قبل أن تنزلها القبائل ففرّوا ليتواروا عن الأنظار.

قبل أن يبتلع قوس الأفق القرص الدامي إهتديتُ إلى الأثر: كان خفّ البعير مطبوعاً على سجّاد الحصباء بوضوح. كان طازجاً أيضاً، متّجهاً صوب الغرب، فتشبّثتُ به. لزمتُ الأثر كأنه طوق النجاة.

كان التشبُّث بأثر الخفّ المرسوم على الأرض إستجابةً لهاجسٍ غامض. بل تلبيةً لنداء غريزة لأني لم أدرك صواب فعلي إلا فيما بعد؛ كما لم أفلح في تأويله التأويل الصحيح إلا بعد أن إجتزتُ مفازاتٍ كثيرة، وعشتُ في دُنياي أهوالاً جسيمة.

ولكن هاهي الظلمة تتمادى، وصقيع الشتاء الصحراوي يعلن عن نفسه، لأنّ سوء الحظّ أبى إلاّ أن يبتليني بالتّيه في فصْل الشتاء، ولم يكتفِ بهذا القصاص، ولكنّهُ ثنّى عامداً فجرّد ليلي من القمر أيضاً، كأنّ الثالوث الذي رأيتُه تالياً كنبوءة كان في عنقي قدراً منذ التكوين: التّيه هويةً، والإسراء ليلاً، والسّعي في وطنٍ محبوكٍ من عدم!

لم أتخيّل بالطبع أن عَدُوسَ السُّرَى الذي تلقّفني في تجربة ذلك التاريخ البعيد سيكون لي المصير الذي سيتلبّسُني طوال تلك الرحلة التي لم تكُن سيرة بقدر ما كانت تخبُّطاً موجعاً في ظلمات ليلٍ بهيم، تُكشكش في دروبه الأفاعي، ويعلو في فضائه صليل أنصال الأعادي!

مع هبوط الليل وتسلّط الصقيع فقط إكتشفتُ إنّي عارٍ إلاّ من ذلك الثوب البائس الفضفاض الذي لا يكاد يستُر البدن فكيف يقي من جليد «تينغرت» الذائع الصّيت إذا كان لا يستر كامل الجسد؟ لقد أيقنتُ الآن أنّ البرد الذي ينام في نُخاع عظام هذا الجسد الذي أعجزتني في مُداواته الحيلة والوسيلة ليس من صنيع جليد الإقامة في روسيا، أو بولونيا، أو ثلوج جبال الألب، بقدر ما كان صنيع جليد الحمادة، بل صنيع جليد التّيه في تلك الليلة.

هجعتُ في العراء العاري بعد إكتمال هيمنة الظلمة. إفترشتُ اليابسة المفروشة بطبقةٍ طينيةٍ شرسة تتلحّف بجلدة مُلفّقة من

صفوف حجارةٍ مستوية، لأن الإستواء ناموس أرض صحراء الشمال التي لا تخون سجيّتها أبداً فأعارت خصلة الإستواء حجارتها أيضاً. هجعتُ على الفرشة الحجرية مُتّخذاً من ذراعي العارية من الكُمّ وسادةً. لسعتْني الحجارة بحُمّة الصقيع، ولكني تجلّدت. تطلّعتُ إلى السماء فإذا بها تزدهرُ بالنجوم كأنّها بالوميض في محفل، غير آبهة بمحنة المخلوق الضئيل الذي يهجع في الحضيض وحيداً، عاجزاً، أعزلاً. بلى! كان الإحساس بالعُزلة هو الكنز الذي إختزلْته من تلك التجربة ليكون حجر الزاوية في كيان الثالوث. أقول أنه كنزٌ لأنه القدر الوحيد الذي لا يخذل. أقول الكنز لأنّ من غلغل النظر في العزلة فتغلغلتْ فيه العزلة وحدهُ لايُهزم. يحدث هذا رُبّما بسبب سوء التقدير. فالمُعتزل الذي يحسبه الأغيار معتزلاً ليس مُعتزلاً كما يتبدّى. صاحب العزلة لا يصيرُ صاحب عُزلةٍ ما لم يُحقّق التّماهي مع الطبيعة، ويغترب عن نفسه ليستعيد حضوره في الكون. في هذا البُعد لا يعودُ وحيداً، لأنّ البرزخ ينقشع فيسكن الأرباب التي نراها مجهولةً فتسكنه الأرباب. ولهذا لا يستحي المعتزل أن يتكلم في عزلته بصوتٍ عالٍ لأنّه لا يُكلّم نفسه على طريقة المجانين، ولكنه يُخاطب آلهةً!

فهل يخاف، أو يعرف البلبال، أو يجبُن من يُسامر آلهةً؟

لقد سامرتُ آلهتي أيضاً في تلك الليلة.

كمْ تبدو النّجوم حميمةً عندما ننقطع! كم يبدو الليل رحيماً عندما نُسلّم له زمام الأمر ونفكّ الإرتباط بالدنيا! كم نبدو سُعداء عندما نفقد الأمل! كم نبدو أرباباً عندما نطرح أنفُسنا كقرابين تُعادي الخلاص وتعبُدُ يأساً!

لقد شهدتُ ميلادي في تلك الليلة، لأنّ الميلاد، على ما يبدو، ليس أن ننبثق من بطون الأمّهات، ولكن أن نعود إلى بطن أُمّ الأُمّهات. أن نختفي في جوف الطبيعة، لكي نولد حقاً في الحقيقة. لقد إغتربتْ فيّ، في تلك الليلة، الصِّلات التي شدّتني إلى كُلّ شيء وحسبتُ كل ذلك ضرورة لا غنى عنها. لقد عشتُ موتاً حقيقياً لأشهد ميلاداً برهن لي أن الغياب ليس شرّاً. كنتُ أغفو حيناً وأستيقظ حيناً. تبدّد الخوف من الذئاب أو الضّباع أو السّعالي. تبدّد الخوف من المخلوقات التي صوّرَتْها أساطيرُ الأُمّهات شرّ تصوير لأنّ رؤيتها قرينةٌ للموت وهي الجنّ! تبدّد الإحساس بالصّقيع الصحراوي اللئيم الذي يتسلّل من الأسفل، من اليبوسة، عَبَر الحجارة، ليسري في الجسد سريان السُّمّ على نحوٍ يفوق بما لا يُقاس قسوته التي تنهال من أعلى. فهل هذا هو ما يُسمّيه القوم غياباً، موتاً، نهايةً، أم أنه الحضور في الصحراء؟ أليس محو العار بطولة؟ أوَ ليست البطولة هي الحياة ؟. في الصباح، مع قبس الفجر، وجدتُ عندما أفقتُ أن الأرض كانت مكسوّة بطبقةٍ ناصعةٍ كأنّها الكفن قيل لي تالياً أنّها الجليد. جليدٌ

تجود به طبيعة الصحراء الجبليّة من شدّة الصقيع لأوّل مرّة في ذلك العام، بل ومنذ أعوام كما روى الأهل فيما بعد وهم يتعجّبون كيف أمكنني أن أنجو من بطشه في ليلة الضياع تلك.

في الصباح إنطلقتُ مبكراً. لزمت أثر الخفّ المُتّجه غرباً. كُنتُ حافياً بالطبع، ولكني خطوت على الأرض الملفوفة بالجليد بخفّةٍ صالباً يديّ وراء ظهري كما إعتدت أن أفعل كلّما إنطلقتُ في الصحراء. كانت قدماي في البدء داميتين بسبب حزيز الحجارة، ولكن النزيف لم يكُن ليُعيقني لأنّي فقدتُ الإحساس بهما منذ الأمس. ما عاقني في مسير الصباح هو الجمود. لقد أضطررتُ أن أزحف على يديّ وركبتيّ مسافة طويلة قبل أن أحتال لإستخدامهما. أمّا الإنطلاق الحقيقي في سبيل الأثر فلم يبدأ إلاّ بعد أن بدّدتْ أشعة الشروق فلول الجليد.

سرتُ النهار كاملاً. سرتُ بلا إنقطاع. سرتُ بلا أمل في النجاة. سرتُ يقودني الحدَس المتشبّث بتلابيب الأثر. سرتُ بروحٍ لا مبالية لأن الطبيعة لا تخشى الضياع، ولا تخشى العزلة، ولا تخشى الفناء، وأنا منذ تلك الليلة صرتُ طبيعةً. لم أصبح جزءً من الطبيعة، ولكني الطبيعة! ألهذه العلّة لم أستشعر عطشاً ولا جوعاً؟

مع حلول العشيّ، واقتراب طقوس المغيب، تبدّت في الأفق

سيماء سواد. بعد مسافةٍ أخرى تبيّن في السواد رؤوس أشجار النخيل. إنّها الواحة إذاً!

كان نبأ ضياع الوليد قد طار ليبلغ أسماع أهل الواحة بالطبع كما يحدُث دائماً مع الأنباء في الصحراء التي يُقال أنّها تطير من الريح بجناحين وليس البشر من ينقلها. وأذكر أن الأب قال لي عندما أقبل ليُعيدني إلى المضارب: «ما كان يجب أن تقتفي أثر البعير في إتّجاه الغرب، بل كان يجب أن تقتفي الأثر عكساً. هل نسيت أن البعير الذي سعيت في أثره هو بعير الرجل الذي نزل على مضاربنا ضيفاً منذ أيام؟».

ومازلتُ أتساءل عمّا إذا أصاب الأب في ذلك اليوم. لقد نسي الأب أنّ دليلي في رحلتي هو الحدَس، في حين إحتكم هو في وصيّته بالمنطق. الحدس أقوى من المنطق، لأن منطق الطبيعة يقول أن البعير يتّجه في سعيه دوماً إلى المكان حيث توجد المياه، ويهجر دوماً المكان المهدّد بغياب المياه. لقد حكّمتُ في تيهي قريني البعير، لأنه طبيعة أيضاً مثلي؛ ولم يخذلني!

3
العلامة

ويبدو أن القَدَر (العليم بسرّ الصفقة المُبرمة بين الروح والجسد) لم يكُن ليقنع ببصمة الروح التي إحتفرها في وجدان عَدُوس السُّرَى بتجربة التيه، فاستعان بأجناد الخفاء لوسم البدن أيضاً بالعلامة لئلاّ يقتله كل من وجده تيمُّنا بسيرة إمام الخُطاة الشقيّ قابيل.

ففي أُمّةٍ يؤمن أبناؤها بهويّتهم كأطيافٍ نزلوا أضيافاً على هذه الصحراء الخاوية لابدّ أن يصير المساس بأيّ ركنٍ في طبيعة هذه المتاهة المضيافة إثماً يستدعي القصاص، لأنها مسكونة بالروح الخفيّة التي تتجلّى في الأشباح التي يروق لها أن تتنكّر لطبيعتها فتستظهر حيناً، أو تستجيب لسليقتهاً حينا آخر فتتستّر. هؤلاء هُم روح الصحراء وأهلها بالتكوين الذين يُطلق عليهم أهلها العابرون إسم: «كيل أسوف» أي «أهل الخلاء»، لأنهم خالدون فيها أبداً في مقابل الأضياف الحاملين للهويّة الوقتيّة: هويّة الفناء!

في هيمنة يقينٍ كهذا يصبح لمس أي شيء في المحيط البيئي عملاً مجبولاً بالخطر، بل و سبباً للتّهلكة إذا تجاوز الأمر اللمس وبلغ تخوم العبث كإتلاف أعشاش الطير، أو كسر بيوض مخلوقات البرّ، أو إستئصال النّبوت، أو إقتناص الأنعام دون جوع. ويبلغ التحريم حدوده القصوى في حال الإستهتار بدِمَن الأوائل كآثار دماءٍ سُفِحت غيلةً أوحرباً، أو الإستهانة برمادٍ تخلّف عن النجوع الغابرة، أو إنتهاك أحشاء شعلةٍ قدسيّةٍ كالنار بمعدنٍ نَجسٍ كالحديد؛ لأنها كلها بقاعٌ مسكونةٌ بروح أهل الصحراء الشرعيين. وقد خصّتني الأقدار بوطن الدّم لحكمةٍ لا أدريها. فها هي الأُمّ تخرج لإستجلاب الحطب فتتركني في عهدة جارتها خوفاً على شخصي الشقيّ من معشوقي التّيه، ولكنّي عرفتُ كيف أستغفل الجارة لأنطلق في طلب الأُمّ، وعندما يئستُ من العثور عليها هجعتُ مستظلاً بأرومة أثلةٍ ليغلبني النعاس. هناك، كما يُروى، عرفتْ روح الصحراء (أو روح أهل الصحراء) الطريق إلى قلبي، أو بالأصحّ، إلى جسدي، لتُصيب القدم بالخلل الذي كان نتيجة مرضٍ توّجتهُ غيبوبة دامت أياما؛ كأنّ ضربة التّيه التي أخذت على عاتقها إحياء الروح لم تكن لتكفي لترويض المسّ فجاءت ضربة الحرف لتطبع القدم بالعلامة إستكمالا لمشروع الإطاحةِ بسُلطان الجسد الذي يُميت!

في معجم الطبّ الدنيوي يُسمّون هذا العطب «شللاً». فإذا

إعترض علم المنطق قائلا أن الشلل مفهومٌ يشترط العجز الكامل، إحتال لسان الطبّ البشري بإضافة صفة غامضة لكلمة «شلل» على سبيل الإيضاح هي: «جزئيّ»!

ولكن ناموس العلامة يستوقفنا لأن التجربة برهنت على حقيقته كوصمةِ قصاصٍ لا كتتويجِ ترَفٍ أو شعار إمتياز بالمقياس الدنيوي. فإذا كانت كل تجربة رساليّة رهينة تأديب (كما تؤكّد الوصايا القدسيّة) فإن مبدأ التأديب هو رهين الأدب من بابٍ أولى. رهين الأدب لأنّ الأدب تأدّب بالمعنى الإقتصاصي أو الإيلامي من جانب، وتألّق بالمدلول الأخلاقي من جانبٍ ثانٍ. والعربيّة هي اللغة الوحيدة التي إستطاعت أن تعبّر عن جوهر هذه المغامرة فتحشر قطبيها القرينين (الجمالي والأخلاقي) في كلمةٍ واحدة. وهو جمعٌ مبرَّر إذا تأمّلنا الأعجوبة الإبداعية في بُعْدها الرّسالي التي لا تستقيم في إنجازٍ عظيمٍ ما لم تحترق بجحيم ألمٍ عظيم. فصاحب الإبداع يلعب دور عرّافة معبد دلفى التي تستجدي النبوءة، ولكن هيهات أن تطمع في الفوز مالم تتمخّض بتلك الحمّى التي تُشرِف بها على الموت. إنها تدفع الثمن غالياً مقابل النبوءة. إنّها لا تقنع بدفع ثمن ولكنها تلفظ الزبَد، ويتزلزل فيها البدن، وتختنق بأنفاس النزع الأخير. إنها تغترب قبل أن تولد. قبل أن تُبعث في النبوءة، لأنّ النبوءة لا تولد إن لم نولد فيها لا بها. لم يحدث هذا مع أيّوب وحده أو مع كل الأنبياء بدايةً بنوح

ونهايةً بمحمّد، ولكن حدث هذا مع كل أنبياء الألم بدايةً بأوديب ونهايةً ببروست مروراً بدوستويفسكي. لأنّنا إذا كنّا نولد من بطون الأمّهات ميلاد الطبيعة، فإننا لا نصنع هويّتنا التي وُجدنا من أجلها مالم نحقّق ميلادنا الثاني من رحم الألم.

ولكن تجربة الميلاد الثاني هذه كانت مازالت قصاصاً مؤجّلاً، لأنني لم يُكتب لي أن أكتوي بنارها إلاّ بعد وقوفي على مشارف الأربعين!

4
الواحة

لو كنّا نستعير مادة السِّيَر من المخزون الذي إستودعه الزمن في الذاكرة لما إستقام لسيرةٍ أمر؛ ولكن الشفرات المبهمة المبثوثة في الذاكرة بثّاً هي ما يهرع لنجدتنا. فالشفرة المجبولة بالإبهام تستفزّ لتبعث من المجهول فضولاً يغذّي التأمّل. التأمّل كمُريد إستجوابٍ وحده يستنطق المنسيّات ويستخرج من الأحافير كنوز الآثار الخبيئة. من هنا صار سادن المعبد هذا ربّ الإلهام في كلّ الثقافات. ربّ الإلهام بأجناسه بدايةً بالألوهي ونهايةً بالشعري. وعلّ هذه هي الترجمة الحقيقية لوصيّة أفلاطون القائلة بأنّنا لا نتعلّم في الواقع عندما نتعلم، ولكننا نتذكّر. لأن التذكّر لن يثمر حقّا مالم تخضع الذاكرة للهجوم المحموم الذي لا يتأتّى بدون إستخدام مارد التأمُّل الإستخدام اللجوج، بل والمستميت لإنتزاع الشفرات المطلسمة النائمة في قيعان النسيان وإحيائها بسلطان المنطق. لأنّ ماعفا عليه الزمان هو غنيمة نسيان سواء أكان هذا النسيان تعبيراً عن روحٍ إغتربت بالموت (ثم بُعثت)، أم تعبيراً عن

روحٍ إحتالتْ على طبيعة الأشياء حتّى بلغتْ من العمر عتيّاً، لأن السبب في كلتا الحالين يكمن في القِدمة.

لهذه العلّة تبدو بائسة تلك السيرة التي تعتمد سلطة تلك المعلومة التي تطفو على سطح الذاكرة في مقابل السيرة التي تعتمد ناموس الإستنطاق؛ لأنّ السرد يولَد ميتاً (أوفلنقل نيئاً) مالمْ ينضج بحمّى التأمل.

ألم تنتهِ الأجيال منذ أجيال الحقيقة القائلة بأنّ الحقيقة هي الوليدة الشّرعية للتأمُّل؟ لغز الذاكرة هذا بلبلني عندما حاولتُ جاهداً إستعادة تسلسل الأحداث التي سبقت النزول إلى واحة الجنوب، لأن نزولاً غائماً سبق الهجرة الأخيرة التي هي بمثابة الخاتمة في العلاقة بفردوس التكوين: الصحراء!

ولذا فإن محاولة بعث وقائع إغتنمها محو العقود تِلو العقود من إغترابٍ لن يختلف عن إغتراب الموت إلاّ بحساب الأعداد هو مجازفة خطِرة عسيرٌ أن تفلح بدون الإستجارة بالحُلم. هذا الحُلم الذي غيّبناه منذ قليل عندما إستبدلناه بلفظة «تأمُّل» بسبب طبيعته كمصطلحٍ شِعريّ. والهويّة الشعرية هو ما يستثير الشكوك دوماً سيّما في أزمانٍ لا يجد أهلها حرجاً في أن يتباهوا بإغترابهم عن روح الشعر!

تلك الواحة كانت الأقدم من بين كل واحات شمال الصحراء الكبرى، وربّما الأقدم على الإطلاق. ولا أعرف لماذا إرتبطتْ في

لاوعيي بإسمٍ أسطوري هو «قُدموس» بدل إسمها المتداول كـ«غدامس». ربّما لأنها كانت منذ الأزل نقطة التّماس بين ثالوث الممالك التاريخية ذات الهويّة الأسطورية: «إفري» الدّالة على الخلاء التي إستعارت منها القارة كلّها إسمها الذي إستقام كصفة في اللسان الاتيني في (أفريقيا) «AFRICA»؛ ثمّ في «تانّس» أو «تانّيت» تيمُّنا بربّة الأرباب في ديانة قدماء الليبيّين التي إستُبدلت تالياً بإسم «تونس»؛ ثمّ مملكة «نوميديا» ذات الصّيت المجيد التي إستُبدلت تالياً بإسمٍ لا يمتّ لا لبيئة القارّة ولا لهويّة أهلها هو: «الجزائر» نسبةً إلى جزيرة تقع بجوار الحاضرة التي إنتحلت لنفسها وسماً صار إسماً إنسحب على الوطن.

ولم أكن لأطمع في إرتياد ساحة واحةٍ كهذه لو لم يتصادف وجود شقيق الأمّ في رحابها تأديةً لعمله في السلك العسكري آنذاك، فكان أكثر ما علق بذاكرتي حضور الواحة في طوقٍ من حقول مقابرٍ تسرح في البرّية فلا يحدّها بصر. مقابر ملأني ثراءها بالرّهبة دون أن أعلم يومها أن هذه الوفرة هي الدليل على عراقة، لأنّ القبر هو أوّل أثر على حضور الإنسان على الأرض، وما انتشار المقابر اللاّنهائي سوى البرهان الآخر على تتابعٍ سخيٍّ لأجيالٍ ورثت أجيال.

أمّا الأثر الثاني في معالم الواحة فكان أثراً منتمياً إلى مملكة الطبيعة: إنه «عين الفرس»، تلك الهِبَة التي كان لها الفضل في

إستدراج أوّل عابرٍ إستسلم لإغواء الإستقرار فرَكَن إلى أمّه الأرض مضحّياً بأنبل سرّ إستخلفه الربّ قلب خليفته الإنسان (الحريّة) فحقّ للشاعر أن يتغنّى قائلا:

«عسيرٌ أن يهجر المكان ذلك الإنسان الذي أقام بجوار النّبع!» (هولدرلين).

والنّبع هنا ليس مجرّد وَتَد يغتنم جسداً فانياً حقّ للقدّيس أن ينعته بـ«الحرف الذي يُميت»، ولكنّه يستعير سلطانه من حقيقته كحبل سُرّةٍ مفتولٍ من حميميّة العلاقة بين قطبين تباهَى بالإنتماء لكليهما هما: «السماء والإرض». فجوهر النبع وحده شهادة حرّية، لأن الماء لا يحتمل حضوره في القيد طويلاً فيتحرّر. يغترب عن هويّة أرضيّة ليستعيد وجوده الدنيوي في السماء. وهو بهذا إمام الإعجاز لأنّه لا يموت في الأسافل إلاّ ليُبعث في الأعالي حيّاً. وهو يُمارس هذا الطقس القدسي في حضرتنا كل يوم ليقدّم الدّليل لا على خلوده وحده، ولكن على خلودنا أيضاً. وهو لهذا السبب إعتمدتهُ العقلية المسيحيّة ممثّلاً شرعيّاً للغز الروح. لحضور الروح. فالهَوَس بخلود الروح كان وسواس القوم منذ التكوين، أي قبل الدياسبورا الكبرى التي أنتجت ديانة روّجت أوّل من روّج لعقيدة «خلود الروح» عند إستقرارها على شطآن ذلك النبع الأسطوري الذي ورثنا إسمه عن اليونانيين في (NILOS)، في حين أطلق عليه أهل الشأن إسم «إيبا» الدّال في

لسان أهل الشّتات على «الروح» مزاوجةً بينه و بين الماء كمبدأ روحي.

الماء، بالحضور، جسد، أي بُعْد في الوجود؛ ولكن الماء، بالإغتراب، بُعدٌ مفقود مثله في ذلك مثل الروح. والتحرّر من أغلال النبع بالفرار إلى ملكوت الحرّية يستعسر على مُريد الترحال لأن النبع إستجارة بالأرض، بالأمّ، تحصّن بالجرم المستعار من هويّة الأرض. إنّه قوقعة أمان فراراً من هول وجودٍ هو غولٌ في يقين كلّ صاحب تسليم. في المقابل تستلقي الصحراء بروح الإستكبار. تستلقي الصحراء كفردوسٍ جدرانه ملفّقة من عدَم. جدرانٌ ملفّقةٌ من عَدم بسبب غياب النبع. جدرانٌ من عدم لأن العَدَم هو الشهادة على إغترابٍ هو حرّية. حريّة مشروطٌ حضورها بالحضور في الموت. الحرّية صفة في معجم الموت، كما الموت إسمها المطلسم بالإبهام. الموت إسم الحرية المطموس بالنسيان. والصحراء في الصفقة واحة حرية لأنّها تجسيد لإغتراب. لأنها ظلّ الموت. بل خليفة الموت على الأرض. ولهذا فإن وجود النبع في رحابها ملاذ. ملاذٌ بقدر ما هو خطأ في الناموس، خطأ لأنه نقضٌ صريحٌ للعهد المبرَم بين الروح والجسد، بين الشأن الأرضي وبين الشأن السماوي. النبع تمرُّد على مشيئة الخفاء ولهذا هو قرين دنيا. أي أنه نفيٌ بما هو إستقرار. والإستقرار هو الخطيئة التي لا تُغتفر في ناموس خليفة الحرية: الصحراء!

هذه الحرية هي التميمة التي أقبل بها المهاجر القادم من الصحراء ليحقّق بها الخلاص للواحة من المسخ الذي جثم على صدرها كما تروي الأسطورة: فها هو المخلوق الكريه يلتهم عذراء كل ليلة تُقدّم له كقربان لشراء البقاء على قيد الحياة إلى أن جاء المُهاجر ليبطل مفعول السحر بكلمة السرّ التي لم تكن غير الإسم بالطبع. فالإسم في عُرف السحر هو الأحجية التي يجب أن تُخْفَى، لأنّ كشفها يعني هلاك صاحب الإسم. لأن الإنسان إسم، وما لا إسم له وحده لا وجود له. ولهذا يستجير رُسُل الشرور دوماً في ديانات الأوائل بهذا «اللاّوجود» بإخفاء الإسم الحقيقي والإستعاضة عنه بالإسم المستعار، أو بأسماءٍ مستعارة. هذا هو سرّ هوس قدماء المصريين بإستبعاد الإسم الموهوب بالولادة وإستبداله بإنتحال الأسماء المستعارة. إنه إدراكٌ مبكّرٌ جدّاً لحقيقة المعرفة كتجديف. حقيقة المعرفة كتطاولٍ على ما وراء الطبيعة. حقيقة المعرفة كلعنةٍ مهّدت للوصيّة الربوبية الواردة في أسفار العهد القديم.

شلّ سليل الحرية القادم من الصحراء في المسخ القوّة بكشف الإسم المخفي فقطع رأسه، لأن الإسم هنا هو تلك الأحجية المعادلة للغز المسخ الآخر الجاثم على قلب طيْبة في الأسطورة اليونانية. والمهاجرُ مُهاجرٌ لا بالسبيل وحده، ولكنه مهاجرٌ بالألم. مهاجرٌ بقصاصٍ إختاره له القدر و لم يختره لنفسه؛

والقصاص دوماً حرية، كما الألم العظيم حرية، وكما الهجرة حرية. لأن من إختارتهم الأقدار للحساب وحدهم أحبّاء الأقدار. لأن من تعذّب بقصاص المجهول وحده يملك الحقّ في أن يتباهى بإمتلاك الحقيقة. هؤلاء إمتلكوا الحقيقة لأنهم حدّقوا في وجه الربّ. من زار الحقيقة في ملكوت بُعدها المفقود هيهات أن يُقهر. وقوّة المهاجر لا تكمن في تلقّي البلايا، في نيل قصاصٍ طاريء، ولكنها تكمن في الهجرة بذاتها. تكمن في الهجرة لأن الهجرة قصاصٌ بطبيعتها الزهدية، وبهويّتها كخيار حرية. ولذلك فإن كل خلاص، هو خلاصٌ مشبوهٌ مالم تأت به الحرية. ولهذا السبب لا نملك إلاّ أن نستشعر الرهبة لمرأى المهاجر. فروح الهجرة تُسربل مُريد الهجرة بمسحة دينيّة. إنه مجلّل بالموت، لأنه في يقيننا الخفي لا يذهب لقضاء حاجة تمتّ بصلةٍ لحطام الدنيا، ولكنه ينطلق لملاقاة ربّه. هذا الإنطباع الغامض يستنزل على سيمائه مسوح البُلس. يستنزل قناع حدادٍ خالدٍ. إنه قدّيسٌ بالخروج (الخروج بمعنى الهجرة exodus) ما خلا قلبه من الصفقة. ما خلا قلبه من خروجٍ لقضاء الحوائج.

الهجرة في سيماء المهاجر الحقيقي صلاة. ألم يدفع هابيل الثمن بسبب الهجرة؟ ألم تكن الهجرة قدر كل نبوءة وشرطاً لفلاح كل رسالة كما تعلّمنا من صحف التاريخ؟

خروج المهاجر في هجرةٍ هو خروجٌ مجبولٌ بالأبد. ونحن

نتهيّب لرؤيته في مرحلة الخروج لأننا في الواقع نشارك في محفل حداد. نشارك في جنازة. ولذلك فإن قدوم العابر ليس عودة من رحلة، ولكنه بعثٌ من موت!

ولهذه العلّة تُصِرّ الأساطير أن تقدّم لنا أمثولةً تقول أنّنا كلّنا سجناء ما ارتضينا المقام في المقام مصيراً، ولا خلاص لنا من هذا القمقم إلاّ بعونٍ يأتي من خارج. فليس للسّجين أن يعوّل على سجينٍ في نيل الحرية. والعابر الذي يتسكّع خارج الحصون طليقاً وحده يستطيع أن يأتي لسجناء القضبان بالخلاص. وهي أمثولةٌ لا نرثها في أسطورة «قدموس» وحدها، ولكننا نلمسها في عقيدة أهل الصحراء الكبرى الذين يروق لهم أن يردّدوا الوصيّة التي تروّج لحرصهم على وضع أرجلهم فقط داخل أسوار الواحات مع مراعاة الإبقاء على رؤوسهم خارجاً دوماً. وبهذه الحكمة صاروا عبر الأزمان هم الفرسان الذين تولّوا إنقاذ الواحات من أطماع الغزاة، بل وكانوا عبر التاريخ حماتها، كما كانوا حماة قوافلها التجارية العابرة للصحراء. كما لا نرث أمثولة سيرة أوديب الذي أنقذ طيبة ترجمةً من حرف الأسطورة بقدر ما نجدها مجسّدة في سيرة أهل إسبارطة الذين راقَ لهم أن يردّدوا أن حصون المدن لا ينبغي أن تُبنى من صلد الحجارة، ولكن من سيوف أبنائها!

وإذا كان الإنسان لا يغترب بلا سبب بالطبيعة، فلا بُدّ أن يكون سبباً جليلاً ذلك السّبب الذي ينتزعه من نعيم المكان، من نعيم

المقام بجوار النبع، ليهيم على وجهه في أرض الله الواسعة. وهو ما لا يحدث دون الإستجابة لنداء. نداء أقوى حتّى من المقام في الجنّات التي تجري من تحتها الإنهار. أي أنّ الهجرة فرارٌ لملاقاة رسالة. وهي لهذا السبب تضحية. أي أن المهاجر ماهو إلاّ قربان يدبُّ على قدمين. قربانٌ على قيد الحياة. ولذلك يَرد في وصيّة القدِّيس بولس الأمر الصارم: «إستضيفوا الغرباء، لأن أناساً كثيرين إستضافوا في الغرباء ملائكةً وهم لا يعلمون». من هنا جاء تقليد إضافة الأغراب في كل الثقافات تقريباً. وبلغ الجود ببعض قبائل الأسكيمو (على ما يروي الرحّالة) إضافة الأضياف بالتّخلّي لهم عن حميماتهم. وناموس إكبار الغريب كمهاجرٍ مجبولٍ بقصاص الخافية هو مامكّن بطل قدموس من الإطاحة بعرش طاغية المسوخ، وأهّل أوديب لكتم أنفاس تنّين طيبة، وأعان أوريست على نصر الأسبارطيين في حربهم ضد الأعداء وهو عظم رميم.

بلى! عَدُوسُ السُّرَى نبيٌّ حتى وهو عظمٌ رميمٌ يرقد في جوف قبرٍ مجهولٍ!

5
اللِّسان

لم أكن لأ تخيّل في تلك الأعوام وجود صلةٍ بين شخصي وبين «عين الفرس» فكيف بوجود صلةٍ بين شخصي وبين الواحة برُمّتها؟ وكان على السيول أن تجري في قيعان الوديان اليابسة الأعوام تلو الأعوام قبل أن أكتشف أنّ النبع الذي يُغذّى الواحة متمثُلا في «عين الفرس» إنّما يستعير ينابيعه البكر من مرتفعات «آوال» التي كانت لي مسقط رأس. وبقايا النهر القديم مازالت تجري عابرةً في طريقها واحة أخرى هي «آدري» الشمالية، لتُبدع في المثلّث الحدودي بين المماليك الأسطورية الثلاث (إفري، تانّس، نوميديا) مناجم الملح في «مجزّان». وهو كنزٌ طبيعي كان إلى وقتٍ قريب مصدر ثراء «قدموس» (غدامس) وواحاتها الجبلية المجاورة حيث تحمله القوافل التجارية العابرة للصحراء إلى أوطان الجنوب المتاخمة للأدغال مثل «تيمبكتو» ليُباع هناك بوزنه تبراً إبريزاً.

أمّا «آوال» هذا فوادٍ هائل الإتّساع، ينحدر من أعالي جبال

«تينغرت» ليكوّن حضيضاً عميقاً إستخدمته القبائل عبر الأزمان مقاماً تستجير بظلال أشجاره ومياه آباره من قسوة الصّيف. وهو إذا كان مقرّاً لأهل الخلاء في النهارات فإنه ينقلب وطناً لأهل الخفاء في الليالي حتى أن إسم «آوال» (الدّال على «الكلم» في لسان القوم) لم يُطلق عليه إلاّ بسبب رطانات أشباح الجنّ في الأمسيات. وهم لم ينتزعوا لأنفسهم إمتياز اللّغو وحسب بالمقارنة مع أشباح باقي أركان الصحراء، ولكن أضافوا إلى الولع بالصخب خصلةً أسوأ هي العدوان. فما أن يحلّ المساء وتشتدّ الظلمة حتى تتراكض عصابات هذه الأمّة الشقية لتستفزّ أضيافهم من قبل قبائل الخلاء بصنوف الإزعاج التي تنتهي في أغلب الأحيان بالرّجم بالحجارة مسبّبة للضّحايا كدماتٍ موجعة طوال الليل، ولكنّها تختفي وتزول ما أن يطلع النهار كأنّ النهار ناموسٌ لجراحهم أيضاً بعد أن كان إمتيازاً لأجرامهم دوماً. ومبدأ الخفاء هذا هو ما يهِبُ أصحاب الأبدان البادية العزاء في جدل العلاقة بين الثّقلين (الإنس والجنّ) كما ينعتهم القُرآن. ولئلاّ يتحوّل الجوار إلى صدامات دامية أوصى العُقلاء دوماً بضرورة التحلّي بالتسامح كشرطٍ للتعايش السلمي بين الفريقين يكون فيه الليل من نصيب أمّة الخفاء، والنهار من نصيب أمّة الخلاء، فصار هذا العهد ميثاقاً توارثته الأجيال برغم حماقات السُّفهاء من الجانبين التي كانت تُقبَر في المهْد إجتناباً لإشعال نيران فتنٍ كفيلةٍ بزعزعة الحياة في القارّة.

ولكن ما شهد به الكل لجيرانهم من قبائل الجنّ هو البراعة في الكلم، أي إستخدام لسانٍ في أجرامٍ بلا لسان، وبلا أجرام، برغم قدرتها على التبدّي في صورة أجرام. وشاعرات القبائل يشهدن كيف لقّنتهنّ كاهنات الجنّ قول الأشعار عندما قمن بزيارتهنّ في المراعي، أو عزلة الليالي، متنكّراتٍ في أجرام الجدّات، أو العمّات، أو الخالات. وقد تعلّمت قبائل الصحراء منذ الأزل أن تشكّك في مواهب شاعرٍ لم يتلقّ شعره من فم جنّ، وآمنت بكل شاعرة أو شاعر لم يخلُ شعره من وحي الجنّ. وحكماء القبائل لم يكتفوا بخلع هذه الهبة على الشعر وحده، ولكنهم سحبوا الحكم على القول كلّه. قول الحجّة بالطبع المجبولة بروح المنطق. وهي مزيّة مفقودة في عالمٍ خالٍ يحيا إنسانهُ معزولاً، وحيداً لا يُحادث أحداً إلاّ نفسه. ومُحادثة النفس قد تورث الحكمة، ولكنّها لا تقوّم اللسان ولا تُحفّزهُ على القول. وإنفكاك عقدة هذا اللسان رهينٌ في يقين القوم على الصفقة مع الجنّ الذين لا يملكون لسانا. يؤكّد كهنة القبائل هذا دون أن يحفلوا بالمفارقة الكامنة في هذا العقد. وعلّ هذه القناعة الموروثة هي ما غذّى يقين الوالدين بحقيقة مُصابي يوم وَسَمَني الخفاء بالعلامة ليقيّد بصفقة المسّ رجلي مقابل أن يطلق سراح لساني المتبطّل عن اللغو مثل لسان شقيقي الأكبر. وهو زهدٌ في الكلم ورثناهُ عن الأب الصّموت الذي لم يُحسن يوماً استخدام اللسان إلى درجةٍ أجبرته يوماً أن يتّخذ لنفسه قريناً للعب دور الوزير هارون لقضاء حوائجه

الدنيويّة. ولكنّي صرتُ منذ وسم العلامة في العائلة إستثناءً. لم أكن لألهج بالأشعار بالطبع في ذلك السنّ المبكّر، ولكن ثرثراتي السخيّة التي كنتُ أُخاطب بها نفسي (إذا عدمتُ من أخاطب) وأنا أدبُّ في الخلاء وحيداً، أو أسعى وراء الأب في الخلوات أيقضتْ فضول العائلة فجاهروا بيقينهم الذي يقول أن الجنّ أطعموني لساناً سخيّاً في رحلة إغترابي تلك مقابل المسّ الذي إستعاروا بموجبه رجلي!

ولكن ألن يعني هذا الدرس أنّنا لا نتعلّم لغة الشعر ما لم نغترب في لغة الصمت، ما لم نتوغّل بعيداً بعيداً في الجذور لنتحمّم في ينابيع الصمت حيث تتكلّم الرؤيا بديلاً عن الرؤية، وتترجم الإشارة ما أعجز العبارة؟

6
الوَصِيَّة

أمّا الحلول ضيفاً على ربوع الواحة فأمرٌ كان رهين وجود شقيق الأمّ في الواحة لا بوصفه شقيقاً لأمّ، أي مجرّد إنتصار لصلة قربى، ولكن إستجابة لمشيئة العُرف التي نصّبت الخال بمثابة أبٍ أوّل لكل إبنٍ تجود به بطن الأمّ في مقابل هشاشة حُجّة الإنتماء إلى سلالات الآباء. لأن الأمّ حقيقة واقعة، أمّا الأب فهو الوهم مجسّداً. الأب وهم لأنه بُعْدٌ مغترب بالطبيعة. مغترب بالطبيعة في صفقة القِران إذا قورن بالأمّ كخليفةٍ شرعيةٍ وحيدةٍ للطبيعة الأمّ في العلاقة الملتبسة؛ لأنّ الرجل في الصفقة روح في مقابل المرأة كطبيعة لها حضور في ساحة الدنيا. ولهذا السبب يبدو الأب مشبوهاً لأنه مجرّد ضيف، لأنه لا ينزل البيت إلاّ ليهجر البيت. ورسالة هذا الضيف، رسالة عابر السبيل هذا هي أن يستزرع. أن ينشر في طريق هجرته الأبدية البذرة ويرتمي في فراره في أحضان الآفاق، في حين يأتي شقيق الأمّ ليحصد الثمار. يأتي القرين الحقيقي المتربّص الذي لم يتنازل عن أخته لحضن الغريب إلاّ

ليستعيدها في الذرّية. في السُّلالة. في الإبن. هذا الإبن الذي قضى الناموس أن يستخلفه لا في حمل الإسم، ولكن في حمل صولجان السلطان أيضاً مضحّياً بحقّ أبنائه الذين لم يفقدوا هذا الحقّ إلاّ بسبب إغترابهم عن بطن الأخت ومجيئهم من جوف إمرأة أغراب. إنه نظامٌ مهووسٌ بالإستعارة بهدف الإحتيال على التقليد الأصلي الزائل عندما كانت أحضان الأخ قدَر الأخت، والبنوّة الناتجة عن هذا الإلتئام لا تكتسب شرعيّتها بالإنتماء إلى الأب بوصفه أباً، ولكن بهويّته كشقيقِ أمّ؛ تلك الهويّة الملزِمة للخال بالإعتراف بهذه البنوّة مهما حامت الشكوك حول حقيقتها، لأنه أبٌ برسالةِ الدمّ (التي لا برهان يعلو فيها على برهان الجوف الأمومي)، لا برسالة بذرة الصلْب. وهو إلزامٌ لم يكن ليلعب دور الخطر لو لم يكن العصب الذي سمّم بدن المجتمع البشري في كل العصور وهو: السلطة!

فالصراع الخالد ينشأ في اللحظة التي تولد فيها نيّة التوريث، لأنّ على الأب أن يجتثّ عاطفة الأبوّة في الإنحياز إلى إبن الأخت المدعوم بسلطان الناموس. وهو ما يعني أن على أهل السلطان أن يتجرّدوا من إنسانيّتهم ليصيروا في تلك اللحظة آلهة!

هذا الجدل التراجيدي بين الواجب (المتمثل في الناموس من جانب، والعاطفة المتمثّلة في التضحية بحقّ البنوّة من جانب ثانٍ) هو الذي شيّد صروح الروح المأساوية في أساطير الأوائل التي

ورثناها تالياً في الأساطير اليونانية، لأن موضوعاً مكروراً على منوال الملك الذي تُنبّئه العرّافة (أو الحلم) بميلاد إبن الأخت الذي سيُطيح بعرشه فيسعى للتّخلّص منه عبثاً، ليس وليد خيال سوفوكلس أو أسخيلوس، ولكن جذوره تعود إلى عهد هيمنة النظام الأمومي. والدليل (أو بذرة هذه الأساطير اليونانية) نجد له حضوراً طاغياً في أساطير الطوارق قبل أن نلمس له حضوراً حتى في أسفار العهد القديم.

ولهذا فإنّ إلتحاق إبن الأخت بشقيق الأمّ لا يحدث تلبيةً لهوى ولا يخضع لمشيئة المصادفة، ولكنه خضوعٌ لناموس. أي أنه أداءٌ لواجب. لأن الوليد هنا ينفصل عن الأب المغترب، ليلتحق بالأب الحقيقي. إنه هديّة الأخت المغتربة لشقيقها المفقود، لقرينها المفقود، الذي لا يمتلك أن تستعيده من براثن الناموس الأخلاقي المستحدث. إنها الوصيّة التي تترجم تدابير الدفاع عن النفس ضدّ الفناء بإنكارٍ مازال سارياً في عقيدة القوم إلى هذا اليوم وهو: عدم الإعتراف مطلقاً بذرّيةٍ لم تولد من بطن أنثى تدين بالولاية لهويّة القوم!

ولهذا فإن قصاص الأبناء الذين وُلدوا من قِران الآباء بنساء الأغراب هو: الإغتراب!

علّ هذه هي الحلقة المفقودة في سيرة الأمم منذ الأزل: أممٌ عريقة إعتنقت الناموس المستحدث فكان لها سرّ فناء، في مقابل أممٍ أعرق تنكّرت للناموس المستحدث فصار لها سرّ بقاء!

7

البُنيَان

الإنطباع عن الواحة المستنقذ بذاكرة الروح هو: كيانٌ معقّد لمعمارٍ عارضٍ بلبل طبيعة المكان كأنّه النبتة الشرّيرة في حقلٍ سمح. فالصحراء فراغٌ بكر. وهو إلى جانب هذه المزية الجمالية الآسرة يمتلك سجيّة أخرى أنبل برغم قسوتها هي: إمتداد الأبد الذي لايُدرَك إلاّ ليبتعد، ولا يُنال إلاّ ليُفقَد. في ملكوت البراءة هذا تنتصب آي العمران كشذوذٍ معيب، أو فلنقل، كتدخّلٍ منكرٍ في رحاب ربوبية. أي: كتجديف!

بلى! الواحة في الصحراء تجديفٌ في حقّ البكارة. إنتهاكٌ مشينٌ لروح العالم. هذه الروح التي لم تتنكّر لطبيعتها كجسد إلاّ لتتطهّر من دنس المكان فتتعرّى توقاً لعناق حميمتها السماء! ولكن الكفّ المجبولة بالآثام تأبى إلاّ ان تأتي لتشوّش المشهد المقدّس بلمستها اللئيمة: تقيم الأنصاب في المعبد الوحيد الذي تبدو فيه آي العمران دليلاً على عبادة الأوثان، لأن الحرية التي يجسّدها ببدنه هي هيكل العبادة الذي لا يحتاج لصروح الحجارة كشهادة. وهو معبد الربّ الذي ألفه هذا المُريد يتوارى من المكان إستحياءً

ليحتجب عن الأنظار بأجناس الأبنية المُتلاصقة التي تتشكّل كأنّها تستجير ببعضها البعض، ثمّ تتلوّى الشوارع مؤدّية إلى أفواهٍ مسدودةٍ بأخشابٍ ملفّقةٍ من جذوع النّخل تؤدّي بدورها إلى بطونٍ مسكونةٍ كأنّها قبورٌ تحوي العظام وهي رميم. أوَ ليس البيت هو قبر هذه الدّنيا كما القبر هو بيت الأبديّة؟

الجدران في الواحة ناصعة البياض، متوّجة الأعالي بسلاسل متّصلة من تميمة الربّة «تانّيت» الذي غزا الأركان ومازالت رموزه سارية في أبنية لا الشمال الإفريقي وحده، ولكن في إسبانيا والكناري والبرتغال وأوطان أمريكا الجنوبية التي تلقّتهُ هديّة من الإسبان كما تُبرهن رموز الهنود الحمر الدينيّة.

من حق كل شيء أن يخبو وينقشع بفعل الزمان في تجربة الواحة بإستثناء شيئين إثنين: الإحساس الميّت بالوجود في القبو، وإفتقاد هواء الصحراء!

وهو ما يعني بالترجمة إلى لغة الصحراء: الوقوع في الأسر، أو وجوب إستمراء الحياة في حبوسٍ إذا تأمّلنا الإحساس الأوّل. أمّا إفتقاد هواء الصحراء فهو لن يعني سوى الإختناق بأهوية العفن الناجمة عن حصر البشر في نطاقٍ ضيّقٍ يُعادل سَمّ الخياط حقّاً إذا قيس بفضاء الصّحراء اللانهائيّ. من ذاق مرارة هذا الوضع يستطيع أن يعرف قيمة نفحةٍ نقيّةٍ من هواءٍ لا نُقيم لها في المعتاد وزناً، ومن وقع أسير الجدران المطوّقة بالأسوار أيضاً يستطيع أن يُدرك كم هو هبة ربوبية لا تُقدّر بثمن أن يتنقّل الإنسان في الخلاء بحرّية!

8
كَفَنٌ هوَ العَابرْ

ما يُدهش في ذلك الحصن المنيع ليس هويّته كمُعتقل إستطاع عبر التاريخ أن يُصادر كل من نزله، بل وينفي الروح من كل من سلّم له زمام أمره، ولكن ما يُمكن أن يُدهش الوليد المجبول بالحرية في هذا البروز المكابر هو لؤم المعمار. هذا الدّهاء الذي يُحوّل الواحة بنياناً واحداً، بيتاً هائلاً واحداً متّصل السطوح في الأعالي، تخترقه الأزقّة في الأسافل بهندسةٍ جديرةٍ بالإكبار حقّاً. وهي أسافل تتعدّد في إنقسام جدرانها إلى بيوتٍ تتستّر أبوابها على ديارٍ تضمن لكلّ عائلة قداسة الخلوة المتمثّلة في إستقلاليةٍ مزعومةٍ أطلق عليها نعت «الحرمات». وهي إستقلالية كشفت تجربة الحياة اليونانيّة زيفها بالطبع، لأن التّجاور خذل القوم في كل مرّة حاولوا فيها تنصيبه برهاناً على حميميّة. لأن الشجار في مجتمعٍ كهذا كان السِّمَة الطاغية لا في أوساط السُّفهاء فقط كالنّساء أو الصغار، ولكنّه أمرٌ شائعٌ في أوساط العُقلاء أيضا؛ كأنّ الإبتذال في العلاقات هو الثمن الذي يجب أن يدفعه كل من شقّ عصا الطاعة

على وصيّة الوطن الصحراوي القائلة بأن الأنسب هو أن يتباعد الناس ببيوتهم كي يتقاربوا بقلوبهم، في مقابل أن يعكسوا الآية فيتقاربوا ببيوتهم ليتباعدوا بقلوبهم!

على السطوح تقوم مملكة النساء. إنّهُ الفردوس المُحرّم لا على معشر الرجال وحدهم، ولكن على الصبية الذين تجاوزوا العاشرة أيضاً. هناك تتسامر ربّات البيوت وبناتهنّ طوال اليوم، أو يقمن بإنجاز أعمال البيوت اليومية كغسل الملابس، أو طحن الحبوب، أو حياكة الأثواب؛ لأن خلوة تلك السطوح تكفل لهنّ الحدّ الأدنى من حريةٍ فقدنها منذ هجرن الصحراء وإنضممْن إلى طابور أهل الواحات. حرّيةٌ تضمن لهُنّ تسقّط الأخبار، وإشباع الشهوة إلى النميمة، والتنصّل من الحشمة الكاذبة بإطلاقِ العنان للّسان. إنّها لذّة التحرُّر من أصفاد التحريم بعيداً عن الأنظار، وبعيداً عن الآذان. ليس آذان الأغراب وحسب، ولكن آذان رجالهنّ أيضاً. لقد قادني الفضول مراراً لأتلصّص عليهنّ فرأيتهنّ سافراتٍ لأوّل مرّة. يتمازحن بإنحلالٍ يرتقي إلى مستوى الإبتذال المنكر. يتراقصن. يُروّضن الألحان. تنطلق حناجرهنّ بأحلى الغناء عندما يتحلّقن حول الرّحى لطحن الحبوب. إنّهنّ هناك في الحرية مخلوقاتٌ أخرى! مخلوقات لم أعرفها وأظنّ أن رجالهنّ يجهلونها أيضا!

أمّا في الأسافل المسقوفة، الشديدة الظلمة دوماً، فتلك مملكةٌ

يهيمن على رحابها الرجال؛ العقلاء منهم والسفهاء. في الأزقة يلعب الصغار. على المصالب الحجرية المرشوشة بالجير الناصع يجتمع العقلاء. في بعض الأزقة توجد دكاكين بائسة أيضاً. أمّا الفراغ المُجاور لذلك الكيان فهو من نصيب السوق الذي تؤمّه القوافل التجارية القادمة من كل أركان الدنيا، فيرجع له الفضل في ذيوع صيت الواحة كمحطّة تتقاطع فيها الطرق منذ ألوف الأعوام.

من هذه السطوح تتوزّع السلالم الخفيّة من فوق لتتسلّل إلى كل بيت كأنّها شبكة دروب سريّة هي حكر على ملّة النساء وإمتيازهنّ الوحيد. من هذا الدرب المجبول في ذاكرة الطفولة بالغموض تسلّلتْ مرّة نسوة إلى بيت شقيق الأمّ تأدية لذلك الطقس التقليدي السائد المتمثّل في زيارة إنسانٍ لفظه المجهول فعاد إلى الأهل بعد غياب. إنه طقسٌ شبيهٌ بطقس المشاركة في مأتم، برغم أن العودة يمكن أن تُحسب عملاً نقيضاً للمأتم. فإذا كان الإغتراب عن ربوع القبائل عملاً مثيراً قريناً للموت في يقين القوم، فإن العودة إلى النجوع هو بمثابة بعث. ويبدو أن هويّة العودة من سفرٍ بعيد كعديل للوفاة هو علّة الممارسة الطقسية المستوجبة في عُرف بشرٍ يُجلّون الموت إجلالاً مُريباً يرتقي به إلى مستوى المعبود بدل أن يراه عدوّاً كما هو الحال لدى بقيّة الأمم. من هذه العقليّة الإستسراريّة إنبثقت عادة الإحتفاء بالأغراب الذين لا يمتّون للقبيلة بصلة قُربى، ممّا يكشف على نحوٍ خفي عن نيّةٍ لإرواء الظمأ إلى

عبادةٍ غريبةٍ هي عبادة الإغتراب التي لا تكون فيها عبادة الموت إلاّ رُكناً واحداً، لأنّ الإحتفاء بنزول غريب لن يكون في حقيقته الباطنية سوى إحتفاءٌ بإغترابهم هُم، وعبادة الموت بهذه المُغالاة ما هو إلاّ التعبير الإستعاري الماكر عن موتهم هُم، عن حضورهم في موتٍ يعترفون به أكثر من وجودهم على قيد حياةٍ تلهج الصحراء في كل لحظة بحقيقتها الفانية؛ لأن ما هو الحضور في دنيا الصحراء إن لم يكن حضوراً يجاور الموت، ويخوض في الموت، بل الحضور الذي يتماهى بالحضور في الموت؟ وما العبارة العدميّة التي تجري على ألسنة الكلّ: «ميدّيياغز؟» (الدّالة في الترجمة على إدانة الزمان ونفي جدوى القيام بأيّ عملٍ يُرتجى منه نفعٌ دنيوي) سوى البرهان الموجع الدّال على هذه العقلية التي لا ترى الوجود على قيد الحياة سوى حضوراً فعليّاً للموت. وهي عقليّة تحوّل سيرة الرحلة كلها إلى جنسٍ من طقسٍ دينيّ صارم ويوميّ مثيلٌ للصّلاة. بدل أن يحيلها عملاً عبثيّاً من باب الإستهانة كما يمكن أن يحدث فيما لو تأمّلناها من وجهة نظر أهل العمران.
ولا أنسى مشهداً عشتُه في أحد أيّام الطفولة المُبكّرة عندما خرجتْ النجوع في تظاهرة جماعيّة شاملة لم أر لها في حياة الصحراء مثيلاً لإستقبال أحد أبناء القبيلة العائدين بعد غيابٍ طويل. خرج الرجال إلى الخلاء أشياخاً وشبّاناً، تتبعهم جموع النساء اللاّئي تشبّث الصغار بتلابيبهنّ، في مسيرةٍ مهيبةٍ كأنّها هجرةٌ لملاقاةِ رسول. ملاقاة الرسول الحامل لرسالة الخلاص. مسيرةٌ كأنّها حجّ إلى

حرم الربّ، أو. . أو حجّ لـمُشاهدة وجه الربّ. أي أنه خروجٌ للمثول في حضرة إعجازٍ لن يُكتب له أن يتكرّر. وقفتُ في مدخل خباء بيتنا الخاوي وحيداً أتفرّج على القيامة. وقفتُ أشاهد القيامة بروح العزلة لأن حدسي حدّثني دوماً بخطورة الثقة في الجموع ولم يخذلني الحدس كما برهنت تجارب الأيام. المشهد زعزعني عميقاً لأنه لم يكن خروجاً، لم يكن إستقبالاً. لم يكن إحتفاءً. زعزعني لأنه كان عملاً حزيناً إلى حدّ توهّمتُ أنّ القوم فرّوا ولن يعودوا إلى المضارب أبداً. لقد أوحتْ لي أفواجهم المغلولة بصمتٍ جليلٍ أنّهم سيمُوتون حتماً وسأبقى في الدنيا مهجوراً. وممّا ضاعف يأسي هو إبتلاع الأفق لفلولهم حتّى أنهم لم يعودوا إلاّ بعد أن هيمن الظلام. كنتُ أتثاءب عندما دخلتْ الأمّ فأرجأتُ أسئلتي حتّى الصباح. خرج الأب مبكّراً فانتهزتُ فرصة خروجه لأستنطق الأمّ وهو ما لم أجرؤ أن أفعله في حضوره. سألتُها عن هويّة القادم الجديد فأجابتني بسُحنة الوجوم التي إعتادت أن تتحصّن بها كلّما إنخرطتْ في رجّ شكوة الحليب. قالت أنه أحد الأقرباء. ولكن الجواب لم يروِ الظمأ فسألتها من أين أقبل، فأجابت بإقتضابٍ قائلة بأنه مكانٌ بعيد. لم يقنعني الجواب فأعدتُ السؤال. تشبّثتْ بالصمت طويلاً قبل أن تُجيب بأنه مكانٌ بعيدٌ جدّاً يقع جهة الشرق. ولكنّي إستبسلتُ لمعرفة المكان فأعدتُ السؤال. رمقتني بكآبةٍ مطبوعةٍ بإيماءِ إستنكار قبل أن تقول أن المكان هو: إجدابيا!

لم أكن لأدرك بالطبع أين تقع إجدابيا هذه، ولكن الإسم إنطبع في باطني مثل شفرة سرّية. مثل طلسمٍ خفيٍّ مجبولٍ بالقداسة. إجدابيا! يالهُ من إسمٍ مُريب عسيرٌ على النطق بقدر عُسرِه على الفهم. ولكن الفوز بالإسم وحده لم يُشبع فضولي برغم شعريّته، أو فلنقل رومانسيّته إستكمالاً لفصول تلك الأسطورة التي تستهوي كلّ عقلٍ صحراوي لأنّها جزءٌ من تكوين روحِ هذا الكائن التي لا تعترف بوجودِ الزمن الدنيوي إلاّ مجبولاً بنفحة الزمن الأسطوري. والظمأ لإماطة اللثام عن هوية العائد المجهول من أوطان المجهول إنّما تمثّل العتبة الأخيرة في سلّم الأسطورة.

إنتظرتُ فرصةً أخرى لإستجواب الأمّ حول هويّة الرجل (الذي لم يعُد في يقيني الطفولي رجلا، ولكنه إستعار مسوح الطّيف)، ولكنّها إنتهرتني مذكّرة بأنها سبق وأفادت بأنه أحد الأقرباء، فانتظرتُ. إنتظرت لأني أدركتُ إرتكابي لخطأ لا يُغتفر. فقد طرحتُ سؤالي في اللحظة الخطأ. في لحظة الوجوم التي تسبق إطلالة معبود الأسلاف: الشمس! أي في اللحظة التي تنهمك فيها الوالدة بتمتماتها المُبهمة وهي تقرأ أوراداً منسيّة (أو فلنقل وثنية) بلكنة الأعاجم، ولم أكتشف إلاّ بعد سنواتٍ طويلةٍ أنها خليطٌ من تمائم موروثة باللغة الأصلية وآيات قرآنية محرّفة تحريفاً مريعاً على عادة العجم. وهي خطيئة شارك في صنعها فقهاء أميّون يرافقون الرحّل بدعوى تلقين هؤلاء أصول دين الفرقان والآيات اللازمة

لإقامة الصلوات لأكتشف بعد أعوامٍ أيضاً أنهم أحوج خلق الله لتعلّم أصول الدّين، بل وللآيات اللاّزمة لإقامة الصلاة!

سبب آخر لإنتهار الأمّ: الفجر في عُرف القوم حَرَم صمت وإعلاء الصوت بالكلم في حرمه هو إثم، والدليل أن الأوراد (أو تلك التمائم السرّية الموروثة) تُقرأ في حرمه أيضاً سرّاً. ولسنا بحاجةٍ لإستنتاج أنها عادة مستعارة من تلك الأزمان التي كانت فيها أجيال الصحراء تتّخذ من «رغ» (الشمس) معبوداً تتأهّب كل مطلع فجر لإستقبال قبسه بمراسم إكبارٍ دينيٍّ على عادة أهل مصر القديمة كما تُحدّثنا متون «البوّابات».

إنتظرت حتى إرتفع قرص المعبود عن الأرض بضعة أشبار لأستفهم من الأمّ عن سبب غياب الرجل عن القبيلة طوال هذه الأزمان فأجابتني لا لتروي فضولي ولكن لتكفّر عن قسوتها في إنتهارة الصباح الباكر. أجابت بما أذهلني، لأن روح الأسطورة كانت طوال الأيام التي تلت وصول البطل تتنامى بوسواس الخيال في عقلي البكر لتُفلح سريعاً في تشييد التمثال. وعندما أجابت الأم فقالت أن العائد الأسطوري كان يقوم في تلك الربوع الأسطورية المسمّاة إجدابيا بـ.. برعي الأغنام (!) لم أصدّق. لم أصدّق في ذلك اليوم برغم أن فقيه الواحة بعد سنوات بدّد شكوكي عندما قال لي أن كلّ الرسل رعاة أغنام!

هذا في حين أضافت التجربة فقالت أن الناس لايخرجون

لإستقبال الأغراب أفواجاً من باب الإكبار لرسالة رعي الأغنام لحقيقتها الرديفة لرعي الرعايا فقط، ولكن إكباراً للإغتراب، لا للأغراب كأغراب!

وهو ما يقطع بأن هاجس الإغتراب إنقلب بتلاحق الأجيال محنةً وجوديّةً تغلغلت عميقاً في وجدان سلالة الرحيل حتى باتت لها طبيعة ثانية. إنه تراكم في الباطن اللاواعي على طريقة الدمية الروسية المسمّاة «ماتروشكا» حيث يزدرد الجوف جوفاً لتتوارى العلّة شفرةً تسكن قيعان الروح. وهي سيرورةٌ معقّدة تكشف لنا سرّ الوصيّة المجبولة بروحِ التسليم التي تناقلها حكماء القبيلة الشقية التي يقول حرفها: «إيموهاغ أميهغن»، وهو تنويعٌ على أوتار معزوفةٍ ثريّةٍ تستعسر على الترجمة كعادة كل أحاجي القوم الموروثة. فإذا إحتكمنا إلى الترجمة الحرفية نجد أنها تعني: «الأمازيغ ملّة مغرّبة»، أو بمعنى آخر: «الأمازيغ ملّة منهوبة»، أو «الأمازيغ ملّة مخذولة»، أو «الأمازيغ ملّة مخدوعة».. إلخ. والإلتباس هنا تطرحه كلمة «أمازيغ» ذاتها التي لا يقتصر مدلولها على هوية القوم، ولكنها دلالة على حزمة من الخصال التي تصلح مترادفات كالنّبل، والفروسيّة، والشجاعة، والمواطَنة إلى جانب معنى الإغتراب بالطبع. وعلّ كلّ من عرف هذه الأمّة عن قرب سيُدرك كم يبدو كلّ فردٍ في هذه القبيلة البشريّة مبَلبَلاً على نحوٍ دراميّ بهذا الجنس من الضياع كأنّه ترجمةٌ أمينةٌ لتاريخ السّلالة

الدموي، وتعبيرٌ عن تيهٍ فادحٍ كلّفهم إضاعة كتابهم المقدّس «آنهي» الذي إغتربت متونه في متون الأمم فاغتربت روح الأمّة بإغترابه؛ لأنّ كل أمّة هي أمّة بلا روح إذا لم تمتلك كتاباً مقدّساً!

ألنْ يبدو إغتراباً نافذ المفعول وغير قابل للنقض ذلك الإغتراب الذي يُصادر فيه إسم أعرق الأمم (بعد أن صودر اللسان) ليصير «طوارق» أو «توارك» بقُدرة قادر بدل الإسم الأصلي المستلهم من واقعهم الثقافي والفعلي لا لشيء! إلاّ لأن الدُّخلاء عندما أقبلوا وجدوهم يقطنون تلك الأراضي الغنيّة بالمياه المسمّاة في لغة القوم «تارقا»، أو «طارقا» الدّالّة على وطن «فزّان» اليوم؛ وهي صفة تُعبّر عن واقع المكان كأخاديد تسري في عروقها فيوض الينابيع.

هاهي الهوية تغترب أيضاً، إذاً، بعد إغتراب الإسم لتكتمل بذلك فصول الحظر التي لابدّ أن تستقيم بتتالي الأجيال في بُنْيَةٍ ممهورةٍ بروح اللغز.

9
الحياة بالإنابة

عندما أعتصر الذاكرة لإستعادة فحوى تلك المرحلة المبكّرة لا تهرع لنجدتي سوى بعض السّيماء الغائمة كأنها الأحلام العصيّة التي تستوجب أعند أجناس الإستجواب لإسترجاعها من قبضة النسيان. وعلّ محفل الأمّ في إجتماعها مع الجارات إبّان زيارتها للواحة كان إحدى السيماء التي إغتنمتْها الذاكرة لتتباهى بتحريرها من سلطة النسيان طوال هذا الزمان. وهو مالم يحدث لولا علّة تبدو تافهة لأوّل وهلة ترجمتها رغبة الأمّ في الإستماع إلى أغنية من جهاز «الغرامافون» الذي كنتُ أشرف على تشغيله في بيت الخال دون أن أدري اليوم لماذا خصّوني بهذا الشرف. فجهاز كهذا كان تحفةً نادرةً جدّاً في عالم الواحات في زمنٍ يرجع إلى بداية خمسينيّات القرن، أي في بداية إستقلال بلدٍ معدمٍ عُدّ أفقر بلدان الأرض قاطبة لا يتجاوز دخل الفرد فيه الدولار الواحد في شهر كامل، كما لم يُفلح حتّى ذلك الوقت المبكّر في تحقيق ميزانية سنوية حتى لو كانت حبراً على ورق. وقد أخفقت جهود

حكومة ذلك الزمن العصيب في الإقتراض من الحكومات الأجنبية المنهمّة بلملمة جراحها البليغة الناتجة عن الحرب الكونيّة فتزامنت الجهود لسوءِ الحظّ مع المحنة. ويُقال أن الملك إدريس إستجار بمصر عبد الناصر لتدبير مليون جنيه مصري على سبيل الدين، ولكن عبد النّاصر خيّب مسعى الرجل عندما إشترط التنازل له عن الجغبوب مقابل المليون جنيه!

وهي سيرة موجعة رواها الشّلحي (مستشار الملك إدريس) للرّائد عبد السلام جلّود عقب إنقلاب 1969 م، ورواها جلّود لشخصي في لقاء جمعنا بجنيف في منتصف تسعينيات القرن الفاني.

ولكن ما ماهيّة هذا الصندوق السحري الذي يستهوي ملّة النساء والمجبول على تلبية رغباتهنّ فلا يبخل عليهنّ بصنوف السماع وضروب الطّرب؟ أليس عملاً من قبيل السحر (أو الكفر) أن ترفع الآلة الملفّقة من قطع الحديد عقيرتها لتُسمع النّاس الأغاني بالإنابة عنهم؟ هل يُعقل أن نقبل غناءً بالإنابة؟

ما أذكره اليوم هو تمرّدي على مشيئة الأمّ في ذلك الزمن البعيد كأنّه الحلم. رفضتُ إسماع محفل الزائرات أغاني الآلة بعنادٍ تبدّى طبيعةً طفولية، ولم أدرك إلاّ أخيراً كم كان ذلك العناد مبرّراً. فقد كشفت لي الأيام معنى «الإنابة» عندما حاولتُ تأويل عدائي المستفحل لكلّ مامتّ بصلة لدنيا التقنية. لأن المنطق يقول أن

مايُغنّي عنّا بالإنابة، ويعمل عنّا بالإنابة، بل ويُفكّر عنّا بالإنابة (كما هو الحال مع التقنية اليوم) إنّما يحيا عنّا بالإنابة في الواقع. ذلك أن الغناء في ناموس القارّة المفقودة لم يكن يوماً طلباً لطرب، ولكنّه عملٌ مجبولٌ بروح الإيمان، أي أنه في الأصل تجربة دينية. إنه ضربٌ من إبتهال، أو فلنقل صلاة، فأيّ ربّ يجيز الصلاة بالإنابة؟ أيّ ديانة تبيح العبادة بالإنابة؟ وما يُقال عن الصلاة ينسحب على فعلٍ جليلٍ آخر هو العمل. العمل في حياة الإنسان تجربة قدسيّة أيضاً بما أنّه واجب. والواجب في الترجمة إلى لغة اللاهوت يعني «دَيْن». والدّيْن يحمل هويّة «الدِّين» حرفاً ومعنى، أي أن العمل صلاة أيضاً. أمّا إذا أجزنا للإختراع أن يُمارس التفكير بالإنابة فإن ذلك لن يعني سوى تسليم زمام أمرنا للآلة لكي تمارس تجربة الوجود بالنيابة عنّا؛ لأن التفكير ليس هو البرهان على الوجود، ولكنّه الوجود مُجسّدا. ولا أحسب أنّنا بحاجة للإحتكام إلى الديانات أو الفلسفات للتّدليل على حقيقة الخطاب كرديفٍ للوجود بعد أن أمست مسلّمة. ويبدو هوَسي باللغة قد تغلغل فيّ مبكّراً جدّاً، أي بتلقينٍ من وطن الوادي المسكون الملقّب «آوال» (الكلم) المبلبل برطانات الجنّ آناء الليل وأطراف النهار! وكان الأهل على ما يُروَى يتندّرون بمخاطباتي لنفسي ومحاوراتي للمخلوقات المجهولة بأعلى صوت دون أن يعبّروا عن دهشتهم ليقينهم أنّي مسكونٌ منذ تجربة التّيه، والدليل هو بصمة العطَبْ التي وسم بها الجنّ قدمي! وقد دعّم يقين القوم هذا منطق

أنكروا دوما أن يجري على لسان طفل كالطُّرفة التي تُروَى عن قيامي بالإستيلاء على بيوض دجاجة جارة لنا في الصحراء، وعندما أقبلت الجارة لتحتجّ واجهتُ المرأة بمنطقٍ يقول أن الدجاجة هي صاحبة البيض، فإذا كانت صاحبة الشأن لم تحتجّ فبأيّ حقّ تحتجّ المرأة!

أعترف الآن أنّي إكتويت بنار ذلك الجحيم الذي عرفت فيما بعد أنه تبكيت الضمير كثمنٍ للحظر الذي وضعتُه على أغاني الآلة يومها دون أن أفهم لماذا؛ ربّما لإحساسي المبهم بهويّة أغاني الطرب التي يبثّها الجهاز ذات النزعة الجوفاء بالمقارنة مع هويّة أغاني الحنين الصحراوية المشحونة بالأشجان والأحزان واللهفة في طلب البُعد المفقود التي إفتقدتها منذ إغتربتُ عن فردوسي في الصحراء وحللتُ ضيفاً على حبسٍ إسمه الواحة.

كان على شخصي أن يغترب في أركان هذا العالم طويلاً جدّا كي يُدرك يقيناً أن الإعتراض على غناءٍ بالإنابة هو إحتجاجٌ وجوديّ، ديني، على لعنة. صرخة ضدّ إغترابٍ صار في رقبَته قَدَراً. صرخة نبويّة سبقت زمانها مفادها أنّنا إذا قبلنا باغتراب الميلاد إجباراً، فبأيٍّ حقٍّ نقبل بحياة الإنابة نعلم جيِّداً أنها الإغتراب خياراً؟!

10
هويَّة اللُّحُون

إقترفتُ معصيةً في حقّ الأمّ وأسأتُ لناموس الضيافة في حقّ المحفل يومها، ولكن عزائي في أنّي لم أفعل ما فعلت إستجابةً لهوى الطفولة، ولكن تلبيةً لنداء الواجب. لقد انتظرتُ من محفل النّسوة أن يُسمعنني لحون الحنين الصحراوية كما كُنّ يفعلن في مثل هذه المجالس. إنتظرتُ أن يتحفنني بأناشيد الصلاة التي إفتقدتها منذ إغترابي عن المعشوقة الأولى، المعشوقة الخالدة، المعشوقة التي لم أدرِ يومها أنها سوف تصير لي قدراً إلى الأبد؛ ولكنّهنّ خذلنني! خذلنني لأنّهن أردن إستبدال صوت الصلاة مقابل صوت الآلة الملفّقة من معدن الدَّنَس. أنكرْن صوت الوجدان، صوت الروح مقابل صوت طربٍ مترجم بالإنابة، كأنّ فعلهنّ ضربٌ من تضحيةٍ بالحقيقة في مقابل جني الزّور. في قلبي وسوس الحدس فانتصرتُ لحقيقة كان عليّ أن أتألَّم كثيراً قبل أن أعي حقيقتها. حقيقة لحون الأسلاف التي لم تكن يوماً طرباً. حقيقة هويّة أغاني القوم التي لم تكن سوى ركنٌ في عبادة التكوين المنسيّة التي ذهب «آنهي» بأصولها فأنقذ هوس القوم بالغناء روحها. هذا الهوس الذي حكم بسنّ الناموس القاضي بتحريم أيّ

تغيير في أنساق اللحون منذ الأجيال الأولى صَوناً للرُّوح الإلهيّة المبثوثة في ترانيمها. إنّه الناموس التليد الذي إرتحل مع شقّ الدياسبورا الذي توجّه شمالاً ليصير عقيدة في إسبارطة؛ كأنّ لسان حال الأوائل يقول أن تحوير اللحن الإبتهالي تحويرٌ لمتنٍ مقدّس، وتحوير المتن المقدّس تزويرٌ لكلمة الربّ التي هي في الترجمة إلى لغة الدنيا حضور الربّ، أو وجود الربّ. وهو ما يعني في الناموس الديني ليس التجديف في حقّ الربوبية وحسب، ولكن إنكار وجود الربوبية. أمّا نزعة إستنزال الألوهة في روح الموسيقى فنستطيع أن نجد لها حضوراً في نصوص الكتب المقدّسة بأسرها بدايةً بـ«ريغ فيدا» السنسكريتيّة ونهايةً بآيات القرآن مروراً بالعهدين القديم والجديد. إنّه هوسٌ وجدانيٌّ ممهور بالروح الشعرية بشّرت به عرّافات معبد دلفى في ديانات اليونان القديمة اللآئي لا يبحْن بالنبوءة إلاّ شعراً مجبولاً باللغز الذي يحتمل أكثر تأويل. ولو تأمّلنا مسرح الإغريق في زمن البدايات لاكتشفنا حضوراً طاغياً لهذه النزعة. فأصوات «الكورس» المحتجبة وراء الخشبة الحاملة لكلمة القدر والممثّل الخفيّ لمشيئة الألوهة لا تُجاهر بحكمها على الأحداث إلاّ غناء! وهو برهانٌ آخر على أهليّة اللحون كترانيم دينيّة تترجم حنين المخلوق في إغترابه عن ملكوت الخالق. وهي تجربة كُتب لي أن أحياها في الصحراء قبل أن أكون شاهداً على حضورها في الواحات أيضاً. عشتها في الصحراء من خلال سقوط الرجال صرعَى الوجْد في حفلات الغناء التي تُنظّمها النساء تحت ضوء القمر في العراء عادةً ليبقى هؤلاء الأشقياء أسرَى المسّ أياماً ما لم تهرع لنجدتهم الصبايا بحفلٍ نهاريٍّ لإرواء حنينهم إلى

الوطن المفقود. ويحرص القوم على إستخدام عبارة «الإرواء من الظمأ» للتعبير عن هذا الطقس الديني الجنوني!

أمّا في الواحات فتقدّم الفرق الصوفيّة إستعراضاً ليليّاً أيضاً يطلق عليه المريدون إسم «الحضرة» حيث يطوفون الشوارع وهم يقرعون الدفوف، ويترنّمون بالأوراد الدينيّة، ويرقصون نشداناً لوجْدٍ يحقّق التماهي مع الله.

وإذا كان إستعادة الحضور في الفردوس الضائع مشروطٌ بإستخدام اللحون، فإن تلقّي الإلهام أيضاً لا يحدث بدون عون الموسيقى. ففي «ميلاد التراجيديا» يروي نيتشة كيف كانت القصيدة تولد عند شيلّلر كلحنٍ ناءٍ بالكاد يُسمع. وهي شهادة ذكّرتني بسيرة إستجداء النبوءة بالنوم على أضرحة الأسلاف في مجتمع الصحراء حيث يصير ميلاد النبوّة رهيناً بسماع لحنٍ غامضٍ شبيهٍ بطنين النّحل يسبق اللّقية! وهو ما يُترجم يقين القدماء بحقيقة الموسيقى كسفيرٍ وحيدٍ مؤهّلٍ للتعاطي مع عالم ما وراء الطبيعة. إنّها تلك المعجزة التي حاول أفلاطون أن يفكّ طلسمها عندما قال أنّها صوت حركة الأكوان في اللاّنهاية واللاّبداية لتمسي من هذا المنطلق سفير عوالم ما وراء الطبيعة أيضاً إلى دنيانا إلى جانب رسالتها كسفيرٍ لنا إلى تلك العوالم!

الموسيقى، إذا هي لسان ذلك المجهول المنزّه عن إستخدام اللّسان!

11
رباطُ سماءٍ بأرض

ولكن يجب أن أعترف أن الخروج على طاعة الأمّ كانَ لي دائماً نقطة ضعف كلّفتني ثمناً باهضاً لم يقتصر على تبكيت الضمير، ولكنّه تحوّل مع الأيّام صراعاً موجعاً بين الإحساس بالواجب نحو مشيئة الأم المقدّسة في جُلّ الثقافات حتّى لو كانت على خطأ، وبين الإحساس بالواجب نحو الحقيقة التي وسوس لي حدسي في تلك المرحلة المبكّرة بوجوب التضحية بكلّ شيء (بما في ذلك رغبات الأم) في سبيل الإنتصار لها. ولمّا كانت الحقيقة يتيمة ومغتربة ولا نصير لها في دنيا الناس يتولّى الدفاع بالنّيابة عنها فإن من يفعل، كما تعلّمت، لابدّ أن يجني إستنكار الكلّ، بل وإضطهادهم ليُنعت مُريدها بالعصيان والعناد والإنضمام إلى صفوف الملّة الشقيّة كما يروق للكبار أن يُطلقوا عليها. وهو وضعٌ ولّد وعياً مبكّراً بغياب العدالة وبوجود خللٍ عظيم لم أدرك له سبباً وقتها برغم يقيني اليوم أنه لعب دوراً عميقاً في محاولاتي المستميتة التالية لفهم رسالة الإنسان في عالمٍ معادٍ بطبيعته للقيم

الأخلاقية. وأذكر الآن أوجاعي التي لا تطاق ما أن أشهد الأوجاع التي كُنتُ لها سبباً للأم فألجأ لتغذيتها بحقيقتها كامرأة لا حول لها ولا قوّة وجدت نفسها يتيمة الأبوين في طفولةٍ مبكّرةٍ لتتولّى تربيتها جدّتها من جهة الأب حتى إذا غابتْ الجدّة تولّى الخال زمام أمرها. وكان بإمكان اليُتم أن يهون لولا الميتة التراجيديّة الرهيبة التي وافت الأب عقب رحلة خرجتْ فيها لوداعه وهي طفلة في السادسة أو السّابعة، فلم يعُدْ منها أبداً. لم يعد لأنه إنهمك في حفر بئرٍ غمرتها الرّمال مع بعض القرناء فانهار البئر ليلفظ أنفاسه إختناقا بالتُّراب بدل الماء، فلم تحتمل أم الفقيد (جدّة الأمّ) هول الصدمة فكان أن فقدت الذاكرة. وتروي الأمّ كيف كان يروق لهذه العجوز الصابرة كلّما واجهتها قريناتها العجائز باللّوم بسبب تضعضع الذاكرة المفاجيء: «كيف لي أن أطمع في بقاء الذاكرة إذا كانت قد دُفنتْ مع صاحب البئر؟».

ويُقال أنّها أطلقتْ إسم «صاحب البئر» على وليدها الفقيد ولم تذكر له إسماً منذ ذلك اليوم.

والأمّ إمرأة مسالمة تُدين بإسلام مشفوعٍ بروحٍ صوفيةٍ عميقةٍ موروثةٍ من معتقدات وطنٍ كان لصيقاً بالأرض، عابداً في محراب الطبيعة، معتزلاً بناموسٍ أملتْه سجيّة القارّة المعزولة. ولهذا وجد الشقّ المجبول بروح التّصوّف في الإسلام تربة أخصب في إستنبات عناصر الدين الجديد بالمقارنة مع شقّه الآخر، الحرفي

والشعائري، الذي وجد مناخاً أنسب في المدن. ويبدو أن إنتماء الأمّ لسلالات قبائل «منغساتن» الآزجريّة قد لعب دوراً في التّرحيب بالشّق الصوفي في هذه الديانة لإعتناق هذه القبائل لديانة الربّة البدْئية «تانّيت» من دون بقيّة القبائل: تلك الديانة الصحراوية التي دان بها كلّ الشمال الإفريقي، بل وهاجرت مع فلول الدّياسبورا المكوّنة في مصر القديمة لحضارات ما قبل الأسرات، وعبرتْ بحر ليبيا إلى شطآنه الشمالية لتصير معبودة أهل اليونان كما يروي هيرودوت. وإسم «تانّيت» يترجم هوية الربّة من خلال مدلولين إثنين أوّلهما: التّأنيث لكونها ربّة الكون وأمّ الطبيعة الأولى، وثانيهما: الأحديّة كمفهومٍ للبرهنة على هويّة التوحيد الذي يبدو أنه نزعة دينيّة لم تولد بميلاد ما نُسمّيه اليوم بديانات التوحيد، ولكنّه يقينٌ عاش في قلوب أهل التكوين أيضاً. ولمّا كان الإبدال شائعاً (بل ومشروعاً) بين التاء والسين في كلّ اللغات تقريباً، فقد عرف التاريخ إعتناق هذه الربّة من قِبَل الدُّخلاء الفينيق في الألفيّة الأولى قبل الميلاد ليُطلق إسم الربّة على حاضرتهم «تانّس» التي تحوّلتْ تالياً إلى «تونس». أمّا في مصر القديمة فقد أُطلق الإسم على عاصمة دلتا النّيل «تانّس». وهو مالم يحدث بدون مبرّر له حضور في اللغة وحسب، ولكن في الطبيعة أيضاً. فالعاصمة قامت في النقطة التي ينشطر فيها مجرَى النيل مكوّنا شكلاً هندسيّاً مثلّثاً بإعتراض البحر للنّهر. والسرّ هنا يكمن في مبدأ التثليث كرمزٍ ديني كان عنوان هذه الربّة منذ البدء إستجابةً

للهوية الأنثويّة المختزلة للطبيعة الأم؛ كأنّ إسم العاصمة منحول من واقع الحال المسطّر بمياه النيل على الأرض. ليس هذا فحسب، ولكن حضور الربّة على الأرض لا يكتمل بدون إستحضار معبد للربة حامل لهوية الربّة المتمثّلة في رمز الربّة: إنّه أعجوبة الزمان «خوفو» الذي لم يكتفِ دهاة الكهنة بتشييده بهندسة التثليث لا في الشكل الهندسي وحده، ولكن في العدد أيضاً!

ولمّا كنّا ندري أن كلمة «دلتا» تعني في اليونانية حرف الدّال الذي يُكتَب على شكل مثلّث أيضاً، فإنّنا لا يجب أن نندهش إذا علمنا أن هذه الكلمة إنّما تعني حرفيّاً في لغة أهل الصحراء الكبرى: «أرض ذات طبيعة أنثويّة». ولكن الصفقة لم تكن لتثمر بسلطان الأنوثة وحده، وهاهي الأقدار تُدَبّر المجيء بالأب الذي ينتمي إلى سلالات «أوراغن» إستجابةً لشروط قِرانٍ لا يبدو أنه مجرّد عقد بين رجل وامرأة، ولكنّه زواجٌ بين سماءٍ وأرضٍ بوصفهما الخليفتين الشرعيّتين لجدل الروح والجسد، كأنّ حضور هذا المخلوق الهشّ في الوجود ما هو إلاّ النموذج الذي يختزل ميلاد الكائنات بأسرها من عناق هذين القطبين. ذلك أن «أوراغن» هو جمع لمفرد هو «أوراغ» الدّال على إسم القبيلة المخوّلة بتولّي مقاليد الحكم في شرع أهل الصحراء الكبرى. وهو إسمٌ مستعارٌ من كلمة «رغ» الدالّة على الشمس لا في لغة القوم وحدهم، ولكن في لغة مصر القديمة أيضاً. وهي ترد في متون علماء المصريّات

بالعين بدل الغين المنقوطة كخطأ شائع؛ لأن لا وجود لحرف العين في اللغات الحاميّة، ولا لحرف الحاء أيضاً. وهذه الكلمة المشتركة بين اللغتين إشتقاق من فعل «رغ» الدّال في الأصل على **الإشتعال**. وهو نعتٌ حسّيٌّ صائب للتّعبير عن الشمس ككوكب له حضور طبيعي. يُضاف إلى هذه الصفة رديفٌ آخر هو **«الإصفرار»** في اللّون. هذه الحفنة من الدّلالات المنطقيّة قادت إلى معانٍ أثرى سُرعان ما استقامت في بُنيتين مفهومتين إعتنقتهُما جلّ لغات العالم هما (أوّلاً): معنى **«الذهب»** كمعدنٍ مشبوه الهويّة بسبب طبيعته التي لا تصدأ أو لا تبيد بالمقارنة مع بقيّة المعادن، ومعنى **«السموّ»** (ثانياً) في كلمة «OR» (أور) التي ناءت بحمولة ثريّة من الدّلالات في مختلف الثقافات مثل **«التكوين»**، و **«الكيان»**، و **«المدينة»**، و**«إرتفاع الشأن»**، و**«السكون»**، و**«الإستواء»** إلخ، دون أن ننسى الطبيعة المزدوجة لهذه الحمولة بحيث تكتسب المفهوم التجريدي إلى جانب البُعْد التجريبي. فحرف الغين في لغتَي مصر القديمة وأهل الصحراء هو إبدال من حرف الواو بحيث تتحوّل «أورغ» بقدرة قادر إلى «أورو» وهي الصيغة التي إستعارتها اللغات الأوروبّية إرثاً من اللاّتينيّة. ومن المثير أن نكتشف في الكلمة مدلولاً أبعد منالاً لو تأمّلناها مليّاً وهو **«القِدمة»**. وهو إكتشاف لم يكُن ليكتسب أهمّيةً إستثنائيةً لو لم يدلّ على **الألوهة** لا في لغة القوم وحسب، ولكن في لغة مصر القديمة، وفي العربية أيضاً. فالقديم صفة للتّعبير عن الربوبيّة و أحد أسمائها الحُسنى. وعبارة

أبوبكر الشّبلي «إنّي أغار على القديم أن يراه المُحدث» برهانٌ آخر على اليقين. أمّا في مصر القديمة فإنّ «رو» هذه أُضيف لها حرف الهاء الذي كان يُعامَل (ومازال كذلك في بعض اللغات كالفرنسية مثلا) معاملة الحرف المتحرّك الذي يؤدّي في الكلمة وظيفة موسيقيّة ليس إلاّ، لأن لا إعتراف في لغات العالم القديم إلاّ بالسّواكن. بإضافة الهاء صارت الكلمة «هرو». وهي الكلمة الجليلة التي يدري كلّ من أوتي علماً بديانات مصر القديمة حقيقتها الدالّة على «ربّ الأرباب» وهو المرموز له في النّقوش بالأعلام التّسعة التي تُرفرف مُتجاورةً مشدودةً لصفّ الأعمدة المقدّسة. هذا هو الشقّ المجازي للكلمة. أمّا شقّها الحرفي فجملة لا تخلو من شعر تقول ترجمتها: «بيت القدمة»، أو «حفيظة الزمن الأبدي» لأن حرف الهاء يعني في اللغتين معنى البيت، أو الحاوية، أو المعبد. ولهذا فإن علماء المصريّات عندما يُترجمون عبارة «برت إم هرو» بعبارة «كتاب الموتى» إنّما يعبّرون عن عجزهم في فكّ طلسمان جملةٍ مستغلقةٍ تقول «الطريق إلى برّ ربّ الأرباب». وهو طريقٌ لا يبدو تجريديّا إلاّ لمن جهل حقيقة الدياسبورا البدْئيّة التي انطلقت من الصحراء شرقاً بعد بليّة التصحّر التي عرفتْها الصحراء في العشرة آلاف سنة الأخيرة لتستقرّ على ضفاف النيل دون أن يموت الحنين الكامن في الجينات للوطن الأمّ. وفي أحد أركان هذا الوطن، بل في البقعة التي اعتبرها مُريد الصحاري وعلاّمة علمائها «مانو» الركن الأجمل في العالم والأكثر

إكتمالا حسب تعبيره؛ في هذا المكان العامر بالبحيرات إلى اليوم تنتصب أنصاب «إمِ هرو» الأسطوريّة متشبّثة بالإسم الخالد الذي خلعته على تلك القبيلة التي تولّت حكم «آزجر» مع الأجيال والتي أنجبتْ الأب الذي قُدّر له أن يكون لي سلفاً، وقُدّر لي أن أكون له في أرض الله خليفةً.

وكان من الطبيعي أن تتحلّى الأمّ بسجيّةٍ دنيويةٍ في مقابل سجيّة الأب الزهديّة الميّالة للعزلة ليقف من الدنيا موقف المُشاهد دوماً؛ وهو سببٌ كافٍ لزعزعة كيان العهد لتنتهي العلاقة بالإنفصال بعد قِرانٍ دام ثلاثة عقود؛ أي ليس قبل أن تتحقّق الطبيعة من إنجاز رسالتها بانقضاء المهلة الموجبة لإستغناء الذرّية عن رعاية الأبوين.

عن هذين الإنسانين النبيلين الملفوفين بالتقوى والغموض حيكت أساطير لا أساس لها من الصحّة تقول أن الفضل في تلقيني الأساطير إنّما يرجع إليهما، دون أن يدري من روّج لهذا الزّعم أنّنا لا نتعلّم في الطفولة من الأتقياء بقدر ما نتعلّم من الأشقياء. والرواية تنهل من الإصطياد في الماء العكر أكثر ممّا تنهل من ذوي المُثُل االزهديّة أو المستجيرين بحصون الأخلاق. وهو ما يدعوني لأن أستسمح هؤلاء فأقول أنّ الصحراء كأمّ أمّهات هي مستودع أسرار، وهي كروحٍ لهذا العالم تضيق لا بالأساطير وحسب، ولكن بما هو أعظم شأنا وهو الحقيقة. وهي لا تبخل على مُريدٍ تماهَى بها بهذه المعجزة (الحقيقية) فكيف تبخل عليه بأسطورة هي لها دليلٌ مجسّد في متناول اليد؟

12
اللّغة والحَقيقة

لم أكن أدري في اليوم الذي وجدتُ نفسي أجلس على المقعد في الدراسة أنّ طوراً جديداً من ملحمة الإغتراب كان في إنتظاري. والأسوأ من حقيقته كإغتراب هو طبيعته المزدوجة: فهو إغترابٌ عن الوجود بوصفه إغتراب عن اللغة الأمّ، و الإرتماء في دنيا مجهولٍ تمثَّل في رطانةٍ أجنبيّةٍ، وإغتراب عن ملكوت الروح بوصفه إيذان بالخروج من فردوس البراءة والسقوط في مستنقع المعرفة!

جلستُ بين أقرانٍ يتعاطون اللّسان المطلسَم بدليل إجاباتهم عن الأسئلة، في حين لم يُنجدنِ فضولي في فكّ عقدة لساني. جلستُ بينهم ذاهلاً محموماً بالخجل لجهلٍ لا ذنب لي فيه أيقظ في وجداني الطفولي عدم الإنتماء إلى هذا العالم، وكان عليّ أن أفعل شيئاً جسيماً (فعلاً بطولياً) لإستعادة هويّتي الضائعة والفوز بثقة العالم، برغم لا مُبالاة العالم التي تجلّت في عدم إكتراث زملائي التلاميذ الذين جاوروني في مقاعد الفصل، وفي عدم إكتراث

المعلّم الذي رأى في عجزي عن الإجابة على الأسئلة بلاهةً وبلادةً وغباءً، فكانت النتيجة أن تجاهلني عقاباً لي. وكان عليّ أن أتجرّع مرارة الجور بصمتٍ في مقعدي الملفوف بالعزلة، لأكتشف مبكّراً أن العزلة الأسوأ ألف مرّة ليست عزلة الصحراء الأبديّة، ولكنّها عُزلة اللغة. عزلة إنسانٍ أعجزه الخطاب في التواصل مع أخيه الإنسان. أدركتُ أن العزلة هي العجز عن إستخدام اللسان. ولهذا السّبب لم يُخطيء القوم عندما أطلقوا إسم «إيبي» على الأبكم، لأنها تعني معنى «العدم» إلى جانب معنى البُكْم. لقد كان كهنة أسلافهم في مصر القديمة يتظاهرون أمام معبد أوزوريس ليهتفوا: «اللسان سعادة! اللسان ألوهة!» إكباراً لجلالة العضلة المشبوهة التي خلقت من الإنسان إنساناً. أقول «مشبوهة» لأن أولئك الدُّهاة الذين خلعوا عليها هذا الشرف هم أنفسهم من شكّك في أمرها عندما إتّخذوا من التّمساح معبوداً لتجرُّده من اللسان بالذّات. وغياب اللسان في عُرف الديانة كان شهادة بالألوهة. وهو جدل له جذور في لغة التكوين المغرمة باستخدام الإستعارة؛ لأن الألوهة إذا كانت قد تنازلتْ عن اللسان لتصير هذه النعمة غنيمة حكر على الإنسان، فإنها لم تتنازل عن الخطاب وإن إستبدلتهُ إستبدالاً. إستبدلته بلغة الإشارة. وهو فصلٌ مثيرٌ من عبادة المستتر الذي كان سليقة لغة الأوائل. فإذا كان أهل الصحراء يُزاوجون بين الإنسان واللسان في كلمة «آلس» الدالّة على كليهما، فإنها قدّست لغة الإستعارة كما لم تُقدّسها لغة أخرى. وعلّ عبارة: «آوال داغّ

أماوال» (التي تعني «الكلام تحت الّلثام») أكبر دليل على هذه النزعة. إذْ ما معنى وجوب الكلام تحت اللثام إن لم يكن وجوب التعبير رمزاً؟ وهو ما يعني أيضاً في تقاليد القوم أن اللسان هو العار الذي يجب أن نُخفيه في مقابل أن نستجير بالتورية، أو الإيماء، أي رمزاً. وقد إتخذ القوم اللثام لا حمايةً للرأس من عوامل الطبيعة كما يُروّج الجهلاء، ولكن لإخفاء الفمْ، لإخفاء عار الفمْ وهو اللسان. أي للحكم بالمنفى على عضلة لئيمة لا تُضبط (كما يصفها سفر يعقوب) لأنّها برهان إغتراب لهويّتها كخطاب. أي لحقيقتها كخطيئة! والدليل على الطبيعة الجدليّة لهذه الأعجوبة (اللسان) هو إغترابنا بحضورها، و إغترابنا أيضاً بغيابها. وها أنا أجلس في مقعدي ذليلاً، معزولاً، منبوذاً، في رحاب خطاب المجهول إلى أن أنقذني المرض. بلى! لقد صرعتني الحُمّى بعد أشهرٍ بسبب ذلك الإغتراب. تغيّبتُ عن حرم القصاص لأسابيع نتيجة المرض الغامض، وعندما عُدتُ إلى المقعد فوجئتُ بالمعلّم يُحيطني بإهتمامٍ لم أعهده كأنّه شاء أن يُكفّر عن خطيئته في حقّي عندما إكتشفَ أن سوء ظنّه بي لم تكن له البلادة سبباً بقدر ما كان سببه الجهل باللغة.

أذكر اليوم كيف كان يعرض أمام زملائي كرّاساتي الممهورة برسومٍ كنت أتسلّى بها أثناء مرضي متباهياً بها لينفي عنّي تُهمة الغباء!

كانت تلك الرسوم أحلاماً بالفردوس! كانت رسوماً لبساتين لا

وجود لها لا في الصحراء، و لا في الواحات. بساتين ثريّة بأشجارٍ خضراء تثقل أعرافها ثمار مجهولة كأنّ الحلم أبى إلاّ أن يترجم الحنين إلى الفطرة الأولى التي كان عليّ أن أستجير بها فراراً من خطرٍ منتظرٍ تَعِدُ به معرفة تهتمل بها رطانة اللسان المجهول. وها هو الأب يُقبل ليُعيدني إلى رحاب الصحراء قبل أن أَلِج دهليز الخطر بفكّ طلسمان المارد القابع في قُمقم اللغة!

اللّغة حقّاً وجود، ولكنّها أيضاً خطيئة؛ لأنّها إغترابٌ عن الحقيقة!

13
قَدَرُ النَّزَاهَة

العودة إلى الصحراء تزامنت مع حدثين لعبا دوراً طارداً من الصحراء، أوّلهما كان التفجير النووي الفرنسي الذي صحّر صحراءً لم تكن أبداً قبل ذلك اليوم صحراءً.

وثانيهما ذو صلة بفرنسا أيضاً تمثّل في تلبية الأب لنداءٍ رآه واجباً وهو المساهمة في دعم ثورة الجزائر المجاورة بتهريب الذخيرة الحربية الآتية من مصر عبر طرابلس وجبل نفوسة وتمريرها عبر الصحراء إلى ديار نوميديا المغتصبة في خطّة تقضي بتسليمها إلى عمّ الأب إبراهيم بكّدة الذي كان زعيم آزجر آنذاك والمقيم بـ«إليزي» ليقوم الأخير بتسليمها بدوره لزُعماء الثوّار بموجب إتّفاق سرّي مبرم بين الطرفين في القاهرة يعود تاريخه إلى عام 1954 م عندما كان الزعيم في طريقه إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ. وهو إتّفاق لم يُكتب له في النهاية أن يُفلح لا بسبب يقظة جواسيس فرنسا الذين رافقوا هذه الشّحنة الشقيّة منذ إنطلاقها من ميناء الإسكندريّة، ولا بسبب طول الطريق المشبوه الحافل بأرتال وسطاء لا يُمكن الوثوق بهم وحسب، ولكن بموجب عبور الكنز

لصحراءٍ كُبرى مازالت آنئذٍ تخضع لفرنسا بما في ذلك جنوب ليبيا الممتدّ من غدامس في الشّمال الغربي (والمتاخم لمُستعمرة فرنسيّة أخرى هي تونس) حتى منطقة «فزّان» في جنوبٍ يُتاخم وطناً تعتبرهُ فرنسا جُزءًا لا يتجزّأً من الوطن الأمّ.

إستلم الأب الشحنة من مندوبي الثوّار في جبل نفوسة، وقام باستئجار قافلة جِمال تزيد على الخمسين بعيراً قبل أن ينطلق بالحمولة النّفيسة عبر الحمادة الحمراء الملقّبة في لسان القوم بإسم «تينغرت»، ولكن فرنسا التي لم يُعجزها أن تزرع جواسيسها في مصر وطرابلس لم تكن لتعجز عن تجنيد عُملاء في أرضٍ تخضع لسيطرتها، فكان من الطبيعي أن تكتشف سلطاتها خطّ سير القافلة سيّما إذا علمنا أنها لم تكتفِ باستزراع الجواسيس في طريقها و حسب، ولكنّها سخّرت قوافل السيّارات الباحثة عن شخص الأب عبر الصحراء، بل و سخّرتْ الطائرات أيضاً. لم تكتفِ بكلّ هذه التّدابير، ولكنها أصدرتْ أوامر صارمة لمركز شرطة فرنسا ببلدة «درج» (آدري) الواقعة على طريق غدامس بمُتابعة سير القافلة وعمل كل مستحيل للحيلولة دون عبورها إلى أراضي آزجر الواقعة داخل نوميديا. وهي مفارقة جديرة بالتأمُّل؛ لأن السلطة السياسيّة المهيمنة على تلك الأنحاء كانت ماتزال مزدوجة (ليبيّة ـ فرنسيّة)، ومركز الشرطة الفرنسي يجاور مركز شرطة ليبيا. ليس هذا فحسب، ولكن أكثر المجنّدين في مثل هذه المراكز الأمنيّة الفرنسيّة هم من أبناء قبيلة الشعانبة الجزائريّة، ولن يكون غريباً

لهذا السبب أن يتعاطفوا ولو خفيةً مع أبناء القبائل الليبيّة، هذا إن لم يتعاطفوا مع الثوّار أنفسهم. وتشاء الأقدار أن يكون أحد هؤلاء هو من لعب دوراً في تحذير الأب عندما بعث أحد أقرباء الأب رسولاً للخلاء ليطلب لقاءه شخصيّاً لأمرٍ هام. ويروي الأب تفاصيل هذا اللقاء فيقول أنّه تردّد في تلبية الدعوة طويلاً، ولكنّه قرّر أن يُجازف في النهاية بالذهاب إلى مركز الشرطة الفرنسي بعد أن تسلّح بمُسدّسه. ذهب لزيارة ممثّل السلطات الفرنسيّة بقدميه. ذهب ليلاً حسب الإتّفاق. ذهب وحيداً حسب الإتّفاق المسبق أيضاً. قال أنه إنتظر في سكون الهزيع الأخير من تلك الليلة أن يتلقى عياراً ناريّاً في أيّة لحظة وهو يقترب من بنيان المركز، ولكنّ شبحاً خلف البنيان وقف في إنتظاره. من هذا الرجل علم أن حياته في خطر، لأن العملاء وَشَوْا به، وسيّارات السلطة تمشّط الصحراء طولاً وعرضاً بحثاً عنه. سليل قبائل «الشّعانبة» أدهشه أيضاً عندما قال له وهو يُشير إلى باب بنيان المركز الخلفي: «هل ترى هذا الباب؟ إنه الباب الذي أتاني منه آخر الجواسيس الذي وَشَى بك!». ثم أدهشه الرجل أكثر عندما ذكر له إسم صاحب الوشاية ليكتشف الأب أنه لم يكُن سوى أحد ذوي القُربى!

حدث هذا في وقتٍ كانت فيه القوّة العسكريّة الفرنسية المرابطة في غدامس تذرع الصحراء لتقتحم نجوع القبائل حاملةً صورة شخصيّة لإنسانٍ ملثّم (لم يعرف حتى الأب نفسه بأيِّ حيلة إستطاعوا العثور عليها) دأبوا على إشهارها في وجوه الكلّ (صغاراً

و كباراً، رجالاً ونساءً، سادةً ورُعاةً) ليُسائِلوا هؤلاء عمّا إذا كانوا يعرفون الرجل، ومتى وقع بصرهم على شخصه آخر مرّة! وقد إهتدت الحملة أخيراً إلى رجلٍ قيل لهم أنه صديق الرجل المطلوب، يسكن بالقرب من واحة درج (آدري) هو وحده من يستطيع أن يدلّهم عليه. ولم يكن عسيراً بالطبع أن يعثروا على هذا الرجل الشقيّ الذي ينتمي إلى أشتات القبائل الأفريقيّة التي كان أفرادها مماليكاً يوماً لقبائل الصحراء، ولكنّها تحرّرتْ من العبودية مع الزمن فظلّتْ تدور في فلك قبائل السادة، منتحلةً لنفسها هويّتها. ويبدو أن وقوع خبثاء القبائل على المسكين «سلوفن» (هذا هو إسمه) لم يكن مصادفةً، ولكنه عملٌ مدبّر، لأنه أصلح مخلوق للعب دور الضحية لا بسبب نقطة ضعفه لعلّة الإنتماء الطبقي وحسب، ولكن لعلّة العطب البدني أيضاً وهو الذي يعاني عجزاً في إحدى ساقيه نتج عن شللٍ قديم. وتشاء الأقدار أن يكون هذا الإنسان هو الذي لقّن القوم درساً في البطولة ليُبرهن للجيل أن خصالاً حميدةً كالشجاعة أو النّبالة أو النزاهة أو التضحية ليستْ حكراً على جنسٍ دون جنس، أو طبقةٍ دن طبقة، أو لونٍ دون لون؛ ولكنّها هِبَة تخلعها المشيئة الألوهية على من تشاء. وها هو «سلوفن» يعترف لأجناد السلطات الفرنسية المطلقة الصلاحيّات بصداقته للطّريد، ولكنه يُنكر علمه بمكان الرجل. فماذا كانت ردّة فعل جنود مستعمر مُطلَق الصلاحيّات، في أرضٍ عاريةٍ خلوّ من الشهود، لا وجود فيها لقانون؟ لقد أخذ العسكر الرجل في

سيارات الجيش ليطوفوا به الصحاري، وأخضعوه هناك لأسوأ صنوف التعذيب الجسدي والمعنوي، دون أن يُفلحوا في إجباره على إفشاء مكان وجود الأب برغم يقينهم بأنه يعرف، وبرغم يقينه هو أيضاً بأنّهم يعرفون أنه يعرف. جرّبوا طويلاً، ثم إستدركوا فاستبدلوا سلاح العنف بسلاح الإغراء. وَعَدوه بالثراء، ونصبوا في وجهه العُملات النقدية، ولكنّه لم يتنازل. في النهاية قرّروا له الإعدام! أوقفوه في الخلاء وصوّبوا نحوه بنادقهم مهدّدين أنهم سيطلقون عليه النار حال الإنتهاء من العدّ إلى الثلاثة. ولكن الرجل واجه فوّهات البنادق ببسمة ساخرة قائلاً أنه لن يستسلم حتى لو أمهلوه بالعدّ إلى الألف، لأن ليس له أن يُجيب عمّا لا يعلم. كان يرى التصميم في عيونهم، وكان على يقين أنهم سيُطلقون النار لسببٍ بسيطٍ وهو عدم وجود قوّة في هذه الصحراء الأبديّة تستطيع أن تمنعهم أو تكون شاهداً على ما فعلوا. ولكنه، برغم هذا اليقين الرّهيب، لم يُبالِ. وها هم يَفون بوعدهم فيطلقون! إنطلقتْ النيران من أفواه البنادق بالفعل، ولكنه لم يرتجف، ولم يرفّ له جفن، ولم يسقط أرضاً، ولم ينزف أيضاً. أطلقوا ما أن إنتهوا من العدّ، فغرّدت رصاصة بجوار الأذن، وزفزفتْ أخرى فوق اللثام، ونفثتْ رصاصات أخرى الغبار عند القدم المُصابة بالشّلل. بعدها تراطن العساكر بوصايا خفيّة قبل أن ينطلقوا به في طريق العودة إلى المضارب. لم يُصدّق «سلوفن» أن ذلك العرض لم يكُن سوى تمثيلاً دمويّاً متقن الصنع إلاّ عندما

أخلوا سبيله بجوار خبائه، ثمّ كشّروا في وجهه بضحكات عصبيّة مردّدين أن عليه أن ينسى ما حدث لأن الأمر لم يكُن سوى مزحة. وكي يُبرهنوا على صدق نواياهم ملأوا حجره بأندر المؤن الغذائية والمعلّبات، كما لم ينسوا أن يحشوا جيبه بحفنة الأوراق النقدية، ثم انطلقوا ليحثوا في وجهه سحب الغبار بعجلات عرباتهم الحربية. فماذا فعل الشقيّ سلوفن وهو الذي لم يُصدّق أنّه مازال على قيد الحياة؟ لقد حرّر حجره من العطيّة كأنه يغسل بدنه من عفن، ثمّ إنطلق صوب مركز الشرطة الوطنية ليحرّر بلاغاً رسميّاً بما حدث.

ولكن السلطات العسكرية الفرنسية المرابطة بالأراضي الليبية لم تيأس من القبض على الأب. وهاهي تدفع بأرتال سياراتها الصحراوية إلى كل الفلوات مستعينةً بالأعوان والجواسيس ليبلغ هذا البحث المُميت الذروة في اليوم الذي واجهت فيه إحدى فرق التفتيش الفرنسية رجلاً ملثّماً ينهمك في سحب الماء من بئرٍ يقع في الصحراء الجنوبية الغربية ليشهر رجال تلك الفرقة صورة الأب في وجه الرجل ليُتوّجوا فعلهم هذا بالسؤال عمّا إذا حدث ورأى هذا الرجل.

تامّل الرجل الصورة ببرود، ثمّ تطلّع إلى العسكر بلا مُبالاة قبل أن يهزّ رأسه نفياً. تزوّدت الفرقة بحاجتها من الماء ثم قفز الجند في سياراتهم وانطلقوا دون أن يخطر ببالهم بأن الرجل الذي

إلتقوه على البئر ودفعوا الصورة في وجهه هو نفسه صاحب الصورة!

وإذا كان الفرنسيون أخفقوا في القبض على الأب في تلك الحملة الجنونية، بَيد أنّهم أفلحوا في تغذية شكوك الثوّار بإمكان وصول شحنة الذخيرة الحربية إلى داخل أراضي نوميديا فقرّروا إستعادة الكنز من الصحراء وشحنه بحراً عبر تونس. وقد أفلحوا في الشحن حقاً وإن أخفقوا في الوصول به إلى شطآن الأمان: فقد تمكّنتْ ترسانة الجوسسة الفرنسية من تفجير الباخرة الحاملة للشحنة في عرض البحر قبل أن تبلغ أرض الميعاد!

ولكن فشل عملية التهريب لم يعصم الأب من مُطاردة السُّلطات الفرنسية المهيمنة على الصحراء، وبقي إسمه يتصدّر قائمة المطلوبين، ممّا أجبر السلطات الليبية الوليدة على إتّخاذ تدبير لحماية أحد مواطنيها فلم تجد حيلة لتحقيق هذا الهدف غير خلع مسوح المسئولية عليه، لأن اليقين السائد يقول أن المنصب الحكومي حصانة رسمية قبل أن يكون غنيمة دنيوية. وهاهي الحكومة الوطنية تستصدر عام 1956م القرار الوزاري القاضي بتعيين الأب مديراً لناحية أوباري. وغنيّ عن القول أن هبّة نوميديا القرن العشرين ضدّ الإستعمار الفرنسي كانت حدثاً بطوليّاً لن يُقارَن إلاّ بهبّة نوميديا ما قبل التاريخ ضدّ الإستعمار الروماني بزعامة البطل الأسطوري يوجرتن. وروح البطولة هو ما حوّلها عملاً أسطورياً ما لبث أن صار نقطة ضعف لا الليبيّين وحدهم، أو بقيّة

أبناء المنطقة وحدهم، ولكن صار هَمّ كل أبناء العصر الظامئين للحرية. و لا أحد من جيلنا يستطيع أن ينسى كيف كان أهل أفقر دولة في العالم ذلك الزمان (وهي ليبيا) يجودون بأنفس ما في حوزتهم (مثل مقتنيات النساء الفضّية، أو سروج الرواحل، وآخر الأسمال) دعماً لأشقائهم في نوميديا العصر الحديث. وقد حدّثني أحد الأصدقاء من مدن الساحل كيف خلع نعله البالية التي لا يملك سواها وألقى بها في سيارة ملآنة بجلود الأضاحي ما أن قيل له أنها جاءت لجمع التبرُّعات لثوّار الجوار. إنّه ذلك الدرس في الجود المؤهّل لأن يتحوّل وصيّةً تتناقلها الأجيال، لأن الجود ليس أن نجود بما نستطيع أن نستغني عنه، ولكن أن نجود بما لا غنى لنا عنه!

أهل صحراء الشمال لم يبخلوا على مُريدي الحرية في نوميديا بالبعائر والأصواف ومشتقات الألبان برغم محن الجفاف التي توالت على هذه الصحراء بسبب كارثة التفجير النووي الفرنسي بالذات. كما لم يبخل أهل صحراء آضاغ، في ما يُسمَّى تالياً بدولة مالي، بالأبقار وكذلك فعل أهل آير أو ما يُعرف اليوم بالنيجر. فعلوا ذلك وعياً عميقاً بمصير المنطقة المشترك، وببليّة الإستعمار المشتركة. فكيف كوفيء هؤلاء من قِبل أهل البدعة الآثمة المسمّاة سلطة عندما هان الحال واستقام أمر نوميديا في دولةٍ ذات سيادة؟

أوّل ما فعله أوّل رئيس لهذه الدولة عام 1963 م هو القيام

بتسليم زُعماء هذه القبائل المناضلة ضدّ فرنسا الإستعمارية وضدّ أذنابها الذين سلّمتهم زمام أمر مملكة تينبكتو التاريخيّة بعد تقسيمها وتشتيت أهلها إلى مسخ يتشدّق بالأيديولوجية الشيوعية مُجاراةً لتقاليع ذلك الزمان هو: موديبوكيتا الذي حكم على هؤلاء القادة الأشياخ بالإعدام دون محاكمة. وكان بإمكان هذا الحكم الجائر أن يوضَع موضع التنفيذ لولا تدخّل عبد الناصر آنذاك. ولم يكتفِ أوّل رئيس للدّولة الجديدة بهذا العمل اللاّ أخلاقي، ولكنّنا نجده بعد سنوات طويلة يُبرّر هذا الموقف (بل وموقفه من قضايا الطوارق عموماً) بالقول في مقابلة تلفزيونية أنّه فعل ذلك لأنهم عنصريّون (دون أن يسوق بالطبع دليلاً واحداً على هذه التُّهمة الشنيعة)!

أمّا التآمر على هويّة القوم، وعمل كلّ ما من شأنه قطع لسان هذه الأقليّة التي استجارت بأقسى صحراء في الدنيا في سبيل حريّتها فحسب، فهو مسلك توارثه السادة الذين تتابعوا على حُكم هذه البلاد حتى صار تقليداً.

وهاهو أبومدين يقوم بتحريض القذّافي عام 1976م للتخلّص من صاحب هذا البيان عقاباً لشخصي على كتاب «ثورات الصّحراء الكُبرَى» الذي يشكّل في نظره تهديداً لشمال أفريقيا برمّته، برغم حقيقته كوثيقة تاريخيّة في مديح إنتفاضات هذه الصحراء الشقيّة ضدّ كل هيمنة أجنبية (وهي تلك المكيدة اللئيمة التي سترد تفاصيلها في سياقٍ تالٍ إذا أمهلت الأقدار). أمّا الدمية التي تقبع

في كرسي حكم البلاد اليوم فقد فعلتْ كل ما بوسعها في سبيل إجهاض ثورات هذه الأمّة في كلٍّ من مالي والنيجر، برغم أن أهل تينبكتو (أو مالي اليوم) هم من آوى هذا الرجل إبّان حرب التحرير إلى حدٍّ لُقِّب فيه بإسم «المالي» الذي يجري على لسان كل من عرفه قديماً. والواقع أنّهم لم يأووه من خوفٍ ولم يطعموه من جوعٍ فحسب، ولكنّهم نصّبوه مندوباً للثوّار مسئولاً على التبرُّعات في كل المنطقة!

تستطيع مثل هذه الضروب من الإنكار أن تُدهش كل من جهل حقيقة السلطة التي تفوح من مريديها كل الرذائل بحيث تبدو الخيانة لا أسوأ خصالها ما ظلّ الطغيان هو ذروتها. لقد دأب الوالد على السُّخرية من أخلاقيات هؤلاء ما أن يستووا في كرسي حكم وهو الذي قُدّر له أن يكون شاهداً على مُفارقاتهم مرّتين: مرّة عندما رأى كيف تقرّب سلطات العهد الملكي الخونة الذين تعاملوا مع المستعمر الإيطالي وتستبعد من المناصب المحاربين القدماء الذين كان يوماً أحدهم وهو الذي إشترك في صدّ الغزو في معارك جبل نفوسة مثل «وادي الثلث»، و«وادي مرسيط» وغيرها. كما راق له أن يسخر من سلطة بلد الجوار وهي تبعث بالأموال لتلك الفئة التي عملت أجناداً في الجيش الفرنسي، وتتجاهل الفئة التي قاتلتْ ضدّ المستعمر. إنه الحال الذي يذكّر بوصيّة هنري ثورو (التي تبنّاها تولستوي في رواية «البعث») القائلة بأن المكان الوحيد المناسب للإنسان النزيه في هذا العالم هو: السجن!

14
ذيول العَدَم

لم تكتفِ فرنسا بتقطيع أوصال الوطن العاري الهائل والواحد وهو الصحراء الكبرى لتُشتّت الأمة الواحدة إلى أربعة أجزاء، كأنّها حصص في ذبيحة، ليجد القوم أنفسهم وقد صاروا من نصيب أربعة بلدان (ليبيا، نوميديا، مالي، النيجر)، ولكنها أضافتْ إلى هذا الجُرم التاريخي جُرماً آخر هو تفجير الخمسينات النووي كأنّ تقطيع الأوصال لم يكن كافياً لتغريب أهلها عن وطنهم، فقرّرت أن تقطع دابر الوطن أيضاً كما قطعت دابر أهل الوطن، أو بالأصحّ، محو المكان وكائنات المكان من خارطة الوجود، وذلك عقاباً لهم على بطولاتهم في الدفاع عن أنفسهم وعن وطنهم؛ هذه البطولات التي يرجع تاريخها إلى بدايات تدخّلها الإستعماري في القرن التاسع عشر. وهاهي الوثائق تكشف في الأعوام الأخيرة تآمر سَدَنَة الحكم في نوميديا العصر مع فرنسا بتوقيع الإتفاقيات السرّية التي أجازت لهذه الدولة ضمان إستمرار هذه التفجيرات حتى بعد إستقلال عام 1962 بسنوات!

مع بداية التفجيرات الأولى بشّرتْ البيئة بالبليّة مبكّراً. بدأت الكارثة البيئية بعموم الجدب. لم يعمّ الجفاف وحسب، و لكنه عمّر على غير العادة. ففي الماضي لا يُعمّر الجفاف إذا عمّ، كما لا يعمّ إذا عمّر، كأنّ حكمة الطبيعة تأبى إلاّ أن ترحم كائناتها بناموسها القاضي بدعوتهم على الرحيل من المكان إذا أصابه الجدب ليعبروا إلى مكانٍ آخر إستنزلت فيه الغيوث؛ كأنّها تستنصرهم لممارسة الهجرة التي كانت لهم منذ الأزل ديناً، وصارت لهم منذ القدم سرّ بقاء. وحتى إذا غالت القسوة فبخلتْ بالمنّ على عموم الصحراء، فإن بخلها لا يدوم طويلاً. ولكن دُهاة القوم جرّبوا أن حلول الشرور في الزمان وفي المكان لا يحدث إلاّ لخللٍ من صنع الإنسان. وهاهم يقرأون الآيات في إسقاط الأنعام لأجنّتها على نحوٍ مُريب بسبب طبيعته الشمولية، ليَليه عقم نساء القبائل أيضاً. لم يدُم الأمر طويلاً حتى ظهرتْ الأعراض: أعراضٌ لم يعرف لها العُقلاءُ سبباً، ولم تعرف لها الصحراء قبل ذلك التاريخ مثيلاً!

حدث هذا في عالمٍ يتشدّق بحقوق الإنسان، وفي ظلّ منظّماتٍ أهليّةٍ تدّعي حماية الأقليّات العرقية. ومازالتْ توجد بين يديّ الوثيقة التي يرجع تاريخها إلى عام 1960 م الموقعة من قبل زعيم مملكة تينبكتو آنذاك محمّد علي الأنصاري الصادرة بالقاهرة التي يُناشد فيها الأمين العام للأمم المتحدة التّدخُّل لإنقاذ شعبه من

مخطّطات فرنسا بتقسيم بلاده بين ما يُسمّى تالياً بجمهوريّتي مالي والنيجر. هذا يعني أن اللعنة التي حلّتْ بالصحراء الكبرى كانت من صنع العقلية الإستعمارية الكلاسيكية سواء الشقّ البيئي منها أو القمعي. وكان من نتيجة هذا العمل زعزعة حضور السكّان في رحاب هذا الوطن ودفعهم إلى هجراتٍ جماعيةٍ متتاليةٍ إلى الواحات في فرارٍ شاملٍ لم يعرفهُ تاريخ هذه القارّة النبيلة، بل وأنبل من كل القارّات والأجمل والأكثر إكتمالاً من كل البقاع كما يصفُها مُريد الصحاري العلاّمة الفرنسي «مانو». وكان من نصيب ملّتنا من سكّان مرتفعات الشقّ الشمالي من هذه القارة هو النزول إلى أحاضيض واحات الجنوب بمنطقة «تارجا» المعروفة بإسم فزّان، تحديداً واحة آدري القرين في الإسم لواحة آدري الشمالية المترجمة اليوم بإسم «درج». لأن الإسمين كناية عن صفة تعني «الشقّ» مستعارة من طبيعة المكان كأخدودٍ يخترق أرضاً هي يبوسة جبلية في واحة الشمال، ووعوثة رملية في واحة الجنوب. وآدري الجنوب هذه واحة أولى في سلسلة واحات تمتدّ على مسافة تزيد على المائة والعشرين كيلو متراً تكوّن في مجملها ما يُعرف بوادي الشاطي، تلك المنطقة التي كانت إلى وقتٍ قريب أغنى أراضي ليبيا بالمياه، لأنها تقع على ضفاف بقايا بُحيرة تعود إلى عصر ما قبل التاريخ عندما كانت الصحراء الكبرى تضيق بالبحيرات، وتخترق أوديتها الأنهار، لتقف آثارها شاهداً على حقيقتها كفردوسٍ لأقدم الحضارات. تبدو الواحة هاوية مفاجئة تطوّقها

بساتين نخيلٍ تجري من تحتها ينابيع سخيّة لعيونٍ يستزرع الفلاّحون في جداولها بعض الزروع المناسبة لتربة سبخيّة ممزوجة بالملوحة وغنية بمعدن الحديد في حين تتعالَى سيوف الكُثبان الرملية لتحدّ الواحة من الجنوب. أمّا من الشمال فيمتدّ عراء مفروش بحجارة صارمة يفضح لونها الكئيب الذي يميل إلى السواد هويّتها المنتمية إلى وطن الحمادة الحمراء (تينغرت) الذي لا يعود منذ الآن مجرّد وطن، ولكنه ينقلب في وجدان الطريد حُلماً، حنيناً، فردوساً مفقوداً!

تتوسّط الواحة رابية عالية تتسلّقها بيوت الأهالي الطينية من جهة الشرق، وتتناهب سفوحها الغربية مقابر سخيّة تشهد بماضيها التّليد، وتلفظ في مواسم الصيف عقارب مميتة لا ترياق للدغتها كدليلٍ آخر على القدمة!

في أعالي هذا المرتفع الجبلي إكتُشِفتْ أخيراً آثار كثيرة، وفوّهة بئر في الشعفة الأعلي. أما في عهدي الأوّل بها عند وصولنا عام 1958 م فكانت نتوءاً رمادياً مرصّعاً بجماجم الأموات تُروى عن أفواه كهوفه الأساطير التي تتحدّث عن الكنوز المخفية في مجاهلها، وعن مردة الجان الذين يحرسونها، كما هو الحال مع أمكنة الصحراء المجبولة بالغموض. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدتُ رسماً يدوياً لهذه القلعة الأسطوريّة في كتابٍ عن الصحراء الكبرى مترجَماً إلى اللغة الروسيّة من تأليف أحد الرحّالة

يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر، تبدو فيه هذه الكدية جبلاً حقيقيّاً محاطاً بسورٍ هائل، تتسلقه أبنية أنيقة، مصفوفة في مسيرها إلى الأعلى بهندسةٍ رائعة، تتلوّى بانسجامٍ لم أشهد لهُ مثيلاً حتّى في مدن أوروبّا ذلك الزمان.

تلك كانت واحة آدري زمن مجدها، ولكن ما أدركتُه منها في ذلك العام لم يكُن سوى الأنقاض! هذه الأنقاض (في مقابل لانهاية الصحراء) من الطبيعي أن تجرح وجداننا الطفولي الهشّ إلى الحدّ الذي دفع شقيقي الأكبر لأن يتوسّل الأب لمواصلة الرحلة برفقته إلى أوباري لأنه لا ينوي أن يمكث في هذا المكان يوماً واحداً. لبّى الأب رغبة الإبن في ذلك اليوم، ولكنهُ ما لبث أن أعاده إلى الوراء مع نهاية الصيف وبداية العام الدراسي. في هذه الواحة في إحدى السنوات التي تلتْ، كُتب لي أن أشهد (يوم خرجتُ إلى الخلاء مع الشقيق) ذيول العدم التي لا تُنسى كأنّها النبوءة!

15

القَدَرُ رَسولٌ أعْمَى

يجب عمل كل ما بالوسع للحيلولة دون زحزحة الناس من أماكنهم؛ تقول الوصية الثاوية. بالمقابل تتكلم روح أهل العمران على لسان هولدرلين بالوصيّة الأخرى التي تقول:

«عسيرٌ أن يهجر المكان

ذلك الإنسان

الذي أقام بجوار النّبع»!

هذا يعني أن علاقة الإنسان بالمكان ذات بُعْدٍ وجودي، لأنها طبيعة تسكن بعيداً في صُلبه. ونزع المخلوق البشري من حضوره في هذا المكان عملٌ مجبولٌ بالخطر دائماً، لأنه تهديد لوجود هذا الإنسان بما أنه نفي. وهي رسالة ليست موجّهة لصاحب العمران دون حميمه الآخر مُريد الرّحيل، لأن الأخير ليس مُنزّهاً عن الحضور في المكان لمجرّد إحترافه للهجرة من مكانٍ إلى مكان كما نتخيّل. إنّهُ مُريدُ حُرّيةٍ حقاً، ولكن جذورهُ عميقة الغور في

المكان برغم ذلك. والدليل هو طبيعة هذا الإنسان التي ترفض إجتياز تخوم المكان برغم الهوس الجنوني بالتّرحال. والمدهش أنها لا تكتفي برفض عبور حدود المكان (الصحراء) إلى أوطان الأغراب وحسب، ولكنّها سنّتْ لنفسها منذ القدم القانون الذي يُحرّم تجاوز المياه سواء أكانت أنهاراً أم بحاراً. وها هي أمّة الصحراء الكبرى تحوم حول نفسها في بقعةٍ صحراويةٍ محدّدة دون أن تُبيح لنفسها بعبور النهر جنوباً (المعروف قديماً بنهر كوكو)، أو بعبور الأُقيانوس غرباً، أوبعبور بحر ليبيا شمالاً، أو بعبور نهر النيل شرقاً. كأنّ ناموسها يلهج بالوصيّة التي تقول أنّ الماء أنفس هِبة يمكن أن تضعها السماء في طريق إنسان، وعبورها بدل الوقوف عندها ليس تجديفاً في حقّ هذه العطيّة القدسيّة وحسب، ولكنّه الخطيئة التي لا تُغتفر في حقّ صاحب الهِبة. تقول الوصيّة هذا برغم اليقين بخطورة الإستقرار بجوار المياه أيضاً. ذلك أن الأجيال أدركتْ بالتجربة أن الذهاب للإستقرار إلى جوار المياه في الواحات تهلكة لا تقلّ شرّاً عن التهلكة في الصحراء عطشاً، لأنّ إذا كانت التهلكة في الصحراء عطشاً هي هلاك الجسد، فإنّ تهلكة الإستقرار إلى جوار المياه هي تهلكة الروح الأسوأ من تهلكة الجسد!

لقد كانت الواحات فخّاً لإبتلاع الأرواح منذ التكوين في سيرة أهل هذه الصحراء إلى الحدّ الذي سنّ فيه حكماء الأجيال العُرف

الذي لعب دوراً في حقن القوم بنصيبٍ جديد من إغتراب وهو التنازل لمواليهم عن أراضيهم المستزرعة في الواحات وعلى ما شابه من المُمتلكات مُقابل الحصول على حصّة يُتّفق عليها. وهم لا يفعلون هذا إستهانةً بامتهان الزراعة، أو إحتقاراً للفِلاحة كما يُشاع خطأً، ولكنهم يأنفون من حرث الأرض إيماناً بهويّتها كأمّ يرون في تمزيقها واستباحتها إثماً منكراً لا يُغتفر؛ أي أن الموقف من مهنة الفلاحة موقفٌ وجوديّ، أو فلنقل موقفٌ ديني، سيّما وأنّهم جرّبوا أن ضحية الدّنَس هذه المتمثّلة في الأرض لم تبخل عليهم في الصحراء بالعطاء، وأطعمتهم بصنوف الغذاء طواعيةً دون أن يضطرّوا لإنتهاك عرضها بالأسنّة المسبوكة من معدن النحوس المسمّى حديداً. ولهذا رأوا في موت روح تلك الفئة التي إختارتْ الإستقرار في الواحات قصاصاً منزّلاً من روح الأرض الأمّ عقاباً لهؤلاء على نيل قوتهم ملوّثاً بدمها المقدّس!

هذه التجربة التي غذّتْ يقين القوم القائل بأنّ حظّ القافلة الخارجة من الواحات لتستجير بالصحراء دائماً أفضل بما لا يُقاس من حظّ القافلة الذاهبة إلى الواحات فراراً من جفافٍ أو وباء، لأن التضحية بالحرية في سبيل القوت هلاك حتَّى لو تبدّى نجاةً، والتضحية بالنعيم في سبيل الحرية خلاصٌ إذا قيس بوجودٍ نخسر فيه الروح.

لقد قدّم القوم واحاتهم التي مازالت تحمل الأسماء بلغتهم

قرباناً في سبيل إنتصار الروح، وتنازلوا عن ممتلكاتهم ومزارعهم وعيون مياههم (التي ماتزال تحمل هويّة أصحابها من خلال الأسماء أيضاً) لكي ينجوا بأنفسهم برغم النتائج التراجيدية التي أدّت إليها هذه التضحيات علّ أهمّها هي إستيلاء المماليك عبر التاريخ على أملاكهم سواء أكانت واحات، أو عيون مياه، أو أراضٍ زراعية، أو حتّى كنوز مخفيّة أو أماناتٍ سرّية كالمتون المزبورة بأبجديّة القوم على الرّقوق الجلدية التي تروي تاريخ الأمّة الصحراوية و سِيَر أبطالها عبر الأجيال. وأسوأ ما في أمر هذه المأساة ليس إستيلاء أجناس المماليك على الممتلكات ونسبها إلى أنفسهم، ولكن بإستيلاء هؤلاء على المتون التي كانت روح الأمّة منذ التكوين، والفرار بها إلى أوطانٍ أخرى مبثوثة في وصايا منحولة لمحو الهوية الأصلية في أدهى إختلاسٍ عرفه تاريخ السُّلالة البشرية! (وما الأجزاء السبعة الصادرة حتّى الآن من «بيان في لغة اللاهوت» إلاّ مقدّمة لترجمة هذه السيرة الدمويّة التي لم يُكشف عن حُجَجها بعد). وصاحب اليد التي حرّرت ذلك البيان وتنهمك الآن في تسطير هذه السيرة يعجز عن التعبير عن الوجع الذي إنتابه يوم نزل الواحة ليصطدم بواقع الواحة: إنه مزيجٌ من الإحساس بالخوف، والإضطهاد، والتطفّل، والذنب من اقتراف خطيئة مجهولة كأنها القيام بعمل اللصوص! إنّه جنسٌ من تبكيت ضميرٍ مع الفارق بوجود سببٍ لتبكيت الضمير في مُقابل فقدان هذا السبب في حال العلاقة مع مجتمع الواحة. ويبدو أن هذا الهمّ لم

يكنْ علّتي وحدي، ولكنه قدرٌ في عنق كل من ذاق طعم هذا الجنس المميت من العُزلة بدليل مسلك المُغالاة في الحذر الذي يبلغ حدوده القصوى الذي تترجمه الوصيّة البولونية القائلة: «إغفر لي، لأني أحيا!». إنهم يحلّون على الواحات كأنّهم أطياف، يستعينون ببعضهم البعض في إستبناء أكواخٍ من جريد النخيل يشيّدونها بعيداً في الأطراف، ويحيون حياةً ليست زُهدية فحسب، ولكن حياة الأرواح التي تحرص أشدّ الحرص على دفن توحّدها في خلوات الأطراف كتدبيرٍ صارمٍ في الدفاع عن النفس! فالإنضباط مع الأغيار هو خصلة ذلك الإنسان الذي يفعل كلّ ما بالوسع لئلّا تخذله النفس الأمّارة بالسّوء فيقترف إساءةً في حقّ أخيه الإنسان لا لشيء إلاّ لضمان ألاّ يُسيء له الناس. إنّه البحث القاتل عن الحدّ الأدنى من تلك الحرية التي أضاعها إنسانٌ أجبرته الأقدار أن يتنازل عنها في صحرائه المفقودة ليحلّ ضيفاً ثقيلاً على أرضٍ كانت يوماً أرضه أيضاً، ولكنّه فقدها بتتابع الأزمان إنتصاراً لهذه الحرّية أيضاً. الظمأ إلى هذه المعبودة المُكابرة (الحرّية) التي جعلت من هذه الأمّة الأبيّة أمّة لاجئة أينما حلّت!

وهؤلاء لا يدرون بالطبع شيئاً عن الطبيعة البشرية التي لا تستنزل صنوف جورها إلاّ على من انضبط وجاهد النفس وحاول أن يجتنب الإساءة أكثر ممّا ينبغي.

كأنّي أرى الآن صغار الفلاّحين وهم يلاحقوننا بالحجارة لا

لشيء إلاّ لأنّنا نتكلّم رطانةً مبهمة، ولا نستطيع أن نفكّ طلسمات لغتهم، وكأني أرى الآن نسوتنا وهنّ يذهبن إلى الفلاّحين في الحقول ليقمن بحصد جداول البرسيم مقابل الحصول على حفنة علف لأغنامهن. يفعلن ذلك دون أن يُفارقهنّ الإحساس بأنهنّ يتسوّلن برغم الجهد الذي يدفعنه مقابل الحفنة البائسة دون أن يخطر ببال هذه الملّة الشقيّة أنها إنّما تأخذ برسيماً مستزرعاً في أرض أسلاف، مرويّاً بمياه عيون أجداد، مدفوعاً بيد مملوكٍ قلَبَه النسيان بقُدرة قادر مالكاً!

لا يصير أهل الصحراء بالحلول في الواحات هامشاً باهتاً لذلك المتن المزوّر (الواحة) وحسب، ولكنهم يمسون خطراً، يمسون أعداءً، في عقلية العقلاء أيضاً، إن وُجِد في الواحات يوماً عُقلاء. وهاهم مماليك الأمس، وخدم الماضي الفاني، ينسون كيف كان هؤلاء البؤساء الذين قَسَا عليهم القَدر حُماةً لواحاتهم التي صدّوا عنها غزوات الدُّخلاء بالأمس، ليُعاملوهم اليوم بروح الإستعلاء، ناسين وصيّة الحكيم القديم القائلة: «تحت سقوف الذهب والمرمر يعيش العبيد، تحت أكواخ القشّ يحيا الأحرار»!

إذا كان القوم يعيشون اليوم في أكواخ القشّ أحراراً، فلا شكّ أنهم كانوا بالأمس في بيت العراء أكثر حريّةً!

16
المعرفة

ها أنا أجد نفسي جالساً في مقعدٍ دراسيّ جديد، في واحةٍ جديدة، بعد أن بلغتُ سنّ العاشرة، لكي أتلقّى المعرفة. أتلقّى معرفةً بدون لغة كما في المرّة الماضية تماماً!

إذا كان الجهل باللغة هو الكابوس الذي رافقني منذ تجربة الدراسة المُنقطعة في واحة شمال الغرب، فإن الجلوس بين تلامذةٍ أصغر سنّاً صار كابوساً ثانياً لأنّه غذّى إحساساً مُهيناً كأنّه التلبّس بإرتكاب جرم. إنّه من الفصيلة التي تترجم لسان الحال الذي يقول: «أغفر لي لأني أحيا!» فيبدو الإحساس بالإضطهاد إلى جانبه عملاً مُسلّماً، برغم العزاء الذي وجدتُه في وجود أخي (الذي يكبرني بثلاث سنوات) إلى جواري هذه المرّة، وبرغم وجود أبناء لملل أخرى تنتمي لأقوام البدو كالزّنتان أو القوائد وإن كانوا أصغر سنّاً وأعلم باللّسان!

كنتُ أُهدهدُ أحلاماً، وأتطلّع للسبيل الذي سيُمكّنني يوماً من كشف الأسرار. وقد أدركتُ انّي لن أُفلح في تفسير الغموض

وخوض المجهول مالم أفعل شيئاً لفكّ عقدة اللسان، لقد شجّعتني شهادة عُقلاء القبيلة الذين لم يبخلوا بالمديح على قُدُراتي في إستخدام لسان القوم، وترجموا للأمّ مراراً إعجابهم بحضور بديهة وليدها وقوّة منطقه في الإقناع. قرّرتُ أن أمتلك لسان المدرسة كما امتلكتُ لسان القبيلة. لا أستطيع الآن أن أتذكّر تفاصيل التقنية المستخدمة في سبيل تحقيق هذه الأعجوبة في أشهر، ولكن اليقين أن الفضل يرجع لإحتراف العزلة أوّلاً، واتّخاذ الإحساس بالضّياع صديقاً حميماً ثانياً: كنتُ أختلي بكتبي في العراء كُلّما عدت من المدرسة لأعارك الطلاسم هناك. أتقاتل في الخلوة مع مارد اللغة المجهولة مسلّحاً بقوّة أثبتتْ التجربة أنها ماردٌ لا يُقهر: إنّها إحساسٌ بجنسٍ قاسٍ من ضياعٍ ألهمتهُ تجربة التيه القديمة في الصحراء كأنّها لم تكن تيهاً، ولكنّها كانت نبوءةً. كانت وصيّةً. كانت طوق نجاةٍ خالدٍ في صحراء أخرى قُدّر لي أن أعبُرها تالياً هي الدنيا. إنها تميمة مجّانية من تلك الأمّ التي لا تقتصّ إلاّ لتخلّص، ولا تقسو إلاّ لترحم، ولا تُميت إلاّ لتُحيي. إنها رسول الطبيعة الذي تجرّد من مسوح الطبيعة فازداد وفاءه لروح الطبيعة: الصحراء الكبرى! ولكن التميمة لم تكُن لتؤدّي مفعولاً لو لم يتسلّح المريد بوجع التّأويل. هذا التأويل هو الحريق الذي طهّرني مبكّراً لأدرك أن الضياع رسالة تقول في نصّها أنّك أيُّها الشقيّ مقطوع في دنيا لا وجود فيها لسواك، وعليك ألاّ تنتظر عوناً من أبٍ، أو أمٍّ، أوعابر سبيل، أو من أي قوّةٍ أخرى،

عندما تقرّر النجاة من كلّ شرٍّ سواء أكان برداً، أو مرضاً، أو ذئباً، أو أيّ عدوٍّ آخر يأتيك متنكّراً في خلقة خلّ وهو جانّ، أو يهرع إليك بقناع المُعين في حين يُخفي في عُبّه المكيدة؛ لأنّك، أيُّها الشقيّ، لم تكُن لتنجو من هلاكٍ في رحلة ضياعك القديم لو إنتظرت الخلاص من هؤلاء. ألم تعبر الصحراء وحيداً، وتبيت تحت نجوم السماء وحيداً، وتفترش حزّيز الحجارة ليلاً بهيماً، وتنام وأنت تُغمض عيناً وتفتح عيناً لئلاّ تستغفلك الذئاب في غفوة نومك، وتحتمل صقيع جليدٍ لم تعرف له مثيلاً، ثم نهضت في الصباح لتهتدي إلى طريق الخلاص وحيداً؟ ألم تفعل كل ما فعلت وحيداً برغم علامة الخفاء المطبوعة في قدمك اليُمنى كأنها ختم المجهول الذي صار لك دليل قوّة في حين ظنّه الناس نقطة ضعف؟

بلى! بلى! لا شيء يستطيع أن يوقظ المارد الذي لا يُقهر والذي نسمّيه إرادةً مثل الإحساس التراجيدي بالعزلة في عالمٍ مُعادٍ ليس لك ني سبيل عبور جحيمه سوى نفسك، ونفسك وحدها. إنّها كانت تجربةً أولى في ميلادٍ ثانٍ كان عليّ أن أعبر طويلاً كي أدرك أن هذا الميلاد الثاني الذي تتحدّث عنه المتون المقدّسة (لا يدخل ملكوت الربّ من لم يولد مرّتين) ليس ميلاداً ثانياً واحداً، ولكنّه ميلادٌ نستطيع أن نُحوّله ميلاداً ثالثاً، ورابعاً، وخامساً، إذا اعتمدنا الإرادة سلاحاً، وإذا أفلحنا في تغيير ما بأنفسنا في كلّ

مرّة، وهو مايعني أن نموت في كل تجربة لنحقّق ميلاداً جديداً في كلّ مرّة، سيّما بعد أن برهنتْ لي السيرة أنّنا لا نستطيع أن ندّعي إحساساً بالسّعادة حقّاً بدون هذا الجنس من الميلاد، بل لا نملك الحقّ في أن نقول أنّنا عشنا حقاً بدون ميلادٍ كهذا! وها هو الإيمان بالتعويذة يحقّق لي الخلاص بعد أن أفلحت في فكّ عقدة اللسان في شهور، بل والفوز بالحصول على الأولويّة في صحيفة نهاية السنة الدراسية.

ولكن كان عليّ أن أدفع ثمن هذا النجاح، أو فلنقُل هذا التفوّق، دون أن أفهم وقتها بالطبع لماذا على صاحب التّفوّق أن يدفع ثمناً للتفوّق. كان المعلّمون آنذاك ندرة نادرة في ليبيا الحديثة العهد بالإستقلال كلّها، فكيف بواحة منسيّة ضائعة بين رمال الصحراء الكبرى؟

ولا أدري بأيّ حيلة إستطاع هؤلاء الرُّسُل تحصيل تعليمهم الذي أهّلهم للإنخراط في سلك التدريس في ذلك الزمن الحديث العهد بإستقلال البلاد من ذلك الإستعمار الذي اشتهر دون غيره بإهمال السكّان الأصليّين وحرمان أهل الوطن من نعيم التعليم. وكم أدشهني أن أعلم بعد زمن تواضع مستوياتهم التعليميّة التي لم تتجاوز حدود الشهادة الإبتدائية! وأرى من الواجب أن أعترف لهم اليوم لا بالشجاعة أو روح التضحية التي تحلّوا بها وحسب، ولكن بكفاءاتهم أيضاً. فإذا كانت رسالة المعلّم المتواضع أن يطرح،

والجيّد أن يشرح، والموهوب أن يعرض، والعظيم أن يُلْهم (كما يقول وليام أوجار في «قانون ميرفي») فإنّ جُلّهم كان من طينة المعلّم الأخير وهم الذين لم يدّعوا يوماً بأنّهم يقدّمون لنا علماً، ولا حتّى أبجديّة في علم، ولكن لم يكن عسيراً علينا أن نقرأ في مسلكهم التعليميّ برغم صغر سنّنا أن ما يُقدّمونه لنا هو ضربٌ من تسلية أو ترفيه، أمّا العلم فسوف نتعلّمه يوماً في المستقبل، وكلّ ما يجب علينا فعله هو أن نصبر وننتظر ونكبر ونستمرّ. لم يبوحوا لنا بسرّهم بالطبع، ولكنهم ألهمونا وحياً كما يليق بالعباقرة أن يفعلوا! وعلّ عبقريتهم هذه هي التي ألهمتهم باستخدام القصاص ضدّ كل من تجرّأ وتفوّق بدل أن يستنزلوا القصاص بالتلاميذ الكُسالى كما يروق لهم أن ينعتوا البُلَدَاء رحمةً بكبريائهم. وها هم يترصّدون شخصي جلداً بتلك العصا الفظيعة المستقطعة من عُرف نخيلٍ أخضر والتي تتضاعف فظاعتها كُلّما كانت أحدث عهداً بضرع أمّها النخلة! كنت أتلقّى الجَلد عقاباً على صواب إجاباتي سواء تلك الموجّهة لشخصي أو الموجّهة لزُملائي دون أن أفهم السبب. وعندما تكرّر الأمر سقطتُ صريعاً للمرض. صرعني ذلك النوع من المرض الذي عرفته يوماً في الواحة الأولى عندما كنت أجلس في المقعد كالأبكمْ بسبب جهلي باللغة قيد التداول. إستجرتُ بالمرض إستنكاراً لما حسبته أسوأ صنوف الظلم التي يُمكن أن يستنزلها القدر على رأس إنسان. إنّه الظلم المبهم. الظلم القدري. الظلم الميتافيزيقي الذي لا يُفصح بأيّ سبب سوى

القصاص المستوجب لقاء المجيء إلى الدنيا. ولمّا كان عقلي الهشّ أعجز من أن ينبّئني بحقيقة الأمر في المرّتين فإن المرض كان يهرع لنجدتي في كل مرّة، لأنه الترجمة الأخيرة للروح الأبيّة، للروح الألوهية التي ترفض الإدانة بدون إبداء الأسباب فتستجير بالبدن لتُسقط عليه إحتجاجها!

ولكن حكمة الزمان أبَت إلاّ أن تنجدني بالسرّ وإن جاءت حكمته متأخّرة كثيراً. وها هو كارل غوستاف يونغ يروي سيرة مماثلة (حدثت له في الطفولة على نحوٍ يوحي بأنّه لم يحترف علم النفس البشرية إلاّ لتأويلها)، تقول إن استنزال القصاص بأهل التفوق من التلاميذ من قِبل المعلمين ليس إنتقاماً، ولكنه تقويم. إنه أسلوب لإجتثاث روح الإستكبار التي يغذّيها التفوق. ولا أملك اليوم إلاّ أن أستشعر الإمتنان لحكمة هؤلاء المعلمين الأبطال برغم نكستي التي استمرّت شهوراً أقعدتني عن التردّد على المدرسة؛ لأن هذا التدبير يبدو عملاً من قبيل التربية التي لا تدخل في إختصاص القوانين الوضعية وإن أقرّتها القوانين الأخلاقية؛ أي أنه ممارسة عفوية للواجب التعليمي بوصفه رسالة تربوية أيضاً إلى جانب وظيفته العلمية. ولا أعلم اليوم ماذا يمكن أن تصنع بي رذيلة منكرة كالغرور فيما لو لم أعرف بفضل عصا أساتذة ذلك الزمان تلك الفضيلة التي كانت منذ الأزل عنوان العقيدة الزهديّة المتمثّلة في ما راق للغة الصوفية أن تُطلق عليه إسم: التسليم!

إنّه ذلك السرّ الذي هدّد روح الظمأ إلى المعرفة عبر الأجيال بالضلال، لأن لولاه لما تحدّث أحد عن تواضع العلماء، أو بساطة أهل الحكمة، أو فطرة صاحب العرفان، لأن التسليم لم يكُن الضمان الذي عصم و يعصم من الزلل وحسب، ولكنه كان **حُجّة مُريد الحقيقة!** أجل! الوصيّة تقول: **لا جدوى من علمٍ لم تكُن له الحقيقة غاية!**

فماذا ستكشف عنه الوصيّة لو أخضعناها لتأمّلٍ عميق؟

سوف نكتشف أن تلك المرحلة المبكّرة هي النقطة التي يفترق فيها الطريقان اللذان سوف يؤدّيان مستقبلاً إلى عالمين ليسا مختلفين وحسب، ولكنّهما نقيضين: طريق إنسانٍ يستجير بالعلم ليهتدي إلى الحقيقة، وطريق إنسانٍ يتّخذ العلم سبيلاً للوصول إلى الغنيمة. هذه الغنيمة التي لا تكمن خطورتها في دنيويّتها وحسب ولكن في حقيقتها الأبعد كسُلطة.

السلطة التي كانت دوماً في مُقابل الحقيقة خطيئة!

فالطفولة أرضٌ بتول مُهيّأةٌ لإستصلاح حكيم. وهي رسالة لم يكُن ليعوَّل على تأديتها بالمنهج البائس مترجماً في درس مادّة كـ«هِداية الناشئين» قام بتأليفها قومٌ هم أحوج إلى الهِداية برغم إخلاصهم وهم الذين خرجوا بالأمس القريب فقط من قمقم تلك الجهالة التي حشرهم فيها أجهل استعمار أجنبيّ على الإطلاق. في وضعٍ كهذا لا بُدّ أن يستعير المبرّر الأخلاقي حضوره في هِداية

الفطرة بدل «هِداية الناشئين». هِداية تستجير بهِداية الطبيعة التي ماتزال حيّة وثرية في روحِ سلفٍ مترجمٍ في مسلك أخلاف السّلف؛ لأن أبناء البلاد كلّها لم يكونوا ليبقوا على قيد الحياة أخلاقيّاً لو لم تهرع لنجدتهم دروس ما يروق للبعض أن يُسمّيه العُرف. أي تلك الحزمة المتوارثة من القوانين التقليدية المجبولة بروح التجربة الدنيوية التي راق لأهلِ الصحراء أن يُطلقوا عليها إسم «آنهي» كمتنٍ لوصايا أسطوريّة ضائعة. فهل هي ضائعة حقاً؟ الواقع أنّ هذا الكتاب لم يكُن يوماً ضائعاً اللهمّ إلاّ إذا اعتبرنا غيابه من التداول (بين الأيدي كمجلّد ذي دفّتين) ضياعاً. لقد أضاعه القوم بالفعل إذا اقتنعنا بأن إستيعاب الكتاب ضربٌ من تضييعٍ للكتاب. والمقصود بالإستيعاب هنا ليس حفظ الكتاب عن ظهر قلب كما يحدث مع متون الكتب المقدّسة، ولكن تغريبه كنصّ وتلقّيهِ كروح. أي نفيه كحرفٍ يميت، وتحويله روحاً تُحيي عملاً بوصية القديس. وهو ما يعني ترجمته من معبودٍ ميّت وإحياؤه بتحوّله درساً أخلاقياً يتجلّى في التجربة الدنيوية من خلال السلوك اليومي على غرار ما فعله شقّ الدياسبورا الذي إستقرّ على ضفاف النيل كما تكشف لنا متون الأهرام المبثوثة في وصايا «برت إم هرو» المترجمة خطأ بإسم «كتاب الموتى». وهو المتن صاحب الرِّيادة الذي إستوحتْ منه أسفار العهد القديم درس الوصايا العشر حرفياً. وليس من المصادفة أن ترد وصايا هذا الدرس البدئي على لسان حكيم الزمان الحامل للقب «آنهي» أيضاً كبرهان على وحدة

الهويّة بين الثقافتين المصرية والليبية القديمة. وهو إسم يبقى مستغلقاً ما لم نستنطق لغة التكوين في شأن الدلالة. ففعل «آنهي» يعني بلغة القوم «بكّر» أي الفعل الذي اشتقّت منه كلمة: «بِكْر»، و«بكارة» أي كل ما لهُ صلة بالسليقة الأولى. وماهي هذه السليقة الأولى لو لم تكن عذرية الطبيعة في مرحلة التكوين، أو عهد البدء؟ أي أنها جذر الوجود المجبول بروح الطبيعة الأم في زمنٍ مازالت تتنفس فيه بِرئة الألوهة. وإذا كانت الكلمة تحمل ذات المعنى في لغةٍ بدئيةٍ كاليونانية القديمة، فإنّها أبتْ في العربية إلاّ أن تخلع على المعنى دلالة أخرى ضدّية هي «النهاية» إخلاصاً لعبقريتها التي كثيراً ما تُبيح لها استخدام كلمة واحدة للتدليل على معنيين متضادّين. تفعل العربية هذا دون أن تُغيِّب في حال «آنهي» المعنى الديني المستتر الآخر الذي يُمكن ترجمته في العبارة القائلة: «إحتكم إلى الأصول!». أي الحثّ على العودة بالعقل إلى الماضي للإستنارة بالناموس الطبيعي البدئي في الفعل اليومي وهي عبارة تصلح مرادفاً لعبارة أهل الصحراء التي يقول حرفها: «إيّخركنْ يقّليد آنهي» الدالّة في الترجمة على: «لا سبيل لمن ضلّ إلاّ بالعودة إلى آنهي»!

درس جيلنا الذي شهد بعث روح الوطن نهل من هذا الناموس الذي لم نقرأهُ منهجاً في الكُتب، ولكنّنا تشرّبناه من مسلك الآباء الأخلاقي، وهم الذين استوعبوه عُرفاً عملياً مستعاراً من الكتاب

الضائع «آنهي» الذي لم يكُن ليَضيع حقاً لو لم يغترب حرفاً، كشرطٍ لميلادهِ روحاً!

وعندما يحتكم أساتذة ذلك الزمان للعصا كي يقوِّموا ولداً يُشرِف على السير في طريق الخطأ، إنّما يستعيرون أخلاقيّات الفطرة الأولى التي لم تكن إلاّ نفحةً من روح الناموس الضائع حرفاً، المُستوعب ضمناً!

بالنتيجة تبدو السيرة أسيرة مفارقة: فهويّة الديانة التي سُمّيت وثنية كانت روحية، والديانة التي كان يجب أن تكون روحيةً، صارت، بعبادة الحرف، وثنيّة!

17
الشَّرَك

إذا كانت فئة التدريس قد أخذت على عاتقها تلك المهمّة المزدوجة المتمثّلة في التربية بشقّيها التعليمي والأخلاقي، فإن داهيات القبيلة الكاهنات قرّرن تلقين جيلنا درساً آخر تبدّى لي نزوةً أو مُلحةً، وكان عليّ أن أعبُر طويلاً كي أدرك أنه لم يكن في واقع الأمر إلاّ التدبير الذي أملاهُ واجب الحفاظ على السُّلالة من الزوال توارثنهُ على ما يبدو وصيّةً عفويةً جيلاً عن جيل تمثّل في إحتيالٍ لم يخلُ من طرافة وهو خطب ودّنا لبناتهنّ ونحن في المهد بعدُ صبيان خشية الإفلات بإغترابٍ قرأنهُ في عيوننا نوايا مبيّتة لم تكن لتخفَى على حدسهنّ الكهنوتي الذي لا يُخطيء! وها هي المرأة النبيلة التي تمُتُّ للأب بصِلة قرابة تُقبِل على شخصي في كوخي المعزول في أحد الأعياد لتطرح في وجهي ذلك الشَرَك المتمثّل في طفلتين فاتنتين مجبولتين بحُسنٍ موروثٍ من أمّهما الحسناء لتقول أنها قرّرتْ أن تنذر لي إحداهما وما على شخصي سوى أن أختار!

كانت تلك سيّدة فريدة، تتمتّع إلى جانب حُسنها بروحٍ مرحة يندر وجودها في تلك الواحة الشقيّة المطبوعة بسيماء الشحوب

والكآبة وآي العدم، الشديدة الشبه بهاويةٍ مهجورةٍ ترتع في قبورها العقارب السوداء التي لم تلسع مخلوقاً إلاّ ووجد طريقه إلى المقبرة أيضاً في الحال، فتبدو للزّائر أطلالاً موحشةً سوف يستنكر صلتها بتلك الواحة المجيدة التي كانتها يوماً فيما لو حالفه الحظّ وشاهد رسماً لقصورها التي تتسلّق خاصرة رابيةٍ كانت يوماً جبلاً مُكابراً، كما حالفني الحظّ لأشاهد في كتاب الرحّالة المترجم إلى اللغة الروسية.

إن السيّدة تبدو أسطوريّةً على خلفيّة هذه الأنقاض البائدة! أسطوريّةً لا في حُسنها، أومَرَحها، أو خصال خُلقها وحسب، ولكن في حكمتها أيضاً إذا ألَممنا، ولو خطفاً، بنزرٍ من سيرتها الموحية التي أكتشفُ الآن فقط أهليّتها للتحوّل روايةً يقول ملخّصها: أنها اقترنتْ برجلٍ يكبرها كثيراً جدّاً إمتثالاً لرغبة الأبوين فرفضتْ الإلتئام به تحت سقفٍ واحد (أو بالأصحّ تحت لحافٍ واحد) لتجبره بالنّفور على تركها. ولكن الرجل لقّن الأجيال درساً في فعاليّة النَفَس الطويل: تركها في بيت أبوَيها دون أن يكُفّ عن مُلاحقتها عن بُعْد. كان يرتحل وراء قافلة العائلة إذا ارتحلتْ زمن الحياة في الصحراء، ويحطّ رِحاله إذا حطّت رحالها. كان يحوم حولها في كلّ مكان إرتادته ليُظهِر لها حضوره، وليُبرهن لها بحُضوره على حُبِّه، وعناده، بل وهَوَسه! و عندما يئس طاردها بالوصايا. طاردها بوصايا محمولةً بيد الرُّسل، وعندما طال الأمدْ ولم تُجدِ الوصايا المحمولة بأيدي الرسُل،

حاصرها بالأشعار! كان الرجل شاعراً فذّاً في زمانه. وأشعاره الزُّهديّة في ذمّ الثراء مازالت تجري على ألسنة القبائل إلى اليوم. ولكن الأشعار أيضاً لم تُجدِ. عندها غاب الرجُل في رحلةٍ إلى بعض الواحات الجنوبية التي اشتُهرتْ كأوكارٍ لمُمارسة الأسحار. بلى! إستبدل الرجل سلاح الأشعار بسلاح الأسحار ليعود من هُناك ببعضِ التعاويذ المزبورة على قطع اللّبان! ويبدو أن مفعول التمائم أخفق في تحطيم إرادة الحسناء فهاجر مرّة أخرى. هاجر إلى أوطانٍ أبعد هذه المرّة ليعود من تلك الأوطان (التي قيل أنها متاخمة لبلاد الأدغال) بالأثواب التقليديّة المترفة المشبعة بأصباغ النيلة الشديدة الزُّرقة المستخدمة في عُرف القوم خصّيصاً للإحتفال. لم يُقدّم الرجل الثوب لإمرأته النَّفور على سبيل الإهداء، لأنه كان أكثر دهاءً من أن يفعل بسبب خبرته الطويلة بطبع النساء، ولكنه أرسل لها الثوب مطويّاً بعناية، مدسوساً في رقّ جلدٍ لحيوانٍ سحريّ هو الغزال، وطلب في الوصيّة الإحتفاظ لهُ بالثوب أمانةً حتّى يعود من رحلة. ولكن الفضول الذي حوّل إمرأة نبيٍّ يوماً إلى جلمود ملح لم يكُن ليدع الحسناء تنام ليلتها قبل أن تفتضّ بكارة الحصن الجلدي المسحور لتتفحّص الكنز المُغري الذي تحتويه. لم تكتفِ بفضّ الكنز بالطبع، ولكنها ارتدته. و رُوي على لسانها تالياً قولها أنّها أحبّتهُ ما أن إرتدتْ الثوب! أحبّت الرجُل في الحال بعد أعوامِ طويلة من النفور و العناد والفرار!

هذه السيّدة الجليلة التي تحمل روح حُسنها في ضحكتها وبشاشتها ومرحها بقدر ما تحمل من جمالٍ في بدنها إعتادتْ أن تُمازحني وتُجادلني كلّما التقتني أو جاءت لزيارتنا دون أن يخطر ببالي أنها يمكن أن تُخفي النيّة في اتّخاذي ضماناً لإستمرار حضور ذرّيتها في حضرة الزمان الذي كان مسئولية المرأة الصحراويّة دوماً دون الرجل، كما هو الحال في كلّ مجتمعٍ أموميٍّ تقليديّ لم يكن ليُحقّق البقاء على قيد الحياة لولا تشبُّثه بهذا التقليد إلى حدٍّ صار فيه ديناً. فالإبن هو إبن الأمّ حتّى لو حمل إسم الأب. والإنتماء منسوبٌ إلى سُلالة الأمّ لا لسُلالة الأب. لأنّ الأم كيانٌ لهُ حضور في خارطة الوجود، أمّا الأب فهو روحٌ تهيم في الفضاء وربّما ضائعة في مدارات الأفلاك. الأمّ حقيقة يُمكن لمسُها باليد، ولكن الأب حُلم، خيال، وَهم. واستجابةً لهذا اليقين يجود القوم بنسائهم على الأغراب، ولكنّهم يبخلون برجالهم على نساء الغرباء، لإيمانهم بأنّ المرأة وَتَد للذريّة وشهادة لبقاء السُلالة في الأزمان لأن الوتد دليل وجود في الأرض، أمّا الأبناء الذين أنجبهم أبناء الأمّة من بطونٍ أجنبيّة فضياع، لأنّ الآباء في مُقابل حضور الإناث غياب. ويبدو أن كاهنة القبيلة قد قرأت نواياي الخبيثة التي لم أكن لأعيها في ذلك العُمر المبكّر، فقرّرتْ أن تعتقلني بالوتد في ذلك اليوم الذي أقبلتْ عليّ بطفلتيها الحسناوين قائلةً (بلهجتها الماكرة البارعة في خلط الجدّ بالهزل) أنها رأت أن تنذر إحداهما لي وما عليّ إلاّ أن أختار. لا أذكر الآن شيئاً عن

حقيقة إحساسي، ولكنّي أذكر جوابي. الجواب الذي أدهَشَها وراق لها أن تُردّده دائماً لأنه كان نبوءةً. قلتُ لها أنّي لا أنوي أن أختار رفقة بنات القبيلة لأنّي قرّرت أن أقترن بأجنبيّة! ضحكتْ طويلاً يومها، وأغرقتني بدعاباتها، ولكنّها لم تسخر منّي. كانت تلك المرأة الفذّة رئيّةً من الطراز الكلاسيكي حقّاً لأنّه إذا كانت نبوءتي قد تحقّقت حقّاً بعد عشرة أعوام فقط من ذلك التاريخ، فإنّ نبوءتها كانت أقوى لأنّ الأقدار أَبَتْ إلاّ أن تُحقّق رغبتها أيضاً يوم وجدتُ نفسي ألجأ إلى الواحة (بعد أن طُفتُ العالم ويئستُ من نساء هذا العالم) لأقترن بسليلة كاهنة الأجيال تلك؛ لأقترن بحفيدتها التي لم تكُن سوى ابنة تلك الحسناء التي هيّأتها في أبهى هيئة في عيد أحد الأيّام واقتحمتْ دُنيا عُزلتي لتُجيرني بها من السّير في طريق الضلال!

ولكنّ العزاء أنّي لم أخذلها فكفّرتُ عن ضلالي يوم طرقتُ بابها بعد انصرام الأعوام تلبيةً لندائها الحكيم وطلباً للغُفران؛ لأن وصيّة السلف تقول أنّنا لا نجد أنفسنا أخيراً، إن لم نُضيّع أنفسنا طويلاً!

ويبدو أن الحنين إلى شدّ الرحال والإنطلاق في الهجرة النائم في الجينات هو سرّ فِراري من الفخّ الذي شاءت سليلة الكهانة أن تنصبه لي، وهو سرّ عودتي إلى رِحابها أيضاً، لأنّ مُريداً تجري في عروقه دماء الهجرة بالوراثة لا يضع الوجهة نصب عينيه، ولا يعود يأبه لوجود غاية لهجرته، ولكن ينطلق كلّما استثقل حضوره في المكان. غاية الهجرة تصير عندها طلسم إغواء في الهجرة. بل

هاجساً، حاجةً، وَجَعاً ترياقُه في الهجرة. وكان على المُرِيد أن يُهاجر في دُنيا الله كثيراً، ويجتاز أوطاناً كثيرةً، وينزل ضيفاً على أُممٍ كثيرةٍ قبل أن يكتشف أن هذا الدّاء المدسوس بعيداً في الجِينات ماهو في حقيقتِهِ سوى ظمأ إلى المعبودة الأزليّة: الحرّية!

وإذا كانت تجربة المرأة الداهية دليلاً صالحاً للبرهنة على التوق إلى الفرار، فإن تجربة أخرى كتبت لي الأقدار أن أعيشها بعد مرور ثماني أوتسع سنوات من التجربة الأولى لعبت فيها دور البطولة الشاعرة ومُربّية الأجيال الشهيرة الفقيدة خديجة الجهمي التي كانت تتولّى رئاسة تحرير مجلّة «المرأة» وتوطّدتْ صلتي بها عقب حركة عام 1969م الإنقلابيّة لتستكتبني بالمجلّة. كانت هذه السيّدة الفذّة تُحيط جيلنا برعاية لا على المستوى الأدبي فقط، ولكن على المستوى الدنيوي أيضاً على نحوٍ لم نعهدهُ في أمّهاتنا حتّى أنّنا لم نكن ندعوها سوى بإسم «ماما خديجة» لا من باب العرفان لرحمتها، أو الإكبار لشخصها وحسب، ولكن إعترافاً لها بحنانٍ أموميّ إفتقدهُ جلّنا في أمّهاتنا، سيّما بعد أن أضعنا عشّ الأمومة ووجدنا أنفسنا ضحايا ذلك الواقع الذي أحسن الحسن البصري وصفه عندما عبّر عنه بالقول أنّه يقتل من أقبل عليه ويجرح من أدبر عنه؛ وهو ما تعني ترجمته، أنّ ناموس الدنيا لابدّ أن يثخننا بالجراح بالزهد، في حين يستطيع أن يُميتنا موتاً فيما إذا حكّمنا في دنيانا الأهواء، لأن الدنيا كالسلطة التي لا تترك عشّاقها إلاّ أمواتاً!

«ماما خديجة» قرّرت في أحد الأيّام أن تستدرجني بحسناء حقيقيّة أيضاً على قلّة الحسان في زمنٍ شهد قلّة النساء بالمقارنة مع عدد الرجال. لقد تذاكرنا في إحدى زياراتي لها بمكتب المجلّة سيرة حضور المرأة في أدب ليبيا المعاصر، وكان أن زلّ لساني بالثناء على تلك الحسناء التي إلتقيتها في جلسات مؤتمر الأدباء الأوّل المنعقد عام 1968م، فما كان من المربّية الفقيدة إلاّ أن تكلّمتْ بروح العناية الأموميّة مقترحةً أن تتقدّم بطلب يدها. فوجئتُ بالطبع، لأنّي لم أنتظر الإقتراح أوّلاً، كما لم أتوقّع أن تكون صفقة مصيريّة كالزواج عملاً قابلاً للحدوث بمثل هذه السهولة. كان قبول العرض طيشاً منّي بالطبع لا بسبب الفضول، ولكن ليقيني بأن الأحلام لا يُمكن أن تتحقّق بكلمةٍ في جلسة. وأعترف اليوم بأنّي لم أرفض العرض إستجابةً للفضول ربّما، ولكنّي لم أُبدِ حماساً أيضاً بسبب الخوف من ورطة، لأني لم أكن بالطّيش الذي يعميني عن إستشعار خطر الإرتباط بامرأة مُترفة (كما قيل لي) وفوق كل ذلك تمتلك مؤهّلاتٍ لا يحتلّ الجمال وحده شعرة شمشون في حشدها، ولكن هناك المركز الإجتماعي، والصّيت الأدبي، وفوق كل هذا وذاك هناك فارق السنّ الذي تكبرني فيه بعدّة أعوام. الخُلاصة أن هذه العوامل ولّدت في مُريد الإبداع روح التحدّي بوصفها تجربة رومانسيّة بعيدة المنال!

ولا أنسى اليوم الذي إستدعتني فيه «ماما خديجة» هاتفيّاً لزيارتها في مكتب المجلة الواقع في الطابق الذي يعلو مقرّ

الجريدة حيث كنت أتولّى تحرير الصفحة الأدبيّة لتزفّ لي نبأ الموافقة على إتمام الصفقة التي حسبتُها مستحيلة.

زعزعني الخبر، وحيّرني، وطوّقني بالخوف برغم الإغواء، ولكنّه لقّنني درساً نفيساً لأنّي كسبت الرهان وأدركت أن الحلم مهما بدَا مستحيلاً قابل لأن يتحقّق. كان فوزاً للتحدّي، ولكنّه نذيرٌ بالوقوع في الشَرَك أيضاً. إنه الصفقة التي سأخسر فيها الروح، لأنّ ما جدوى وجود روحٍ لا تتنفّس الحريّة؟ وكيف لي أن أُفلت من الوتد دون أن أخذل المربّية العظيمة التي كانت للأجيال أمّاً؟

ولكن من جانبٍ آخر: ماذا أفعل بنداء الواجب الذي كبّلتُ به نفسي يوم أخذتُ على عاتقي (في لحظةِ تأمُّلٍ عميق) أمانة قول حقيقة أمّي الكبرى المغتربة الصحراء وحقيقة أهل الصحراء؟ هل أملك الحقّ في أن أخذل رسالة في سبيل إمرأة لم أعرفها ولم أعشقها لم تكن المشكلة لتكمن في نيلها، ولكن في كيفيّة التخلّص منها كما علّمنا فلوبير؟

أعترف الآن أنّ الحرج الذي سبّبتُه لـ«ماما خديجة» (وربّما هو الجرح) بفراري الثاني عابراً البحور إلى أبعد قارّة صار لي غصّة لم أغفرها لنفسي، لأنّي لم أرَها بعد ذلك التاريخ حتى يوم بلغني نبأ رحيلها عن عالمنا في تسعينيّات القرن الماضي.

18

الخروج

ضاقت بي الأرض وكتم أنفاسي حنينٌ مُميت. عبثاً رفرفتْ الروح تستجدي الرحيل، وعندما أعيتها الحيلة أسقطتْ نقمتها على الجسد فسقطتُ صريع المرض الذي كان يهرع لنجدتي في كلّ مرّة تتعرّض فيها الروح الهشّة لجورٍ أو لقمعٍ أو لأي إساءة، لأدرك مع الأيام أن الجرح المفتوح قدرٌ لحساسيّة هذا اللغز المسمّى روحاً. جرح على أهبّة الإستعداد للنّزيف في أيّ لحظة. ينزف لأتفه إساءة فلا يجد متنفّساً أو ترياقاً إلاّ في فشّ غلّه في كيان البدن الشقيّ. أمّا إذا أُضيفت إلى هشاشة الروح، كحساسية مفرطة، طبيعة أخرى هي حداثة العهد بهول الدنيا، فإن الحنين إلى الخلاص ينقلب حلماً، هاجساً، وسواساً. لم أكن بالوعي الذي يسمح لي بتفسير سرّ الحنين المُميت في ذلك العمر المُبكّر لأكتشف أنه رهين طول المقام في المكان. لم أكن أدري أن الإستقرار في أرضٍ أكثر من أربعين يوماً هو غيابٌ للحريّة يُهدّد عافية الروح في عقيدة أمّة الرحيل. وكي ترتوي الروح من معينها الوحيد الذي لا ينضب

(وهو الحرية) فأوّل ما تفعله إذا أعيتها الوسيلة هو أن تبطش بالجسد لتُحقّق الخلاص، لتحقق الحرية، غير آبهةٍ بالجسد، وبصاحب الجسد، إن كان للجسد صاحب بعد فرار الروح!

كانت الأمّ تعاني في كلّ مرّة أسقط فيها صريع المرض. لم تكن تعاني وحسب، ولكنّها كانت تُصاب بدورها بالمرض مثلها مثل كلّ أمٍّ في الدنيا. كانت الحمّى تبلغ ذروتها إلى حدّ فقدان الوعي. لم تُجدِ عقاقير الأعشاب التي جلبَتها معها من عالم الصحراء فأرسلت في طلب الممرّض الوحيد القائم في الواحة على أمر الصحّة. ولمّا كان هذا الممرّض قد ذاع صيتُه باستخدام دواء وحيد هو حقن المرضَى بالبنسلين، فقد كان من الطبيعي أن تعجزه مداواة علّة فريدة لا وجود لها في معجم الطبّ البشري هي إنتكاسة الروح! وتشاء الأقدار أن تتزامَن الإنتكاسة الجديدة مع غياب الأب في عمله بوادي الآجال حيث اقتصرت رعايته لنا بزياراتٍ كلّما سمح وقته بذلك تاركاً شئوننا المعيشيّة في عُهدة حانوت البلدة في وقتٍ تزامن أيضاً مع إلتحاق شقيقي الأكبر بعاصمة الواحات سبها لينخرط هناك في سلك الشرطة. بعد أن هجر الدراسة بالسنة الثالثة الإبتدائية بسبب إستنكاره لإحتلال المرتبة الثالثة في صحيفة ذلك العام من حيث رأى في نفسه الكفاءة في الفوز بالأولويّة، أو بالمركز الثاني على أقلّ تقدير، فقام بتمزيق الوثيقة إحتجاجاً!

أقبل الأب فرأى أن يُهوّن عليّ بمرافقته إلى واحة أوباري. وكي يُعطي الزيارة بُعْد النقاهة تعمّد أن يعبر بي الصحراء الرمليّة الواقعة بين الواحتين بواسطة بعيرٍ بدل الوصول إلى هناك بواسطة السيّارات التي تسلك طريق الشمال الذي ينحرف ليمرّ عبر سبها نظراً لإستحالة إجتياز بحر الرمال بعجلات السيارات في تلك الأيام.

بعد زيارة الأب أُتيحت لي فرصة في مرّة أخرى لزيارة الشقيق في سبها لأوّل مرّة. في الطريق الترابي الذي ينطلق من الواحة شاهدت عمّالاً بؤساء يعاندون العروق العصيّة ليسوّوا أرض الطريق الوعر بآلاتٍ بدائيّة تحت شمسٍ صحراوية لاتُطاق في قيلولة فصل الشتاء، فكيف بهجير الأصياف؟ ولكن هؤلاء الرجال الأشدّاء كانوا سعدا برغم كل شيء، لأنّ الفوز بعملٍ مّا في ذلك الزمن العصيب الذي تلا الإستقلال كان إمتيازاً إستثنائيّاً، بل حظوة مستنزلة من السماء مهما شقّ أو استعصى. وكانوا يهرعون لتحيّة السيارات العابرة في ذهابها لعاصمة الواحات وفي إيابها منها (على ندرتها) بروح الإحتفاء أملاً في أن تكون من بينها تلك المطيّة المنتظرة التي اعتادت أن تحمل لجموعهم الأجور كل نصف شهر. وبالوسع رؤية خيبة الأمل في سيمائهم في حال عبور الآلة دون أن تتوقّف لتغمر قاماتهم بعاصفةٍ من الغبار بدل أن تجود عليهم بالأجور.

في مدخل المدينة (عاصمة الجنوب سبها) وقع بصري على الإسفلت لأوّل مرة، ولا أنسى الإحساس الغامض الذي يُصاحب دخول ذلك العالم المديني المشطور بذلك الشريط الأسود إلى نصفين الذي تنساب فيه أجناس الآلات إنسياباً بدل أن تتمخّض وتتقافز وتنتفض كما هو الحال مع السيارات الصحراوية في عبورها للطرق البرّية. إنه أعجوبة لا بالقياس إلى الطرق البرية وحدها، ولكن بالمقارنة مع طريق السعف الذي مررنا به عند عبورنا للفاصل الرملي المهيب الواقع بين سبها وواحة براك الشاطي، برغم حقيقة الأخير كتحفةٍ فنّيةٍ تعجيزيّةٍ ظفرتها أيدي عمّال آخرين منذ زمن الإحتلال الإيطالي ليمدّوا بين الواحتين جسراً جسوراً يحطّم مشيئة الطبيعة القاسية ملقياً بين يديها الشهادة على عظمة الإرادة في المخلوق البشري كأنّه يرمي في وجهها بقفّاز تحدٍّ يمتدّ على مسافة ستّين ألف متر كاملة!

أمّا الإحساس المجهول الذي عشتُه لحظة مشاهدتي لعالم تلك المدينة ولم يُكتب لي أن أنساه هو يقيني بأنّي أحيا تجربة سبق لي أن عشتُها يوماً. تجربة منسيّة كأنّها حُلم، ولكنّها برغم ذلك يقين، برغم أني أحياها للمرّة الأولى. إنّه إستحضارٌ مذهل لذاكرة غيبيّة لم تتكرّر سوى مرّة ثانية كانت أخيرة يوم أتيح لي أن أنزل مدينة موسكو بعد التجربة الأولى بسبعة أعوام، قبل أن أجد الطريق إلى المعارف التي تتحدّث عن الميلاد الثاني، أو تناسخ الأرواح، أو

نظريّة أفلاطون عن المعرفة كنتاجٍ علمي نستعيدهُ بالذّاكرة من مخزون الحياة السابقة، ولا نتعلّمها في الحياة العاديّة عندما نظنّ أننا نتعلّمها!

أعترف اليوم أنه إحساسٌ زعزعني، لأني لم أكن لأدري وقتها أنّني، بهذا الوحي، إنّما انفتح في وجهي باب الميتافيزيقا على مصراعيه. ذلك الباب الذي كان له الفضل في إطلاق سراح المُخيّلة لتعانق آفاق الآداب، وتحرير الروح الظمأَى لارتياد رحاب الحقيقة! إنّها لحظةٌ تصيب بالفزع، فتنقشع في ومضة؛ كأنّ فرارها هو قصاصٌ على اللذّة التي تولّدها. كأنّ زوالها ثمن الوَهَجْ الذي نلته مقابلها!

ولكن هل أفلحتْ الزيارتان في إرواء الظمأ الغيبيّ إلى الخروج؟

كانت المحاولتان بمثابة عقار لتسكين الداء، ولكنّ المرض اللئيم كان يستيقظ عقب كلّ عودة بعنفٍ أكبر، ممّا اضطرّ الأمّ لأن تحتكم للناموس القديم رحمةً بي: أرسلت بي إلى عاصمة الواحات وصيةً مدعومةً بعرف الأسلاف لأواصل تعليمي في كنف شقيقها الذي استقرّ به المقام هناك أخيراً؛ كأنّ الناموس رأى في إنقطاع تجربة قدموس إستهتاراً بمشيئته فقرّر أن يذكّر الكلّ بكلمة الكتاب الضائع «آنهي» القائلة بأن سليل الأخت قدرٌ في عنق شقيق الأخت، لا في عنق الأب!

لم أكن أدري حتى ذلك الحين أنّ كل كائنات العالم المحيط كانت تتآلف وتتحالف لنسج الدسيسة المؤهّلة لتحويل هَوَسي بالرحيل علّة لا ترياق لها؛ لأن حدودها القصوى تزيينٌ لخلاصٍ لا وجود له إلاّ في الموت. فما لم يخطر لي على بال هو الطبيعة الغيبيّة التي تسكن حلم الهجرة؛ لأنّها لم تكن حنيناً للتحرّر من عبودية المكان للحلول ضيفاً على مكان، ولكنّها توقٌ للفرار من كل الأمكنة والحلول في الآمكان. إنه الأمل الأخطر على الإطلاق لأن تحقيقه، كما أثبتت التجربة، ليس رهين الطلب في ربوع الأرض، ولكن رهين الحضور في ملكوت الربّ!

لم أكن أعلم أني أقطع أولى الخطوات، بالإنتقال إلى واحة الواحات، لأسير في طريق المجهول المجبول باللعنة. لأن هويّة الغيوب دوماً حجاب يستوجب التعبير!

والتعبير دفاعٌ عن النفس.

التعبير إحتيالٌ على الموت.

ترويض العبارة إحتيالٌ على الموت، برغم هويّته كقبولٍ لمصيرٍ لايختلف عن الموت هو: العزلة!

إنه ضربٌ غامضٌ يستهوي: ضربٌ من لعبٍ بالنّار!

المبدع فراشة تتوق لِلثم لسان اللّهب!

19
الضّلال

الإنتقال من حضيض الواحة إلى رحاب جبل «القارّة» بمدينة سبها، كان إسراءً من ظلمات الهاوية وصعوداً إلى تلك الشّعاف التي تستعيد الحضور المفقود في أوطان الحمادة الحمراء المعلّقة في برزخٍ بين السماء والأرض، كأنّ هذه القمّة الخرافيّة المكابرة التي كانت أرجوحة الطفولة تأبى إلاّ أن تدلّل أبناءها بتشييعهم إلى أبعد مدى في ملكوت سماءٍ مجبولةٍ بعمق الزرقة دوماً، مغسولةً بالشموس الأبديّة، لتعمّدهم بالإلهام. ألن يكون الإغتراب عن مسقط رأسٍ كهذا هو سرّ الإحساس بالكآبة المُميتة ورفض المقام في واحة الأنقاض؟

ولكن ها هو البيت المجاور لنقطة الشرطة، والواقع تحت معسكر يأويه جوف القلعة التاريخيّة، الذي يعتلي القمّة الجبليّة الوحيدة التي تُشرف على السهل الفسيح الممتدّ إلى جهات الدنيا الأربع حتّى تبتلعه الآفاق، يستميت الآن ليُحيي في وجدان المُريد روح السموّ التي فقدها منذ هجّرتْهُ قوىً أقوى عن رحاب فردوسه

المفقود. ويبدو أن هذا التعويض لعب دوراً في ترويض الروح ليجعل من الحياة في المكان الجديد مُحتملة في حدّها الأدنى؛ لأن الحلم بالوطن المفقود مالبث أن انقلب هاجساً غامضاً كأنّه حبلُ سُرّةٍ آخر يفوق حبل سُرّة الجسد طغياناً يحيا فينا ليربطنا بمسقط الرأس بسلسلةٍ أطول من السّبعين ذراعاً ليُوسوِس فينا أينما حللنا. والدليل هو سيرة اللّهفة الغريبة التي كبّلتني طوال الأعوام التالية لأجد نفسي أتسلّق خاصرة أعلى قمّة في موسكو هي جبال فوروبيوف التي استُبدل إسمها القيصري إلى جبال لينين في عهد الإمبراطوريّة السوفييتّية، ثم مرتفعات «جوليبوش» في وارسو، ثم المرتفعات ذاتها بعد عودتي الثانية لديار روسيا، إلى أن استقرّ بي المقام في سفوح أعلى قمم أوروبّا الجبليّة وهي الألب السويسريّ.

إنه ضربٌ من وفاءٍ ميتافيزيقيّ لقمم «تينغرت» (الحمادة) الضائعة. إنها محاولة لقمع حنينٍ لا يُهزم إلى الوطن الضائع علّ الإعتصام برحاب السماء تشبّثٌ بتلابيب عروةٍ وثقَى لأنها وطن الإنسان الذي لا يتجزّأ مهما تجزّأت الأوطان السفليّة التي تطبع قلوب السُّلالات الأرضيّة بأختام الهوية. لأنّ.. لأنّ الإنتماء إلى السماء، واللهفة إلى الضوء، هو الذي يجمع الذرّية البشريّة في هويّة مشتركة!

أليست الهوية السماوية هي رديف الفردوس المفقود في كلّ الثقافات؟

الحنين إلى الوطن الضائع، الحنين إلى مسقط الرأس إذاً هو حنينٌ دينيّ. هو حنينٌ إلى الله. وهو مالم يكن لي أن أكتشفه آنذاك. فأن يتلبّس بُعْدٌ أرضيّ في متناول اليد كالمكان مسوح الألوهة أمرٌ من قبيل التجديف في عقلٍ حديث العهد بتأويل لغز العالم. إنّه سؤالٌ أوّل في أبجديّة الأسئلة الوجوديّة التي يحمل كلٌّ منّا شفراتها التي إذا تجاهلناها صرنا أهلاً لحمل لقب المواطن الصالح، وإذا استنطقناها فزنا بلقب الإبن الضّال!

ولكن المفارقة التي تبدو عدميّة هي حقيقة حبّ الربّ لمعبود الربّ التي كانت عبر الأجيال للضّلال. والسّبب؟ السّبب بسيط بساطة الحقيقة التي تقول أن الإنسان لايضلّ ضلالاً حقيقيّاً عبثاً. إنّه يضلّ بحثاً عن الربّ! لأنّ أيّ ضلال ليس ضلالاً إن لم يكن طلباً للربّ. والوصيّة النبوية التي نقرأها في إنجيل متّى ليست سوى البرهان على ذلك: «إذا كان لإنسانٍ مئة خروف، وضلّ واحدٌ منها. أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضالّ؟ وإن إتّفق أن يجده فالحقّ أقول لكم أنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضلّ» (18: 12، 13).

تضلّ الشاة عن مرتع القطيع طلباً لراعٍ أقرب لها من حبل الوريد، لأى تجربة الأجيال برهنت أن ما نبحث عنه بعيداً هو ما نعثر عليه قريباً في النهاية؛ ولكن الإهتدء إليه مشروطٌ بالطلب. مشروطٌ بالسير في طريق الضلال المخيف الذي تتربّص بنا فيه الذئاب والثعابين وحتى التنانين!

القسم الثاني

أوّل الغيث في حقول العلقم قطرة!

«كأس الحياة كان يُمكن أن يكون حلواً حدّ الغثيان لو لم تسقط فيه بضعة قطرات من دموع!».

(فيثاغورس)

«علقمٌ هي الأفكار كسمٌّ زعافٍ يستبيحنا ليسري في الدّمِ كأنّه، في هشيمٍ، هبّةُ نار!»

(شكسبير)

1

التّوق إلى النّار

مكتبة وزارة الأنباء والإرشاد صارت لي بيتاً ثانياً.

من العجيب أن تحفل واحةٌ مقطوعةٌ في قارّةٍ منسيّةٍ كالصحراء الكبرى بعددٍ من المكتبات الثريّة في ذلك الزمن العصيب الذي تَلا استقلالاً تحقّق عن عهودٍ تاريخيّةٍ سلختْ من عمر هذا الوطن النبيل أجيالاً من التبعيّة. وهو عملٌ لم يكن ليكون أعجوبةً في نظر من لم يشهد ظاهرة القحط الثقافي المُبرمج التي تعرّض لها المكان لا لينقطع الحل بتأسيس مكتباتٍ جديدة (كنتيجة منطقيّة لتضاعف البحبوحة الإقتصاديّة الناجمة عن إكتشاف الثروات النفطيّة) وحسب، ولكن لتختفي من المشهد هذه المكتبات أيضاً بيد تلك الحركة الإنقلابيّة التي برّرت قيامها بحُجّة تحرير الوطن من الثالوث الذي كثيراً ما راق للمُغامرين الضامئين للسُّلطة من اتّخاده مشجباً وهو: **الفقر والمرض والجهل!** وهو قطع دابر كلّ ما يمتّ للثقافة بصلة لم يقتصر على منطقة في البلاد دون منطقة، ولكنّه سُرعان ماعمّ كل الوطن كأنّه خطوة مدبّرة ممّا يُعطي الحقّ لشاهد

العيان في اعتباره قحطاً ثقافيّاً مبرمَجاً تنفيذاً لخطّةٍ مسبقة. ففي سبها تلك الأعوام إنتشر حرم المكتبات على طول طريق الإسفلت الذي يشقّ المدينة من أقصاها في الغرب ويشطرها نصفين حتّى يجتازها ليعبر الحقول المؤدّية إلى القارة في خلوات الشرق لتنتصب القلعة الحجريّة على القمّة كأقدم أثرٍ تاريخيٍّ يعود إلى القرن السادس عشر، أي إلى ذلك العهد الذي إستقدمتْ فيه الأميرة الشقيّة «خود» جيش الأتراك ليكون لها عوناً في ذلك العراك المُميت على السلطة مع زوجها حاكم واحات «فزّان» آنذاك. فهُناك مكتبة منظّمة اليونيسكو في حيّ «الجديد» بالمدينة القديمة، تليها بعد مسافة كيلو مترين أو ثلاثة المكتبة الأمريكيّة، ثمّ مكتبة نادي الموظّفين، وتقع مكتبة وزارة الأنباء والإرشاد في نهاية طريق الإسفلت المواجه للمدرسة المركزيّة وبداية الطريق المؤدّي إلى القارة التي تبعد عن مركز المدينة سبعة كيلومترات: في القارة هذه إستقرّ بي المقام، وفي المدرسة المركزيّة واصلتُ تعليمي، وفي مكتبة وزارة الأنباء أستجير في ساعات الفراغ. إنّها بمثابة همزة الوصل بين عالمين لا ينتظرني في أيّ منهما إلاّ الكتب لتكون محطّة إلتقاط الأنفاس أيضاً حضيرة كتب، لتصير الحياة كلّها رحلة كتاب، وكأنّ الجوع إلى الحرف المطبوع الذي عانيت منه طوال سنوات الإقامة في واحة الأنقاض تحوّل هنا إلى ضربٍ من تعويض، أو جنسٍ من إنتقام. إنّه نَهَمٌ غيبيّ إلى ما يخفيه هذا الجوف الرهيب الذي نسمّيه كتاباً. إنه بحثٌ دامٍ عن

حلٍّ لوسوسة الهباء! بحثٌ عن تفسيرٍ للغز الدّسيسة التي أودعتها الصحراء في الجينات لتصير في الوجدان هاجساً، بل مَسّاً كان على المُريد أن يعبر حقول علقمٍ كثيرة، ويُصارع تنانين خرافيّة كي يعلم أنّها ليست شيئاً آخر غير: الحقيقة! بلى. **في بطون الكتب تنام الحقيقة، والويل ثمّ الويل لمن احترف قراء الكتب بحثاً عن الحقيقة!**

مع هذا لا ينبغي أن نستنزل سربالاً رومانسيّاً على المكتبة المعنيّة فنقول أنها أسطورة في الثراء. العكس هو الأصحّ. كانت شحيحة في عدد الكتب، وفي موضوعات هذه الكتب. كانت الأرفف جلّها خاوية بسبب حداثة العهد بالإنشاء كما خمّنتُ تالياً، خالية من كتب التراث نهائيّاً، في حين إحتلّت الكتب المترجمة النصيب الأوفر برغم ركاكة الترجمة، ولكن لها الفضل يرجع في تعريفي برموز الأدب العالمي (ببعضها بالأصحّ) برغم عجز النصوص في أن تشفي غليلي لأكتشف بعد زمن أن السرّ ليس خطيئة المتون، ولكن في روح الترجمة التجاريّة التي كانت ورم الثقافة العربية في تلك المرحلة. حاولت أن أجد الطريق إلى المكتبات الأخرى، ولكن أعجزتني الحيلة بالنظر لبُعد المسافة من مكان الإقامة في القارة أوّلاً، واشتراط إتمام إجراءات الإشتراك ثانياً، وهو ما لا سبيل له لا لجهلي بالمستلزمات وحسب، ولكن لكُرهي الفطري لكلّ مايمتّ بصلة لكل إجراء روتيني. وهي علّة

مازالت تُلازمني إلى اليوم حتّى أني كثيراً ما فضّلت التضحية بالمكتسب على مُمارسة الروتين الآزم لإنجاز هذه المكاسب!

أمّا بُعْد المسافة عن المركز فكان تحدّياً يوميّاً سيّما بالنسبة لإنسانٍ إصطفته الأقدار بتلك العلامة الغيبيّة تمييزاً له عن بقيّة الأغيار (لأن من أحبّه الله وحده يؤدّبه الله كما تقول الأسفار)؛ لأن عليّ أن أقطع مسافة أربعة عشر كيلومتراً يوميّاً في الذهاب إلى المدرسة وفي الإياب مستعيناً على عطب القدم بإرادة المعرفة وحدها، وربّما وعياً مبكّراً بنداء الواجب. لم أعوّل كثيراً على منهج المدرسة في تحقيق المعرفة المأمولة، كما خذلني شُحّ المكتبة الوحيدة الواقعة في المتناول، فلجأتُ إلى السوق. في مركز المدينة المعروف بإسم «قعيّد» إهتديت إلى مكتبة «بجاد» التجارية التي تبيع المجلّات المصرية وبعض الكتب. وكنت أحرص على توفير ما تيسّر من الخمسة جنيهات التي اعتاد الأب أن يضعها في يدي كلّما مرّ على سبها في طريقه إلى واحة آدري أو عائداً منها، أو في طريق رحلاته إلى طرابلس، لكي أقتني الكتب والمجلّات أيضاً فيما إذا سمح المال. ولم تكن المجلّات لتروي ظمأ مُريد المعرفة بالطبع، ولكنّها حقّقت رسالة لا تقلّ نُبلاً هي ترويض النفس على القراءة بتحويلها عادة، بل طبيعة ثانية. وهو ما لا سبيل إليه بدون ماحقّ لنا أن نسمّيه «ثقافة القراءة». وهي ثقافة تُعاني محنة في عالم اليوم المكبّل بطُغيان تلك التقنية

المدنّسة بِسَمِّ الخِيَاط التي غرّبت ثقافة المعرفة لتستبدلها بوَهمٍ إسمه ثقافة المعلومة. رحلتُ في رحاب الكتب دون أن أُهمل المنهج بالطبع. كنتُ حريصاً على أداء الواجب، وعلى مواصلة التقليد الذي أخضعني للعقاب في الواحة: التفوّق! أقنعتُ نفسي بأنّي لا أخوض المنافسة مع الزّملاء في الفوز بالأولويّة إلاّ تلبيةً لنداء الواجب لكي لا أُصاب بالإحباط هُنا أيضاً، فلم أجد عُسراً في تحقيق هذا الهدف في المدينة بسبب غياب روح الإستماتة بين الزّملاء الجُدد عكس الزملاء في الواحة. هذا لم يُمكّنّي في الفوز بالأولويّة في نيل الشهادة الإبتدائيّة على مستوى المدينة أو الولاية بأسرها وحسب، ولكنّه حقّق لي الدّخول إلى حرم العشرة الأوائل على مستوى المملكة كلّها! وهو إمتيازٌ متوّجٌ عادةً بشرف نشر أسماء الفائزين في صُحف المملكة الرسميّة، وإذاعتها بالإذاعة، ومُكافأة هؤلاء بتنظيم رحلة مجانيّة إلى عاصمة الأحلام طرابلس! وهو إحتفاءٌ لابُدّ أن يُحيي في النّفس تلك الرّذيلة التي دأب دُهاة الواحة على إستئصالها من عقولنا بالعصا وهي: الغرور! وهو قصاصٌ يهون إذا قيس بالقصاص الذي انتظرني عند أول محاولة طائشة منّي لحرق المراحل و التّمرُّد على الناموس المرسوم يوم قرّرت أن أختصر دراسة السنتين في سنة واحدة بالمرحلة الإعداديّة كما سيرد تالياً. لقد إكتشفتُ أن القصاص على مثل هذه المغامرة المكابرة إذا كان مجبولاً بالروح العفويّة في الواحة، فإنّه يبدو هيّناً

إذا قيس بقصاص المدينة، لأنّه هنا مشفوعٌ بنصوص القانون الذي لا يرى ولا يرحم! والواقع أن احتراف ماتبدّى للنّاس تفوّقاً هو مالم يخطر لي يوماً على بال. أي أنّني لم أكن لأعيه آنذاك على النحو الذي يراهُ الأغيار، لأنّه في ظنّي لم يكن في حقيقته سوى جنسٌ من انضباطٍ فطريّ إستوجبته حياة الصحراء. ربّما تغذّى على التحدّي. تحدّي أوجدته الخسارة البدنيّة المتمثّلة في عطب البدن فتولّد الإحساس بالإضطهاد. الإحساس المبدع بالإضطهاد. وهو إحساسٌ مركّب لأن العلامة المطبوعة في القدم لم تكن علّته الوحيدة، ولكن الإنتماء إلى هوية مختلفة، وحمل شفرات ثقافة مغتربة، أمرٌ مؤهّل لمضاعفة الإحساس بالتّميّز، وبالتالي بنوعٍ من الإضطهاد. إنّه قدر الإنتماء إلى الأقلّية الذي لابُدّ أن يُعبّر عن نفسه سواء على مستوى تجريبي أو على مستوى الآوعي. فعقليّة الأقليّة في ظلّ حضورها في مجتمع الأغلبيّة هي اللغز الذي لم يهبه علم النفس حقّه من التّأويل إلى اليوم. وأعتقد أن سرّ هذه العقليّة هي التي غذّت روح العبقريّة في قبيلة مهاجرة كالعبرانيّين. ولا يلبث الأمر أن يزداد تعقيداً عندما يُصاحب هذا الإحساس التراجيدي القناعة (سواء الواعية أو اللاّواعية) بالأحقّية المبدئيّة في إمتلاك الهويّة الوطنيّة في حال كانت الأقليّة أهلاً أصليّين للمكان في مُقابل أهلٍ وافدين!

في تلك الأثناء كان وَلَعي بالأشعار قد بلغ الذروة. ولاتسعفني

الذاكرة اليوم في إستعادة الكيفيّة التي مكّنتني من إستيعاب هذا الكمّ من الشعر الذي أهّلني لدحر الزملاء في المبارزات الشعريّة التي إعتاد المعلّمون تنظيمها في الفصول الدراسيّة إلى حدٍّ إنتهى بي الأمر لمبارزة صفّة كاملة من التلاميذ وحيداً، وتحقيق الغَلَبَة برغم ذلك. وهو ما يدعوني لأن أتساءل اليوم عن الصحراء كتربة أخصب لإستنبات الشعر، في مقابل المدينة كأرضٍ أصلح لإزدهار الرواية. وهو جدلٌ تمليه طبيعة المكان. فالصحراء كفراغٍ عارٍ من طبيعة المكان لا يلبث أن يتحرّر من شروط المكان. إنّه مكانٌ هجر المكان، أو المكان الذي هجره المكان، لينقلب فجأة ظلاًّ لمكان. فإذا كان العالم في الوجود جسداً، فإن الصحراء هي روح الجسد. هي روح هذا العالم المُعادي للروح. إنّها المكان الذي لا حضور له في المكان مثلها مثل الروح. ألا يُقال أن المكان هو روحٌ تجسّدت، كما أن الروح ماهي إلاّ المكان الذي تبدّد؟ الصحراء مكانٌ تبدّد ليترك وراءه في المكان المهجور روح المكان. وهي بهذا أنسب تراب لنموّ تلك اللحون المسبوكة في الكلم التي اعتدنا أن نُطلق عليها إسم الشعر. لأن ماهو الشعر حقّاً إن لم يكن حنين الروح؟ إن لم يكن وَجْد الروح؟ إن لم يكُن نزيف الروح؟

أمّا الرواية فأمرٌ يليق بأن يكون دستور المدينة عن جدارة. الرواية بالمفهوم الكلاسيكي بالطبع، لا بالمفهوم الحداثي المطعّم

بروح الشعر، بل وبحرف الشعر. ففي الوقت الذي تقف فيه الصحراء رديفاً لتلك الحريّة الضروريّة لهيمنة الشعر، تقف المدينة صلداً قريناً لأحابيل العلاقة، وساحةً لطغيان الأهواء، وجامعةً لتربية الصراع. إنّها وكر المنافع، وصرح الصفقة، في مقابل فراديس السليقة الزُّهديّة التي ينهل منها إله الشعر. فهل من قبيل المصادفة أن يستهوي الشعر سليل الصحراء في تلك المرحلة المبكّرة من التكوين الأدبي، فيبدأ بمُعاندة الأشعار قبل أن ينتهي به المطاف لإحتراف الرواية المجبولة بروح الشعر؟

التّوق إلى الشِعْر الخطوة الأولى في طريق الإستسلام لإغواء النار!

2

الصّدمَة

لا أدري عمّا إذا كان بوسع عدوس السُّرَى أن يحتمل التخبُّط في ظلام الدنيا لو خلتْ هذه التجربة من الحلم. فالرحلة تبدو اليوم حلم في نومة. حلم قصير في غفوة أقصر. ولكن الشعر لا يقتات إلاّ من هذا التجلّي. وهو الذي يجعل من هذا السحر سلطة لا تُقهر. ولولا الحلم (الأب الشرعي للشِّعر وللشّجن ولكلّ حنين) لفضّل عَدُوس السُّرَى أن يلفظ أنفاس النزع الأخير على قارعة أوّل طريق على الهوس بارتياد آفاق الطلب.

مازلتُ أرى ذلك الفتى الملوّح بشموس الصحراء، والمبلبل بحمّى واقعٍ أسطوريٍّ تخفيه ذاكرة الحُلم وراء الصحراء، وربّما وراء البحار التي تحدّ نهايات الصحاري، يقف بمدخل ورشة بحيّ الجديد لإصلاح درّاجته الهوائيّة التي إشتراها للتوّ لتكون حجر الزاوية في حشد الأدوات التي إقتناها لإقتناص حلم الآفاق. كان يستمع إلى عامل الورشة وهو يُعاند عجلات آلة الأمل التي ستستبدل العجلتين بجناحين لتخترق هول الظلام لتحطّ في ممالك

ماوراء البحور حيث يستقرّ الحلم معبوداً مجسّداً، ليتسلّى بثرثرة الرجل وهو يتحدّث عن الحظوظ التي وراء أبناء الجيل الذين شاءت لهم الأقدار أن يحيوا زمن «الذهب الأسود» الذي يختلف عن زمنهم البائس، في إشارة إلى عهد النفط الذي حلّ على الدنيا بتصدير أوّل شاحنة منذ سنتين ليبدأ تدفّق الثروة على المملكة منذ يومين؛ أي في اليوم الذي تمكّن فيه من إقتناء هذه العجلة الهوائيّة الرياضيّة بعونٍ من مدّخرات الخمسة جنيهات الأبويّة بالعاصمة ليعود بها إلى حاضرة الواحات حسب الخطّة المرسومة لإصطياد الحلم: حلمٌ يدري أنّه لا يتحقّق بدون إجتياز المراحل، والمراحل لن يُمكن إجتيازها بدون الإنتهاء من عائق يبدو بلاجدوى برغم وقوفه شرطاً يعترض السبيل للإقلاع إلى أعلى! عائقٌ إسمه المدرسة لا سبيل لقطع دابره إلاّ بعبوره بأقصى سرعة وهو الذي لقّنته الصحراء وصيّة الهرولة المفضّلة لكلّ عدوسٍ قرّر أن يسري ليله. ولايدري كيف ألهمته ذاكرة الحلم بحيلة حرق المراحل بإبتسار أعوام العلم مختصَرةً في عامٍ واحدٍ بدل العامين.

كان وحْياً جنونيّاً يليقُ بفتىً يُفكّر بذاكرة الحلم، لا بذاكرة الواقع. وكانت المسافة الواقعة بين مدرسة علي إبن أبي طالب الإعداديّة وقلعة القارة العتيدة هي أوّل عقبة في المغامرة؛ لأن قطع مسافة الثلاثين كيلو متراً على الأقدام في رحلة الذهاب الصباحي والعودة، ثم الذهاب المسائي والعودة سوف يستغرق يومين وربّما

ثلاثة أيّام سيّما لإنسانٍ إصطفاه الربّ لِغلّ العلامة. هذا يعني ضرورة حلّ مشكلة المواصلات لتحقيق الغاية. أي الحصول على عجلة هوائيّة بأيّ ثمن. وهو ثمنٌ ليس هيّناً بالنسبة لتلميذٍ يحيا على هِبات غير منتظمة من الأب. وحتّى إذا توفّر المبلغ فإنّ الأمر يستدعي السفر إلى العاصمة لإقتناء الوسيلة، لأن حاضرة الواحات ماهي إلاّ قرية تعدم وجود سوقٍ للدرّاجات كما تعدم وجود كلّ شيء برغم إسمها المهيب كحاضرة واحات. وزيارة العاصمة في حدّ ذاتها حدثٌ جليل يستوجب توفّر مالاً لم يُسعفه الحظّ لتحقيقه في مُكافأة العشرة الأوائل بسبب المرض.

هَدهَد هذا الطّموح آناء الليل وأطراف النهار. هَدهَد الطموح وهو يعلم بدرس التيه في الصحراء أن الحلم سيُسرع لنجدته إذا أراد كما ينبغي. إذا أراد أكثر ممّا ينبغي. إذا أراد أكثر كثيراً ممّا ينبغي. لأنّ الطموح عندها لايبقى مجرّد طموح، ولكنّه ينقلب توقاً لتأدية واجب. إعلاءً لشأن رسالة. ينقلب قدراً! كل ما عليه أن يفعله هو أن يحلم و. . ينتظر. وبالفعل هبّ لنجدته الحلم يوم أقبل عليه الأب برفقة وفد زعماء القبيلة وأخذه معه في أوّل رحلةٍ له إلى عاصمة الأحلام. لم تكن تلك رحلة للحاضرة وحدها، ولكنّها رحلة لشريط الوطن الساحلي كلّه. فبعد أن إنتهى الوفد من مُقابلة عددٍ من الوزراء بطرابلس غادر إلى الشرق. إلى بنغازي، ثمّ إلى البيضاء، ثمّ إلى طبرق حيث توّج الوفد رحلته بزيارة الملك

إدريس في قصر الخُلْد. وفي طريق العودة توقّف الوفد بطرابلس حيث إستطاع دُمية الأحلام أن يتمكّن من إقتناء بُغيتهُ الهوائيّة ليُدرك للمرّة الثانية أن الحلم قابل لأن يتحقّق بعد المرّة الأولى التي أدرك فيها الواحة مُستعيناً بأثر البعير وهو في سنّ الخامسة وربّما أقل من الخامسة!

إستطاعتْ المطيّة أن تهزم المسافة، ولكنّها لم تُفلح في قهر الطبيعة. فالعِراك مع موسم الزوابع الصحراوية كان بطوليّاً حقّاً. فرحلة الذهاب والإياب ذات طبيعة مزدوجة: شقٌّ صباحيّ لإرتياد صفوف السنة الإعدادية الثانية، وشقٌّ مسائيّ للإلتحاق بصفوف السنة الثالثة الإعدادية بنظامٍ مسائي مُسنّ خصيصاً لإتاحة الفرصة لأولئك الذين لم تسمح لهم ظروف العمل تلقّي نصيبهم من التعليم. وبرغم هيمنة المناخ القارّي (الصحراوي) على المكان، بيد أن تطرُّف هذا المناخ أعجز أبناء المكان من أن يتحوّل طبيعة ثانية بحُكم العادة، بل بحكم الولادة. فالحرّ حريقٌ لا يُطاق في أرضٍ لم تشهد أمطاراً تلطّف الأهوية منذ مئات السنين. هذا في الأصياف. أمّا في الشتاء فإن البرد لا يلبث أن يتحوّل صقيعاً قادراً على تجميد المياه في المواسير، وطرح طبقة من الجليد على سطح كلّ سلسبيلٍ بات عارياً متروكاً في عراء. و كنتيجةٍ لهذا التطرُّف في مزاج الطبيعة الصحراويّة لن يُدهشنا أن يُعاني أهل المكان من عللٍ مزمنة يأتي داء الرئة والروماتيزم على رأسها. فإذا

أُضيف إلى جدل هذين القطبين ضيفٌ آخر أقوى عدواناً وأفتك سلاحاً متمثلاً في الريح الموسميّة التي تهبّ في فصل الخريف فإنّ البرهان في شهادة التطرُّف سوف يتضاعف. وأكثر ما يُدهش في غزوات هذا المارد هو نَفَسهُ الطويل الذي يُبرهن على روحٍ معنويةٍ عالية تستطيع أن تخرق قوانين الطبيعة لتظلّ تعوي في الأنحاء أمداً قد يستغرق شهوراً دون أن تضطرّ لإ لتقاط الأنفاس ولو للحظة واحدة، كأنّها مخوّلة بتنفيذ وصيّة غيبيّة غامضة كثيراً ما تمخّضت عن تحوّلاتٍ جنونيّةٍ في خارطة المكان. فتجسيد الرسالة أرضاً عملٌ يهون دائماً في حالِ إكتفى الرسول بكنس لببِ هُنا، وإقامة عقنقلٍ هناك، أو تشييد سدودٍ هنا، وردمِ فوّهة بئرٍ هناك؛ لأن أسوأ ما يطيب لهذا الداهية أن يفعل هو أن يهبّ مسلّحاً بتلك الكرات الشيطانيّة التي يُحسن إستعمالها كما لايُحسن مخلوق إستخدام سلاح وهي: حُبيبات الحصباء!

إن هذه الذرّات التي تكسو أرض المكان بألوانها الفاتنة لا تلبث أن تتحوّل بين يديّ مارد الزمان هذا قذائف مميتة تنطلق من فوّهات آليّة كأنّها الأسلحة الرشّاشة لتُطيح بكلّ من اعترض سبيلها. ولن يُكتب لي أن أنسى اليوم الذي حاصرتني فيه العاصفة الليليّة المحمّلة بفيض مثل هذه القنابل. كان موسم الرّياح قد أعلن عن نفسه في نهايات فصل الخريف بهجماتٍ متفرّقة، ولكنها ظلّت في الأيّام الأولى مُحتملة. ولكن المارد فقد صوابه فجأة. فقد

صوابه في تلك الليلة التي صادفتْ عودتي من مدرسة المساء. لم يشُنّ غارته على شخصي أثناء عبوري لشوارع المدينة الليليّة الهامدة في هزيع تلك الليلة، ولكنّه إنتظر حتّى تلقّفني العراء المفتوح الواقع في المسافة الفاصلة بين المدينة وقلعة القارة كأنّه يُدبّر مكيدة! هناك باغتني! بل انقضّ! انقضّ وشَرَع يرجِمُني بوابلٍ من تلك الكرات التي لم يخطر ببالي يوماً أن يكون وقعها وقع سِلاحٍ فتّاك. في البداية كابرتُ. كابرت مُعوِّلاً بالحَدَس على قُصرِ النَّفَس في طبيعة كلّ عنف، ولكن النَفَس إشتدّ بدل أن ينقشع. لم تكُن تلك هجمة تقليديّة لريحٍ إعتياديّة. كانت تحدِّياً. كانت تحدّياً غيبيّاً. تحدّياً مجهولاً. وكان عليّ أن أنتظر زمناً لم يدُم طويلاً كي أُدرك أن ذلك التحدّي من رسول المجهول لم يكُن سوى رسالة المجهول!

لا أدري كيف إستطعتُ أن أحتمل رصاص ذلك السلاح الفظيع حتّى أدركتُ غابة النخيل التي تفصل بين المنطقتين السكنيّتين. كان الوجع في الوجه لا يُطاق كأنّ حريقاً حقيقيّاً شبّ في قسماته. كان الوجع شديداً في اليدين المتشبّثتين بمقود المطيّة الهوائيّة أيضاً وفي كلّ طرفٍ عارٍ. إستجرتُ بأحراش النخيل، ولكن الغزوة كانت أعظم شأناً من أن يعصم من بليّتها الشّجر. إنكمشتُ حول نفسي إنكماش العساعس، وإنكفأتُ على وجهي لأحتمي من بطش التّراب بالتّراب، مُطوّقاً وجهي بالسّاعدين؛

ولكن بلاجدوى! إستمرّت الحملة الجنونيّة مكذّبةً رهاني على وَهَن النفس في طبيعة العنف. كانت تلك تجربة تماهٍ بالطبيعة، تماهٍ بمشيئة أمٍّ تستبسل في تلقين سليلها درس النبأ اليقين. هذا النبأ لم يكن لي أن أقرأه إلاّ بعد فوات الأوان. إنّها التماهي الذي ذكّرني بتماهٍ أسبق سطّرته في الروح تجربة التّيه القديم. لقد سقطتُ بعدها طريح الفِراش لمُداواة الوجه المتخن بالجِراح. لم يفتني وقتها أن أتأمّل ماحدث فأُصحّح أوهامي عن هويّة الحصى، عن حقيقة الحصباء التي تشتدّ خطورتها كسلاحٍ تبعاً لحجمها، وتبعاً لقوّة هبوب الريح. ولم أكن بحاجةٍ لوصايا العُقلاء كي أدرك أن الطبيعة كانت لي في تلك التجربة أمّاً أرحم ممّا ظننت، لأن البليّة كانت ستكون أعظم بما لا يُقاس فيما لو إفترشتْ أرض تلك المنطقة حصباء بحجمٍ أكبر: حصباء بحجم قطع الحجارة! ولكن هل إستوعبتُ درس الأمّ؟ هل أحسنتُ قراءة رسالة المجهول؟

كلاّ بالطبع! لم يكُن لأُحْسِن ذلك وقتها، لأنّ قراءة رسائل القدر هو العمل الذي لم أحسِنهُ إلى اليوم، ولن أحسنه غداً إن أمهلتْ الأقدار فجادت بغد! والدّليل هو قيامي بتكرار التجربة (تجربة دراسة العامين الدراسيّين في عام واحد) في موسكو بعد ذلك التاريخ بأعوام لأقع ضحيّة عاصفة ثلجيّة ليليّة لم تقلّ شراسةً عن عاصفة الصحراء الرمليّة! كل ما استطعتُ تأويله اليوم عند مُحاولة فكّ طلسُمات تلك التجارب هو العلّة. علّة تلك التجارب

التي لم تكُن في الواقع غير الإحساس العدميّ ببُهتان الزّمن. بتحميل لغز الزمن بتلك الحمولة التي لم يَعِدْ بها يوماً. إنّها تمرُّدٌ على ناموس الصحراء، والمُجاهرة بكلمة العصيان لمبدأ «ميدّيياغز» الذي يسكُن جينات التكوين. إنّه ورم العقليّة الصحراويّة و سرّ الروح الزّهديّة التي تُديرُ ظهرها لكلّ شيء يأساً يقينيّاً من جدوى عمل أي عملٍ دنيويّ! وها هو صاحب الوجْد يواجه صواب وصايا الأجيال فيحصد بمغامرته الأولى **خيبة الأمل**! لقد قرّر المجهول أن يستبدل رسول الطبيعة فسخّر أبناء الطبيعة هذه المرّة كي يرجموه بالخبر اليقين. قالوا أن هناك قانون في مجال التعليم إسمه «نظام الثلاث سنوات» يمنع حرق المراحل ولايُجيز التقدُّم لتأدية إمتحان في الشهادة الإعداديّة قبل مُضيّ المهلة المقرّرة! قالوا أيضاً أنه قانون غبيّ حقّاً، ولكنّه يُخفي حكمةً لا نعلمها مادام الناس يخلعون عليه لقب القانون! وهكذا تبخّر أمل راهن عليه كثيراً، فلم يُفلح فوزه في السنة الثانية الإعداديّة بالأولويّة في التخفيف من هول الصدمة!

3
التَّخَلِّي

نظام الثلاث سنوات؟!

تساءلتُ يومها ومازلتُ أتساءل عن فلسفة ذلك النظام الذي يُسخّر حرف القانون لقمعِ أنبل ظمأ وهو الظمأ إلى المعرفة! هل يكمن السرّ في الخوف من إساءة إستعمال التراتب الزمني للإستحواذ دون وجه حقّ على برهان ذي قيمة نفعيّة يكمُن في قرطاسٍ ممهورٍ بتوقيعٍ يُعدّ في عُرف النظام الروتيني وثيقة رسميّة إسمها شهادة؟ ألا يبدو هذا المبرّر خلطاً ظالماً بين الشهادة كمُستندٍ يصلح للإستخدام في أغراضٍ دنيويّةٍ فانية في مقابل الحُجّة الأخرى التي تذهب إلى قاعة الدّرس للإستشفاء من مسّ المعرفة التي لم تكن يوماً وسيلةً للسّطو على حُطام الدنيا ولكنّها بمثابة القارب الذي يخوض في معمعان المحيط طمعاً في الفوز بقبس تلك الشمس الخفيّة التي كانت منذ الأزل وسواس كلّ روحٍ ممسوسةٍ بحلمٍ وهي الحقيقة؟

في كلّ حال فإنّ نيل الشهادة هو ما لم يخطر لي على بال،

والدليل في إنّي لم أتقدّم لتأدية إمتحان الشهادة الإعداديّة متخطّياً السنة الثانية في المرحلة، ولكنّي خضت تجربة قاسية في العبور كلّفتني تضحية. ولكن التضحية هي القربان الذي لم تعترف به الأنظمة التعليميّة بسبب خضوعها لأنظمة سياسيّة مُعادية بطبيعتها للمعرفة، وبالتالي، للحقيقة؛ لأنها حميمة حرف، وخصم قيمة. إيمانها الحرف الذي يُميت وخصمها الروح التي تُحيي مثلها مثل كلّ منظومة شرعها الروتين لا الغاية التي خُلق من أجلها الروتين. ومهما كان المبرّر فإنه يعجز عن شراء المرارة الناجمة عن الصدمة.

فقد إحتملتُ سفراً إستغرق عاماً كاملاً. سفر لم تُتح لي فرصة إلتقام القوت إلاّ منكبّاً على الكتاب المطروح في حِجري. سفرٌ إحتملتُ فيه سهر الدّهر. سفرٌ تناهبتني فيه رحلة غضبات الطبيعة صيفاً وشتاءً. سفرٌ رجمني فيه الغرباء وكذلك ذوو القُربى بأقسى أجناس السخرية ليقينهم المُسبق بفشل مشروعٍ يُرتجى منه سحق عامين دراسيّين في عامٍ في زمنٍ يستميتُ فيه أكثر الزّملاء إجتهاداً لإجتياز عتبة العام الدراسي الواحد ولو بأقلّ الدرجات. سفرٌ إستفزّ كِبرياء الأساتذة، وقرأوا فيه منكراً. صارت المُحاولة حدث الساعة في المدينة، ومازال شهود العيان الذين تبقّوا على قيد الحياة يتندّرون بسيرتها ويُذكّرونني بها كلّما إلتقيتُ أحد فرسان ذلك العهد.

كان لسان حال الكلّ يقول مع حكيم الزمان أن النجاح إذا كان رهين الجدّ في العمل، فإن المكافأة على النجاح رهينة الحظوظ! والنّصيب من الحظوظ هو ما خذلني في مغامرتي، وليس التفوّق في منهج السنتين الدراسيّتين مجتمعتين كما أشاع الأساتذة، وكما برهنتْ الأولويّة في السنة الثانية. ولكن العزاء لم يقنعني. لم يُقنعني العزاء لأني إكتشفتُ حقيقة المناهج وهويّة القائمين على تأليف المناهج، بل وماهيّة المسئولين على سياسة النظام التعليمي برمّته. فالجرح كان أعمق غوراً من أن يُداويه العزاء. والدّليل في تطرُّف قرارٍ مصيريٍّ كالتخلّي عن طريقٍ حسبتُه ملاذاً. قرار التضحية بمقعد الدراسة!

من أين لإنسانٍ حديث العهد بحقول العلقم أن يعلم أن مقاعد الدراسة إذا أُريدَ لها أن تخلو كنظامٍ تعليميٍّ من روح الإبداع القرين لكلّ معرفة حقيقيّة، إلاّ أنّ جدواها تكمُن في تأسيس هياكل الحاوية كضمانٍ للحصول على الكنز الذي تحويه الحاوية؟ إنّها إستعارة للأسطورة العالمية عن كنوزٍ الحصول عليها رهينٌ بنيل المفتاح الضائع الذي يستدعي الفوز به عبور البحور والقضاء على حارسه التنّين! النظام التعليمي في كلّ العالم ليس كنزاً، ولكنّه حارسٌ لتحصيل الكنوز. ولا سبيل للفوز بالكنز إلاّ بكلمة السرّ المشروطة لعبوره. ولكن أنّى لي أن أهتدي إلى هذه الأبجديّة قبل أن أسير في طريق تيهٍ جديد، وقبل أن أرتاد أوطان الجليد بحثاً عن الرمز المستغلق حتّى ذلك الوقت؟

4
المَلَلْ

في البدء كان الخيار الشعري.

في البدء يكون الخيار الشعري دوماً بسبب الإستجابة للطبيعة الحُلميّة للشِّعْر، أو فلنقل لقُدرته على إرواء الظمأ الرومانسي للحريّة الذي يسكن كلاًّ منّا، سيّما في مرحلة التكوين. التكوين المُبلبل بالبحث الوجودي المبكّر عن هويّة رسالية برهنتْ التجربة أنّها الشرط الأوّل في خلق ذلك التوازن الروحي الذي اعتدنا أن نسمّيه سعادةً، إنهُ هوسٌ أكثر كفاءة من ممارسة الحرية إذا قورن بالقصّ في المقابل. ولكن الشعر برغم ذلك يبقى مجرّد وعاء، يبقى مجرّد غناء، لحنٌ، لغة تهفو للتعبير عن قضيّة مادام الوعي بالذّات مازال طفوليّاً وعاجزاً عن طرح أسئلة وجوديّة، أو وجدانيّة. من هذه الفجوة لابُدّ أن يتسلّل شبحٌ لئيم هو السياسة؛ لأن هذه السعلاة اللّاأخلاقيّة وحدها تستطيع أن تذرّ الرماد في العيون فترتدي كل مسوح الزّور بما في ذلك مسوح الحقيقة بهتاناً أيضاً بالطبع! ففي وطنٍ كليبيا خرج للتوّ من قمقم إغترابه الوطني

منهكاً ومحطّماً توّاقاً لإلتقاط الأنفاس سوف لن يملك عدُوس سُرَى حيلةً للبوح إلاّ بالبحث عن مثالٍ خارج الحدود. وعلى تخوم هذه الحدود يقف المشرق دائماً على أهبّة الإستعداد. يقف على أهبّة الإستعداد تاريخيّاً كما حدث دائماً لتزويد المغرب الشقيّ بحاجته من الزّاد في كل مجال. والزّاد المتداول في ستّينيّات القرن لم يكن ليكون غير التغنّي باللحون في مديح المجد القومي، فتلقّفَتْ روح البراءة في الوطن البِكْر فيوضاً سخيّةً من هذه العطيّة التي تراءت ترياقاً لتحقيق الخلاص من داء الخواء، ومالبثت أن كشفت حقيقتها الخفيّة بحركة عام 1969م التي صادرت روح الوطن بفعل هذه العطيّة الخبيثة لأمدٍ زاد عن الأربعة عقود كاملة.

أشعار الإنفعال بالحدث القومي لم تعرف طريقها للنّشر، لأن الحماس ما لبث أن تبخّر أمام روح التعصُّب التي سُرعان ما تحوّلتْ سُعاراً منكراً شوّه نفسيّات أبناء الوطن التي تحلّتْ بالتّسامح إلى عهد الخمسينات القريب حتّى أنّي أنكرتُ أقربائي في حمّى هذا السُّعار المستعار الذي خدّر البسطاء وحوّل العقلاء إلى قطيعٍ يندفع في يقينه المجهول. ومازلت أذكر مجادلاتي الحامية مع أهل هذا العصاب من زملاء وذوي قُربى لينتهي بي المطاف إلى القطيعة مع الكثيرين لأبدو في نظرهم شاذّاً غريب الأطوار، فلم أجد سبيلاً غير الفرار إلى العزلة.

في رحاب العزلة أقلعتُ عن الأشعار واستجرتُ بالقصّ.

وكانت «سرّ الإبتسامة» هي القصّة الأولى التي نشرتها ولم تكن القصّة الأولى التي كتبتها بالطبع. قصّة لم يبقَ لي منها سوى الإسم، لأنّي أضعتُ نصّها منذ زمنٍ بعيد كما ضاعتْ في مسيرة حقول العلقم قصصاً كثيرة.

ولكن.. ماسرّ فتنة الإستسلام للقصّ؟ لماذا ننساق لمُمارسة هذه الشعيرة كما لانساق لطقسٍ قدسيٍّ كالصلاة؟ ألا تبدو سلطة القصّ في هويّتها كشهادة على الوجود، أو فلنقل كشهادة على الحضور في الوجود؟ ماهو شعار شهريار «**القصّ أو الموت**» إن لم يكن الترجمة الصريحة للوصيّة السقراطيّة: «**تكلّم لكي أراك**» التي لن تعني في التأويل الأخير غير: «تكلّم لكي تحيا، وتُحيينا معك!»؟ القصّ إذاً سيرة. سيرة حياة فعليّة لا مجازيّة. قد تكون سيرة مبلبلة بلسان مخبول، تضيق بالصخب والعنف (كما في الرؤية الشكسبيريّة) دون أن نضطرّ لأن نعتنق معه الخاتمة المنطوقة بروح العدم القائلة: «**وهي لا تعني شيئاً**»! إنّها كسيرة حياة رواية معاشة سواء أكانت تعني شيئا أو لا تعني أي شيء. كما أن الحياة مرويّة سرديّة مبتسرة في اللغة. ولهذا قيل أن من لا يُحسن القصّ وحده لا يُحسن الحياة. فالوريد الذي تقتات علية الحياة هو رواية تلعب فيها عضلة اللسان دور الوسيط، لأن السرد هو **نزيف الرّوح** المؤهَّل لأن يُميت أيضاً، كما يُحيي. يُميت في حال الإستنزاف. يميت في حال **قول كلّ شيء إلى النهاية**. وإذا كان فولتير يرى أن

الملل يكمن في قول كلّ شيء، فإن قول كلّ شيء في ناموس الرواية لن يقف عند حدود الملل، لكنّه ينتهي إلى الموت. والرّؤية لن تُجانب الصواب في حال آمنّا بأن الملل ماهو إلاّ خطاب نعيٍ بحلول الموت.

قول كل شيء إلى النهاية إذاً هو النهاية. والدليل تُنجدنا به سيرة شهريار الذي يستنزل قصاص الموت بالرواية التي يخذلها نزيف الروح فتنتهي إلى الخاتمة. إنه قصاصٌ عادل بمنطق التماهي. قصاصٌ عادلٌ بمنطق الحياة كمتنٍ مرويّ. قصاصٌ عادلٌ لم تستوعب حكمته البعيدة سوى داهية كشهرزاد فلم تقل شيء إلى النهاية. شهرزاد التي برهنت أن الإنسان يستطيع أن يُحقّق **الخلود** لو تحلّى بالشجاعة **ليروي إلى الأبد!** إنّها المعجزة التي كان بوسع شهرزاد أن تحقّقها بالرواية لو لم يتدخّل الملل. الملل هنا هو رسول الموت الذي يُقنع صاحب الرواية بقبول الزُّهد في المزيد. بقبول الزهد في أن يعيش. ولهذا أصاب أسير الإسكندر الأكبر حكيم الهندوس الذي أجاب على سؤال: «متى يتوجّب على الإنسان أن يموت؟» قائلاً: «يتوجّب على الإنسان أن يموت عندما لا يريد الإنسان أن يعيش!» الرواية بهذه الرؤية بطولة من قرّر أن يحيا. الرواية مغامرة، ولكنها مغامرة فاتنة ما ظلّت طقس المبارزة مع الموت. إنّها قفّاز التحدّي في وجه الموت. إنّها الأسطورة الوحيدة التي أثبتت التجربة قدرتها على قهر الموت.

وكيف لا إذا كانت رسالة السّرد الأولى هي صنع الأسطورة كما أوصى أرسطو؟

توقّف السّرد بفعل الملل يعني حلول الصمت. يعني خيار الصمت. ذلك الصمت الواقع في المجهول الذي يلي البرزخ حيث يُهيمن من إختار الصمت سرداً بديلاً منذ البدء.

في هذا الجانب يُهيمن الربّ!

5
الحَدَسْ

يبدو تناول أحداث عام 1964 م عملاً ضرورياً لإستكمال إرهاصات مجتمع الجنوب الليبي في زمن تكوّن الوعي ذاك. وهي ضرورة لم تكن لتلعب دوراً ذي أهمّية في نزيف هذه الذاكرة لو لم تكشف لي عن طبيعةٍ كنتُ حتّى ذلك الوقت أجهلها في نفسي، وهي العداوة الفطرية لذلك البُعْبع المنكر الذي سمّم روح العالم منذ عرفت البشرية هذه البدعة المدعوّة سياسةً!

وهي أحداث سبقتْ مرحلة التخلّي الناتجة عن اليأس من جدوى البحث في مناهج التعليم عن سرّ ذلك المسّ المجهول الذي صار لي وسواساً منذ البدء وكان عليّ أن أغترب في دنيا الأنام طويلاً وأتجرّع علقماً كثيراً قبل أن أعبر إلى الجانب الآخر من البرزخ لأشهد ميلادي الثاني الذي كان لهُ الفضل في الكشف عن هويّة ذلك السرّ المدجّج بألقابٍ مهيبةٍ لا أدري عمّا إذا كان عليّ اليوم أن أستحي أم أتباهى إذا قلتُ أنّها: هويّة وجوديّة، أو حقيقة ماورائيّة، أم ببسيط العبارة: الألوهة!

إنها تلك المباديء أو المُثل الكبرى المخوّلة وحدها لتبرير نشاط المخلوق البشري وتكشف للمُريد (بل وتحدّد له) غاية رسالته الدنيويّة. وهي حمّى تبدو في ذلك العهد المبكّر مشوّشة ورهينة التخبُّط بسبب غياب تلك الرؤيا المؤهّلة لإلهام المريد بالسبيل للوصول إلى مايُريد بعد أن برهنت التجربة بأنّنا لسنا أشقياء إلاّ لأنّنا نجهل ماذا نُريد. ولابدّ أن تكون سعلاةً كالسّياسة أوّل الأوهام التي تعترض سبيلنا لتلبّي النداء. إنّها تستدرج بإغواء القناع. إنّها تستهوي كما لا يستهوي شيء في الدنيا، لأنها توحي بقدرتها على إحقاق الحقيقة. إحقاق تلك الحقيقة التي لاوجود لها خارج السلطة. إنها الشَّرَك الأعظم في ديانة السواد الأعظم. وقد رأيت عندما اندلعت التظاهرات الطلاّبيّة في ذلك العام كيف يندفع الزملاء إلى ذلك المعبد أفواجاً. ففي يناير شبّ الحريق في مدن السّاحل أوّلاً قبل أن تنتقل العدوى إلى الدواخل كما هو الحال دائماً. تنادت القوى الطلاّبية إلى صفّنا في الإعداديّة للتحريض على المشاركة. إنسحب الأساتذة ما أن إقتحم الزعماء الصفّ الدراسي، ثمّ تحدّث أحدهم طويلاً. تحدّث بلغةٍ لم أفهمها عن شعاراتٍ أكثر عسراً على الفهم. وعندما انتهى تقدّم آخر وخاطبنا لإختيار من سيتولّى الإشراف على قيادة الصفوف والتنسيق مع بقيّة القادة في حملة الغدّ. وقد فوجئتُ بالطلبة يهتفون بإسمي. وكانت النتيجة أن تمّ إختياري بالإجماع. وهو إختيارٌ أحمق بالطبع علاوة على أنه خاطيء لعبت فيه لغة التفوّق دور الحسم ظنّاً من القوم بأن

الأولويّة في النجاح الدراسي يؤهّل لأولويّة النجاح في قيادة الجموع أيضاً. لقد فات هؤلاء البسطاء أن التظاهر حرفة أخرى تختلف جذريّاً عن إحراز التفوّق الدراسي. لأنّ تنظيم الإحتجاج موهبة العاطل عن العمل، لا هواية مُريد العمل. فهي عتبة أولى في سُلّم السياسة التي لا يُمارسها إلاّ الكُسالى وكلّ من تقطّعتْ به سُبُل الفشل!

لقد إلتأم حولي الزملاء ليُهنّئوني على الفوز بهذا الشرف. شرفٌ لم أفرح به لأنّي لم أفهمه. شرفٌ إستنكرته أيضاً عندما إنقشع الغبار وخلوتُ لنفسي. إستنكرته بتحريضٍ لجوجٍ من الحَدَس. الحدَس الذي ألهمني بحقيقتي التي لم تُخلق لمثل هذا السبيل. وكانت نتيجة المغامرة أن قُمتُ إلى مطيّتي الهوائيّة وفررتُ إلى رحاب القلعة. إعتزلتُ الدنيا هناك إلى أن عبَرَتْ العاصفة. عدتُ إلى المدرسة بعد يومين فقرأتُ في عيون الزملاء إستنكاراً لإنسحابي الذي حسبوه خيانةً، في حين قرأتُ في عيون الأساتذة آي الإمتنان بدل الإنكار. لم أُبالِ لسرّ هذا الجدل بين الفريقين لأني كنتُ مأخوذاً بالوسام الذي تلقّيتُه من ضميري الذي باركني لأنّي إخترت الإنتصار لسجيّتي التي لم تر يوماً في حركة الجموع خلاصاً!

كان يجب أن أسلخ ستّ سنواتٍ أخرى من عمري كي أكتشف الإسم المناسب للنزعة التي تسلّطتْ على نفوس أهل تلك الأيّام وهو: روح القطيع!

حدث ذلك في الشهور الأولى لإستيلاء حركة 1969 على السلطة، وبالتحديد في اليوم الذي حلّ فيه عبدالناصر ضيفاً على طرابلس في أوّل زيارة له إلى ليبيا. فقد تصادف مرور الموكب المهيب بشارع عمر المختار خروجي من مجمع الصحافة الواقع بميدان التاسع من أغسطس (الذي أصبح فيما بعد ميدان السويحلي) حيث كنت أعمل برفقة صديق وقور كان رئيساً لتحرير إحدى صحف البلاد التي أُوقفتْ عن الصدور بعد الإنقلاب وتوجّهنا لعبور الشارع مشياً على الأقدام في طريقنا إلى ميدان الشهداء. كانت الجموع في تلك اللحظة تكاثفتْ لتصطفّ على جانبَي الطريق على طول الشارع إنتظاراً لوصول الموكب. وقد دعاني الصديق للتوقّف قليلاً من باب الفضول على حدّ تعبيره. إستجبت له على مضض لأنّي جاهدت حتّى ذلك الوقت في إجتناب كلّ زحام دون أن أدري لماذا. ولكن بتأمّلٍ عابر أستطيع اليوم القول أن السرّ يكمن في طبيعة الشفرات التي استزرعتْها النشأة الصحراويّة بعيداً في غيهب الروح، وكان لابدّ أن يقوم المسلك اليوميّ يوماً بفكّ طلسم الجينات برمّتها عمليّاً، لأنّ الطينة المجبولة بروح الحريّة ظاهرة لن تُخفى. إستجبتُ لرغبة الرجل وتوقّفنا. لم نجد لنا مكاناً بالطبع في الصفوف المرصوصة رصّاً فاكتفينا بالفرجة على الطريق من وراء الأسوار المحبوكة بالمناكب. ولحسن الحظّ لم يطلْ إنتظارنا لموكب الخلاص! لم يطل إنتظارنا

لموكب الآلهة! لحظتها حدثت الزلزلة التي لم يقدّر لي أن أنساها أبداً. ففي اللحظة التي أطلّ فيها الموكب في عرض الطريق تدافعتْ الجموع وهاجتْ وهي تمزّق الحناجر بالهتاف. وفي لحظة أخرى تحوّل الهياج إلى جنون. إلى إعصارٍ جرف في طريقه كلّ شيء. إندفع السيل البشريّ ببنيانٍ مرصوص وانطلق لملاحقة الموكب الذي عبر الإسفلت متّجهاً صوب ميدان الشهداء. ومن حسن الحظّ أن تكون المسافة التي فصلتني عن الحشد في وقفتي هي ما أنقذني، لأنّ بُنيتي البدنيّة الهشّة لم تكن لتصمد أمام عنف الطوفان الذي سَحَق في طريقه كلّ شيء، بدليل إختفاء الرفيق الذي كان من الحشد أقرب مسافة. لقد أطاره الطوفان فلم أعثر له على أثر إلاّ في صباح اليوم التالي. عبّرتُ له عن قلقي عليه ظنّاً منّي أن الجموع إختطفتْهُ في سيلها الرهيب، ولكنّه أطلق ضحكة في وجهي ليعترف بأنّه لم يتمالك نفسه. إستسلم للتيّار تلبيةً لنداء التيّار على حدّ تعبيره!

لقد أدهشني أن يستسلم لمشيئة القطيع هذا الرجل الوقور الذي يكبرني كثيراً وكنتُ أحسبُه مثالاً أخلاقيّاً يحتذى، في أوّل هبّة وهْمٍ مُضحّياً بوقاره، وثقافته، وعقله، وانظباطه، ليندفع إندفاع الصبيان وهو يهتف بشعارات الزّور بأعلى صوت! يومها فهمتُ (على نحوٍ مازال مشوّشاً) الهول الكامن في سلطة القطيع. في روح القطيع القادر بجرّة قلم على تغييب الإنسان عن حقيقته العقليّة كإنسان،

على تغريب حتّى أئمّة العقلاء، وربّما أساطين الحكماء، عن هويّتهم لينساقوا كأنعامٍ عُجْمٍ في ظلمة القطيع المندفع إلى المجهول، المردّد بلاوعي لنداءاتٍ بليدةٍ كأنّها رطانات في لسان ببّغاء!

يومها أدركتُ جريمة هذه الروح، روح القطيع، التي تصنع بعمائها الروحي من الفرد البائس معبوداً، بل وربّ أرباب، في وقتٍ كان فيه النظام الجديد وقتها يتفنّن في وسائل الإعلام في شتم النظام الملكي بحجّة عبادة الفرد المتمثّل في الملك، لينتهي به المطاف بعد سنين إلى عبادة الفرد الأسوأ على الإطلاق المتمثّلة في الطغيان!

في تلك التجربة البعيدة اليوم أدركتُ يقيناً أنّنا نحن لا غيرنا المسئول الأوّل والأخير عن صنع الطغاة!

6
المَلِكْ

في منتصف الستينيّات كان الحسّ الوطني يحتضر. ولم تنقذه حتّى التدابير السياسيّة التي توّجت بإلغاء النظام الولائي الذي كرّس الروح الإنفصاليّة لدى الأمّة اللّيبيّة منذ الإستقلال، هذا إذا لم يكن الأنسبْ أن أقول «كرّس الروح الإغترابيّة»! حدث هذا مع صعود نجم الهَوَس القومي، أو المدّ القومي كما يروق لمُريديه أن يعبّروا، على حساب التيّارات الأيديولوجيّة الأخرى كاليسار الشيوعي، أو اليمين الإسلامي. وكان روّاد هذا التيّار يقودون السواد الأعظم بتغذية روح القطيع بالوهم القديم؛ أي بالعزف على وتر الجوع إلى الماضي المتمثِّل في الظمأ إلى استعادة الفردوس الضائع، بإقامة مجد الأمّة من جديد! وهو بالطبع إنكارٌ مبينٌ لناموس الحضارات المحكوم بمشيئةِ لغزٍ عدميٍّ غير قابلٍ للخضوع للمنطق. فكما آلت الأقدار على نفسها منح الفرصة ولو مرّة واحدة على مستوى الأفراد، كذلك آلت على نفسها منح الفرصة مرّة واحدة على مستوى الأمم أيضاً. إنّه ضربٌ من إتاحة الفرصة

لقول الكلمة ـ الرسالة. وهي غير قابلة للقول مرّتين. غير قابلة للإستثمار مرّتين. ولهذا السبب استحال أن نعوّل على إستعادة مجدٍ زال، أو حضارةٍ إستنزفتْ مبرّر وجودها، لأن هذا يُعدُّ تعلّقاً بالأوهام، وليس تربيةً للأحلام.

ولكن يسيرٌ أن تتعلّق الجموع بالأوهام، سيّما إذا حام حول معقَلها المحترفون الذين يتفنّنون في الإحتيال عليها بتغذية روح القطيع لتضلّ السبيل. وضَلال الأمم دائماً باهظ الثمن. والدليل في الضلال برّر فعليّاً منعطف 1969 م الذي خيّم بكابوس الأربعة عقود الذي لم يكن ليحدث لو لم تكن المعزوفة القوميّة هي الورقة الرابحة المستخدَمة في تلك الحركة التي اتّخذت من إنكار الآخر ديناً، ومن قمع الرأي سبيلاً، ومن قطع دابر التسامح شريعةً، ومن راية التعصّب الأعمى شِعاراً، إلى الحدّ الذي دفع بالأمّة إلى الإلتفات إلى الوراء لتفتّش في ثنايا الماضي عن المثال المفقود!

بلى! أحيت الصدمة في نفوس أبطال الأمس القريب الحنين إلى الوطن الضائع، الحنين إلى معنى الوطن الذي لابدّ أن يضيع كمفهوم في ظلّ أي نظامٍ شموليّ.

بحث الليبيّون عن الوطن الذي صادرته الأوهام، وغيّبته شعارات مميتة غايتها إحتكار الحقيقة، قبل أن يكون همّها الإحتفاظ بالكنز الوحيد الذي يستحيل الإحتفاظ به وهو السلطة لا لشيء إلّا لأن هذه المعشوقة لا سبيل لترويضها، ولا للإحتفاظ

بها، لأنها الوحيدة التي لا تترك عشّاقها إلاّ أمواتاً! فهل أصاب الأشقياء عندما صُدِموا فرأوا في النظام الذي لعنوه بالأمس بمثابة المثال اليوم؟

أُجيبُ كشاهد عيان فأقول أنّهم لم يصيبوا. لم يصيبوا لأن النظام الملكي الذي عِشتُه قَمَعَ الرأي أيضاً. لم يُصيبوا مرّة أخرى عندما قالوا أنه ديمقراطي. هذه الكلمة التي لم ترُقني يوماً لأنّها لم تكن وفيّةً أبداً لصاحبة الجلالة الحرية التي كان من المفترض أن تكون ترجمةً لها. هل لأنّها إستعارة من معجم لا أخلاقي هو السياسة؟ لا أدري. ولكن اليقين أن كلمة ديمقراطيّة تبدو عاجزة دوماً عن التعبير عمّا يجب أن تعبّر عنه. عاجزة عن التعبير عن الخلاص في مقابل مصطلح الحريّة المستعار من ناموس الطبيعة، لا من معجم السياسة. مصطلح الحريّة المعبّر عن الخلاص في بُعْده الطبيعي، في بُعده الوجودي، في بعده الروحي، لا السياسي.

أقول هذا دون أن أجهل هويّة الديمقراطيّة كتقنينٍ لمبدأ مثالي كالحرية واستنزاله أرضاً لخلع مسوح دنيوية (أو نفعية) على جلالته. ولكن المحنة في عجز هذه الأحجية عن أداء وظيفتها على المستوى العملي أيضاً و إلاّ لما تغنّى بها الليبيّون بعد أن صُودِروا ليخلعوها مزيّة على نظامٍ لم يحترم لها حرمة، وإن يبلغ به الجنون حدّ المصادرة كما حدث مع النظام الجديد الذي يدّعي

أنه لم يفعل بهم كلّ ما فعل إلاّ من باب الحرص على تحقيق خلاصهم! فأين العقدة يا ترى؟

أغلب الظنّ أنّ السرّ يكمن في نسبيّة هذا التقنين الجائر. نسبيّة ما اعتدنا أن نسمّيه ديمقراطيةً. فإذا كان حلم الليبييّن زمن الكابوس هو الذهاب إلى صناديق الإقتراع للإدلاء بالأصوات الإنتخابيّة تعبيراً عن حريّة الإرادة، فإنّ هذا الخيار لا يعبّر عن أي ديمقراطيّة في الواقع، لأنّ النظام في عهد الملك إدريس كان يُبيح هذا الحقّ أيضاً، ولكنّه يُبيحه مشروطاً بفرض المرشّح الذي يستجيب لسياسة الدولة، أي مشروطاً بحقّ التزوير! وهو ماكنتُ عليه شاهداً في سبها عندما كانت السلطات البوليسيّة والسريّة تجبر المواطنين على إنتخاب أعضاء مجلس الأمّة الذين يُدينون بالولاء للملك، فإذا لم يستجيبوا لم يجنوا من عنادهم سوى الإضطهاد والملاحقة، لأنّ تزييف إرادتهم كانت على السلطات أيسَر ممّا ظنّوا!

ولا أنسى كيف سلّط علينا أحد المهيمنين على السلطة في المنطقة صغارهم الأشقياء ليرجموني برفقة صديق بالحجارة لمجرّد إشتباه عقلاء تلك الفئة بانتمائنا للفريق المنافس. أمّا في طرابلس فكانت الأنباء تصلنا عن فضائح تزوير كثيراً ما انتهت إلى عراكٍ بالأيدي، وإلى ماهو أعظم وقعاً من الأيدي.

ولم يكُن مستغرَباً أن تنتعش روح التململ في القوم بالتزامن

مع تحسُّن الوضع الإقتصادي الواعد بالبحبوحة مع تدفُّق عائدات النفط في الخزينة العامّة، لأنّ الإنسان وإن لم يكن من شيمه أن يحيا بالخبز وحده، بيد أن حضور الخبز كثيراً ماكان علّة التمرّد بالقدَر نفسه الذي كان فيه غياب الخبز سبب التمرّد.

في عام 1965م قادني سبيل التخلّي إلى الوظيفة. وكان الإلتحاق بوزارة العمل والشئون الإجتماعيّة أوّل العتبة التي لم تستمرّ سوى أشهر، لأني سرعان ما انتقلت للعمل مُحرِّراً للصّفحة الأدبيّة بجريدة «فزّان» التي استُبدِل إسمها بـ«البلاد» بعد أمدٍ قصير إستجابةً لتطلّع أبناء الوطن إلى وحدة الوطن عقب إلغاء النظام الولائي الثلاثي (طرابلس، برقة، فزّان) الموروث عن عهد الهيمنة الإستعماريّة.

ينبغي أن أعترف بأن العمل الصحفي كمهنة كان حلقة مغرية أخرى في مسلسل الحلم الأكبر، الأبعد، الأكثر غموضاً ربّما بسبب ما تحقّقه من صيت. صيت كثيراً مايبدو إنحرافاً من خلال هوس مُريديه بوهمٍ أكبر هو: المجْد! ولكنّنا في مقتبل أعمارنا هيهات أن يُبيح لنا عدم النضج إكتشاف الفرق بين الحلم بالمجد والحلم بما هو أحقّ بأن نحيا من أجله وهو الحقيقة، لأن النظرة الشائعة تغلّف كلّ نشاطٍ دنيوي بمسوحٍ يقف فيها المجد غايةً قصوى، حلماً أبعد منالاً، ولا نكتشف أن هذه العقيدة ماهي في حقيقتها النهائيّة سوى هَوَسٌ مستبطن بالسلطة! السلطة في مفهومها الوجودي أيضاً، لا السياسي وحسب.

كان الإلتحاق بالجريدة خطوة أولى في طريق الصحافة الطويل، لأنّ صحيفة تصدر في الدواخل لم تكن لتشبع طموحي كإنسانٍ مغلولٍ بهاجس، ويحترف ممارسة الأحلام؛ ولكن غزو صحف العاصمة لم يحِنْ أوانه بعد، برغم أنه المشروع المؤجّل المجبول بالإغواء.

فإلى جانب المقال والنصّ الأدبي والقصّة القصيرة والدراسة الأدبيّة على تواضع التحليل، كانت هناك المقابلة الصحفيّة التي لم أكن لأعلم وقتها سرّ سحرها لو لم أعِش بعد أعوامٍ طويلةٍ التجارب التي أهّلتني لكي أكون موضوعاً لإستجوابٍ من هذا النوع يستهوي فرسان الصحافة في الشرق والغرب؛ فرسان الصحافة الأحدث عهداً بالمهنة بالذّات. فهل السرّ في فتنة الحوار، أم في إشباع شهوةٍ ذات بُعدٍ وجوديٍّ كالفضول؟ هل هو من باب الإستجابة للقناعة التي تقول أن الحقيقة رهينة الجدل، برغم الإيمان الآخر القائل باستحالة وجود الحقيقة في أي جدلٍ لأنها تقع في مجالٍ خارج اللغة؟

ولكنّنا في مهد مسيرتنا نطرح سؤال الحقيقة عادةً، وكلّ ما نفعله هو الإستسلام لسلطان الحلم مسلّمين زمام أمرنا للهاجس كي يقودنا إلى رحاب الفردوس. وها أنا أُجري الحوار مع كبار مسئولي المقاطعة، حتّى إذا لم تشفِ غليلي وجدتُ نفسي أُجْرِي حواراً ممتعاً مع إمام الرواية العربيّة نجيب محفوظ. حوارٌ عشتُ تفاصيله في الحلم، و كان عليّ ترجمته على الورق قبل نشره في

الجريدة. فهل كان حلم من هذا القبيل تعويضاً نفسيّاً (بالمفهوم الفرويدي) على خلوّ واقع المكان من الأدب والأدباء، أم هو احتجاجٌ على الإحتفاء توليه وسائل الإعلام العربية (بما فيها المصريّة بالطبع) لكلّ بهلوان، في حين تتعمّد تجاهل حكيم كهذا؟ ألا يبدو هذا النهج لعنة تاريخيّة مارستها المؤسّسات الإعلاميّة والثقافيّة في الماضي ومازالت تمارسها إلى اليوم؟ أم أن حافز الحلم ماهو إلاّ سدادٌ لِدَيْن كبّلني به إمام الإبداع الروائي الذي لم أعترف بسواه وقتها (إلى جانب دوستويفسكي بالطبع) فجاد على شخصي باللقاء مكافأةً على وفاء؟

ويبدو أن اللقاء في مملكة الحلم المجهولة كان أجدى من لقاءٍ في الواقع، لأنه ألهمني على نحوٍ مّا كتابة دراسة أدبيّة في أعمال الرجل نُشِرت على حلقات تحت عنوان: «فلسفة الجدّ والعبث في أدب نجيب محفوظ». ولِم لا يكون عالم الحلم أكثر ثراءً من عالم واقعنا الشحيح؟ ألاَ يكون ما حدث هو الترجمة الحقيقيّة لوصيّة إمام الأجيال هيراقليط القائلة بأنّنا باليقظة نملك عالماً واحداً، ولكنّنا بالحلم كلٌ يملك عالمه؟

بلى! كان عالم أحلامي يحتجّ على عالم اليقظة في تلك الأيّام لإغتراب غنيمة كنت أراها أنفس من كلّ غنيمة وهي الأدب. إغتراب الأدب في واقع ذلك المكان و ذلك الزمان. غيابٌ ما كنتُ أحسبه عزاء تلك الحياة البائسة دفعني للقيام بمغامرة التبشير

بالأدب لإجبار الناس على حبّ الأدب. مغامرة الترويج لبضاعةٍ لا تعاني كساداً في السوق فقط، ولكنها تعاني الإنكار أيضاً. تعاني إنكاراً لأنها في العرف السائد رديفٌ لضياع! وكم يُدهشني اليوم أن أكتشف أن عقلية المجتمع البسيط ذاك كانت أقوى حُجّةً من عقليتنا التي تتباهى بالتعليم. لأنّ ماهو الأدب الأجدر بلقب أدب إن لم يكن سَيراً عدوساً في السُّرَى؟ ما هو الأدب الجدير بلقب أدب إن لم يكن ضلالاً عن سواء السَّبيل حتى لو تحجّج المتحجّجون فبرّروا السَّير في سبيل الضياع بالقول بأنّنا لا نجد أنفسنا إن لم نضيّعها، كما لا نعثر على ضالّتنا إن لم نفقدها؟ أوَ ليست الشاة المائة التي يتحدّث عنها الكتاب المقدّس تبدو في نظر الراعي أحبُّ من التسعة والتسعين التي لم تُفقد؟

الخُلاصة أنّي قرّرت أن أُعْلِي شأن الأدب باختراع أسطورة الأدب. إستعنت بمكتبة وزارة الأنباء والإرشاد في الحصول على بعض المصادر وذهبتُ لنادي النهضة بمنطقة «الجديد» لأُلقي على الناس محاضرة بعنوان «الأدب والأدباء في ليبيا». عندما أُعْلِنَ عن موعد المحاضرة صِرتُ عُرضةً للسُّخرية من جديد، برغم أنّي كنت أحوَج ما أكون للتشجيع في مغامرةٍ كتلك. سخر منّي الأقارب والأباعد ورأوا في نيّتي ضرباً من جنون. تألّمت بالطبع بسبب ذلك الدّاء الذي لاترياق له والذي مازلتُ أعاني منه إلى اليوم: **الحساسيّة الروحية المفرطة** التي لم أكن لأعلم وقتها أنّها

حميمة الحمَّى، حميمة الضلال، حميمة الأدب! ولكن لم أكن لأسمح لليأس أن ينال منّي ليقيني الخفيّ بأنّي لو استسلمت له مرّة فسوف يصرعني إلى الأبد. ذهبت إلى النادي في مساء أحد الأيام متوقّعاً الأسوأ. وكم كانت مفاجأة عظيمة بالنسبة لي كثافة الحضور. قرأتُ مزاميري على القوم (لأنّ الحماس الناجم عن كثافة الحضور امتلك أن يجعل منها مزامير حقيقيّة سيّما في ذلك الواقع الذي ظننته مُعادياً بفطرته لبدعةٍ كالأدب).

هذه التجربة شجّعتني على الإستمرار فقرّرتُ أن ألقي محاضرة ثانية عن أشعار عبد الوهّاب البيّاتي هذه المرّة. كان خياراً بَدَا موفّقاً من الناحية الأدبيّة (لأنّ روح أهل الواحات المطوّقة بشِعرٍ مُجَسّدٍ هو الصحراء كانت طبيعتها أكثر إستعداداً لتقبّلِ الأشعار مقابل النثر)، ولكن الخيار كان خاطئاً (بل وخطيراً) إذا تعلّق الأمر بنزعة أشعار الشاعر السياسيّة. ولم أكن لأكتشف ذلك إلاّ بعد الإنتهاء من كتابة المحاضرة لأفاجأ بوجوب تقديمها للرّقابة بالمطبوعات لإجازتها، وهو ما لم يحدث في التجربة الأولى. كنت أكثر براءة بالطبع (أو ربّما سذاجةً) من أن أعلم أن أي نشاط ثقافي يحمل هوية سياسية خفية في نظر النظام القائم، ويتوجّب على من يُريد ممارسته الحصول على موافقة مسبقة. ويبدو أن السلطات غفرت لي تجربتي الأولى ربّما لجهلي بالقوانين، أو ربّما ليقينهم بحُسن نواياي، وربّما لعدم ورود ما يمكن أن يستثير

الشبهة من وِجهةِ نظرٍ سياسية، دون أن أكتشف بعد فوات الأوان أن عين النظام هي العين الوحيدة بعد عين الطبيعة التي لا تنام، وهي على كلّ شيء عليم، برغم قدرتها على غضّ الطرف!

وضعتُ النصّ بين يدي السيّد محمد عبد السلام مسئول المطبوعات آنذاك وانتظرتُ الموافقة يوماً، يومين، أيّاماً، بلا جدوى. فقرّرت أن أذهب للإستفهام عن سبب التأخير من الرجل، ولكنّ رجلاً آخر إعترض طريقي. سألني عن اسمي وطلب إبراز هويّتي قبل أن يقتادني إلى رئاسة أمن فزّان في البنيان المجاور. هناك في قسم المباحث العامّة كان يجلس في انتظاري رجل أنيق الهندام، تنطق فيه السيماء بعبوسٍ أبديٍّ وريبةٍ دهريّةٍ هي سليقة كلّ من نصّبته السلطات جاسوساً يستقصي أفكار الناس قبل أن يكون جاسوساً على ألسنتهم. عرفتُ فيما بعد أنّه السيد عبد الحميد محارب رئيس جهاز المباحث العامّة الذي يجتنب أهالي كلّ الجنوب ذكر إسمه. رحّبَ بي وأجلسني على كرسي قبالة مكتبه ثمّ أخرج ملفّاً أصفر اللون فتحه لأرى محتواه لم يكن سوى نصّ المحاضرة. بدأ الإستجواب الذي لا أذكر تفاصيله الآن، ولكنّي لن أنسى البيت الشعري الذي كان بيت القصيد. إنّه البيت الذي وردت فيه عبارة «**الملك الحمار**» في إحدى قصائد البياتي التي لا أذكرها الآن. فالأسئلة التمهيديّة كانت عابرة وعامّة، ولكن التركيز كان على المقصود بعبارة: «**الملك الحمار**». في تلك

اللحظة فقط إكتشفتُ أن الأرض التي أدبّ عليها كل يوم هي مملكة، وأن النظام السياسي في البلاد هو نظامٌ ملكي، وأن هذا يعني أن القائم على أمر البلاد هو ببساطة **ملك!** فكيف يُنعت بلقبٍ منكرٍ كالحِمار مَن إعتاد أن يَرِدَ على الألسن مسبوقاً بكلمة مهيبة هي: **مولانا؟**

قلتُ في الإستجواب أن الشاعر يقصد الملك عبد الإله في العِراق، وربّما لا يقصد أيَّ ملكٍ حقيقيٍّ على الإطلاق، لأن إستخدام الرمز ناموس الشعراء. ولكن هل إقتنع داهية الجواسيس ذاك؟ كلّا بالطبع. تكلّم كثيراً لأفهم من وصاياه أنّه قرّر أن يغفر لي هذه المرّة مقابل مصادرة المحاضرة!

ولكن هل إنتهتْ تجربتي مع أجهزة المملكة الأمنيّة عند هذا الحدّ؟

هيهات أن أعلم أن ذلك الإستجواب لم يكن سوى البداية الأهون إذا قورنتْ بما انتظرني بعد أمدٍ لم يطُل كثيراً. فقد إقترفتُ حماقةً أخرى في نظر النظام عندما نشرتُ بجريدة «الأولمبياد» الصَّادرة بطرابلس (التي كنت مراسلاً لها في الجنوب) خبراً عن نيّة الجيش الإستيلاء على مبنىً فخم قيد الإنجاز لإتخاذه مقرّاً بالمنطقة بعد أن كان مُقرّراً أن يكون لرئاسة بوليس منطقة فزّان. كان خبراً عابراً لشائعةٍ تجري على ألسنة أهل الجنوب نشرتُه ضمن أخبارٍ أخرى أعتدتُ أن أُذيّل بها مقالتي الأسبوعية بتلك الصحيفة

المتوّجة بعنوانٍ ثابت هو: «فوانيس من الجنوب». خبرٌ بريء لم يخطر ببالي يوماً أن يكتسب بُعْداً سياسيّاً. حدث هذا عام 1967م. أي في وقتٍ لم يَعُد خافياً فيه على أحد الصراع المُميت الدائر في الخفاء بين قطبين يتنافسان على الهيمنة على سياسة البلاد هما الجيش وقوى الأمن التي تتزعّمها سلطة بوليسيّة مطلقة الصلاحيّات هي ما يُعرف بـ«القوّة المتحرّكة» التي ذاع صيتها أخيراً بسبب وحشيّتها في قمع المظاهرات الطلاّبية. وكان من الطبيعي أن يتعاطف النظام السياسي القائم (بل وينحاز) إلى الجناح البوليسي الذي يحقّق له الأمان ضدّ الجيش كخصمٍ يرى في تنامي نفوذه خطراً دون أن يتّخذ موقفاً معلَناً بالطبع. وها هو الرجل المطلق الصلاحيّات في كلّ ما له صلة بأمن مناطق الجنوب بأكمله، المتوّج المنكبين بأرفع رتبة عسكريّة في ناموس المملكة، الحاكم الفعلي لمنطقة فزّان، الملقّب بالزّعيم نوري خالد يستدعيني لزيارته بمقرّه الرهيب الواقع في قلب المدينة. أدهشني الإستدعاء لأني لم أتوقّع يوماً أن أمثُل بين يديّ هذا السلطان المهيب ذي البشرة القانية التي لا تُشبه بشرة الليبيين الملوّحة بالشمس، بشرة كولوغليّة الساحل الذين تجري في عروقهم الدماء التركيّة التي لم تختلف في عُرف القوم عن دماء الأمم النصرانيّة.

الزعيم نوري خالد المدجّج المنكبين بالتيجان والنجوم والسيوف، بقامته المتوّجة بحدبة منكرة، الذي تنازل في أحد

الأيام عن لون بشرته، وعن أصل سلالته، وعن تَرَفه، وعن حفنةِ ألقابه التركيّة، وعن رُتَبِه العسكريّة المجيدة، ليرتضي الذهاب إلى واحات الصحراء، متنكّراً لوصيّة الخبثاء الشائعة التي تقول أنّ العمل سائقاً لحافلة في حاضرة الوطن أفضل من الذهاب حاكماً على حاضرة الجنوب!

أقبل الرجل بنيّة بطوليّة في تلك الأيام لمجرّد قبوله الحلول في سبها المعفّرة بالأتربة، المتحجّبة أبداً بسُحب الغبار. ولكن إحساس الناس بهذا الإحسان ما لبث أن تبدّد عندما علموا أن الرجل لم يقبل العمل بينهم تواضعاً، ولكنّه جاء إجباراً. لم يتفضّل للحلول طائعاً، ولكن قصاصاً. وبرغم بقاء تفاصيل الجرم الذي إرتكبه في الشمال مجهولاً بَيْدَ أن الألسن أكّدتْ أنه لم يأتِ لحفظ الأمن في ديارهم تضحيةً كما توقّعوا، ولكنّه أقبل لتمضية عقوبة من أمر القائمين على أمر البلاد مثله في ذلك مثل كل الذين إنتدبتهم الحكومة في السابق للعمل في هذا المنفى! بلى! في تلك الأعوام كانت فزّان ما تزال منفى الدولة المركزيّة في الشمال كما كانت منذ مئات السنين، أي في زمن حكم الأسرة القرمانلية، وحكم الأتراك الذين سبقوا حكم القرمانليين.

ذهبتُ لزيارة هذا البعبع في مكتبه فاستقبلني بسحنةٍ غامضةٍ موسومةٍ بعبوسٍ قبل أن يبدأ التحقيق. أعرب في البداية عن إستنكاره لنشر خبرٍ كهذا في صحف العاصمة قبل التحقّق من

صحّته، فاستجرتُ بصيغة الخبر لتبرير هذه الخطيئة. قلتُ أنّ نصّ الخبر يبتديء بعبارة: «يُشاع..»، و الشائعة في عُرف المنطق لم تكن يوماً يقيناً، ولا جزماً يمكن أن يُعاقب عليه القانون. و لا أعرف كيف هداني الحدَس للتعلّق بهذه القشّة و التي لم أتوقّع أن تقصم ظهر البعير. وها هو الرجل المخيف الذي يرتجف في حضرته حتّى ذوي المقدرة في كلّ المنطقة يبتسم في وجهي. إنقشع قناع العبوس ونعتني بعبارة «يا إبني» لأوّل مرّة قبل أن يعترف بدهشته بقدرة معشر الصحفيّين على التنصّل من خطاياهم للإفلات من العقاب. ضغط على زرٍّ فدَخل النادل ليطلب لي قهوة. تحدّث بعدها عن سيرة هذا البنيان بحميميّةٍ من يروي سيرة معشوقة. تحدّث عن الجهود التي بذلها في سبيل وضع هذا المشروع موضع التنفيذ. لم أستوعب وقتها سرّ الأهميّة التي يُمكن أن تكون لبنيانٍ إلى هذا الحدّ الذي تتحوّل فيه سبباً لتفجير الصراع بين أعظم سلطتين تتنازعان مصير البلاد. ولكنّي أدرك اليوم أنّ السرّ ليس في شحّ الموارد وبؤس الميزانيّة في تلك المرحلة الإنتقاليّة التي كان فيها إسكان الناس من أولويّات التنمية النفطيّة وحسب، ولكن في طبيعة الصّراع الخفيّ بين الفريقين. هذه الطبيعة التي يلعب فيها الكبرياء دور البطولة. وهو ما كشف لي عنه البُعْبُع عندما مال نحوي فجأة ليسرّ لي بصوتٍ متوسّل: «نحن نُريد هذا المبنى! نحن نُريد هذا المقرّ. لقد فعلنا من أجله المستحيل ومن حقّنا أن يكون من نصيبنا، لا من نصيبِ الجيش!

«. كم أدهشتني لهجة الرجل يومها! أيُعقل أن يتنازل هذا البعبع عن إستكباره ليتوسّل شابّاً غرّاً وهو صاحب السلطان الذي يُمسك بالصّولجان؟ خرجتُ من هناك لأُحدِّث نفسي كيف تسامح معي هذا البُعبع. لم يتسامح مع حُمْقي وحسب، ولكنّه توسّلني أيضاً! فهل تمتلك كلمة في صحيفة هذه القوّة التي تقهر مَن لا يُقهر؟ لقد توقّعتُ في تلك الورطة الأسوأ، وها أنا أخرج من المكان مُكلّلاً بشرفِ الإستجداء! وكان عليّ أن أنتظر أعواماً حتّى أكتشف حقيقة موقف الرجل الذي ظننتُه تسامحاً. فقد حدّثني الأب بعد عشر سنواتٍ من تلك الحادثة كيف قام الزعيم نوري خالد بدعوته ليشكوني له! لم يحدّثه بالطبع عن قضيّة البنيان، ولكنّه حدّثه عن توجّه إبنه السياسي الخطير! وعندما تساءل الأب عن هويّة هذا التوجّه السياسي الخطير أجابه بأنّه: الشيوعيّة! الأب قال لي بأنّه سخر منه، وصارحه قائلاً بأنّه من المضحك أن يعتنق إبنه هذه الشيوعيّة إذا كان هو الأب لم يسمع حتّى باسمها، فكيف إستطاع الإبن أن يعثر عليها؟

رواية الأب نبّهتني إلى الجذور التاريخيّة للتّهمة التي لاحقتني وسمّمت دُنياي بعد إنقلاب 1969م، لأنّ ما لم يخطر لي على بال حتّى ذلك الوقت الحلف السرّي للأنظمة السياسيّة التي تبدو لِلملأ في عداء، ولكنّها ترث الوثائق التي تُدين الشرفاء مثل تَرِكةٍ نفيسةٍ ليُصبحوا منبوذين ومطارَدين في كلّ الأنظمة وعلى مرّ الأزمنة.

ولمّا لم يوجد دُخانٌ بلا نار كما يُقال فقد إستنتج مخبروا الأجهزة الأمنيّة إنتمائي للأيديولوجيا الشيوعيّة من خلال صداقاتي بأدباء اليسار في البلاد الذين كنت ألتقيهم بإنتظام أثناء زياراتي المتكرّرة إلى طرابلس أمثال عبدالله القويري، وجيلاني طريبشان، وأمين مازن، وعلي بيري، وغيرهم من الذين سيرد ذكرهم. وإذا كانت النزعة اليساريّة هي أفيون الوَسَط الثقافي في تلك المرحلة، فإن إعتناق الشيوعيّة هو ما لم يخطر لي على بال، ولا أظنّه خطر على بال أصدقائي أدباء الحاضرة لا بسبب قناعاتي الدينيّة أو الوجوديّة فقط، ولكن لسببٍ أبسط وهو جهلي بها حتّى ذلك الحين. أي قبل أن يتبلوَر موقفي من هذه العقيدة المعادية للإبداع بطبيعتها لأكسب عداوة أدباء عرب كثيرين في موسكو تالياً، بسبب هذا الموقف دون أن أخسر صداقة الأدباء الروس الأدْرَى بحقيقتها! وأعترف اليوم بأنّ هذا الموقف كان وليد الحَدَس أكثر من كونِه وليد تجربةٍ أو علمٍ؛ أو بالأصحّ كان رؤيويّاً بالنسبة لإنسانٍ كانت له الروح الرؤيويّة خارطة طريق منذ البدء فلم تخذله هذه الروح أبداً. وأعتقد أن سبب بصم أهل الثقافة بهذه التهمة (التي كانت حتّى في العُرف الإجتماعي كبيرة كبائر) ليس الجهل بحقيقتها كنظامٍ مؤسّس في حزب يشترط إعتناق الماركسيّة، ولكنّه سببٌ ناجمٌ عن سوء نيّةٍ في سياسة الأجهزة الأمنيّة التي تدري جيّداً عدم

إنتماء هؤلاء لمنظّمة حزبيّة من هذا القبيل، لأنّ الجميع يعلم بخلوّ ليبيا من أي حزب بهذه الشروط.

وأكثر ما أدهشني ومازال يُدهشني إلى اليوم هو ذهاب مبدعٍ لينتمي إلى حزب! إنّه في يقيني خيارٌ لا يختلف عن ذهاب المبدع ليضع في يديه القيد طوعاً! إنّه تسليم زِمام الأمر لقوّةٍ خارقةٍ في قدرتها على إبادة الإرادة وإماتة الروح. **إنّها صفقة مع ميفستوفلس** بامتياز!

حديث الأب المتأخّر كشف لي سرّاً آخر. كشف لي سرّ تساهل الزعيم الرّهيب مع شخصي. هذا التساهل الذي ظننتُه من الرجل تسامحاً، في حين دلّل لي إستدعاء الرجل للوالد على خوفٍ بَدَل التسامح. فالسلطة الحقيقيّة في ليبيا ذلك الزمان كانت ما تزال بيد أعيانِ القبائل. ولم تكن السلطات الحاكمة بفزّان تجرؤ على إستصدار أمر إعتقالي دون أن تقرأ حساب القبيلة، وحساب ردّة فعل الأب كزعيمٍ لهذه القبيلة! وكان العُرف يقضي في مثل هذه الأحوال اللجوء للقبيلة ولِوليِّ الأمر بالقبيلة قبل إتّخاذ أيّ إجراءٍ إداريّ، فكيف بالإجراء السياسي؟ وهو ما فعله البُعبع بناءً على شورى دُهاة الحكم في المنطقة.

ولكنّ المثير في هاتين التجربتين مع أجهزة أمن فزّان هو النتيجة ذات الطبيعة النبوئيّة التي إنتهى إليها موضوعَيْهما. فعقب إنقلاب 1969م جلستُ أستمع في الأيّام الأولى للمذيع وهو يقرأ

برقيّات التأييد التي ظلّت الإذاعة تتلقّاها من مختلف فئات المجتمع إبتهاجاً بالحَدَث. وقد عبّر أحدهم عن رحيل الملك إدريس إلى اليونان التي لم يعُدْ منها ببيتٍ شعريٍّ قديمٍ يقول:

«ذهب الحمارُ ببنت عمرٍو

فلا رجعتْ ولا رجعَ الحمارُ!»

تذكّرتُ لحظتها عبارة «**الملك الحمار**» التي كانت سبب الإستجواب ومبرّر حجب المحاضرة، فأيقنتُ أن ثأر الأقدار لنا رهينٌ بزهدنا في الثأر. ويكون ثأرها أعظم كلّما كان تسليمنا أعظم قدراً. وهو ما أثبتته الأيّام في تجربة البنيان التي إستفزّت بعبع الأمن: فما أن إنتهى العمل من تشييد المقرّ المنتظر حتّى استولَى عليه الجيش ليتّخذه مقرّاً بعد الإنقلاب عملاً بوصيّة الأجيال القائلة: «**الويل للمهزومين!**».

7
الفَسَاد

ولكن ما سرّ التململ الذي قاد إلى إنقلاب 1969م؟ وهل عاش الناس تململاً حقّا؟

هل كان الملك إدريس السنوسي هو السبب، أم سياسات ساسته هي السبب؟

من المعروف أن الملك إدريس لم يكن لا حاكماً مستبدّاً ولا فاسداً. بل سيرته الزهديّة خلعتْ عليه مسوحَ درويشٍ يعتزل الدنيا في قصر الخلد بطبرق إستنساخاً لسيرة أسلافه من أهل التصوّف الذين إعتنقوا الخلوة في رباطٍ هنا وزاويةٍ هناك أمثال الجدّ محمّد السنوسي مؤسّس هذه الحركة الدينيّة الذي إتّخد من واحة الجغبوب مقاماً. وهي حركة لم تلعب في الماضي دوراً تبشيريّاً في أواسط إفريقيا فحسب، ولكنّها لعبت دوراً تحريريّاً أيضاً سواء في مقاومة تغلغل الإستعمار الفرنسي في قلب القارّة، أو في التصدّي للغزو الإيطالي لليبيا. ولم يكن الليبيّون ليجتمعوا بعد الإستقلال تحت راية الملك إدريس لو لم ينتمِ الأخير إلى سُلالات

الحركة السنوسيّة ذات النزعة السياسية المجبولة بالدِّين. ولا أحد يستطيع أن ينفي أن تولّيه كان الضمان الوحيد لوحدة الوطن الليبي الممزّق الأوصال. وهو دورٌ رمزيٌّ إستطاع بروحه الزهديّة أن يُنجزه بإخلاص. أعتقد أنّنا لا نملك الحقّ في اتّهام الرجل بالتقصير في قيامه بهذه الرسالة البطوليّة في تلك المرحلة العصيبة، لأن خطيئة ما حدث بعدها رذيلةٌ من صُنع الترجمة لا من إبداع الأصل. أعني أن محاولة تحويل الدِّين إلى دولة مغامرة لم تُفلح يوماً، لأن الدولة مفهومٌ مُعادٍ بطبيعته للدِّين. ففي الوقت الذي تتغنَّى فيه الديانات بالقيَم الأخلاقيّة تروّج الدولة لديانة أخرى تصير فيها السياسة معبوداً بديلاً للربّ، وتقوم القوانين الوضعية ركيزةً تحلّ محل النواميس الأخلاقيّة. إنّها مغامرة تشييد الفردوس على الأرض التي إنتهت إلى كارثة إنسانيّة في كلّ مرّة قبل أن يستفيق أقوياء هذا العالم من أوهامهم ليَقنعوا بالحدّ الأدنى من المستحيل الأقصى متمثّلاً في نظامٍ يعتنق حريةً لم تعبّر عنها يوماً الديمقراطيّة إلاّ قبولاً بمبدأ «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان»، تحت راية عدالة هيهات أن تفلح في تحقيقها القوانين الوضعيّة باغتراب القوانين الأخلاقية. وكان من الطبيعي أن تفقد الحركة الدينية (كالحركة السنوسيّة) مبرّر وجودها ما أن تطأ وصايا مريديها عتبة معبد إسمه الدولة. وكان على رسولها (الملك إدريس) أن يسلّم مقاليدها، بل وشِعار مجدها المتمثّل في التاج، لمحفل الكهنة القائمين على أمر المعبد الجديد لتتولّى هذه العصابة اللئيمة المتنكّرة في مسوح

الكهنة مسئوليّة إدارة شأن السّواد الأعظم المسكين بروحٍ جديدةٍ ركيزتها ذَرّ الرماد في العيون، وبسياسةٍ جديدةٍ ناموسها المنفعة، وبديانةٍ جديدةٍ ربُّها المال!

بلى! في هذا العالم الخالي من الشّعر، بل ومن أيِّ مثال، تبدأ إستباحة الأوطان. تتكشّف الأقنعة ليتبارى أبطال المسرحيّة في نهب الوطن. لا يكتفون بنهب ثروات الوطن، ولكنّهم ينهبون روح الوطن أيضاً، فلا يملك صاحب المُثُل إلاّ أن يستغيث. بلى! إستغاث الملك إدريس عام 1962 م بأعلى صوت إستنكاراً لما حدث! كنتُ في زيارةٍ للأب في مقرّ عمله بأوباري يومها. وكنت أتسلّى بسماعِ المذياع عندما سمعتُ ذلك الصوت الفاجع للشيخ الجريح وهو يستنكر في بيانه الغريب كبائر الحكومات المتوالية على حُكم مملكةٍ لم يملك منها إلاّ الإسم، ويتوعّد بالتخلّي عن حكمٍ لم يتولَّ مقاليده يوماً، ويناشد أصحاب الضمير أن يهبّوا لنجدته في نيّته لتطهير البلاد من الفساد!

و المثير حقّاً ليس أن تشهد البلاد فساداً، ولكنّ المدهش هو أن يصير الفساد ظاهرة تدعو ملكاً للإنسحاب من بلادٍ مفلسةٍ بالطبيعة تعيش حتّى ذلك الوقت على المساعدات الأجنبيّة ولا وجود فيها لشيءٍ يمكن أن يُسرَق غير الصحراء!

ولكن المفارقة أن الفساد في الذّمم خلّة خبيثة لا تستأسد إلاّ في مثل هذه الأوطان الخالية ممّا يُسرق كالصحراء، ولو لم يكن

الأمر كذلك لما قام مصطفى بن حليم رئيس الوزراء في الخمسينات ببيع صحراء جنوب غرب ليبيا المسمّاة «إيجليه» (حاسي مسعود) إلى فرنسا لتصير منذ ذلك التاريخ إلى اليوم مصدر الجزائر النفطيّ الوحيد!

بلى! لقد إختلسَت الحكومات المتعاقبة قُوْت النّاس المتمثّل في المساعدات الأجنبيّة إختلاساً منتظماً لينتهي الأمر برؤساء هذه الحكومات بِبيع تراب ليبيا في الصفقة المشبوهة الذائعة الصِّيت. ومن يقرأ محاضر إجتماعات مجلس الأمة في بداية الستينات سيُصاب بالذهول من هول الإتهامات الشجاعة الموجّهة من أعضاء هذا المحفل إلى أعضاء الحكومة بشأن الفساد!

في هذا المناخ الموبوء من الطبيعي أن يبدو الشيخ (الأقرب أن يكون في خلوته الإختيارية ناسكاً أو درويشَ طريقةٍ) مغترباً لا عن مملكته وحسب، ولكن عن دُنياه أيضاً. فَقَدر الذين إرتضوا أن يملكوا دون أن يحكموا هو المنفى!، لأنّ الذين وجدوا أنفسهم سادةً لا يتحلّون بروحٍ أخلاقية حتى يعبأوا بأشقياء أمثال الملك إدريس فيستجيبوا لندائهم أو يُعيروا إنتباهاً لإستغاثاتهم؛ لأنّ دورهم كملوك أن يقنعوا بكونهم رمزاً للَملَمة الشمل، والعرش الوحيد المناسب لصاحب الرمز هو الرباط، هو الزاوية، هو قصر الخُلْد الذي لا يختلف عن واحة الجغبوب!

ولكن هذا المنفى لم يمنع الملك الدرويش من أن يلقّن القوم

درساً في النزاهة، بل دروساً في النزاهة، في زمنٍ صار فيه الفساد هو العملة السائدة، برغم أنّه فسادٌ سيبدو بعد حين نزاهةً أيضاً إذا قورن بالفساد الذي سيسود في النظام الذي سيلي. وسيرة نزاهة الرجل بدأت في الخمسينات بحادثة مقتل مستشاره الشلحي الأكبر بيد أحد أقرباء الملك، إبن أخيه الشريف على ما يُروى. وقد توقّع الجميع أن يتسامح الملك بشأن العقوبة بحكم القرابة، ولكن الدولة فوجئت بالملك يُصدر مرسوماً ملكيّاً بتشديد الحكم على الجاني بدل تخفيف القصاص على سليل الأسرة المالكة. وهكذا تمّ تنفيذ حكم الإعدام في الرجل بدل السجن المؤبّد!

هذا عن درس العدالة. أمّا درس النزاهة فتُترجمه أسطورة أخرى أعقبتْ رحلته إلى الخارج التي لم يعُد منها: فقد قضت اللوائح الماليّة بالمملكة وجوب صرف مبلغٍ ماليٍّ لكلّ مسئولٍ بالدولة عند السفر للخارج في مهمّةٍ رسميّةٍ على أن تتمّ تسوية هذه العُهدة عند العودة طبقاً لمستنداتٍ قضى التقليد بالتّغاضي عنها بحيث يُصبح المبلغ غنيمة قانونيّة غير قابلة للإسترجاع فعليّاً. وقد فوجيء سَدَنَة إنقلاب 69م بعد شهورٍ من إستيلائهم على السلطة في البلاد برسولِ الملك يحمل مغلّفاً يحوي مبلغاً بثلاثين ألف دولار أمريكي المتبقّي من العهدة المالية البالغة خمسين ألف دولار لتغطية مصاريف لا العائلة الملكيّة وحدها، ولكن مصاريف الحاشية الملكيّة أيضاً! وهو ما يعني أن صاحب الجلالة لم يُنفق

في رحلته إلى اليونان وتركيا سوى عشرين ألف دولار بما في ذلك نفقات الحاشية، فأعاد الثلاثين ألف دولار الأخرى إلى بيت المال مشفوعةً بمستندات صرف العشرين الباقية!

الملك إدريس السنوسي هو الإنسان الذي لم ينصفه الجيل، ولا التاريخ؛ لأنّ الزهد إذا كان في نظر أهل الباطل دروشةً، فإن النزاهة لابدّ أن تبدو في نظرهم بلاهةً. وفي زمنٍ تغترب فيه القيم كهذا لابدّ أن تستيقظ الشهوة إلى التغيير. التغيير! إنّه الدمية المعبودة في ناموس أولئك الذين أعجزهم أن يغيّروا ما بأنفسهم!

8
المَخَاض

في الفترة الواقعة بين 1966م و 1969م بلغت النهضة الصحفيّة في البلاد ذروتها تتصدّرها جريدة «الحقيقة» الصادرة ببنغازي مدعومةً بقفزةٍ تقنيّةٍ في الشكل، وبكوكبةٍ من فرسان القلم في المضمون، لتشهد الحركة الثقافيّة الليبية على يديها ميلاد ظاهرة صادق النيهوم الذي كان يكتب من منفاه في فنلندا بروح سخريّةٍ فلسفيّةٍ وذخيرةٍ ثقافيّةٍ ثريّةٍ إستهوتْ عشّاق الأدب، وميّزتْه عن نزعة السرد التقليدي آنذاك. ولم أكن أدري في تلك الفترة التي كنتُ أتابع فيها نصوصه بشغف أن تجمعنا الأقدار في مؤتمر الأدباء الأوّل المنعقد بطرابلس عام 1968م حيث كان نجم ذاك المحفل بلا مُنازع. فبعد فراغي من مُداخلتي عن أمثال الطوارق فوجئتُ به يتقدّم نحوي ليُعرب عن رغبته في تعلّم تلك اللغة المغمورة التي جَرَتْ على لساني للتوّ أثناء ترجماتي لوصَايا القوم. عبّر عن رغبته بتلك اللهجة المميّزة المشفوعة بروحِ السخريةِ فلا يُعرف عمّا إذا كان جادّاً، أم هازلاً. كان الرجل حتّى ذلك الحين شخصيّة

أسطوريّة ملفوفة بالغموض. شخصيّة أسطوريّة لا في منطقه، أو أسلوبه الأدبي، أو في مظهره وحسب، ولكن في شخصه أيضاً، وفي سيرته الدنيويّة المثيرة للجدل. وهو ما من شأنه أن يوقظ الحَسَد في نفوسِ ضعاف النفوس ليجد الرجل نفسه وقد حقّق مجداً بصنع الخصوم؛ لأن الصيت هو ما لا تُطيقه طبيعة البشر، ولن يهنأ لهؤلاء بال ما لم يرجموا صاحبه بحجر!

كان إنطباعي الأوّل على شخصه هو عريّ الروح! إنّها تلك الغنيمة الملتبسة التي تختم على صاحبها ببُعْدٍ إغترابيّ، بسيماء التراجيديا. إنّها البصمة التي لا تُفلح في إخفائها البهجة التي تشعّ في الوجه، ولا المرح، ولا إيماء الذكاء الذي تنطق به العينان، ولا الظمأ إلى المعرفة الذي يتسلّط في المقلتين. إنه تاجُ قداسةٍ على رؤوس الأبرياء، ولكنّه شعارُ خطرٍ بالقَدَر نفسه؛ عُريّ الروح تاجُ قداسةٍ لأنّه نِتاج حريّة، ولكنه شعارُ خطرٍ بسبب غياب أيّ حولٍ أو قوّة، لأنّ شفرة النصل تترصّد الروح العارية، وقَدَرها نزيفٌ حتّى أنفاس النزع الأخير، لأنّ الحريّة ليست ملاذاً، ولكنّها صليب!

لم أتوقّع يومها أن يصير لي صاحب هذا الوجدان الرومانسي خلّ روحٍ ربطتني به صداقة نقيّة إستمرّت منذ ذلك التاريخ حتى يوم إستودعته تراب معشوقته بنغازي في خريف 1994م، كما لم أكن لأتنبّأ أيضاً بأن الحجارة التي بدأت الأوساط الثقافيّة ترجم بها

النيهوم آنذاك سوف تصير لي يوماً أيضاً قَدَراً لا لشيء إلاّ أن ما يُسمّى نجاحاً هو الخطيئة التي لا تُغتفر في عُرف الشعوب. وبرغم إستطاعته تأسيس مدرسةٍ بأسلوبه الأدبي المميّز فتَنَتْ جيل من أدباء الستينات الشبّان فحاكوا هذا الأسلوب (دون أن يرتقوا إلى مستوى أفكاره بالطبع) بيدَ أنّه لم يَحْظَ بالإعتراف الذي يستحقّ على المستوى الثقافي العربي. وها هو يعترف لي بعد ذلك التاريخ بربع قرن قائلاً أنّ سبب هذا المنفى يكمن في الهويّة. هذه الهويّة المغتربة آنذاك مرّتين لا مرّة واحدة: مرّةً لإغترابها عن العالم بسبب عزلة دهور حوّلتها غنيمةً للمجهول، ومرّة بسبب سقوطها في جبّ نظامٍ سياسيٍّ عدميّ عقيدته الجنون. وكان من العسير بعدها (بل ومن المستحيل) أن يقتنع أيّ مخلوق بصواب وصيّة أرسطو القائلة بأن من ليبيا يأتي دائماً جديد! إنّ الجديد في هذه الحال سوف يُعَدُّ إستفزازاً جديراً بإنزال القصاص بدل أن ينال ما يستحقّ من إعترافٍ، أو عنايةٍ، أو إكبار. وهي تجربةٌ لم أكن لأدرك مرارتها لو لم يُقدّر لي أن أحيا تجربة مماثلة. فردّة الفعل في مثل هذه الحال لا تكتفي بالإستنكار، ولكنّها تُجابَه بأشرس أجناس العداوة أيضاً. ولكن العداء المجانيّ الكبير مهّد له عداءٌ مجانيٌّ أصغر أصابني بجرحٍ عميق لسببٍ بسيطٍ وهو أنّي لم أكن لأستوعب في ذلك العهد المبكّر من إقبالي على الدنيا أنّ الإنسان للإنسان ذئب برغم أنّ الذئب للذئب ليس ذئباً! وقبل سرد فصول هذه العضّة الممزوجة بلُعاب السُّعَار، من الصواب تناول حيثيّاتٍ

سبقتها لا لتبريرها، أو تفسيرها (لأنّ لا وجود لتبريرٍ ولا لتفسيرٍ لأيِّ فعلٍ شرّير)، ولكن تلبيةً لمنطق يقتضيه تسلسل الأحداث. فالحلم بالفردوس كان أفيوننا أيضاً؛ لأنّ التطلّع إلى عالمٍ مأمولٍ تسود فيه العدالة ويحقّق عنقاء الأجيال الأسطوريّة المسمّاة سعادةً لم يكن مثالاً رومانسيّاً في ذاكرة الماضي، ولكنّه كان غاية وجودنا أيضاً. غاية وجود النخبة الثقافيّة بالذّات برغم تباين الرؤية. هذه الرؤية التي لم نكن حتّى ذلك الوقت نجرؤ فنقول أنها أيديولوجيا.

إنّه زمن الظمأ إلى الحقيقة، لأن الفطرة حقلٌ بتولٌ يهفو لتقبّل البذار بقطع النظر عن هويّة البذار، فيبدأ التخبّط. تخبّط الظامئين لملء الخواء الرّوحي فتكون الهِبَةُ إنحرافاً باديء ذي بدء. لأن الحقيقة هي ما لا يُنال بدون تراكم الإنحرافات، بدون الإعتراف بتراكم الإنحرافات. وقد تزامن هذا الطلب بحلول نكسة 67 م. تزامنت النكسة في مرحلة الطلب الخجول لتطعن طبيعته البتول، وهي طعنة لم تحدث دون أن تصطحب معها وصيّةً بالنسبة لأمثالي الذين لم يعلّقوا الآمال منذ البدء على ما كان يُعرف بـ«المشروع القومي». جاءت الهزيمة المنكرة لتقول لنا بالحرف الذي يُميت بأنّ من العبث البحث عن الحقيقة في السياسة. وأضافت الأسوأ فقالت أن الساسة عصابةٌ ليست طريدة الحقيقة وحسب، ولكنّهم أعدى أعداء الحقيقة! بعدها بدأ اشمئزازي بكلّ شيء مؤدلج سيّما في مجال الأدب. إشمئزازٌ عاش في الباطن دوماً وحدّثني به الحَدَس مِراراً قبل أن يطفو خارجاً بفعل بلبلة الأعوام التي تلَت

النكسة. وهي نكسةٌ لم أقرأ في أسبابها الرسالة التي تشدّقتْ بها وسائل الإعلام بوصفها هزيمة عسكرية أو سياسيّة أو أيديولوجيّة، ولكنّي قرأت فيها بوحي الصحراء ما لم يُقرأ وقتها. قرأت فيها **بُعدها الأخلاقي!** وأعتقد أن عدم قراءة هذا البُعْد هو السبب الذي أدّى إلى هزائم أخرى. أدّى إلى الهزائم المُخجلة التي توالت على المنطقة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم. وأحسب أن العماء القومي، أي ذلك التعصّب المجبول بالسُّعار الجنوني، قد غذّى المحنة الأخلاقيّة لتصير داء المجتمع الخبيث. ذلك أن القائمين على أمر الناس من أهل الحكمة لم يُدركوا أنّ المبالغة في الدفاع عن النفس هو عدوان، لأنّ البرزخ الفاصل بين القطبين المتضادّين شعرةٌ أكثر هشاشةً ونحولاً من خيطٍ في نسيجِ عنكبوت. وكم أحزنني مرأى خُصومي بالأمس في المغامرة القوميّة وهم ينكّسون بعد النكسة الرؤوس. هرعتُ في قراءاتي لحرم الأدب الكلاسيكي بحثاً عن البُعد المفقود. بحثاً عن البعد الإنساني. عن البعد الوجودي. عن البعد الدينيّ. الدينيّ ليس في مفهومه الحرفيّ، ولكن في جوهره الروحي. **في جوهره الذي يختزلُ كلّ الأبعاد ليُعيد إنتاجها في معزوفة أسطورية تنطقُ خطاباً كونياً برغم رطانتها الغيبيّة!**

بدأتُ أتلمّس طريقي بخطوٍ متواضع في صحف الشمال: في «الأولمبياد»، ثم في مرحلتها بعد تغيّر إسمها إلى «الفجر»، في «ليبيا الحديثة»، في «الإذاعة»، في «الحرية»، وغيرها.

خطوتُ بخجل. خجل مزدوج: خجل في الخطاب المدوّن،

وخجل في المسلك الدنيوي. خجل بحثتُ له عن تأويل منذ زمن فلم أجد له تفسيراً غير الخجل الناجم عن الحضور في الوجود. هذا الحضور في الوجود الذي لم يكن ليحدث لو لم تكن سبباً له خطيئة كبرى لا تُغتفر. خجل صاحبني من المهد وسيرافقني إلى اللّحد بسبب حضوره في الجينات كجرثوم خبيث. خجل دعاني علي بيري لمداواته كأنه الوباء في محاضرة قرأها عليَّ أثناء جولتنا المسائية التقليدية بشوارع الحاضرة، في حين عبّر لي الصالحين نتفه رئيس تحرير «ليبيا الحديثة» عن جناح الداء المبثوث في الخطاب الأدبي فقال عندما دخلت عليه في مكتبة لأول مرة: «أيعقل أن تكون أنت؟ من يقرأ ما كتبت يحسبك في الثمانين!». ولكن روح الخجل لم تكُن لتمنعني من شنّ حملة نقدية (أراها بيقين اليوم ظالمةً) على الشعر المغترب عن الواقع كان أوّل ضحاياها نزار قبّاني في مرحلته التي سبقت صدور ديوانه: هوامش على دفتر النكسة. كانت سلسلة مقالات بعنوان «قصائد نصف مجنزرة» مكتوبة بروح عصرٍ هيمن عليه شبحُ الواقعية النقدية سيّئ السمعة وكان على شخصي أن يخضعَ لإستجوابٍ صارمٍ ثالث بسبب هذه الدراسة الطائشة!

ولحسن الحظّ فإنّ سببَ السخط لم يكن سياسيّاً هذه المرّة، برغم أنه اكتسب هذه الطبيعة إنطلاقاً من الموقع الوظيفي الذي تبوّأه صاحبُ الإستجواب: إنه مدير عام مطبوعات المملكة كلّها

السيد الجيباني وزير الثقافة الفعلي الذي رأى من صلاحياته أن يتدخّل لنصرة مريده ومثاله الشعري الأعلى نزار قبّاني الذي تعرّض للأذى على يد أديبٍ لم يكفه أنه عديم أدب، ولكنه يتجاسرُ فيتطاول على كهنة الأدب!

إستنكر الرجلُ الدراسة، ووبّخني على وجهة نظري النقدية المعادية لروح الجمال كغايةٍ قدسيةٍ في كل أدب قبل أن يُسمِعَني عبارة لم أكن لأنساها أبداً برغم عدوانها لا على منطق النقد، ولكن لعدوانها على المنطق عارياً. قال لي أن عليّ أن أكتب الشعر وأذهب لأقول على الملأ: «هكذا يجب أن يُكتب الشعر!» بدل أن أكتفي بنقد الشعر!

لم أقل لذلك الرجل العجوز إن مبدأَ حريّة الرأي يستدعي قبول الجدل في ساحات الرأي، أي الصحف، وليس إخضاع صاحب الرأي لإستجواب ذي سجيّة سياسية في قضية ذوقية، بل وجمالية. لقد رأيت فيه أباً يحرصُ على تقويم إبنٍ بوصايا لو استوعبها لصارت لرحلته زاداً. وهي الزادُ بالفعل عندما أتأمّلها بعقلية اليوم. فموقف المرحوم الجيباني يجب أن يُقرأ كغِيرة على الأدب من جانب، وكحرص على مسيرة الناشئين لإجارتهم من الضلال. إنها عملٌ مثيلٌ لعصا معلّم الواحات المستخدمة لقمعُ الغرور!

ولكن هذا ليس كل شيء في الوصيّة إذا قرأناها بروح عصرنا الذي يغتربُ فيه الإنسان كل يوم عن الكتاب وعن الصحيفة، وعن

المتابعة والتواصل. إن الاستجوابَ كان برهاناً ساطعاً على النّهم إلى القراءة. بل واجب القراءة. و إلاّ ما الذي يدعو رجلاً عجوزاً يُشرفُ على شؤون الثقافة في المملكة بأسرها وهو قابعٌ في مكتبه المترَف بالعاصمة أن يحرص على ما يكتبه صحفيٌّ مغمور في صحيفة مغمورة تصدرُ في أعماق الصحراء الكبرى، لولا الإحساس بالحرف المكتوب كرسالة؟

إنّه وعيٌ مبيّتٌ مستعارٌ من روح الأسلاف الذين أحاطوا كلّ من استطاع أن يفكّ الحرف بطقوس إكبار إرتقت إلى مستوى التقديس، لأن الحرفَ المزبورَ في يقينهم كان بمثابة قدرة سحريّة، أو عبقرية إستثنائية، مؤهّلة لإختراق حُجُب الغيوب لتأتي من هناك بتميمة الإعجاز. فللحرف هنا علاقة بالقوى التي تسكن مجاهل ما وراء الطبيعة. أي أنها سلطة مستعارة من سلطان الخفاء. وصاحب الحرف وسيط استسرار قادر برموزه أن يُحيي وأن يُميت. ومجده كلّه مستمدٌّ من الحرف المزبور كلغز. وسلطانه يبقى رهيناً بنزعة الإستسرار التي تستنزل ستور الغموض على عمله ليبقى إعجازاً في نظر الأغيار. وفهم اللغز، أو فكّ طلسمه، عملٌ يظلُّ حكراً على هذا الوسيط الذي يعملُ كل ما بالوسع للإحتفاظ بالحرف طلسماً. هذه النزعة أوجَدَت مع مرور الزمن اللغة السريّة المحتكرة من قبل محفلٍ محدودٍ أهمّ خصاله الإنغلاق على نفسه إجارةً للكنز الذي يقفُ عليه حارساً من فضول الدهماء. هذا المحفل لُقّب تالياً بإسم

مهيب هو الكهنة، أمّا صحفُ الرحلة الأولى المجبولة بمتون المجهول فسُمِّيت «**هيروغليف**» التي تعني في الترجمة من لغة التكوين: «**الوصايا السريّة**»، أو «**النصوص الخفيّة**» تعبيراً عن طبيعة الإستسرار التي هي رأس مال كلّ دعوة دينيّة.

هذه الروحُ المشفوعةُ بالقداسة في العلاقة مع الصحيفة أو الكتاب، هي الحصنُ الحصين الذي افتقدته حضارتنا اليوم في حمّى عبادتها لتقنية تقتل فينا الفضول إلى **المعرفة** بتقديم المعلومة بديلاً، وتحقننا بخمول الذهن بدل أن تُحيي فينا الشهوة إلى **التأمّل**؛ هذا الوَجْد النبيل الذي كان يوماً شرطاً لميلاد النبوّة، بل وسرّاً لوجود الحقيقة! ألم يقل هيغل أن الإنسان الدَّيِّن هو إنسان التّأمّل؟

9

الدّسيسة

الحرفُ المكتوب، إذاً، تجسيدٌ لقيمة. والاهتمام به نابعٌ من رسالته كتميمة. من رسالته البذْئية المسكونة في روح الأجيال كترجمة لروح الألوهة، وحلولها كوصيّة في لدن الحرف الذي لن يعود منذ الآن حرفاً، ولكنه جسدٌ له حضور في الظاهرة حتّى أن الفقهاء الذين ورثوا عن أسلافهم الكهنة روح عبادة الحرف كانوا يكتفون برسم حروفٍ لا معنى لها في قطع الجلود أو رقع الكواغد ليقدّموها للمسكونين أو الممسوسين لتجيرهم من شرور الغيوب. وعلّ النّهم إلى إلتهام كلّ حرف مكتوب في ذلك الزمان مستعارٌ من هذه الروح السلفية فكان يُحتفَى بكلّ ما يُكتب، ولا يجد صدى في الأوساط الثقافية وحدها، ولكنّه يحظى بردود فعل في الأوساط السياسية لا داخل البلاد فقط، ولكن خارج حدودها أيضاً. فبرغم هشاشةِ الروح التي تكتب، وتواضع التجربة، بَيد أن إرادة المعرفة، أو فلنقل روح الاجتهاد، أو. . أو الوَجْد الرسالي، إستطاع أن ينتزعَ الإعتراف المدعوم بردود أفعال: فما هي وجهاتُ

النظر الأدبية تجابَهُ بالنقاش في صحافة الحاضرة من قبل قامات ذائعة الصيت. وها هي المقابساتُ المطبوعة بروح التأمّل تُذاع من أثير الإذاعات الأجنبيّة كالتونسية والسّورية إلى جانب أثير إذاعة المملكة. وها هي دراسة «الطوارق في ليبيا» يعبر صداها التخوم فتتلقّى إدارة الجريدة رسالة من همّه بوبُّو رئيس مجلس الأمّة في حكومة النيجر يرجو فيها تزويده بأعداد الجريدة التي حَوَتْ نصّ الدراسة. ولم يكن من حقّ الإنسان الذي عرف قدره واعترف لنفسه بتواضع مواهبه أن يغترّ بإيجابية ردود الأفعال ليقين يقول أنّ الصيت المكتَسب هنا لا يرجع الفضل فيه لقيمة المحتوَى بقدر ما يرجع إلى هيبة الحرف المكتوب. فإذا تمادَى الحرف المكتوب ليصير مطبوعاً فإنه يستعيرُ على النفوس سلطة أعظم. وهي سلطة على النفوس لا بدّ أن تستفزّ ضعاف النفوس أيضاً. وها هو العدوس الأبدي يسقط ضحيّةَ الحسَد الأبدي. ففي طريق السُّرَى لا بد أن يعترضَ العدوس ذلك الجنس من الناس الذي يستطيعُ أن يحتمل فشله، ولكن هيهات أن يطيق فلاح غيره!

لم أكن يومئذٍ لأعلم أنه القطرةُ الأولى في غيثٍ مميت لم يكن ليكون مُميتاً إلى هذا الحدّ لو لم يكن عُبَاباً، وبالسّخاء الذي سيُصاحبني طوال رحلة الليل الطويل، بسيماء قبحه الذي أبدع الحكيم غراسيان في وصفه من بين كلّ عواطف المخلوق البشري، والذي سيكونُ مفعولُ سمومه أسوأ لو لم يهرع

هيرودوت لنجدتي معزيّاً بالقول أنّ الأفضلَ أن نكون مادّةً للحسد، من أن نكون موضوعاً للشفقة! وكان عليَّ أن أتألّم كثيراً جدّاً قبل أن أتعلّم أن كيدَ الحسود قدر كلّ عدوس منذور لرسالة، والأشراك التي يتفنّنُ هذا الصنف من البشر في حبكها هي إلى جانب كونها الجرم الذي لا يخضعُ لقصاص القوانين الوضعية، إلاّ أنها يجب أن تعامَل كأوسمة شرف على صدر المحسود. بلى! إذا شئنا أن نقيّم مدى عظمة إنسان فليس علينا أن نشقى بحثاً عن مآثره، ولكن يكفي أن نُحصي عدد حسّاده! فالمنطق المدسوس في الدّسيسة هو اللّغزُ الذي أعجزني فلم أجد له تأويلاً منذ البدء، ولم أجده إلى اليوم. وإذا كنت قد وقفتُ مكتوفَ اليدين إزاء هذه البليّة في مراحل التكوين، فإنّ محاولاتي التصدّي لحملات هذه الملّة قد باءت بالفشل أيضاً عندما بلغتُ من العمر عتيّاً. فقد اكتشفتُ عبثَ مُحاجَجة هؤلاء بالبراهين التي تثبتُ براءتي من التّهم الظالمة التي اعتادوا أن يلفّقوها ضدّ شخصي لسببٍ بسيطٍ وهو أنّهم لا يلتفتون إلى البراهين، ويتجاهلون كلّ بيّنة أو دليل، لأن الغايةَ من حملاتهم ليس الحقيقة، ولكن الغاية هي الإساءة، وتلطيخ الصيت الذي يقضّ مضاجعهم. وقد اقترفتْ بدعة شقيّة هي التقنية جريمة نكراء عندما قدّمت لهذه الفئة أكثر المنابر فعالية وهو شبكة المعلومات الكونية (الإنترنت) بالمجّان. ولم تكن أخلاقية هذه الهبة لتكمن في نشر غسيلهم المنكر بدون تقديم أدلّة كما يفترض أي إتّهام، ولكن أجارتهم من القصاص القانوني أيضاً إلى جانب

القصاص الأخلاقي. فهل اطمأنّوا برغم هذا؟ هل تحرّروا من الخوف الذي يطارد كلّ صاحب جُرم حتّى لو أُتيحت له فرصة الفرار من عقاب؟ كلاّ بالطبع! لم يأمنوا ولم يطمئنّوا برغم كلّ التسهيلات، والدليل هو لجوئهم إلى تذييل أكاذيبهم بأسماء مستعارة بدل الأسماء الحقيقية؛ لأنّ الجبن يسكن صاحب الجريمة مهما تحصّن بضمانات الأمان! والمفارقة أن يجد هؤلاء في البيئة الثقافية العربية أخصب المراتع بالمقارنة بالأوساط الأخرى؛ هذه البيئة الثقافية التي من حقّها أن تتباهَى أمام الثقافات الأخرى باستخدام كلمة أدب كرديف لمعنى أخلاق!

حقّاً أن الخبث هو أكثرُ الخصال التي تمقتها الآلهة كما تقولُ وصايا الحكيم القديم «آنهي» المنقوشة في متون «برت أم هرو» المترجمة بـ«كتاب الموتى» اصطلاحاً لا معنىً!

والسيرةُ بدأت منذ التحاقي محرّراً بالجريدة التي كان يرأس تحريرها محمّد الزنتاني الذي عرّفني به الأب في إحدى زياراته وأوصاني به خيراً بدل أن يوصيه بي خيراً! وقد ربطته به علاقة ترجع بأصولها إلى انتماء قبلي حتّم يوماً التحالف بين قبيلتينا في حرب التحرير إبّان الغزو الإيطالي. والتحالفات القبلية في العرف الصحراوي تكتسبُ قدسيةً صارمةً سرعان ما تنقلبُ وثيقة تاريخية غير قابلة للنقض، لأن التنصّل من مواثيقها من قبل أحد الأفراد لا يُحسب خيانةً لعهدٍ يمسّ الطرف المقابل، ولكنه خيانة للقبيلة التي ينتمي إليها الفرد. ولمّا كانت روح القبيلة تحيا بقوّة في جيلنا

أيضاً، فإن الإلتزام بنواميس الآباء كان عملاً من قبيل الواجب أيضاً.

كان محمّد رجلاً وقوراً، يتمتّعُ بخصال نادرة حقّاً، تجري على لسانه النكتة، ويفيضُ قلبه مرحاً، دون أن يفقدَ مع ذلك توازن رجل المسؤولية. وقد تزامن إلتحاقي مع تعيين محرّر آخر مدجّج بمزيّة كانت في تلك الآونة ذات مفعول سحريّ في فتح كل مستغلق وهي الشهادة الجامعيّة، ممّا أهّله لتولّي أمر الجريدة عند غياب رئيس التحرير. وقد جابَهني الرجلُ بعداءٍ لم يفلحْ في إخفائه منذ البداية دون أن أعرفَ السبب. كان يحومُ حولي كالشبح ليحثّني على عدم الطمع في النشر كلّما غاب رئيس التحرير في رحلة إلى طرابلس. وكان لا يجد حرَجاً في أن يلوّح من حين لآخر بانتمائه إلى القبيلة ذاتها التي ينتمي إليها رئيسُ التحرير مضيفاً بذلك مؤهّلاً آخر إلى جانب مؤهّله الجامعي! وكان يحجبُ متوني بالطبع قبل أن ينتشلها رئيسُ التحرير من أعمق درج لتأخذ طريقها إلى النشر. لقد كان لديّ تصوّر آخر للمنافسة وقتها، تصوّر مثالي ما زلت أعتنقه إلى اليوم دون أن يلتزمَ به الزملاء بالطبع. تصوّر يرَى في تنافس ذوي المهنة الواحدة حافزاً، للإطّلاع، والبحث، والتفاني، والسعي إلى ذلك الكمال الذي لا يُنال، ولكنه إغواء لا يجذب فقط، بل يغذّي الإحساس بالواجب. كنت أعي دون حاجة لأن أعبّر.

كان الحَدَس هو الشّفرة التي دسّتها الصحراء في دمي لتكون

لي في مسير السُّرَى عوناً وفيّاً. وأعترف أن هذه الوصية الخفيّة لم تخذلني يوماً.

استمرّت محاولات الرجل في الكيد لي، ولكنّي راهنتُ على عدالة رئيس التحرير إن لم أقل على حكمته. ولكن يبدو أن سلطةَ الدّسيسة كانت أقوى حتّى من الحكمة، لأن مقاومة الأخير ما لبثت أن رفعت راية الإستسلام عندما فوجئتُ في أحد الأيام بتلقّي رسالة إنهاء عملي بالجريدة ونقلي إلى مصلحة المطبوعات دون إبداء الأسباب. إلتحقتُ بعدها بعملي الجديد دون أن أسائل الرجل عن سبب الإجراء لأني كنت به عليماً، ولم أسرّ به إلى الأبّ عندما التقينا، برغم أن الخبرَ انتشر في المدينة في أيام ليتردّد على كل لسان ليتحدّث البعض بطبيعته الحقيقية (أي الكَيديّة)، في حين وجد له آخرون أسباباً سياسيّة.

إستجرتُ بالخلوة في الأرشيف بالمطبوعات حيث تراكمتْ على الأرفف أعداد جريدة «فزّان» منذ صدورها في خمسينيات القرن، فقررتُ أن أتسلّى بقراءة تلك الأعداد. في بطون هذه الصحف كان لي اللقاء مع ذلك القَدَر الذي كان صاحب الكيد سيضحّي بكيده لو أوتي القدرة على التنبّؤ فيعلم بالحقيقة التي تنتظرني هناك! ففي أحد الأعداد الصادرة عام 1958م عثرتُ على عدد من المقالات المكتوبة بقلم تنويري هو محمّد فريد سيالة الرئيس الحالي لتحرير جريدة «الألمبياد» (الفجر تالياً) فوَسوَس في قلبي وسواس: ناقوس غامض ولكنه لجوج. إنه إيماءٌ كالوحي.

تنبيهٌ مّا. وشوشة تحثّ، تستوقف، تحذّر. ذلك هو نداء اكتشاف السّرقات الأدبية. السرقات الأدبية الحرفيّة!

بلى! كانت المقالات التي سطّرها صاحبُ الكيد منقولةً حرفيّاً من صحف الأرشيف. فهل أسكت؟ كنت سأسكت لو لم أتعلّم من قراءاتي آنذاك أن السّرقة الأدبية ليست عملاً لا أخلاقياً فقط، ولكنّها جريمة لا تختلفُ عن السّرقة العاديّة برغم عدم وجود قانون وضعيّ في بلادنا يُخضع مرتكبها للمساءلة. لم تكن هذه الحُجّة المبرّر الوحيد. هناك الواجبُ أمام إنسان فاضل عاملني دوماً كأب، والواجب يقضي أن أضعَ الأمر بين يديه لأنه الضحيّة وهو: فريد سيالة! حرّرت له رسالةً مرفقةً بنماذج من المقالات الأصلية مرفقةً بالمقالات المستنسخة وأودعتها البريد. بعد أيام هبّت العاصفة! نشر سيالة الرسالة مدعومةً بالنصوص، فاهتزّ عرشُ الثقافة في الحاضرة، وتلقّت الجريدةُ برقيةً عاجلةً من المربّي الجليل السيد الجيباني تقضي بإيقاف مدبّر الكيد عن النشر في كلّ صحف المملكة، وأمراً آخر باستدعاء رئيس التحرير إلى العاصمة!

وقد أدهشني أن يتقدّم منّي صاحبُ الشأن ليخطب ودّي وهو الذي تنكّر لي منذ زمن سبق رسالة الإعفاء، فلم يبادلني حتّى التحية دون أن أفهم السبب. خطبة لم تكن المفاجأة الوحيدة إذا قورنت بمفاجأة أخرى كانت بانتظاري: فقد تلقّيت من رئيس التحرير خطاب ودٍّ آخر يدعوني العودة للعمل بالجريدة!

10

الخطر

من الطبيعي أن تؤدّي الطفرةُ الصحفيةُ التي بلغت ذروتها في تلك الأعوام إلى مخاضٍ ثقافي أيضاً. وهي نهضة تبدو بعثاً حقيقيّاً من عدم قنّنته هيمنة استعمارية إيطالية، ورثته عن هيمنة أكثر عدميّة هي السّلطة العثمانية. إنها تاريخياً يقظة من اغتراب. عودة خجولة من منفى كان لها الرخاء الإقتصادي بمثابة الزاد السخيّ. رخاء لم يكن ليتحقّق لولا سخاء هذه الأرض الأسطورية التي لا تنفذ في تربتها ثروة حتّى تفاجئ الدنيا بثروة أعظم من سابقتها شأناً. حدث هذا منذ أزمنة ما قبل التاريخ التي لم تكن شهادة هيرودوت سوى التعبير المتأخّر عن حقيقتها الموغلة في القدم. فالنبوءة الليبيّة الدّهرية التي نطقت بها عرّافةٌ معبد دَلفَى شعراً كانت وثيقة إثبات تاريخية لم تكن ترجمة لسيرة مبثوثة في ثنايا الماضي وحسب، ولكن التجربة برهنت على أصالتها في مستقبلٍ تمثّل في ألوف الأعوام القادمة:

«سوف يعضّ بنان النَّدم

مَنْ لم يهرع إلى ليبيا

لنيل نصيبه من الأرض الليبيّة السخيّة

في موسم توزيع الأراضي».

أجل! كانت ليبيا عبر التاريخ هبةَ الدنيا، كانت موسماً أبديّاً لتوزيع الأراضي، لتوزيع الغنائم المجّانيّة؛ وهي أراضٍ ليست ككلّ الأراضي. إنها أراضٍ من جنسٍ فريد؛ لأنها لا تُجارَى في السخاء الذي لم تعرفه أرض لا من قبل ولا من بعد. ولهذا السبب كانت هذه الأرض بالذّات لا سواها محجّاً تؤمّه الأممُ من جهات الدنيا الأربع لتستولي على نصيبها من الكنوز التي لا تفنى. وإذا كان ربّ المعبد قد إستنطق العرّافة النبّوة الليبيّة في القرن السابع قبل الميلاد، ليحثّ أهل اليونان على الإستيطان في هذه البلاد الخُرافيّة، فإنّ المؤرّخَ لم يفته أن يلاحظَ ورود عبارة «نبوءة ليبيّة قديمة» على لسان العرّافة ممّا يدلّ على رجوع النبوءة إلى عهودٍ أسبق بكثير من ذلك العهد. ولمّا كنّا نعدم تاريخاً لتلك العهود السابقة على التاريخ فليس أمامنا للتأكيد على صدق النبوءة إلاّ أن نحتكمَ إلى المتون التاريخية الشائعة الموروثة من النصوص اليونانية التي تتحدّثُ عن انقراض تلك النبتة السّحرية التي كانت دواءً لكل داء (السلفيوم) في القرن الثالث قبل الميلاد. وهو ما يعني أنها كانت الثروة التي لا تُقدّر بثمن التي جعلتها الطبيعة حكراً

على هذه الأرض إلى حدٍّ صارت فيه السّلعة الوحيدة التي احتكر ملوك اليونان بيعها فأشرفوا على تسويقها بأنفسهم نظراً إلى قيمتها الفريدة. أمّا في العصر الروماني فكانت ليبيا المستودع الذي غذّى الإمبراطورية كلّها بالقمح، في حين حيّر ثراؤها الذي لا ينضب أحدَ أمراء الفتوحات في العصر الإسلامي فعبّر عن حيرته بسؤالٍ موجّهٍ إلى أحد الأشياخ، فما كان من الشيخ الحكيم إلاّ أن أخرج من جيبه حبّة زيتون ليُشيّعها في وجه الأمير قائلاً: «هذه الحبّة هي سرّ ثرواتنا التي لا تنضب!». وفي الزمن الذي تلا تولّى واقع الموقع زمام أمر هذا الثراء، فكانت ليبيا الكعبة التي تتقاطعُ في أرضها حركةُ القوافل التجارية شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. قوافل محمّلة بأندر السّلع التي لم يكن الذهب المستجلب من أعماق القارّة أنفسها، برغم قيمته كمعدنٍ معبودٍ في كلّ العصور.

وإذا كان يروق هذه الأرض أن تحجبَ كنوزها بين الفينة والأخرى لحكمةٍ لا يجب أن نشكّ في حسن ظنّها، بيد أنها لا تلبثُ أن تكافئ أبناءها على أعوام الحرمان: لقد أطعمت ذريّتها جمّار النخيل بعد أن كانوا يأكلون الطعوم المرشوشة بمسحوق الماس الجوهر، ودفعت بوليّ أمرها الجديد (إدريس السنوسي) أن يذهبَ إلى أوطان الجوار ليتسوّل المليون البائس من الجنيهات، ولكنّها كانت تعرف كيف تعوّض الأبناء على أزمنة المحنة دائماً كما يليقُ بأنبل أرضٍ عرفتها كرةُ الأرض!

وها هي تنزفُ دماً أسود (سمّي خطأ ذهباً أسود) لتحقّق الرخاء لأبنائها الأشقياء. وكان لا بدّ أن ينعكسَ هذا المنّ الأرضي (ذو الهوية الألوهية) على روح الوطن أيضاً بعد أن فاض على بدن الوطن.

إنّه النزيف الذي لا يقلّ قداسةً عن نزيف هذه الأرض عندما جاءت بالثمرة الأسطورية التي وسمها هوميروس باسم «اللوتس» فكانت السرّ الوحيد الذي أفلح في تغييب عقل أوليس من فرط لذّتها فنسي لأوّل مرّة وطنه المعبود «إيثاكا». وهي ثروات أهون مفعولاً إذا قورنت بثروات هذا الوطن الروحية. ولم يكن هذا التراب ليكون أرضاً مقدّسة يتسابق أئمّة الحكمة في العالم القديم لزيارتها (بدايةً بصولون وسقراط وأفلاطون وأرسطو وهيرودوت ونهايةً بأرستيبوس فيلسوف اللّذة الذي أنجبته الأرض من صُلبها) لولا الإعترافُ بفضلها على ثقافات العالم القديم قاطبة؛ هذا الإعتراف الذي عبّر عنه هيرودوت حرفياً عندما قال إن ديانة قدماء اليونانيين هبة مستعارة من قدماء الليبيين!

في تلك المرحلة التي سبقت وقوع الوطن ضحيّة التّيه الرهيب، كان النموّ مشروعاً واعداً شمل بلمسته السحرية كل حقول الحياة. كانت السياسة التعليميّة قد شرعت في إنتاج الخبرات سواء على مستوى جامعات الداخل أو ثمار البعثات العائدة من الخارج. وكانت العنايةُ الصحيّة قد حقّقت قفزةً نوعيّةً لا في مجال التشخيص فقط، ولكن في مجالي الجراحة

والتمريض أيضاً. وهو ما عشته شخصيّاً يوم قرّر الأطباء تدخّلاً جراحياً لتقويم خلل قدمٍ رأيته دوماً علامة، في حين رآه الأطباء عطباً بدنياً يستوجبُ إستِخدامَ المشرط! لقد تكفّلت مستشفياتُ الضمان الاجتماعي بالأمر بدايةً بالتشخيص في فروع الجنوب واستكمالاً للإجراءات في المركز الرئيسي بالحاضرة. وقد تولّى إجراء هذه العملية الدقيقة طبيبان إيطاليان شهيران في جراحة العظام بمستشفى طرابلس المركزي. ولمّا تطلّبت العمليةُ الإحتفاظ بالرِّجْل في الجبس لمدّة أشهر فقد قضت العناية الطبّية في ناموس تلك الأيام تخصيص ممرّض مرافق لإصطحاب المريض إلى مكان الإقامة سفراً بالطائرة، وكذلك عند العودة بعد انقضاء المدّة المقرّرة.

رأيتُ من واجبي سرد هذه السيرة للتدليل على تفوّق التطوّر الطبيعي في أحد مجالات الحياة الأكثر حيوية (الصحّة) عندما تكون الحكمةُ سنداً للإرادة في مقابل الإستهانة بمثل هذه الروح في النظام التالي الذي أطعم الناس الشِّعارات فلم يجدوا مفرّاً من الذهاب شرقاً وغرباً بإمكانياتهم الشخصية بحثاً عن علاجٍ لأمراضٍ خبيثةٍ دسّتها سياسةُ النظام في أجسادهم متمثّلةً في مؤسسة السّلع التموينية التي دأبت في حقنهم بالأطعمة الموبوءة بالسّموم في زمنٍ بلغ فيه برميل النفط مائة دولار مقابل أقل من تسعين سنتاً في العهد الملكي، أي بفارقٍ يزيد على المائة ضعف!

أمّا حقلُ الثّقافة فقد نال نصيبه من عنايةٍ يشهدُ بها قيامُ المراكز

الثقافية بكثافة لا في المدن وحدها، ولكن في أبعد القرى أيضاً.
هذه المراكز الثقافية التي شتّت شملها ذلك النظام الذي خلف رافعاً شعار الثورة الثقافية فقضى على المراكز الثقافية قضاءً مبرماً وأباد الكتب إبادةً.

وزارة الثقافة قامت بدعم الصحافة مادياً أيضاً. ولم يقتصر هذا الدعم على الصحف الموالية، ولكنه شمل الصحفَ المارقة أيضاً؛ أي تلك الصحف التي ترفع لواءَ المعارضة باحتضانها لأقلام اليسار الناشئ الذي لم يتبَلور فكرياً بعد بحيث يكتشف الفرق المبهم بين الإنتماء إلى أيديولوجيا محدّدة، أو اعتناق روح اليسار الذي لن يعني في النهاية سوى الإنتصار للنزاهة؛ نزاهة وجهُها الآخر يكن في التوق إلى الحقيقة وليس إلى مذهب سياسي غايته السلطة التي هي بالطبيعة نقيضُ الحقيقة.

وكان لا بدّ لهذا المناخ أن ينتجَ وعياً أصيلاً بالذّات تمثّل في الدعوة إلى الإعتزاز بقيمة إسمها الوطن من خلال الجدل الشامل الذي شهدته البلاد تحت إسم «**الشخصيّة الليبيّة**» إنطلاقاً من وصيّة الأجيال القائلة بأنّنا لا يمكننا أن نعوّل على إنسانٍ لا يحبّ وطنه أكثر ممّا يحبّ نفسه. إنه حبٌّ سوف يكونُ ناقصاً ما لم يتحوّل مرضاً. كأنّ هذا الجدل كان تحذيراً لخطر بشّر به السُّعار القومي. كان ناقوس خطرٍ تنبّأ بالمصير التراجيدي الذي ينتظر الوطنَ بعد قليل!

مصيرٌ ظنّناه خلاصاً، فإذا به قصاص: خلاصٌ لم نكن نعي تحديداً من ماذا، كما لم نكن لنسائل أنفسنا القصاص على ماذا!

القسم الثالث

منازل الاغتراب

«البسطاء يرون كل شيء بسيطاً [فينشدوا التغيير]. الحكماء وحدهم يُدركونَ خطورةَ التغيير، فيفضّلوا الحياة بسلام».

(كارامزين)

* * *

«كلّ شيء يتغيّر. التغييرُ وحده لا يتغيّر!».

(زانغفيل)

1

البرزخ

ما ضرّك أيها الإنسان لو اعتنقتَ أمثولةَ الذئب الذي تقولُ أساطير الصحراء أنه عندما يشبعُ يملأ الوديان عواءً لأنه يدري أن عاقبةَ الشبع جوع؛ ولكنه يملأُ الدنيا ضحكاً ما أن يجوع لأنه يدري أن عاقبةَ الجوع شبع! ألاَ تقول الوصيّة الصحراوية أيضاً أن مَن ملأ شدقيه ضحكاً لا بدّ أن يملأ مقلتيه دموعاً؟ المتونُ المقدّسة أيضاً تتوعّد مَن يمشون في الأرض فرحاً بالعقاب، لأن بصرامة السيماء فقط يستقيم القلب. ولكن هيهات أن يستوعبَ العقل المستلب بهَوَس التغيير صوت الحكمة، لأن عبادة هذه الأحجية سجيّة أصيلة في الإنسان مستعارة من ناموس طبيعي لا يملك لدفعه حيلةً مهما حاول التحلّي بالشجاعة، لأن مشيئةَ الطبيعة سلطة في الإنسان أقوى من سلطة الثقافة، برغم أن السّؤالَ الجدير بأن يُطرح: هل التغيير ظاهرة طبيعيّة أم أنه ظاهرة ثقافية؟ هل تخذلُ الحقيقة لو أجبنا بالقول أن التغيير في حال الثورات ظاهرة ثقافية تستعيرُ شرعيّتها من ناموس الطبيعة الأمّ؟

سؤال ماهيّة التغيير تفرضه فتنةُ التغيير. هذه الفتنة التي تدفع

الإنسان للإرتماء في أحضانِ التغير حتّى لو علم يقيناً أنه ليس تغييراً من سيّئ إلى أحسن، ولكنّه تغيير من سيّئ إلى أسوأ. وهو ما يعني أن قبول التغيير ضربٌ من الإيمان بالقضاء والقدر الذي هو أحدُ شروط الدخول في محراب الله. أي أن الافتتان بالتغيير لم يكتسب على روح الكائن هذا السلطان إلاّ بسبب هويّته الدينيّة القاضية بضرورة قبول القدر بخيره وشرّه كشرطٍ للإنتماء إلى حرم الربّ!

أمام هذا الخيارُ التراجيدي من حقّ الأخيار أن يبتسموا بحزن وهم يرون أبناء جلدتهم يتهافتون للإرتماء في أحضان مصيرٍ يدرون أنه الجحيم، ولكنهم لا يحرّكون لإنقاذهم ساكناً، لأن لسانَ حالهم يقول: «دعهم يجرّبون الجحيم! لأنّهم لن يعرفوا الطريقَ إلى النعيم أبداً ما لم يعبروا الجحيم!». إنه خيارُ آدم مع فاكهة التحريم يتكرّر أبد الدهر ليتوّج في كلّ مرّة رأس سليل آدم بأكاليل الانحياز إلى الحرية (حريّة الاختيار) حتّى لو كان ثمن هذه الحرية شقّ عصا الطاعة على مشيئة الربّ. لأن الحريةَ وحدها (حرية الإرادة) تستطيعُ أن تبدّد غضبةَ الربّ وتشتري الغفران!

فلتهيمن الأهواء، إذاً، ولينتصر الطيش، لأن ناموسَ الجدل قادر أن يعيدَ كلّ ضدٍّ إلى رحاب ضدّه فينقلب الشرّ الذي ظنناه شرّاً خالداً فجأة خيراً، كما اغترب الخيرُ منذ قليل ليتماهى في فصول الشرّ عملاً بيقين ميفستوفل الذي لا يفعل شرّاً إلا تلقيناً للدرس الذي سيحوّله تالياً إلى خير!

هذا يعني أن لا حضور لحريّة مريد التغيير (في حال الإنتقال من السيّئ إلى الأسوأ) خارج البرزخ المخنوق بين قطبين معادين.

إنّها تلك الفسحة التي يستطيعُ فيها بطل تراجيدي كسيزيف أن يلتقطَ أنفاسه: فسحة محشورة بين لحظة انفلات الصخرة إلى الأسفل، ولحظة إدراكها في الحضيض لمواصلة دفعها إلى أعلى. إنها المسافةُ الواقعةُ بين الذروة والحضيض. إنها **السّفح**! إنّها الحريّة التي تتيحها مساحة بائسة هي السفح. ولكن الإحساسَ بالحرية هو ما يجعل منها غنيمة بلا حدود. مبدأ الحريّة هو ما يجعلُ منها مدى بلا نهاية. **الحرية التي تجعل حتّى من الموت ميلاداً. لأن لحظةَ الحرية حضور خارج المكان وخارج الزمان.** الحريّة حضورٌ ينفي الحضورَ في الوجود. وهذا هو ما يجعل من لحظة الحرية قرباناً. بل هذا هو ما يجعل من مريد الحرية قرباناً. ولهذا فإن إرادةَ التغيير لمجرّد التغيير ليست مجازفةً وحسب، ولكنها تجربة دموية لا بدّ أن تنتهي بالتضحية بالممكن المحتمل في سبيل المأمول المستحيل. إنها نزيف على مذبح الأمل!

هذا الهامش الضيّق وحده رهينُ **الحقيقة**، أمّا النتيجة فبداية لبرمجة النظام الذي تغتربُ فيه الحقيقة. لأن هذه الحقيقة بهويّتها المعادية للخطاب تتنكّر لحضورها في دوّامة الباطل الدنيوي لتستعيدَ حضورها في **البعد المفقود** بوصفها غنيمةً روحيةً لأن مملكةَ الروح هي الملاذُ الأخير الجامع للضدّين الأبديين: **الحضور والغياب**! وبرغم ذلك فإن الحنين إلى استبدال المطايا يبقى ورم النفس البشرية العديم الترياق. وها هو الملك إدريس يعبّر عن هذا الدّاء في أحد أيام خمسينيات القرن فيطلب من مستشاره إيجاد صيغة تشريعية لتغيير النظام الملكي إلى نظام

جمهوري. أخفق المستشار في تحقيق هذه النيّة بسبب استنكار البعض الذين رأوا فيها شذوذاً مريباً عن التقليد. فهل مات الحلم في وجدان الرجل؟ الحلم لم يمت، لأن أحداث الستينات أثبتت بعثه من جديد على نحوٍ أشدّ، كأنَّ الرجل بإرادة التغيير يستجيب لهتاف متظاهري الستينات المنكر (حكم إبليس، ولا حكم إدريس) فيهيئ لهؤلاء حكم إبليس الذي يريدون!

ويُروى أن الملكَ لم يخرج من البلاد في تلك الرحلة التي لم يعد منها بغرض النزهة ولكنه غادر بهدف الهجرة. غادر ليترك المجال لمستشاره الشلحي المدعوم بكبار الضبّاط لكي يقوم بانقلاب متّفق عليه مسبقاً يحوّل الدولة الليبية إلى جهورية. ولكن القَدَر تدخّل في آخر لحظة ليفسد الخطّة، بل ليستبدل الخطّة بإتاحة الفرصة لضباط صغار يطلقون على أنفسهم «الوحدويّون الأحرار» ليسبقوا بليلة واحدة بانقلابهم الذي لا يصدّق، لأنه كان أشبه ما يكون بلعبة صبيانية! إنها لعبة القدر المفضّلة والخالدة التي يقول الحكيم أنها لا تصرعنا مرّة واحدة، ولكن مرّتين: مرّة بالإستجابة لنوايانا، ومرّة أخرى بحرماننا من نوايانا!

سخرية قدر كأنها قصاص على خطيئة مريبة من ذلك الجنس الذي يقول أبو التاريخ هيرودوت أن أجيالَ السلف ترتكبه فيدفع الأخلاف ثمنه كأنّه سدادٌ لدَيْن. دَيْن كلّف جيلنا اغتراباً هيمن لإثنين وأربعين عاماً!

2
الشَّفير

كان من المقرّر أن أغادرَ إلى طرابلس في أول سبتمبر لحضور المؤتمر الصحفي الذي كان من المقرّر أن يعقده «يوثانت» الأمين العام للأمم المتحدة بالعاصمة مندوباً عن الجريدة. وكان أوّل سبتمبر من عام 1969م يوافقُ يوم الاثنين، أي اليوم الذي تصدر فيه صحيفتنا الأسبوعية التي نسهر على إعدادها إلى الهزيع الأخير، وأحياناً حتّى الصباح. عدتُ من المدينة متأخّراً، فاستيقظتُ متأخراً وجلست أنتظر السائق الذي كان مقرّراً أن يأتي ليقلّني إلى المطار المجاور قبيل موعد الإقلاع المحدّد بالثانية والنصف بعد الظهيرة. ولكن السائقَ لم يأتِ، فخرجتُ إلى مركز الشرطة المجاور (حيث كان يناوب بعض الأقرباء) لأستفهم عن سبب التأخير. في المركز وجدت شرطياً أراه هناك لأوّل مرّة، ويبدو من سيمائه الخجولة أنه مستجدّ تخرّج من مدرسة الشرطة حديثاً. قدّم لي جهازَ الهاتف وطاف يحوم حولي في المكان غائباً. إتصلت بإدارة الجريدة مراراً، ولكن لا جواب. اتصلت بالمطبوعات فلم يُجب أحد

أيضاً. اتصلت بمنزل رئيس التحرير بلا جدوى. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف النهار فوقفت أتطلّع إلى المركز الخاوي ببلاهة. ويبدو أنّ الشرطيّ المناوب قرأ في سيمائي جهلي بما حدث فتقدّم منّي ليطرح سؤالاً: «هل صحيح ما يقال؟». استفهمت بإيماءة فأضاف: «هل صحيح أن الملك لم يعد ملكاً، والمملكة لم تعد مملكةً؟». وعندما لاحظ تعبير الدهشة على وجهي أضاف: «لقد قالوا ذلك في الراديو!». الراديو؟ هرعت إلى الراديو. عدتُ إلى البيت وأدرت مفتاحَ الجهاز فتدفّقت من المذياع الأناشيدُ الحماسية. ما لم يقرأ حسابه أحد حَدَث إذاً. لم يقرأ حسابه أحد لأن القبضةَ البوليسيّة، وكذلك وجود القواعد الأجنبية، كان الصخرة التي تحطّمت عليها آمالُ العقلية السائدة الطامحة لأي تغيير: عقلية لم تكن وقتها لتطمح في أيّ تغيير لا يأتي على يد الجيش. بلى! الجيش كان فارس الأمل في عقليّة مستلبة ثقافياً وتدين بالولاء لأيديولوجية الإنقلاب العسكري المستعارة من معجم المشرق! لأن الجيشَ في نظر العامة (المغلوبة على أمرها) قوّة وطنية. والقوة إذا توفّر لها شرطُ الوطنية اكتسبت مؤهّل الخلاص. وما لم يخطر ببال الأشقياء هو أن التحلّي بخصال كالوطنية يمكن أن يكونَ مؤهّلاً جديراً بالإعتراف حقّاً ما ظلّ موجّهاً ضدّ الخطر الأجنبيّ، ولكنه يفقد روحَ الوطنية (ويتحوّل أداة قمع) ما أن يعطي لنفسه الحقّ في لعب دور سياسي، لا عسكري. أي عندما تتيحُ له الظروفُ فرصةَ ممارسة السلطة. أي أن مأساةَ الأمم الحديثة العهد

بالإستقلال كضحية إنقلابية تحدث بسبب اغتراب المفاهيم. بسبب الخلط بين دور هذا المارد النائم في قمقمه المسمّى جيشاً والذي يحظى بثقة المغلوبين على أمرهم كضمان لتثبيت أقدام التحرّر من الهيمنة الأجنبية من جهة، وبين قدرته على إقامة نظام سياسي يحقّقُ جنساً آخر من الحرية يختلفُ عن جناحها الوطني وهو الحرية في **بُعْدها الوجودي**، أو الإنساني، أي ما اصطلح على تسميته في لغة الأيديولوجيا **بالديمقراطية**، من جانب آخر. فالقوّة التي تمتلكُ السلاح تصبحُ خطراً عندما يُضاف إلى هذه الملكية سلاح أعظم خطراً هو **ادّعاء امتلاك الحقيقة**. في هذه الحال لا تغترب الحرية في شقّها المقنّن (الديمقراطية) وحسب، ولكن تغترب الحرية في بُعْدها البتول، في بعدها الألوهي، أيضاً. ولكن ممارسةَ هذه القوّة للسلطة المغتصبة بالسلاح عمل يحتاج تسويقه إلى مبرّر أخلاقي. ومحاولة ترويج الشعار التقليدي (حرية ـ اشتراكية ـ وحدة) وحده لا يكفي، ولكن لا بدّ من البحث خارج الحدود عن قضية ذات طبيعة حُلُميّة (أو فلنقل رومانسيّة) تصلح حُجّة لهيمنة أبدية، ولا أنسب من قضية معقّدة كقضية فلسطين للعب هذا الدور. هنا تكتملُ الفلسفة: الثورة تتحوّل مثالاً رومانسياً مقدّساً، شعارات (حرية ـ اشتراكية ـ وحدة) مبرّر وجودها على مستوى الداخل، وفلسطين قميص عثمانها الخارجي، وحماية هذا المثال هو الذريعةُ لقمع الحرية وارتكاب الفظائع!

تلك كانت عملة الزمان السائدة، وليس على مغامرة ضبّاط الجيش في ليبيا أن تشذّ عن هذه القاعدة. إنّه أوانُ حَبْك ذلك القناع الذي يدفن نيّة منكرة في استلاب صلاحيات هي حكر على المعبود وحده!.

3
المواجهة

أصدر مجلسُ قيادة الثورة (وهو الاسم الذي أطلقه قادة الإنقلاب على أنفسهم) قراراً بإيقاف الصحف الحكومية الثلاث (العلم، الأمّة، البلاد) عن الصدور منذ الأيام الأولى بدعوى مسؤوليّتها عن تضليل الرأي العام إبّان الحكم الملكي. أمّا الصحف الخاصة فقد صارت هدفاً لحملة قمع مركّزة، وكان عليها أن تنتظر إلى بداية السبعينات كي تلفظَ هي الأخرى أنفاس النزع الأخير. كانت نزعةُ التطلّع لتحقيق الحلم القومي قد هيمنت على خطاب العسكر السياسي منذ أوّل يوم إلى حدٍّ صار فيه كل ما متَّ بصلة إلى الوطنية أو إلى الوطن تهمة حقيقية تعرّض مَنْ اعتنقها للمساءلة. ولم نكن ندري أن هذه العقيدة يمكن أن تصبحَ شعار الحكم الجديد الذي لم يجتثّ كلمة وطن من المعجم المتداول وحسب، ولكنّه قنّن بسلطة السلاح كل ما من شأنه أن يمحو هذه المفردة من ذاكرة الجيل أيضاً! ولم نكن كهنة بما يكفي لكي ندرك أن تلك التدابيرَ المحمومة المجبولة بروح الجنون ما هي إلا نذيرٌ باغتراب موجع، بل ودامٍ، سوف ينال هذا الوطن الشقيّ الذي طوّقته الأقدار بالبليّة تلو البليّة عبر تاريخه الطويل. كنّا وما زلنا

نحيا نشوةَ التغيير، ولم نكن ندري أنّنا بدأنا المرحلة التي ستجعلنا في القريب ضحايا الهوس بالتغيير!

في مقرّ جريدة «العلم» (الوريث الشرعي لمجد جريدة «طرابلس الغرب» التاريخية التي كانت أول صحيفة عربية صادرة عام 1868م) الواقع بمجمّع الصحافة بميدان التاسع من أغسطس (السويحلي تالياً) جالست عبد الرزاق منّاع في أوّل لقاء لي معه تمهيداً لإصدار جريدة «الثورة» التي كلّفه مجلس الثورة بأمرها، وهو الرجل العائد للتوّ من منفاه بمصر كمعارض سياسي مثله مثل بويصير الذي عيّن وزيراً للخارجية. وكان أوّل انطباع لي عن الرجل هو العفويّة التي تبدو ضماناً لخصال أخلاقية كانت سبباً في اطمئناني إلى شخصه كما يليق بكلّ مريد أحلام يتمتّع بفطرة درويش، برغم أن العفوية التي راهنت عليها في الرجل ما لبث أن خذلتني عند أول امتحان لعبت فيه المواجهةُ مع رئيس مجلس الثورة دور البطولة. فقد كانت الأوساطُ الثقافية والإعلامية تعجب لروح العداوة الظالمة التي عامل بها محفل العسكر كل ما متَّ للثقافة أو للصحافة بصلة منذ الأيام الأولى للإنقلاب بحُجّة ملفّقة تتهمُ هذه الأوساط بالمسؤولية في إطالة عمر النظام الملكي، أي بوسائل التضليل كما راق لأعضاء المحفل الانقلابي أن يعبّروا مراراً. وكان من نتيجة هذا الموقف المسبق من الثقافة أن تعمّد أعضاء المجلس تجاهلَ كل ما له علاقة بهذا الوسط، بل واقتناص الفرص للإستخفاف به والحطّ من شأن رموزه في تصريحات هؤلاء لوسائل الإعلام العربية والأجنبية. وقد دفعتني روحُ

الدروشة لأن أطرح سؤالاً حول موقف سلطة التغيير من المثقفين (الذين كانوا عبر التاريخ هم الشرر الذي أشعل فتيل الثورات) على رئيس المجلس في أول مؤتمر صحافي عالمي عقد بمقرّ مجلس النواب سابقاً وحضره صحفيون ومراسلون من كل العالم. ولكن السؤالَ استفزّ رئيسَ المحفل الملازم معمّر القذافي الذي رقّاه المجلس إلى رتبة عقيد منذ أيام لتعويض صغر سنّ الرجل أوّلاً، ولإعلاء شأن المجلس في نظر دنيا لا تعترف إلا بالرُّتب ثانياً، ولاستنزال مسوح الوقار على «لعبة الصبيان» الهزلية التي كتب لها أن تنقلبَ جِدّاً في لحظة. سمحتُ لنفسي باستخدام تعبير «استفزّ»، لأنّ ما اكتشفته فيما بعد هو عدم إعتراف روح العسكر بالطبيعة لأيّ دور للمثقّف في أيّ ثورة لأن ما لا يحقّقه السلاح الذي يتباهون به هو هراء في عرف ملّة لم تعترف يوماً بفكر أو ثقافة أو حتّى بنبوّة. وها هو رسول العقلية الإنقلابية ينتفضُ في كرسيه كأنه لدغته أفعى ليصرخَ بصوت الإستنكار بدل أن يجيب عن السؤال: «من سأل هذا السؤال؟». وهي عبارة يجب أن تترجم لهجتها إلى: «مَنْ تجرّأ وسأل هذا السؤال؟». كانت لهجة الإنفعال كافية لكي تعيد إلى الأذهان سيرة الزعيم السوفياتي خروتشوف الذي فزّ ليجابه صحفي طرح عليه سؤالاً حول سرّ سكوت أعوان ستالين على جرائم ستالين، باستنكارٍ شبيه فما كان من الصحفي إلاّ أن لزم الصمت. بعدها ابتسم خروتشوف ليخاطب هذا الصحفي قائلاً: «هل رأيت؟ ما منعك من أن تجيب

الآن هو ما منعنا من أن نتكلّم في عهد ستالين!» مومئاً بهذه العبارة المهذّبة إلى **الخوف** كسبب لإلتزام الصمت. ويبدو أن القذّافي يومئذ كان يستعيدُ هذه السّيرةَ باستعارته للهجة الإرهاب فألزمُ الصمت. ولكن روحَ الدروشة التي لا رأس مال لها سوى الأحلام أبت إلاّ أن تكابر. قمت وواجهت الفوهةَ المصوّبةَ إلى صدري لأكشفَ للرجل عن هويّتي ولم أكتفِ بذلك، ولكني أعدتُ السؤال مرّة أخرى مشدّداً على دور هذه الفئة الشقيّة في تعبئة وجدان الأمم بروح التغيير. كان التوتّر قد عمّ القاعة منذ هبّة الرجل الأولى فارتبك الترجمان وتوقّف عن الترجمة ممّا دعا مراسل الـ«ب.ب.سي» الذائع الصيت مارتن إيدن أن يتساءل بلهجة تعجّب عمّا يدور هنا! فاستأنف الترجمان عمله بإيماءة من أحد أعضاء المجلس محرَجاً ومبلبلاً، في حين لم يجد رئيس المجلس مفرّاً من أن يعد بعقد ندوة فكرية لتأكيد دور المثقفين. وعد ظنناه استجابةً لنداء الواجب، ولم نكتشف أنه شَرَكٌ لجسّ نبض القوى الثقافية ورصد توجّهاتها السياسية إلاّ بانعقاد الندوة بعد انقضاء سبعة أشهر.

بعد خروجي من قاعة المؤتمر تقدّم منّي الزميل مهدي كاجيجي ليقول لي أنه كان يتأهّب لطرح سؤال أيضاً، ولكنه تراجع بعد ردّة فعل رئيس المجلس على سؤالي. مال على أذني ليهمس: «وراء الأكمة ما وراءها!». لم يكتفِ هذا الصحفي الناجح (الذي لعب دوراً ريادياً في صحافة ما قبل الانقلاب) بابتلاع سؤاله

يومئذ، ولكنه ما لبث أن حزم متاعه ورحل، ومكث خارج ليبيا إلى يوم الناس هذا!

أما رئيس تحرير الجريدة عبد الرزاق منّاع فقد حرّر لي رسالةَ إنذار شديدة اللهجة جزاء «إحراجي» لقائد الثورة على حدّ تعبيره، دون أن أدري أين يمكن أن يكمنَ هذا الحرج. آلمني الإجراء، ولكنّي وجدتُ للرجل عذراً في الضغوط التي قيل لي أنّه تعرّض لها. وليت تلك الضغوط المزعومة كانت ضغوطاً، لأن الحقيقةَ أنها تعليمات من أعلى كما يروق الزملاء أن يعبّروا عندما يكون للأمر علاقة بأوامر المجلس العسكري القابع في ثكنة باب العزيزية إلى مختلف مؤسسات الدولة التي بدأت منذ ذلك اليوم تُسيَّر هاتفياً بأوامر شفوية صارمة. أي أن الدولة التي بدأت تتحوّل ثكنةً كبيرة، المسؤول فيها جندي مجبَر بتنفيذ أوامر عسكرية مهما بلغت درجة عبثيّتها أو لا معقوليّتها! هذه الروح العبثيّة التي صارت أيديولوجية في قرارات محفل قيادة الثورة لتصيب هيبةَ الدولة في الصميم فتصير أضحوكةً لا في نظر الرأي العام الأجنبيّ وحسب، ولكن في نظر الرأي العام المحليّ أيضاً، ممّا حدا بأحد أشياخ الصحراء أن يخلع لقب «**قافلة الحيران**» كاستعارة للتدليل على روح الصّبْيَنة، أو طغيان الأهواء، في عمل الدولة منذ ذلك اليوم، لأن حكماء الخلاء وحدهم يدرون الثمن الجسيم الذي ستدفعه قبيلة رسالتها الرحيل فيما إذا سلّمت أمر الرحيل إلى قافلة مؤلّفة من صغار الإبل يُرتجى منها حمل متاع تتوقّف عليه حياة القبيلة!

4
الشِّعار

يقال أنّنا مذنبون في كلّ ما يحدث لنا من خير أو شرّ. ويبدو أن هذه الوصيّة لا تَصْدُق على الأفراد وحدهم، ولكنها تصدقُ على الأمم أيضاً. وقد استعدتها بفضل سؤال سيّدة ألمانية أثناء انعقاد ندوة في كولونيا حول الترجمة الألمانية لرواية «الورم» عندما استفهمت منّي عن مدى مسؤولية الشعوب في صنع طغاتها. وأظنّ أن روحَ **القطيع** قد لعبت دور البطولة في تأليف نماذج الإستبداد الحديث، لأن سلطة هذا الوباء لا تكمنُ في سرعة انتشار العدوى فقط، ولكن في القدرة على شلّ العقل واستبدال خليفة الربوبية هذا بمعبودٍ إسمه **الشعار**. شعار يتحوّل عصا في يد الراعي، وما على الرعيّة (القطيع) إلا الامتثال. امتثال يجسّده **الهُتاف** الأعمى إعلاءً لشأن الشعار. هذا الشعار الذي لا يمكن له أن يتحقّق أبداً، ولم يُطرح أصلاً كي يتحقّق، لا لهويّته المستعارة من مملكة المثال، ولكن لحقيقته كقناع لإنجاز خطّة الإستلاب. والخطاب السياسي الذي يدمنُ التغنّي بمناسبة وبلا مناسبة بسيرة **الجماهير** لا

يقدّم رشوة، أو ينطق برياء لاستدراج القطيع وحسب، ولكنه ينجز صفقةً لمصادرة روح الجماهير، واستكمال تغييبها في قطيع.

ولمّا كان الشعار بدعةً مستعارةً من معجم الأيديولوجيا في الأصل، فإن سمومَ هذه الأخيرة تسري لتُميت في القطيع ما تبقّى من روح، فتغترب السعادة وتتحوّل حلماً مختزلاً في الشعار، وما على القطيع إلاّ انتظار تحوّل الشعار إلى واقع لتتحقّق بتحقّقه السعادة المأمولة، وهو بالطبع ما لا يتحقّق أبداً!

يتمّ تسخير كل الأجهزة لتسويق الشّعار، وتنتعش النفوس بقرب الخلاص باستعادة الفردوس المفقود، ولكن هيهات! يستعصي الدّاء، ويتمكّن المرضُ العضال ليبدأ القدر مراسم استصدار شهادة الوفاة: وفاة الوعد، وفاة الأمل، وفاة السعادة، وفاة الضمير! ولكن الآلة المكرّسة لمديح عصا الراعي لا تكفّ عن العزف، بل تتمادى لأن العصا السحريّة المخوّلة بإنجاز الحلم لم تعد عصا، ولكن آلةَ التلقين صنعت منها ربّاً تماهى مع صاحب العصا، مع الراعي. ولِمَ لا يصيرُ الراعي معبوداً حتى لو كان من لحمٍ ودم بديلاً لمعبود يغيب عن حضورٍ في الوجود؟ أليس هو الأجدر بالعبادة إذا كان قد استطاع أن يحيي وأن يميت؟ ألم يستطع أن يميتَ في سلالة بشرية عقلاً، ويشلّ إرادة، ليبعثها حيّةً في أجرام القطيع بسلطة كلمة مبثوثة في شعار تجسَّد في عصا؟

ولهذا فإن القطيعَ كلّه ضحيّة. رؤوس القطيع كلّهم شهداء.

شهداء على قيد الحياة بالمقارنة مع شهداء في عداد الأموات. فما أن يفيقوا من زلزلة تغيير حتّى يجدوا أنفسهم غرباء غربة أهل الكهف ليتأرجحوا في برزخٍ بين الديمومة والدينونة؛ لأن جرحى الروح أشدّ مرضاً وأعسر استشفاءً من جرحى الجسد. ووجود التّرياق من أجل استرداد مجتمع إنساني محكوم بضمير، عملٌ رهينٌ بالقدرة على **تأهيل «أهل الكهف» هؤلاء للعودة من منفاهم كقطيع.**

فالشّعار ورم الأيديولوجيا الخبيث الذي لا يكتفي بافتراس الروح في المريد، ولكنه يُصيب الذاكرةَ أيضاً كأنه نبتةُ النسيان التي استطعمها أوليس في مسيرته الإستعارية إلى ليبيا فأَنْسَتْهُ ما لا يُنسى؛ أسنته ما هو أعزّ من السليل تيليماخ، وما هو أعزّ من القرينة المعشوقة بنيلوب. أنسته وطناً صار له فردوساً مفقوداً هو «إيثاكا». **فاكهة الأيديولوجيا الملقّبة «شعاراً» هي عشبة أوليس التي تُنْسِي الإنسان وطنه!**

5
الكِتَاب

كان جيلنا حتى ذلك الوقت مأخوذاً بالحدث؛ مأخوذاً بأسطورة التغيير التي لم يكن لنا أن نعرفَ حقيقتها كاستبدال، وليس كخلاص؛ بل ربّما حقيقتها كقصاص على خطيئة إنكار واقع أقرّته الأقدارُ لنا فتنكّرنا له دون أن ندري أنّنا بهذا النكران إنّما نتنكّر للأقدار، لا الواقع الذي أرادته لنا الأقدر. لم نكن ندري أن ما ينتظرنا ليس الحقيقة التي راهنّا عليها دون أن نعيها، ولكن الشّعار هو ما ينتظرنا! كانت فطرتنا تدفعنا لتجاهل الإشارات، كانت تُجبرنا على البحث للأخطاء التي ارتكبها القادة الجدد عن مبرّرات. وعندما قام أحدُ الكتّاب بالدعوة في إحدى الصحف لتدريس خطاب رئيس مجلس الثورة في ميدان الشهداء بالمناهج، وجدتُ نفسي أردّ على هذه الدعوة بمقالٍ نُشر بجريدة «الميدان» تحت عنوان: «عودة لموكب النفاق»، مدفوعاً بالدفاع عن الحقيقة. الحقيقة التي نتوهّمها لا الحقيقة التي بدأت تنتعش وتتأهّب لتهيمن. ردٌّ كُتب بحُسن نيّة مَنْ أراد أن ينتصرَ لمبدأ،

لحلم، لمثال، لحريّة لا تحقّقها عجلةُ التغيير إلاّ عبوراً، ولم أكن أدري يومئذ أن حسن النوايا خصلة أخلاقية لا وجود لها في محفل سلطة لن تكون سلطة إن لم تعتمد سوء النوايا مسلكاً. ولهذا قرأ قادة المجلس في اعتراضي على تدريس خطاب «القائد بالمدارس» إستفزازاً جديداً يضاف إلى إستفزاز الدعوة لإنصاف الفئة المثقفة إبّان انعقاد المؤتمر الصحفي العالمي، فأضفتُ إلى سجلّي في النظام الجديد خطيئةً جديدةً لم تكن لتغتفر في عرف الأنظمة السياسية التي لا تعترف بحسن النوايا بطبيعتها، ولا تصدّق وجود الحقيقة أصلاً، فكيف بوجود من يتولّى الدفاع عنها؟ أضفتُ إلى سجّلي خطيئة أخرى دون أن أعلم حتى ذلك الوقت أنه سجل ليس وليد اليوم، ولكنه ابن الأمس. سجل موروث من نظام الأمس. صحيفة اتّهام مدوّنة بحبر القدر الذي لا تُخفى عليه خافية ولا يهمل شاردة. إنه سجل حافل بتاريخ الآثام التي ارتكبتُها في حقّ كل الأنظمة: النظام الملكي، والنظام الجمهوري الجديد وربّما ما سبق من أنظمة وما سيأتي من هذه السلطة ذات الهوية الغيبيّة التي تتعاقبُ ويناصب العداوة أخلافها لأسلافها، ولكنها على اتفاق قدري مسبق بتوارث السجلات، وتوقيع محاضر تسليم واستلام صحائف الإتهام المخصّصة لإدانة الأبرياء، وملاحقتهم عبر كل الأزمنة وكل الأمكنة. إنها الوثائقُ الوحيدة التي لا تختلفُ بشأنها الأنظمة المتعادية، لأنها في عرفها الوثائق الوحيدة التي تستحقّ الهوية الإلهية، بسبب بسيط وهو أن الإنسان النزيه الذي

يجدُ نفسه موضوعاً لمثل هذه الصحف السرّية هو المخلوق الأرضي الوحيد الذي تعتبره هذه الأنظمة المتعادية والمتعاقبة عدوّاً مشتركاً، عدوّاً أبديّاً مشتركاً، بسبب تحلّيه بروح النزاهة بالذّات!

بلى! ورث النظام الجديد عن سلفه تهمةً جاهزةً مدوّنة في ملفّات الأجهزة الأمنية السابقة تدمغ شخصي بأشنع تهمة في تلك الأيام وهي: **الشيوعية**، الناتجة عن سيرة «**الملك الحمار**» في المحاضرة المغدورة، ثمّ في محضر التحقيق مع زعيم قوى الأمن في المنطقة الناتج عن سيرة الصراع بين الجيش وجهاز القوّة المتحركة. وهي سِيرٌ ظننت أنها دُفنت وطواها النسيان منذ أعوام دون أن أدري أن النسيانَ هو ما لا وجود له في عرف الأجهزة الأمنية. ولكن لماذا الشيوعية؟ إلصاقُ تهمة كالشيوعية لم يكن ليحدث أيضاً بدون فلسفة. بدون فلسفة تُخفي سوءَ نيّة، برغم علم أجهزة النظام بجهلي حتى ذلك الوقت بسيرة الشيوعية هذه، بل علمها بجهل الناس بأمرها انطلاقاً من المقولة القائلة بأن الإنسان عدوّ ما يجهل، لا ما يعلم. وعلّ أكثر ما يعلمه الناس عن هذه العنقاء الخرافية في مجتمع صحراوي معزول عن العالم، وعمّا يجري في العالم، هو تلك المعلومة المزوّرة المحفوفة بالرعب والغموض التي تقول أنها نظام همجي يدين بالإلحاد، ويبيحُ المناكر التي تشرّع زواج الأخ من الأخت، بل وقِران الابن من الأم! وعلينا أن نتخيّل الزلزلة التي سيُحدثها هذا الادعاء في

مجتمع دَيِّن، بل غايةٌ في التديُّن، فيما إذا أُشيع في المجتمع اعتناق أحد أبناء هذا المجتمع لعقيدة كهذه! الموت سيبدو بحقّ هذا المخلوق قصاصاً عادلاً، وأن يحيا بين الناس منبوذاً قد يبدو في بعض الأحيان قصاصاً أسوأ! وهي عقلية كانت ساريةً عند قيام النظام الجديد، وهو ما شجّع هذا النظام على اعتناق أيديولوجية سلفه في حربه ضدّ الخصوم، أو ما ظنّه خصوماً، لا في عمل الأجهزة السريّة فحسب، ولكن في خطاب النظام السياسي أيضاً؛ والدليل هو ما أجابني به قائدُ المجلس عندما قابلته في باب العزيزية برفقة وفد صحفي من جريدة «الثورة» لأسأله عن رأيه في الجدل الدائر في الأوساط السياسية والثقافة عن هوية الإشتراكية المزمع تنفيذها في البلاد فإذا به يفزّ ليشنّ هجوماً عنيفاً على دعاة الإشتراكية العلمية لينتهي إلى القول بأنه على استعدادٍ لمحاربة الأنظمة الشيوعية أيضاً إلى جانب الأنظمة الإمبريالية! كان ذلك استجارةً بثقافة الشّعار بالطبع، وهي الثقافة التي اعتنقها كأيديولوجيا إلى النهاية. وهي الثقافة ذاتها التي نضج بها الخطاب موضوع الجدل لأنها محاولة سيّئة لتبرير التعصّب، ونفي صوت الآخر، ودغدغة عواطف الدهماء الذين لم يبخلوا عليه بالهتاف! ولم نكن ندري، نحن الذين ما زلنا نفترضُ حسن النوايا في ظلّ هوسنا بالتغيير، أن ما يحدث هو ما يجب أن يحدث؛ لأنّ إقامةَ نظامٍ على أنقاض نظام يستدعي أول ما يستدعي نقضَ المبادئ،

التضحية بالمبادئ، وضعاً لحجر الزاوية في كيان نظامٍ يؤكد حضوره في نقيضه!

وقد ارتكبتُ في تلك الأيام المبكّرة للحدث حماقةً أخرى قرأ فيها النظام تحدّياً جديداً، عندما قمتُ بنشر دراسة مسلسلة في جريدة «الثورة» عن «ثورات الصحراء الكبرى». فعلتُ ذلك غيرةً على كفاح الأسلاف في سبيل حرية الوطن الصحراوي الكبير وانتصاراً للتاريخ. ولكنّ النظامَ الجديدَ قرأ في المزمور آيةً أخرى تماماً. النظام الذي تباهى حتى ذلك الوقت بأصالة ثورته وتميّزها كثورةٍ وحيدةٍ في تاريخ ليبيا على الإطلاق يفاجأ بوجود ثورات أخرى في تاريخ ليبيا! فمن أين نبتت هذه الثورات، ومن المسؤول عن نبش هذا الماضي المجهول؟

هذا هو السؤال الذي بلّغه المرحوم صالح بويصير وزير الوحدة والخارجية حرفياً لرئيس تحرير الجريدة نقلاً عن مجلس قيادة الثورة، مع أمرٍ بإيقاف نشر بقيّة حلقات الدراسة. ولكنّ رئيسَ التحرير الذي وجد نفسه في العهد الملكي منفيّاً بسبب اختلاف الرأي يوماً، وجد في نفسه الشجاعة للإعتراض. إعترض لا بسبب حرية الرأي وحسب، ولكن لأنه لم يجد في نصٍّ يتغنّى بكفاح الأجداد ضدّ الهيمنة الإستعمارية ما يوجب الحجب، فاحتكم إلى مدير عام المطبوعات التي تولّى أمرها يومئذٍ أحد أبرز روّاد الروح الوطنية وهو الصديق أمين مازن الذي رمى بقفّاز التحدّي في وجه

نظام يدّعي الثورةَ على قمع الرأي، فأمر بإجازة الدراسة ومواصلة نشرها. وهي حادثة تناولها مازن في مذكّراته الصادرة منذ سنوات.
ولم أكن أدري أن هذه الدراسة المتواضعة ستكون قدراً يطاردني بعد ثماني سنوات ما أن استعارت جناحين بنشرها عام 1970م بين دفّتَي كتاب. استعارت أجنحة لا جناحين، لأن لا وجود لشيء قادر على اختراق الحدود ببعديها الزماني والمكاني مثل الكلمات عندما تتخفَّى بين دفّتي كتاب. وها هي الكلمات التي استقامت في تميمة ما أن تحصّنت بدفتي الكتاب تحتالُ على أحراس سادة هذا العالم فتقتحم قصر هوّاري بومدين الحصين، مغتصب عرش نوميديا المغتربة عن هويّتها النوميدية الأسطورية التي حطّمت كبرياء روما عندما كانت الأخيرة سيدة العالم قاطبة، ومسطّرة البطولات الخرافية التي لم يكن «يوجرتن» العظيم أوّلها، كما لم يكن آخرها، فلا يكتفي السيد بومدين بمحو إسم كعبة أمم الرُّحَّل كما يدلّ اسمها (مترجماً عن اللاتينية) ليستبدله هو ومن كان على شاكلته من قافلة المهووسين باسمٍ مصطنعٍ ومغترب عن هويّته (تلبيةً لنزعة التعريب الشوفينيّة) هو الجزائر، ولكن يقضّ مضجعه وجود إنسانٍ مّا، في مكانٍ مّا، من هذا الكون يجرؤ على التغنّي بأسطورة أمّة الرحيل التي قُدِّر لها أن تكون في هذا العالم منذ الأزل ضحيّةً وعَدُوسُ سُرَى، فيستعير منها السليل هذا القَدَر ليعبِّر عن نفحةٍ واحدة منه بالحرف المبثوث في المتن المهاجر، فلا يملك سليل الشاوية المزيّف هذا مفرّاً من استخدام صولجان

سلطانه لإسكات صوت المغنّي الطريد الذي ألقى به قَدَرُ الهجرة آنذاك في جليد أوطان الديلم الخرافية بحثاً عن مفتاح الوطن الضائع مثله في ذلك مثل أوليس!

حمل هواري بومدين صولجان سلطانه ونزل ضيفاً على حليفه في التغنّي بالشُّعار القومي معمّر القذافي ليشكوه أمر الكتاب الذي يشكّل في رأيه أكبر الخطر على مصير الشمال الأفريقي كلّه، ويطلب منه فعل المستحيل للتخلّص من صاحب النوايا الإنقلابية! والحقيقة تُلزِمني أن أشهد بأن الرجل الذي بدا أكثر هوساً بالمعزوفة القومية (وهو القذّافي) إلتزم موقفاً أكثر رجولة، لأنه لم يبخل بالجهد ولا بالوقت في سبيل التحقّق من نواياي الإنقلابية المزعومة في وقتٍ كنت فيه قد رحلت إلى الإتحاد السوفييتّي منذ سنوات لأحيا في عالم آخر وأعاني تجارب أخرى أنستني لا الكتاب وحسب، ولكن كتابة الكتب، برغم أنها لم تُنسني موضوع الكتاب: موضوع الهويّة!

لقد زعزعتني النوايا المتخيّلة التي يمكن أن يسبّبها كتاب يُعنى بتمجيد الروح الوطنية ليس إلاّ. ولم أكن لأهتدي في ذلك الوقت المبكّر من عهدي بالدنيا إلى سرّ العقيدة الانقلابية العربية التي لم ترَ في تعدّد الثقافات، ووفرة الأعراق والهويات، ثراءً حضارياً إنسانياً مغذّياً، ولكن هذه العقيدة ترى في واقع كهذا تحدّياً يعيق (بل يناقض) الدعوة إلى الوحدة القومية. الوحدة القومية لا كغاية

حقيقية، ولكن كمجرّد شعار يذرّ الرماد في العيون ليخفي النوايا الحقيقية، وهي إحكام القبضة على السلطة والإعداد لإقامة هيكل البعبع، لصنع الوثن المخوّل بان يُنصَّب معبوداً بديلاً للمعبود!

إنها فضول الحفلة التنكّريّة المدعومة بمجد أسطورة نسمّيها ثورة، يلعب فيها أدوار البطولة نفس من سبق من أبطال، فيما لو قمنا بنزع أقنعة أبطالها الجدد، كما يقول الحكيم!

قام زعيم البلاد باستجواب ضبّاط ينتمون للقبيلة تحرّياً لحقيقة نواياي، وأمر بالإتصال بجريدة «الأسبوع الثقافي» في أحد أيام عام 1976م عندما شهد الحدث ذروته ليستدعيني لمقابلته في وقتٍ كنت فيه غائباً بموسكو. وقد حدّثني أحد أمناء سرّه تالياً بقيامه بطلب الكتاب ليقرأه بنفسه. ولكن كلّ هذا الحماس في استجلاء الحقيقة لم يشفع للكتاب الشقيّ، حيث أمر بمصادرته لينضمّ إلى قائمة كتبي المصادرة التي تصدّرها «نقد الفكر الثوري» الصادر عام 1970 م أيضاً كما سيرد تالياً.

6
المقاهي

عندما يلتفتُ المريدُ إلى الوراء من رحاب عزلة اليوم تبدو ملهاة تلك الأيام مجبولةً بروح الرومانسية برغم كلّ ما تُخفيه من دراما، سيّما بالنسبة لإنسانٍ لم يتعلّم بعد أن يكتفي بدور من يشاهد المهزلة من رواء حجاب. ولكن نزيف المشاركة في فصول المهزلة الدرامية يرتدي مسوحَ الأسطورة ما أن يصبح غنيمة الذاكرة: حتّى البلايا تستعير جمالاً بفسحة الزمن. وعندما أستجير بالمقارنة بين غنى تلك الأيام وقحط ما تلى ذلك من أعوام، فإنّي لا أتحسّر حنيناً إلى الماضي، ولكنّي أحاول أن أعبّر عن روح جيل مازال يُهَدْهِد الآمال برغم كلّ خيبات الأمل، ربّما لجهلنا بما ينتظرنا وينتظرُ الوطن، وربّما بسبب فسحة سيزيف البائسة التي لم ينتهِ أجَلُها بعد: فسحة الحرية الواعدة بالخلاص وبالدخول إلى رحاب الفردوس، ولم ندرِ كم هو هشّ فاصل التغيير لأنه لا يلبث أن يلفظَ أنفاس النزع الأخير ما أن يبدأ.

وبرغم الشبح كانت الحياة ثريّة. سلطة الأمل حوّلت المقاهي

أنديةً أدبية حقيقية تضجّ بالجدل ويعلو فيها صوتُ الإختلاف.
كانت الصحُف الوطنية ما زالت تواصلُ الصدور، وكان كلّ مقهى من هذه المقاهي الحافل بالأدباء يُخْضِعُ للنقاش ما نُشر في هذه الصحيفة أو تلك، بقلم هذا الأديب أو ذاك. وكان من الطبيعي أن يغزو الفكر السياسي شرايينَ الحقل الثقافي بعد أن كان الهوس بالأدب هو علّة الإنهمام بالسياسة كما في الماضي: ففي بلدانٍ عانت من قهرَ بني عثمان، ثم أورثتهم لهيمنة مستعمر كالطليان، لا بدّ أن يتغلغلَ في وريد الأدب هاجسُ السياسة لأن الشقّ السياسي لمبدأ الحرية (بوصفها موضوع كل أدب) يطغى على شقّها الوجودي؛ هذا الشقّ الأخير الذي كان منذ الأزل ولا يزال مقياساً للقيمة في الأدب، بالمقارنة مع شقّه المجبول بروح السياسة، المهدّد بالإبتذال والإغتراب عن القيمة كحال كل نشاطٍ ثقافيّ حديث العهد بالواقع بعد رحلة البعث من عدم.

إرتياد المقاهي في الحاضرة لم يكن مجرّد تقليد متوارث، ولكنه كان طقساً حقيقياً استعار هويّته الثقافية من روح أهل الأدب، ليستحوذَ مع الزمن على صلاحيات الأندية الأدبية التي لم يُكتب لها أن تشهدَ انتعاشاً كحركة تنويرية أبداً في البلاد أسوةً ببقية البلدان كالمشرق مثلاً. ففي الوقت الذي كان فيه مقهى «الكوميرسو» (أو التجاري) محفلاً يلتقي فيه رجالُ الأعمال لعقد الصفقات التجارية من موقعه في نهاية شارع الإستقلال من جانبه

المؤدّي إلى ميدان الشهداء، كان مقهى «أورورا» الواقع في الجهة المعاكسة للشارع ذاته المفضية إلى بداية ميدان الجزائر. هنا تستقرّ الأرجوحة التي احتضنتنا صباح مساء المكوّنة من عبد الله القويري، ويوسف القويري، وجيلاني طريبشان، ورضوان أبو شويشة، إلى جانب صاحب نزيف هذه الذاكرة. أما في شارع الوادي فيهيمن الشيخ المصراتي في مقهى «عبد الله» مع بعض مريديه، ليلتئمَ في مسافة تالية من الشارع محفل أمين مازن ويوسف الشريف ومحمد الزوي وكامل أعراب وعلي أبو زقيّة في مقهى «جنان النوّار» ويتنقّل سعيد المحروق بين مقهى «فيدات» بشارع الاستقلال ومقهى «الخضراء» الواقع ببستان «غراند أوتيل» بكيانه المعماري الإيطالي، لا نسخته المعمارية المزوّرة التي قامت على أنقاض المعمار الأصلي تالياً. وكنت أتنقّل بين هذه المعابد الأدبية الحافلة بالجدل وحبّ المعرفة دون أن يخطرَ ببالي إلا تالياً أن سبب تناثر المحافل في مقاهٍ مختلفة إنّما يخفي لا اختلاف الرأي وحسب، ولكنه كان قناعاً لقناعات أيديولوجية مختلفة، وربّما علاقات شخصية مستترة؛ وكان على من رآهم أحبّاء كلّهم مثلي أن يخسرهم جميعاً، لأن كلّ فريق يراني حميم الفريق الآخر فيرتاب في أمري دون أن أدري. وكان على مخلوق كهذا أن يدفعَ الثمنَ أفدح أجناس العزلة، لأن من يحاول أن يعتنقَ كل الآراء يكتشف في النهاية أنه لا يعتنقُ أيّ رأي، كما يكتشفُ من ظنّ أن كل هؤلاء أصدقاء ينتهي إلى حقيقة أنه بلا صديق!

والحقّ أنّي لم أكن لأقتنع بهذه الحقيقة التراجيدية التي تحكم طبيعةَ العلاقات الإنسانية لو لم أسمعها تجري على لسان إنسان ذي سجيّةٍ عفويةٍ هو رضوان أبو شويشة في جلسة جمعتني به مع جيلاني طريبشان في الفندق السياحي الذي اعتدت أن أقيمَ فيه أثناء زياراتي للوطن قادماً من منفاي بموسكو. حدث هذا في زيارة ترجع إلى عام 1974م عندما فاجأني رضوان بروح دروشته المعهودة ليقول مخاطباً جيلاني بالحرف الواحد الذي لم يُكتب لي أن أنساه: «من المعروف أن إبراهيم لا يملك صديقاً!». كانا غارقين في جدل لا أذكر له الآن موضوعاً، كما لا أذكر المناسبة الداعيةَ للزجّ باسمي في النقاش بمثل هذه العبارة القاسية التي أصابتني بالنزيف، برغم هويّتها العابرة، وبرغم عدم اعتراضي أيضاً. لم أعترض لأن العبارةَ كانت من الجنس الذي يبدو أي اعتراضٍ إلى جوار فحواها ضرباً من ابتذال. لم أحتجّ، ولم أعترض، ليس لهذا السبب فقط، ولكن لسبب أعظم شأناً بكثير. لزمتُ الصمت لأتأمّلَ هول العبارة. هذا الهول الذي يكمن في ماهيّها كنبوءة تستوجب الإستنطاق كي تُقرأ كما يجب أن تُقرأ مثلها مثل أي نبوءة. وأن ترد هذه العبارة على لسان إنسان يهدهدُ روحَ الدروشة كرضوان إنّما يخلع عليها هوية النبوءة مرتين. إنها رسالة ليست موجّهة لجليسه جيلاني، ولكنها موجّهة لشخصي الواقع خارج دائرة نقاش تلك الأمسية التي لا تُنسى. فقد توهّمتُ حتى

تلك اللحظة أن كلّ من عرفتُ من أدباء هم أحبّاء، وبالتالي أصدقاء؛ لأني ما دمتُ أحبّهم فلا وجودَ لسببٍ يمنعهم من أن يحبّوني أيضاً. ولذلك كانوا في يقيني جميعاً أصدقاء تلقائياً، وبلا استثناء. وقد أدهشني أن من نطق بهذه العبارة صديق أيضاً، وفوق ذلك بالنسبة لي خلّ حميم. فأين سوُ الفهم إذاً؟ أيعقلُ أن أكونَ مخدوعاً في كلّ هذا الحشد من الأصدقاء طوال الأعوام والأعوام؟ ألا يعني هذا أنّهم لم يأخذوني يوماً مأخذَ الجدّ، ولم يبادلوني مرّةً مشاعرَ الودّ؟ لم تكن العبارة بالنسبة لي لتلعب دورَ الفاجعة التي لا تُنسى لو كان العزيز رضوان لم ينطق العبارة بلهجة المسلّمة المتداولة في أوساط الأدباء. بل عمقها التراجيدي يكمن هنا بالذات. وكان عليّ أن أتأمّل الصدمةَ بصرامةٍ كي أفهم سرّاً يجعلني في نظر من أحببت مخلوقاً بارداً، وربّما طارداً، غير جديرٍ بلقب صديق. ولم يكن الألم كافياً وقتها كي أستكشفَ الحقيقة، ولكن ما تلى ذلك من آلام كان كفيلاً بأن ينيرَ لي السبيل. السبيل الذي استغفلتني الدنيا فنسيتُه برغم أنه لم يغفل عنّي ولم ينسني لأن وسمه ظلّ محفوراً في وجهي، وختمه مطبوعاً في مسلكي، ومعجمه مبثوثاً في لساني. إنه سبيلُ العدوس الشقيّ الذي يسعى في غيهب السُّرَى! إنّه الوزر المهيب الذي يسكنُ بعيداً في الوجدان مجبولاً بالإغتراب، والضلال، والروح الرسالية التي تنتزعُ الإنسانَ من هويّته كإنسانٍ ينتمي إلى قطيع الناس، لتجعل منه

إنساناً ليس من طينة الناس، وتستنزل عليه شخصية الإنسان الذي لا ينتمي إلى هذا العالم ولا إلى حقيقة هذا العالم. هذه السيماء كفيلة بأن تجبرَ كل من عرف إنساناً كهذا أن يستشعر نحوه استفزازاً، أو استهانةً، أو ربّما حتّى عداوة، كردّة فعل لما استخفى عليه من أمره. إنه مخلوقٌ مثير للقلق. مخلوق لا يُطمأن إليه! مخلوق لا يصلحُ صديقاً لأنه لا يمتلك جذوراً أرضية. كائن خارج الصفقة ولهذا السبب هو بلا منفعة! وما لا يحققُ منفعةً بناموس الدنيا يبقى موضوعاً للشكّ، بل ينتهي ضحيةَ الشكّ. ويعلم الله ما كلّفني اكتشاف حقيقة علاقة الإنسان بأخيه الإنسان من أوجاع، ومن عناء، ومن نزيف، كي أدركَ أخيراً فقط أن إنسانَ الإيمان ليس عليه أن يعوّل على علاقة بأخيه الإنسان، لأن الإنسان أعجز من أن يُعين نفسه، فكيف يفلح في أن يكون عوناً لأخيه الإنسان؟ الإنسان أعجز من أن يعوّل على نفسه، فكيف يُعوَّل عليه؟ الإنسان من هذا المنطلق أجدر كائن بالرثاء، وواجبنا أن نقبله كما هو، وأن نحبّه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ونمدّ له يدَ العون ما أمكننا، ولكن شريطةَ ألاّ ننتظرَ منه فعلاً مماثلاً. لأن روح الصفقة هي ورمُ العلاقة الإنسانية بما في ذلك الصداقة. هذه الروح لا تكتفي بتلويث علاقة نبيلة كالصداقة، ولكنّها تحوّلها عداوةً مستترة. ولهذه العلّة يتشفّع الكلّ منذ بدء الخليقة من زيف الصداقة واستحالة وجود الخلّ الوفي!

وعدوس السُّرَى إنسانٌ يهدهدُ في القلب ضميراً حيّاً يضمرُ واجباً مقدّساً هو **العُدُوس**، هو عبور ليل الدنيا في مقابل الدبيب دبيب الدّابة على مسرح الدنيا على طريقة السواد الأعظم، ولهذا فهو في نظر هذا السواد ليس جديراً بالثقة، وبالتالي للصداقة. إنه لن يكونَ صديقاً لأحد حتّى لو تظاهر له الكلّ بالصداقة، لأنه مريد لن يستطيعَ أن يخفي عن الأغيار ما يريد مهما حاول أن يفعل، لأن.. طلب الحقيقة هو الإرادة التي لا تُخفى ولا تُغسل من سيماء المريد. إنه يبدو في نظر ذوي القربى ممهوراً بعلامة مَنْ يُخفي مؤامرة! مؤامرة مقدّر لها أن تُقرأ كنيّة مبيّتة. وصاحب النوايا المبيّتة دوماً عدوّ سواء أكان نبيّاً، أو مجرماً؛ معتلاًّ أو معتزلاً!

7
الطقس

في مقهى «زرياب» الواقع في منتصف شارع الاستقلال اعتدتُ أن أجالسَ علي بيري قبل أن ينضمّ لنا جيلاني طريبشان أيضاً، وقبل أن يصبحَ هذا المقهى مقرّ أحمد إبراهيم الفقيه بعد عودته من بعثة في بريطانيا، وزياد عليّ في بدايات السبعينيات كلّما عاد من منافيه في المشرق. كنّا نلتقي في تلك المقاهي كأنّنا نستجيبُ لميعادٍ سرّي. نهرعُ إلى المقاهي لا تنفيذاً لطقسٍ يومي كالصلاة وحسب، ولكننّا نستجيرُ بها كلّما عاد أحدنا من رحلةٍ خارج العاصمة كأنّنا دفنّا في أركان المقاهي أسراراً أو كنوزاً. كانت تلك البُؤَر زوايا أكثر حميميةً من البيوت ومن الفنادق التي تأوينا لأننا استودعناها أعزّ ما امتلكنا وهو أفكارنا التي تبادلناها كسلعة لا يملكُ الإنسان سواها كما يقال، سيّما بالنسبة لجيلنا الذي لم يملك أيّ شيء، ولم يراهن على شيء، ولم يستهوه في الدنيا شيء باستثناء الأفكار. وليس غريباً أن تستعيرَ المقاهي روحَ دُوْر العبادة لأنّنا لم نستودعها أفكارنا وحدها، ولكنّا استودعناها

أرواحنا التي تسكن أفكارنا. لم نستودعها أرواحنا التي تسكن أفكارنا وحسب، ولكنّا استودعناها صلواتنا التي تسكن أرواحنا.

وإذا كان الجدل هو طعام الجلوس في المقهى بوصفه طوافاً في مملكة المحدود بقدر ما هو غياب في ملكوت اللامحدود، فإنّ الخروجَ من المقهى بدايةٌ لطقسٍ آخر. بداية لرحلة أخرى. بداية لميلادٍ آخر. بداية لحضورٍ آخر لا في مكان مجبولٍ بذخيرة تاريخية وحده، ولكن بداية لحضور في زمان احتال على الذاكرة فاختلس شأناً، ولكن خذلته الجدرانُ فتحدّثُ النسيان باحتفاظها بالشأن الذي أعجز الذاكرة. فبنهاية طقس الجدل يبدأُ طقس الخروج. تبدأ صلاةُ التجوال في رحاب مدينةٍ ثريّة الهوية مع حلول المساء؛ كأنّ المساء أنسب وقت لزيارة التاريخ في حرمه. زيارة التاريخ العالق في جدران مدينةٍ قديمة. لأن جدران المدن القديمة دوماً متنٌ أصدق في رواية سيرة كل مدينة مؤهّلة بأن تتباهى أمام أعرق مدن الدنيا بماضٍ أسطوري، بل بعمقٍ ذي بُعد غيبيّ. إنّها طرابلس تتحدّث ما أن تنتهي بنا جولة المساء، إلى ميدان الشهداء الفسيح حيث تتلامع مياه النافورة المحمولة على ظهور الأسود وسط الساحة السخيّة التي تستوعبُ كل شوارع مركز المدينة الرئيسية (عمر المختار، الوادي، 24 ديسمبر، الإستقلال، وأدريان بلت) كأنّ الساحةَ تحتضنُ غنيمةً ذات روح قدسيّة تترجمها دلالات كامنة في الأسماء التاريخية: فالساحة نالت اسم

«الشهداء» عن مؤهّل تاريخي أيضاً؛ لأن المحتلّين الطليان كانوا ينفّذون أحكام الإعدام بالثوّار في هذه الساحة بالذات فحقّ للمكان أن يتباهى بالإسم بشهادة الدّم. كما حقّ للساحة أن تتباهى باحتضان أمّ الشوارع الطرابلسية، أي جادّة عمر المختار، كإمام لهؤلاء الشهداء، في حين لا تبخل على شارع الوادي بالمديح أيضاً، لأنه امتداد لنهر «المجينين» الذي كانت مياهه تغذّي المدينة وضواحيها إلى وقتٍ قريب. وكان الوادي يصبّ في البحر عابراً هذه الساحة الخالدة بالذّات. أمّا 24 ديسمبر فهو يوم الإستقلال لهذا الوطن الشقيّ بعد تصويتٍ دراميّ في الأمم المتحدة لم يسبق له مثيل تساوت فيه الأصوات المؤيّدة والأصوات الرافضة، وكان على إنسانٍ مجهولٍ يعمل سفيراً لبلادٍ مجهولة أن يكون الرسول الذي سخّرته الأقدارُ لكي يفكّ العقدةَ الناتجةَ عن تعادل الأصوات. كان هذا الإنسان هو أدريان بلت، والبلاد التي مثّلها هي هاييتي. فكان على العالم أن يقفَ شاهداً، منتظراً كلمة الرجل المجهول القادم ممثلاً لجزيرة مجهولة في شأن حرية شعبٍ عريقٍ سيّئ الحظ، عاند الجور ألوف السنين انتظاراً لهذا اليوم. وكان جلّ مندوبي الأمم لدى المنظمة الأممية يعلم موقف دولة الرجل الرسمي المؤيد لموقف الولايات المتحدة الرافض لقرار منح ليبيا الاستقلال، ولكن قلّةً من المندوبين تعلّم موقف الرجل الشخصي المؤيد للقرار. فهل يُرضي أدريان بلت ضميره فيصوّت إلى جانب القرار، أم يتبنّى موقف بلاده الرسمي فيصوّت ضد القرار؟

كانت القاعة في ذلك اليوم التاريخي، بل والدراميّ، قد تشبّثت بتلابيب صمتٍ مزمومٍ انتظاراً للكلمة التي ستحيي شعباً أو تميت شعباً. ومن شأن هذا الرجل الذي لم يحسب له أحد قبل اليوم شأناً وحده يقع وزر هذه الكلمة. وكلّما تردّد الرجل أكثر كلّما ازداد الموقف توتّراً والوضع مأساويةً. وكان وفدُ الأمّة الليبية الظامئة أبداً إلى الحرية المكوّن من بعض الأعيان البسطاء يقبعون في كراسيهم في ركن القاعة ليبدوا بألحفتهم البيضاء وسكينتهم التي تعلّموها من عذاب شعبهم الأزلي كأنهم أطياف، يرنون إلى الفراغ في ذلك اليوم المصيري من تاريخ بلادهم، بعيون من يَرَى ما لا يُرَى ليقينهم بأنّ الأشياء التي تُرى وقتية، أمّا الأشياء التي لا تُرى فأبدية برغم أنّهم لم يقرأوا وصيّة القدّيس يوماً. هذه السكينة، هذه النظرة إلى الفراغ، هذه السيماء اللامبالية كأن ما يجري ليس من شأنهم، هذه الروح الزهدية، بل الطفولية، التي تغزو وجوههم كأنّهم يتوسّلون بحضورهم معذرةً، أو يستجدون المحفل غفراناً مقابل الإزعاج، هو ما زعزع رسول المجهول أدريان بلت ليتّخذَ قراره التاريخي، قراره البطولي الذي كلّفه الطرد كما يُقال من منصبه وعداوة دولته. اتخذ أدريان بلت قراراً مؤيِّداً لقرار الاستقلال فضجّت القاعةُ بالتصفيق الذي لم تشهده في تاريخها، وهرع المندوبون لتهنئة الرجل بدل أن يهرعوا لتهنئة الوفد الليبي الذي هرع إلى أدريان بلت ليقدّم له التهاني بدل أن يتلقّى منه التهاني!

كم مرّة استعدتُ هذه السيرة الدموية أثناء سيري عبر شارع أدريان بلت الذي يلتهمُ أبْهَى جزء من أجمل كورنيش شاهدته على بحر ليبيا الرومانسي الثريّ بالأساطير، مُلْهِمُ الشعراء، ومعشوق القادة الذين صنعوا التاريخ، فقدّمت له ملحمة «**الأخلاف والأسلاف**» (ذات الستة أجزاء) قرباناً متواضعاً تعبيراً عن حبّ، كما قدّم الليبيّون اسم «أدريان بلت» للشارع الأجمل والأطول قرباناً لبطولة رسول المجهول هذا وتعبيراً عن حبّ! تحتوي الساحة القدسية حزمة الأسماء القدسية لا لتنفيها، ولكن لتطلق سراحها إلى جهات الدنيا الأربع، كأنها تنجبها من رحمها لتجود بها رحمةً للعالمين! أمّا سورُ المدينة العريقة فيستقطع من الساحة القدسية النصيب الأكبر؛ يستقطع الجهة الشمالية ويتمادى في امتداده فينتهب شطراً من ناحية الساحة الغربية أيضاً. هنا، في حرم القدمة المجدوحة بالحنين، تنتصبُ الحجارةُ المشذّبة بملوحة أهوية البحر، المسودّة بروح الغموض المجبول بشعر قرين للمسة الزمن، لتتنازل طرابلس في اسم «**المدن الثلاث**» اليوناني، لتستلم «**أويا**» كوسم أقدم عهداً تقول ترجمته من اللغة المحلية الأقدم من كل اللغات: «الميلاد»، أو «الحياة» أو «التكوين» تعبيراً عن نشوء المدينة في أزمان ما قبل قبل التاريخ.

وها هو سليل لبدة الكبرى (أكبر مدن شمال أفريقيا الرومانية) سبتيموس سفيروس الإمبراطور الليبي الذي حكم العالم يوماً،

يسدّ بطلعته المسبوكة من البرونز، مدخل المدينة القديمة، منتصباً على نصب المرمر، قبل أن تمتدّ يد التعصّب في الثمانينات لتنتزعه من موقفه بوحشية وترمي به في مخزن متحف لبدة، دون أن تُبعث يد التسامح فتهرع لنجدته كما حدث في أحد أيام عام 1967م إبّان المظاهرات الغاضبة الناجمة عن هزيمة ذلك العام، والموجّهة ضدّ الأعراق الأجنبية كالطليان واليهود، وضدّ ممتلكاتهم أيضاً، ممّا اضطرّ أصحاب الممتلكات من أهل البلاد للإستجارة بعبارة «عربي، مسلم» التي صارت تعويذةً لحماية المحلّات التجارية من حملات التخريب العمياء. فكان أن تعرّض تمثالُ الإمبراطور لهجمةٍ من بعض الغوغاء وحاولوا انتزاعه من قاعدته المرمرية لولا تدخّل شخصية كاريكاتورية مولعة بالتاريخ معروفة باسم «فشيكة» آنذاك، حيث هرع لنجدة التمثال وهو يهشّ الغوغاء عن نصب الإمبراطور مردّداً بأعلى صوت: «ليبي! سبتيموس سفيروس ليبي! ألا تستحون؟». فتراجع الغوغاء، وانتصر درويشُ التاريخ!

في الواجهة المجاورة لكورنيش البحر تنتصبُ «السراي الحمراء» حصناً آوى أولياء أمر البلاد منذ أقدم الأزمان فانطوى على أسرار الكيد والفضيحة والعنف وكلّ رذيلة لازمتْ بدعة الحكم منذ انقسمت الخليقة، كخليفة للربّ في الأرض، إلى حاكم ومحكوم. يخترق البنيان نفق معبّد تتخذه المواصلات معبراً يجاور البحر دوماً ويُفضي إلى الجانب الآخر من الطريق الذي

يطوّقُ المدينةَ كحزام صارم من الشطر المواجه لباب البحر. أمّا المدخل المقابل لساحة الشهداء فكان يحمل تاريخياً اسم «باب زنّاتة»، في حين حمل المدخل الغربي اسم «باب هوّارة» تيّمناً باسم أكبر قبيلتين بربريّتين حكمتا البلاد قبل دخول الإسلام. وقد فازت هاتان البوّابتان عبر التاريخ بأكبر نصيب من رؤوس العصاة وأعداء الطغاة وأشقياء خذلتهم الحظوظ الذين كانت السلطات تلجأ لتعليقهم على بوّابات المدينة ليكونوا عبرة لأبناء الرعية! في هذا المدخل تستقبل عدوس السّرى صفوفُ دكاكين الذهب التي تكتسح «سوق المشير» الحافل بالحركة آناء الليل وأطراف النهار إعلاءً لشأن المعدن الذي كان منذ الأزل مدعاةً للإحتفاء وكلمة السرّ في فتح كلّ مستغلق سواء أكان باباً أو قلباً! تنطلقُ صفوفُ دكاكين هذا المعدن على الجانبين إلى «ميدان الساعة» لتتواصل بعدها أيضاً، في حين تستلقي رحاب الأروقة السخية على الميسرة حافلة بتحف المصنوعات التقليدية، قبل أن تتواصلَ هذه السّلع في محتويات دكاكين تصطفّ على جانبي أزقّة مسقوفة يؤدّي امتدادها إلى «باب الحرية»، مخترقاً عتمات السقوف الأبدية التي ستصبحُ منذ الآن علامةَ المدينة القديمة المميّزة، في حين تنحرفُ أزقة أخرى في نهاية هذا الممرّ ناحية الميمنة لتؤدّي إلى محافل أخرى أكثر ثراءً، وأشدّ وَلَعاً بمراسم الإحتفاء في طرق مسقوفة طوال الوقت هي «سوق الربع». إنّها مملكة الخزّ، ومستودع منسوجات الحرير والقطن والأصواف وكلّ ما متّ بصلة إلى الأناقة

والأعراس وما ماثلها من ملبوساتٍ أو مناسبات. وهو المكانُ الأنسب الذي اعتاد أعيانُ المجتمع الطرابلسي أن يتخذوه محفلاً في مختلف مراحل تاريخه ليعقدوا في رحابه الصفقات وهم يحتسون القهوة ويتسلّون بسير القوافل التجارية المنتظرة، أو يتندّرون بآخر فضائح القصر! صفقات ذات طبيعة تجارية، وربّما صفقات ذات طبيعة عاطفية، بعد أن جرّبوا أن كلّ شيء في دنياهم صفقة، بعد أن اكتشفوا أن وجودهم على قيد الحياة ذاته ما هو إلاّ صفقة!

في المدن القديمة كلّ حجرٍ متآكلٍ، مثبّتٍ في جدارٍ بائدٍ، تاريخ. كل حجرٍ يتوثّب ليروي لنا سيرة. كل حجرٍ في بنيان زقاقٍ يستوقفنا ليلقي في قلوبنا بوصيّة. كلّ حجرٍ مجلّد مسبوك من صلد، يطوى متوناً مجهولة، ترتسم وَحْياً مكتوماً في سيمائه المنخورة بأنفاس الزمن وأهواء اليمّ المبلّلة بالملوحة. لأن ما جدوى طقس العدوس في ممارسة العبور اليومي، أو الليلي، لجوف المدينة القديمة إن لم يكن العُدُوس هنا استفزازاً للحنين، وعبوراً للتاريخ، وتغليباً للذاكرة الجريحة في نزيفها البطولي: نزيف المبارزة الدامية مع النسيان. النسيان المستنصر بروح المكان الذي تبدّد المسمّى زماناً. الحجر هنا حضور. الحجر هنا وجود. وثيقة وجود تبرهن أنها شريحة مكان تُخفي في صمتها هويةَ الزمان الذي تبدّد. الحجر المدسوس في جدار المدينة القديمة وحده سرّ

الجدل في العلاقة بين الزمان والمكان. فهو مهما تضعضع بالجسد (بفعل عوامل الطبيعة الأمّ) بيد أنه الشاهدُ الوحيدُ على علاقة المكان بالزمان: يتبدّى تبدي الحضور في المكان ليخفي في حضوره سرّ الزمان الذي تبدّد. يروي بحضوره المجلّل بسيماء القدمة لغز الزمان إيماءً. يروي اللغز رمزاً. لأن ما امتلك عمقاً وحده يمتلك الحقّ في أن يُخاطب رمزاً. بلى! بلى! حجارة المدن القديمة خطابٌ مستعار! فكلّ حجرٍ يُخفي سِيَرَاً لا تقلّ ثراء عن ما تخفيه جدرانُ حصن «السراي» من سير الأسرة الملكية القرمانلية التي حكمت الوطن لقرن وربع القرن. هذه الأسرة الأسطورية ذات الهويّة الليبيّة من جهة أصولها الأمومية، والنسب الأناضولي من جهة الأبوّة التي تهجع بسلالاتها الرجالية في مقبرة جماعية يحتضنها جامعُ الباشا الواقع في مدخل «باب هوّارة» الذي شيّده مؤسس الأسرة أحمد الأكبر.

وجدران المدينة التي تروي سيرة جبروتهم في حدود القلعة لا تلبث أن تروي في سيرتهم التراجيدية فصولاً أخرى في أمكنة أخرى من المدينة. تروي سيرة اضمحلال بعضهم (مثل يوسف القرمانلي) المسطّرة آيةً في البيت المتواضع المشيّد في أحد أحياء العوام ليكونَ شهادةً على منفاه الموجع قبل أن يلفظَ أنفاسَ النزع الأخير عجوزاً، أعمى، وأصمّ، وفوق كل هذا وحيداً وفقيراً إلى حدّ أعجز ما تبقّى من أهله أن يجدوا أتفه مال للإنفاق على مراسم

الدفن، فتولّت الدولةُ عنهم هذا العبء! يحدث هذا للإنسان الذي حكم ليبيا لأربعين عاماً، بل حكم حوض البحر المتوسط طوال هذا الأمد، وحارب كل دول أوروبا وكذلك أمريكا، وفرض عليها وضع الإتاوات جميعاً؛ ليصير بذلك أسطورة زمانه.

وإذا كانت حجارة جدران المدن القديمة ترطنُ بسير الأجيال بحضورها في المكان، فإنها لا تلبثُ أن تروي أسراراً أخرى بالرائحة. وهي ليست رائحة الأعشاب في حيّ العطارين الواقع في الجانب الآخر من المدينة، حيث يستلقي **«باب الحرية»**. وهي ليست رائحة سوق العطور المجاورة لمملكة الأعشاب البرية التي كانت لأهل المدينة ترياق الزمان عبر الدهور، كما كانت السُّموم التي تُدسّ في الطعوم أيضاً. وهي ليست تراكم روائح الأخلاط التي اعتاد دهاةُ الخيمياء أن يستخدموها لاستخراج إكسير الحياة، أو الفوز بسيّد المعادن بالمجّان. هي ليست أيضاً رائحة الملح المشبوب بغموض البحر وأنفاس كائناته المجهولة. ولا رائحة التوابل أو ما شابهها من صنوف البُنّ، أو أنواع البهار. إنها رائحة ليست مزيجاً من كلّ هذا أيضاً. رائحة أخرى تختلفُ عن مزيج الروائح العضوية كأبخرة الأطعمة، أو عرق الأجساد. رائحة غامضة تروي الشقّ الآخر من سيرة الحجر. الرائحة التي تترجمُ أحلامَ الأجيال، وهموم القوم، وعواطف الناس وأفكارهم ونواياهم. إنها الرائحةُ التي تترجمُ كل ما اغتنمه الزمن من إنسان

الزمان ليصير غنيمة العدم. إنها رائحةُ الروح: رائحة الروح التي اغتربت!

هذه الرائحة هي التي يتنفسّها قوس **ماركوس أوريليوس** المرمري المطوّق بحشود آلهة رومانية تلتفّ حول الحرم في حزام جليل كأنّها تبدعُ بتلك الأنصاب تميمة تجير البنيان الفاتن من نوايا عدوّ خفيّ. وهوية العدوّ الخفيّ لن تكون، في يقين عدوس السّرى، غير الزمن!

وها هي **«ساحة الرخام»** (كما كانت تسمّى قديماً) تحتضنُ قوس سليل الحكمة المهيب لتحكم طوقاً آخر يستدير بأبنية ذات طراز محلّي متوّجةَ الأعالي بمثلّثات ربّة التكوين **«تانيت»** (الربّة الليبية التي وجدت طريقها إلى معتقدات أمم حوض المتوسط)، مظلّلة من أعلى بقامة الجامع المجاور ذي الشعفة المقبّبة بقوس الهلال المكابر؛ ليقفَ المشهدُ كلّه شهادةً حميمةً على انسجام أرباب مختلف الأوطان، مترجماً بهذا الحضور الحافل في المكان درساً صريحاً في تعايش الديانات، وتسامح الثقافات، مجسِّداً البرهان الأخير الذي استطاع أن يجير عبر الأجيال روح الجمال، المنفوثة في وجدان الصلد، من جور طاغية اسمه الزمان.

8
الطَّوَاف

كانت روحُ المقاهي ما زالت تحتفظُ حتّى تلك الآونة بفطرتها البكر قبل أن تغزوها فلول المخبرين فتشتّت شمل روّادها سيّما من الفئة المنتمية لطينة الأدباء التي لا تتحسّس من شيء كما تتحسّس من قرون استشعار الأنظمة السياسية هذه. وقد كنّا نستنكرُ موقف السلطات الجديدة من أهل الثقافة ونناقش في المنتديات (المقاهي) السبل في تبديد الشكوك والتعبير عن حسن نوايانا ما دام الشأنُ الوطني هو الهمّ المشترك الأعظم. وقد شكّلت ردّة فعل رئيس مجلس الثورة على سؤالي في المؤتمر الصحفي الأوّل حول دور الإنتليجنسيا الوطنية في النظام الجديد صدمةً للأغلبية المثقّفة فتوقّع بعضهم الأسوأ، في حين تسامح فريق آخر مقترحاً منح الثورة فرصةً لاستجلاء الحقيقة في حسن النوايا. ولتوحيد شتات هذا الحقل الشقيّ اقترح البعض تأسيس نقابة، أو اتّحاد للأدباء والكتاب يجمع شملهم ويوحّد كلمتهم في كلّ ما له علاقة بالشأن الوطني. وقد أوكلت مهمّة الإجراء القانوني للمحامي القدير عبد

الرحمن الجنزوري الذي رأى وجوب الحصول على تواقيع الراغبين في الإنتساب لهذا التجمّع كمستند قانوني مبدئي ضروري. وقد وقع الإختيار على شخصي لإنجاز هذه المهمّة التقنية. فكنت أقبل من حيّ الفرناج حيث أقيمُ مبكّراً لأؤدّي واجباتي بالجريدة بميدان التاسع من أغسطس، ثم أنطلق بعدها عبر شوارع المدينة في الطواف صوب المنتديات (المقاهي)، ولكن ليس قبل تأدية صلوات التجوال الطقسي الصباحي. والطريق من ميدان أغسطس إلى قلب المدينة يعبرُ شارع الرشيد حيث يكون باعة قد انسحبوا ليفسحوا المجال لجنس آخر من الباعة. ينسحبُ باعة فطائر «السفنز» الذين يغزون الشوارعَ الخلفية منذ الفجر ليحلّ محلّهم باعة الألبسة الجوّالون. مع حلول الضّحى تبلغ الحركة ذروتها فتهبّ على المارّة روائح الطعوم الشهيّة المنبعثة من مطابخ المدينة تهيئةً لوجبة الغداء التي كانت في تقليد المدينة طقساً آخر لا يقلّ إغواءً عن طقوس الإستيقاظ فجراً على نداءات بائع فطائر «السفنز» الملحونة، والخروج إلى الشوارع الملفوفة بالظلمة لنيل فطيرة من الموكب لا إشباعاً لجوع، ولكن مشاركةً في تقليد، وتلبيةً لنداء الطقس! وهو الطقس ذاته الذي يتكرّر في تناول وجبة الغداء، ثمّ في فترة العشاء: إنّها تلك المراسم اليوميّة المجبولة بروح غيبيّة تُمليها مسيرةٌ تاريخية لوضعية اقتصادية، ولكن نزعة التقليد في روح كل أمّة تبدع منها نظاماً وجودياً مطبوعاً بختم الدّين. إنه إنجازٌ تاريخيّ يستعيرُ هويّته كطقس من طبيعة النداء.

من طبيعة اللّحن في النداء ذي النغمة الشجنية المستعارة من منظومة موسيقية غَذَّت بروحها الوجدية كل لحون الشمال الأفريقي: إنها أغاني المرزكاوي المنسوبة إلى عاصمة الجنوب التاريخية «مرزك» التي شهدت عبر مسيرتها تزاوج الأعراق، واندماج الثقافات، وتناسل الأرواح (الأمازيغية الصحراوية والعربية والزنجية) فأنتجت تراثاً موسيقياً مشبعاً بالفضول والحنين والضياع كترجمة لسجايا الأمم الثلاث.

شارع الرشيد يتواصل في جادّة عمر المختار في المسافة التي لا تزيد عن المائة متر التي تفصل الشارعين عن ميدان الشهداء. هنا تكتسبُ حركة الزحام روحاً أخرى، لأن أبطالها في مثل هذا الوقت من النهار هم من الجنس اللطيف. فالمدينة حتى نهاية 1969 كانت الغالبية العظمى من سكانها تنتمي إلى الجالية الإيطالية. وهو ما يعني أن المدينةَ كانت حتى تلك اللحظة مدينة نصف أوروبية، أو فلنقل أوروبية الملامح بالذّات في المركز. والدليل حسان الطليان اللائي يروق لهنّ تحويل الشوارع الرئيسية إلى ساحة لعرض الأزياء (أو فلنقل لاستعراض الحُسن) في طقس صباح، وآخر في المساء كحالنا تماماً. لأن ما جدوى الحُسن إذا لم يتحوّل غنيمة نظر؟ أوَليس الجمال هو الكنز الوحيد الذي يفقدُ قيمته (بل وسلطته) إذا احتجب عكس كل الكنوز؟ ويبدو أن هوس حسان الجالية الإيطالية بممارسة طقس التجوال على ذلك النحو

الإحتفالي (الذي يكاد في تلك الأعوام أن يتحوّل كرنفالاً جماعياً يومياً) ما هو إلاّ استجابة فطرية لنداء هذا الجمال الذي كان أحدَ معالم طرابلس ذلك الزمان، ونحن الذين كنّا شهود عيان لما حدث للمدينة بعد أن هجرها هذا المَعْلَم وحدنا يَعْلم ما معنى زوال الجمال من المكان.

ولكن أين جمال أهل المكان بالمقارنة مع جمال بنات الأغراب؟

جمال الليبيّات حتّى ذلك الزمان كان في حضوره محصّناً. وحضوره في الحصون كان يهبه فتنةً أقوى من قرينه المستجير بالعَلَن. فالسُّفور الذي نراه تحرّراً هو، في عرف الجمال، فضيحة تجرحُ كبرياء الجمال لأنه يستبيح عمقه، وينتهك سرّه ليلغي هويّته التي استخفت. وحقيقة الجمال ليست في ما استظهر، ولكن في ما استخفى. إنه كالمتن الروائي الفذّ: إعجازه في الإستعارة وليس في العبارة. إنه كالجبل الجليدي العائم المغمور بتسعة أعشاره في الماء، وعشره فقط يطفو فوق سطح الماء. العُشر غنيمة حاسّة العين التي لا تشبعُ من النظر، والأعشار التسعة الباقية غنيمةُ المخيال الذي يتغذّى بالحُلم. والحلم أقوى حُجّةً من النظر، ومن كل الحواس، لأن اغتنام الجمال بحاسّة البصر يوقظُ الشهوة للجمال، فيميت بالسلطة الحسيّة الجمال في الجمال، في حين يتألّه الجمال بالحُلُم، ويتبلور في المثال.

وعلّ كلّ من شهد نساء ليبيا وهنّ يتفنّنّ في التدثّر بذلك اللحاف الناصع المسمّى في العاميّة «الفرّاشية» الملتفّ حول أجسادهن على نحوٍّ يشدّد على إبراز تكوين الجسد (أو ما يسمّى بمفاتن الجسد) برغم نفيه للجسد ككلّ، لا بدّ أن يشهد للشرق بالدّهاء في مقابل حرفيّة الغرب. وهو ما يعني أن الستورَ في اللباس طريقة مستعارة من فلسفة حياة ترجع بجذورها إلى العقلية الشرقية التي اعتنقت عبادة المستتر في مقابل المستظهر، فكان التصوّف ترجمة لها عبّر عنها أحد أئمتها بالعبارة القائلة: «علْمُنا هذا إشارة، فإن تحوّل عبارة خَفِيَ». وهو ما عبّرت عنه فلسفة «زن» اليابانية بمقولة الحقيقة خارج الكلمات. أو ما تعني ترجمته أن الحقيقة خارج اللغة، وهو ما لا يمكن التعبيرُ عنه بالكلم، أي بالحرف. وهو الحرف الذي طرده القدّيس من رحاب فردوسه في العبارة الإنجيلية المرجعية لكل مريد حقيقة القائلة بأن الحرف يميت، ولكن الروح تحيي. فإذا كان الحرف عدوّاً للحقيقة، فكيف لا يكون معادياً للجمال وهو القرينُ الشرعيّ للحقيقة في كل الثقافات؟ لأن ما هو الحرف المقصود في وصيّة الكتاب المقدّس إن لم يكن الجسد حرفياً؟

والجسد؟ ماذا بشأن هذا الجسد الملوّث بالخطيئة التي سبّبت اللعنة التي غرّبت السّلالة عن ملكوت الربّ؟ هل يصلحُ الجسدُ رسولاً للجمال المفقود بعد أن كان برهان اغتراب؟ هل يتحوّل

الجسد معبوداً، أو ربّاً، للجمال فيتنكّر لهويّته كسبب اغتراب عن الجمال؟ دور الجسد، إذاً، هو **التعبير** عن الجمال، وليس **الشهادة** على الجمال. دور الجسد، إذاً هو **الإيماء** بالجمال. دور الجسد أخيراً هو **الإيحاء** بالجمال، وليس الإدّعاء باحتلال عرش الجمال!

والليبيات في عادة اللباس كنّ أبرع في تلك الأيام في الإحتيال للتعبير عن الجمال بفنون التورية وضروب الإخفاء دون خدش حياء الجمال، دون ابتذال الجمال بالمغالاة في التعرّي، والمبالغة في إبراز مفاتن الجسد إلى حدٍّ يغترب فيه الجمال ليحتلّ الجسد عرشَ الجمال بديلاً للجمال الذي اغتربَ كما هو الحال مع مسلك نساء الطليان في مسرح عرض الأزياء، الذي تشرفُ المدينةُ على تنظيمه بالمجّانِ في فترتين كل يوم: فترة في الصباح، وأخرى في المساء! فها هي مخلوقات الأطياف المطبوعة بروح الأشعار التي تمتزجُ في أبدانها الدماء البربرية والعربية والتركية واليونانية والرومانية والزنجية، تتثنّى في شوارع الحاضرة، ملفوفةً في أكفانها الناصعة، المتقنة التكوين، حاملةً في أعطافها لا دماء كل هذه الأجناس وحسب، ولكن أرواح تلك الأجناس أيضاً؛ حاملةً جمال تلك الأجناس، حاملةً أرباب تلك الأجناس؛ وهو ما يعني حملها لحقيقة تلك الأجناس أيضاً. وهو ثراءٌ يضاعفُ سطوةَ الجمال في خطو الأطياف، وقوام الأطياف، ومسلك الأطياف، لأضعاف الأضعاف. في عيونهنّ الدعجاء يسطعُ وميض من

غموض يترجمُ روحَ كل تلك الأمم في مرّة فتبدو المرأة رمزاً مكابراً بعيد المنال، لأن في عيون هذه المخلوقات يتألّق إيماء السلطةُ المعبّرة عن الجمال في غياب الحرف المضلّل للجمال. فمقلة أنثى تسطعُ من وراء حجاب هي تصريحٌ عن الجمال قد يُعجز، في بيانه كبرهان، أجساد الدنيا بأكملها. والحلم هنا يلعبُ يقيناً دورَ البطولة. هيهات أن يعرف الجمال أو يستمتع بالجمال، من أعجزه الحُلُم عن رؤية الجمال.

أطوف في المقاهي المجاورة للميدان طلباً لفرسان الأقلام المخوّلين بالتوقيع على «وثيقة الخلاص» الموجّهة للسلطات. الوثيقة التي نعوّل عليها ظنّاً منّا أن الإلتئام في محفلٍ للأدب متوّجٍ بإذنٍ رسمي من دولة يمكن أن يعيننا في كتابة الأدب، أو بالأصحّ، في محنة معاندة الأدب. وكان على عدوس السُّرى أن يعبر كثيراً، ويكتوي بنار خيباتٍ كثيرة، قبل أن يدرك أن أوّل قدر في رحلة الأدب هو: العزلة! وأكبر عدوّ للأدب هو الإحتماء بالمحفل سواء أكان نقابةً، أو جمعيةً، أو حزباً، أو أي اجتماعٍ بجماعة حتى ولو كانت هذه الجماعة عائلةً! فالأدب، إذا كان إبداعاً، يغتربُ بالآخر أيّاً كانت هويةُ هذا الآخر، ويستقيمُ بالخلوة. يغتربُ بحضور الآخر، وينتعشُ بالحضور في الخلوة. إنه سليلُ الحلم، والإبن الشرعي للتأمّل؛ ولهذه العلّة هو هشّ. إنه تجربة تحرير للروح من قمقم الجسد. أي إنه انتحالٌ صريحٌ

لدور الموت في ممارسة الحرية. الموت الذي يجعل من الحرية بعثاً برسالة العدم. ولهذا السبب شهد التاريخ بتحوّل وثيقة الإنتماء لتنظيم في جيب صاحب الأدب إلى شهادة لمصرع الأدب في قلب كل مريد أدب!

ولكن ميلاد عدوس السُّرى الثاني لم يحن بعد حتّى يكتشف المريد الفرق بين أدبٍ يستهوي الكلّ ويُرضي سلطان السوق، وبين أدب نزيف الروح الناتج عن التحديق في الأبدية.

يخذلني غيابُ الأدباء في منتديات المقاهي فلا أجد مفرّاً من تأجيل اصطيادهم لفترة المساء لأنطلق إلى مقرّ الإذاعة مشياً على الأقدام. أنطلقُ للإذاعة لتسجيل إحدى حلقات برنامجي المسموع، بل أحد برنامجين ثقافيين مسموعين أُعتُمدا بعد تولّي المبدع يوسف الشريف الإذاعتين، وتواصلا بعد إقصاء الشريف وتعيين محمد أبا القاسم الزوي خلفاً له كمدير لهذه المؤسسة التي كانت تخضعُ لمجلس قيادة الثورة خضوعاً مباشراً. وقد ظلّت كذلك إلى النهاية وعياً بأهمية هذا الجهاز الذي كان له الفضل الأوّل في نجاح المغامرة الإنقلابية أصلاً!

أنطلقُ سعياً على الأقدام لأتلذّذَ بالعُدُوس عبر شارع البطل «**أدريان بلت**» الأنيق، المشرف طوال السبيل على كورنيش بحر ليبيا النقيّ، العميق الزرقة، المجبول بروح الشعر والأساطير وسِيَر

المعارك البحرية والحنين إلى ممالك المجهول التي تستقرّ على شطآنه الأخرى.

في الشارع يهيمنُ التاريخ أيضاً: ففي ميمنة الطريق في انطلاقه نحو الشرق كانت تستلقي منذ مئات الأعوام حقول المنشية التي تحتلّ مساحات شائعة تشملُ منطقة بن عاشور اليوم، وكان الباشوات وأعيان المملكة يتخذونها مقرّاً صيفياً ومتنفّساً بديلاً لأهوية المدينة الخانقة. وقد شهدتْ أحداثاً جسيمة علّ أهمّها المذبحة الفظيعة التي ارتكبها أحمد الأكبر مؤسّس الأسرة الملكية القرمانلية ضدّ ضبّاط الإنكشارية الذين كانوا في فترةٍ مّا حُكّام البلاد الحقيقيّين، يخلعون من الحكم من أرادوا، وينصّبوا فيه من شاءوا؛ ولم يكن أحمد القرمانلي ليمكثَ في جوف العرش عاماً واحداً، بوجود هؤلاء الأوباش، فكيف بالمكوث في العرش خمساً وثلاثين عاماً ليورث هذه الغنيمة لذريّته من بعده؟

على ميمنة الشارع انتصبت أبنية موسومة ببصمات المعمار الإيطالي أقامها المستعمرُ لإسكان أكابر ملّته، وهي اليوم من نصيب أهل الحظوة ومقرّ لجلّ السفارات الأجنبية؛ وهي تلتهمُ المساحات المطلّة على البحر إلى أن تلفظَ أنفاسها عند تخوم مقرّ الإذاعة، ليبدأ بعدها الطريق فسيحاً مجلّلاً بقامات النخيل على الميمنة حتّى يبلغ أعتاب بوابة قاعدة «هويلس» الأمريكية، التي احتلّت الرقعة التاريخية المواجهة لصخرة «**الخالوصة**» التي نصّبها

داهية القرصنة الطرابلسية «بترليزلي» الإيرلندي المعروف باسم «الريّس مراد» ليصنعَ من المكان البحري شَرَكاً للإيقاع بالبارجة الحربية الأمريكية «فيلادلفيا» في عهد يوسف باشا؛ كأنَّ الأمريكان تعمّدوا إقامة قاعدتهم الحربية في هذا المكان الذي شهد هزيمتهم منذ ما يزيد عن المائة والستين عاماً من باب الإنتقام!

بعد الخروج من الإذاعة في أحد الأيام استوقفني أحدُ المخبرين لأوّل مرة ليطلب منّي إبراز هويّتي. قدّمتُ له هويتي الصحفية لأتبيّن في سيمائه شابّاً نحيلاً خجولاً سبق لي ورأيته مراراً، وهو ما يعني في عرف هذه الملّة أنه مسخّر لمراقبتي طوال الوقت، بل ولمطاردتي أينما حللت. فهل السبب في تردّدي على مقرّ الإذاعة كقدس أقداس السلطة الجديدة، أم السرّ في.. التردّد على مقاهي الأدباء لجمع التواقيع؟

ما عرفته يومئذٍ هو أن الأجهزة الأمنية صارت لي قدراً في النظام الجمهوري الجديد، كما كانت لي قدراً في سلفه الملكي القديم!

أمّا اتحاد الأدباء المأمول فلم يُكتب له أن يرى الواقع، إلاّ بعد ستّة أعوام من ذلك التاريخ بعد أن ظلّ مجلس الثورة يماطل ويتنصّل ويتهرّب من الإعتراف الرسمي بهذه المنظمة من دون كل المنظمات الأخرى. وحتّى صدور قرار تأسيس هذا الإتحاد الشقيّ في عام 1976م كان الجميع يدرون أنه لم يصدر إلاّ اضطراراً: فقد

قرّر اتحاد الأدباء العرب إقامة مؤتمره الدوري بطرابلس لعام 1977م، ممّا أحرج مجلس الثورة فتنازل عن كبريائه لذرّ الرماد في عيون الأشقاء، لا اعترافاً بأحقيّة أدباء الوطن في اتحاد. وها هو المجلس يستكثر إسم «إتحاد» على أبناء الوطن الأشقياء فيستصدر قراراً آخر (ما أن انفضّ مؤتمر عام 1977م) يلغي اسم «الإتحاد» المهيب ليستبدله باسم أحقر شأناً وهو: «رابطة الأدباء»! وكان عليّ أن أتخبّط طويلاً في غياهب ليل السُّرَى كي أعلم أخيراً أنّ السعي لإنجاز صفقة مع السلطات للحصول على إذن يسمح لأهل الأدب بالتجمّع في محفل مهني (سواء أكان اسمه نقابةً، أو اتحاداً، أو رابطةً) عمل من قبيل العبث، بل هو تجديفٌ في حقّ نشاطٍ لم يكن يوماً حرفةً كبقية النشاطات، ولكنه رسالة. وحقيقته كرسالة هو ما يلغي شرعيّته في الإنتظام في نظامٍ مغلقٍ يتحلّى بروح العصابة كما هو الحال مع ما يسمّى بلغة الحداثة مؤسسات المجتمع المدني. ولو علم النظام السياسي في تلك الأعوام الدور السلبي الذي يمكنُ أن تلعبه مثل هذه التنظيمات في تغريب الأدب عن رسالة الأدب لما تردّد لحظة في منع التصريح بها، بل ولشجّع الإنخراط في الشَرَك بكل وسيلة!

بلى! بلى! السعي للإنخراط في المحافل الأدبية الرسمية هو حُجّة متأدّب، لا مريد أدب. متأدّب يروقه أن يثرثر عن الأدب لئلاّ يضطرّ لكتابة الأدب!

9

الإحتكار

استيقظَ الأملُ من جديد يوم أعلن مجلسُ قيادة الثورة عن عقد ندوة «للفكر الثوري» تستمرّ عدّة أيام. كان ذلك في ربيع عام 1970م. وقد طرح المجلس في برنامج الندوة بنوداً عديدة لتكون للجلسات بمثابة الموضوعات التي ستحدّد مسار الثورة وتقرّر مستقبلَ البلاد. وقد أعطت اللجنة المنظّمة فرصة زمنية تزيد على الشهر لإعداد البحوث في قضايا محدّدة للنقاش مثل التنظيم السياسي المناسب، أو القوى صاحبة المصلحة في الثورة، أو سبل تحقيق الوحدة العربية. . . إلخ. وقد هرع الزملاء لتهنئتي على استجابة المجلس للنداء الذي أطلقته في الجدل مع رئيس المجلس منذ شهور، وكان سبباً في استفزاز الأجهزة الأمنية قبل أن يستثيرَ استياء جوقة الرياء الناشئة التي لم يَفُتْ فئة الوشاة (التي كانت منذ الأزل سوسَ النزاهة وورم في جسد الحقيقة) أن تدفعَ الأبرياء أمثال عبد الرزاق منّاع أن يشاركوا في معزوفتها يوم وجّه لشخصي رسالة الإنذار التاريخية لتكون بمثابة الخطوة الأولى في مسيرة

عبادة الفرد. وها هو الرجل يقومُ باستدعائي حال صدور الإعلان عن انعقاد الندوة ليقدّم لي اعتذاراً ضمنياً سائلاً عمّا إذا كان بوسعي إعداد بحث للندوة في أحد البنود المطروحة. ولا أدري اليوم عمّا إذا كان الرجل مديناً بهذا الإعتذار المبطّن للقوى التي بدأت مبكّراً في تسيير شؤون الدولة من وراء حجاب، أم أن الأمر مبادرة منه لترضية الضمير، برغم أني لم أكن لأشكّ في أنه لم يحرّر رسالة الإنذار إلا مدفوعاً!

كنّا ما زلنا نمنّي أنفسنا **بالحرية الإنتقالية** التي تُتيحها طبيعةُ التغيير عادةً: فسحة سيزيف الواقعة بين انفلات الصخرة إلى أسفل والهامش المزموم الذي يمهل لملاحقتها ودفعها إلى الأعلى من جديد؛ ولم نكن ندري أن الأجل المقدّر بدأ يحتضر، والوليد الذي انتظرناه طويلاً، وعوّلنا عليه كثيراً، قد بدأ في لفظ أنفاس النزع الأخير. والدليل أن الندوة التي عقدنا على انعقادها الآمال لم تكن ترجمةً لأي نيّة تنويرية غايتها التغيير بقدر ما كنت مسرحيةً خبيثةً لاستجلاء الإتجاهات السياسية والقناعات الأيديولوجية لدى الأنتلجنسيا الوطنية في وقتٍ تزامن مع ارتفاع الأصوات المشبوهة التي تنادي جهاراً بقمع أصحاب الأفكار المستوردة الذي يخطّطون «لسرقة الثورة»؛ وهي النغمة ذاتها المستعارة من تراث الأيديولوجيا الإنقلابية العربية في المشرق المستخدمة في كتم أنفاس المعارضة كذريعة ناجعة في تصفية الخصوم، إن وُجد في الواقع خصوم،

فإن لم يوجدوا فالواجب يقضي باختلاقهم كضرورة لتبرير لا الإحتفاظ بالسلطة إلى الأبد وحسب، ولكن لاحتكار الحقيقة أيضاً! بل يجب الإعتراف بحقيقة كون احتكار السلطة عملاً سيبدو لاأخلاقياً إذا لم يُسوَّق كنتيجة لاحتكار الحقيقة. وهو ما يتطلّب سنّ سياسة احتواء لا التيارات الفكرية السائدة فقط؛ ولكن، إذا أمكن، الطعن في أي مرجعية ذات سلطة تقليدية سواء أكانت دينية أو وطنية أو ثقافية. هذه العقلية لا بدّ أن تبرّر التشكيكَ سواء أكانت دينية أو وطنية أو ثقافية. هذه العقلية لا بدّ أن تبرّر التشكيكَ في الرموز كخطوة أولى في طريق تصفية هذه الرموز عملياً. وقد تجلّت هذه المكيدة في بوادر تبدَّت لأوّل وهلة صغائر غير ذات علاقة ترجمت فصولها المبكّرة حادثة ذات دلالة: فقد قامت بلديةُ طرابلس بإطلاق طائفة ثرية من أسماء الزهور على شوارع المدينة مستبعدةً في هذه البدعة أسماء الرموز التي يحفل بها تاريخُ البلاد قديمه وحديثه، فما كان منّي إلاّ أن حرّرت مقال إدانةٍ بجريدة «الثورة» هاجمت فيه هذا الإستهتار برموز الوطن، وكان ردّ البلدية لتبرير العبث أكثر عبثيةً، لأن القول بأن إطلاقَ أسماء الزهور على بعض الشوارع كان استجابةً لطبيعة الأحياء التي رأت لجان البلدية أن تطلق عليها اسم «أحياء الزهور»! ولم يكن ليخطر على البال إلاّ فيما بعد أن عملاً عدمياً كهذا كان إيحاءًا من سلطة نظام بدأت منذ أول يوم حملة التدخّل في كلّ شيء تنفيذاً لسياسة تجريد الواقع الوطني من رموزه كخطوة أولى في سياسة

صبورة وطويلة النّفس لمحو الذاكرة الوطنية. وقد حذّر الكثيرون من حقيقة النوايا الخفية الكامنة وراء عقد الندوة التي لن تكون سوى الفخّ لاستدراج حَمَلَة الرأي الآخر للتصريح بنواياهم. أي إنها ليست سوى حيلة استجوابية للفوز بالبوح النفيس مجّاناً، أي بدون الحاجة لاستخدام الأساليب القمعيّة التقليدية في هذا المجال! والمفارقة التي لم تُثِر انتباه أحد في ردّ البلدية هي أن هذه الأحياء التي أطلقت عليها اللجان الموقّرة اسم «الزهور» هي أكثر الأحياء خلوّاً من الزهور، وشوارعها أكثر شوارع المدينة حاجة لأتفه نبتة خضراء، فكيف ببتلات الزهور؟

وإذا كان صادق النيهوم قد اختلف مع عمر المحيشي عضو المجلس حول مسألة صاحب المصلحة الحقيقية في الثورة، فإن صاحب هذا البيان قد اختلف مع رئيس المجلس في كلّ البنود الستّة الواردة في حيثيات الندوة؛ لأن ما ظنّناه جدلاً استوجبه الاختلاف في الرأي، رآه المجلس عداوةً صريحةً تهدّد سياسةَ احتكار الحقيقة في الصميم! وإذا كان على النيهوم أن يستبدل غرفة نومه في الفندق عقب جلسة الجدل العاصف خوفاً من أن يباغته المحيشي فيستخدم مسدّسه كما صرّح لي في اليوم التالي، فإن على عدوس السُّرَى أن يستنجدَ بما هو أكثر أماناً من استبدال غرفة في فندق عقب جلسة الجدل المزموم مع رئيس المجلس؛ لأن عضو المجلس، كما أُشيع، إذا كان غضوباً كأي سليل عسكر،

فإن فورة الغضب يمكن أن تنقشع، أمّا رئيس المجلس، كما تردّد، فهو الأكثر احتمالاً، ولكنه الأقلّ غفراناً!

لست بصدد تحليل وقائع تلك الندوة التاريخية لأنّ هذا هو ما فعلته في كتاب «نقد ندوة الفكر الثوري» الذي كان أوّل كتاب بعد الانقلاب يسقط ضحية المصادرة، بل يخضع للحرق. وإذا كان بعض الزملاء قد حذّر بأن الخطوة التالية التي يجب على شخصي انتظارها بعد مصادرة الكتاب هي **مصادرة صاحب الكتاب**، فإن المنطقَ التاريخي الموروث من تجربة تغريب القيَم يقول أن الخطوةَ التالية لحرق الكتاب هي حرق صاحب الكتاب! ولم يكن لصوت الضمير الذي ارتفع على لسان أمين مازن قائلاً أن الكتاب عن الندوة هو تخليدٌ للندوة، أن يجد آذاناً صاغية في حمّى اختلاف أعداء لا وجود لهم، سيّما بعد صدور قرار عزل هذا الرجل من منصبه كمدير عام للمطبوعات بسبب إصراره على فتح الباب على مصراعيه لدخول كلّ الكتب وكل الصحف الحاملة لمختلف القناعات، ليعيّن المجلس مديراً بديلاً من سلالة العسكر هو الميّار!

الندوة إذاً، حقّقت هدفاً مرجوّاً هو الفرز، لتعقب عملية الفرز **حملة التصفية**! واستبعاد أمثالي من المشهد لن يكونَ إلا إلى المنفى الوحيد المعتمد في تلك الأيام وهو: **السجن**! وقد نصحني بعض من احتفظوا بعلاقات مع أجهزة الدولة المخوّلة بالإستعجال في طلب النجاة، لأنّ صبر النظام قد نفد!

القسم الرابع

الخروج

«خيار الفرار يشترطُ رجولةً لا تقلّ بطولةً عن الخروج لملاقاة عدوّ»

(إسبينوزا)

* * *

«الفرار ضربٌ من انتصار»

(كالديرون)

1
النِّداء

تزامن الخروجُ مع وجود أصوات ما زالت تمنّي نفسها بالخلاص دون أن تتخيّل ما ينتظرها على يد فرسان الأمل هؤلاء، ربّما لأنها أصوات من فئة لم تكشف عن رأي، ولم تحتكّ بسادة النظام، وهي أحقّ بأن تُحسَد على حسن الظنّ سواء أكان عن جهالة أو عن غفلة، أو مجّرد قبول بالأمر الواقع. ألم تبرهن التجربة بأن السعادة رهينة التسليم، والشقوة رهينة البحث عن الحقيقة؟

كان الملحق الثقافي السوفييتي يتردّد على زيارتنا بالجريدة منذ الأيام الأولى لالتئامنا في إدارتها. كان دبلوماسيّاً يتقنُ اللغة العربية بطلاقة مدهشة على عادة المستعربين الروس، بروح مرحٍ على غير عادة الروس. وقد صرَّح بوجود منح تتيحُ الفرصةَ للراغبين بمواصلة دراستهم بالجامعات السوفييتية. وكنّا نقابل اقتراحه ببرود لسببين؛ الأول: العداوة التي جاهَر بها النظام الجديد للمنظومة الإشتراكية منذ أوّل يوم في وسائل الإعلام كرسالة موجّهة للغرب

تنفي عن النظام التهمة التي لا تُغتفر آنذاك في عقيدة الغرب وهي الأيديولوجيا الشيوعية. الثاني: العقيلة التي رأت في الإتحاد السوفييتي بعبعاً رهيباً مطبوعاً بأساطير مريعة مستعارة من تقاليد الغرب الأيديولوجية في صراعه مع الخصم الإشتراكي. عقلية لم تكن لتغفر الذهاب إلى هذا المجهول المجبول بالغموض بدون دفع قرابين أقلّها الضياع، وأفظعها الإلحاد!

وأعترف أن المرارةَ التي خلّفها في حلقي التخلّي عن الدراسة بسبب نظام الثلاث سنوات الغبيّ لم تَمُتْ، بل وكنت أتحيّن الفرص طوال الوقت للثأر من ذلك النظام على نحوٍ مّا. أجل! كان الحلم بارتياد مجاهل المعارف أقوة من الحلم بارتياد مجاهل الأوطان. وكان طبيعيّاً أن أستشعر الظلم عندما أرى أقراناً أكثر بلادةً يحظون بالبعثات إلى أرقى البلدان على حساب الدولة ليكون هذا الإمتياز من نصيب أهل السواحل وحدهم منذ الإستقلال، في حين يظلّ أبناءُ التّراب الأصليون مدفونين في صحرائهم الكبرى، مهمَلين، ومجهولين، ولا حظّ لهم إلاّ في الحرّ والقرّ والغبار، برغم أن أشياخ القبائل الأكثر حكمةً من جيلنا والأكثر إدراكاً لقيمة العلم الذي حُرموا منه كانوا أوّل من نبّه في الخمسينات إلى ضرورة أن ينال أبناء الجنوب نصيبهم من البعثات الدراسية إلى الخارج في رسالة بعثوا بها إلى الملك إدريس (تمّ العثور عليها أخيراً) في وقتٍ مبكّر كانت فيه البلاد معدمة كليّاً كأنّ هؤلاء الكهنة العظام يتنبّأون بما سيحدث تالياً.

لم أكن لأجهلَ بالطبع ما معنى أن افتحَ على نفسي باب اغترابٍ آخر بالخروج بعد أن كلّفتني تجارب الإغتراب الأوّل المتمثّل في الخروج الإضطراري من رحاب فردوسي الصحراء، والثاني المتمثّل في الاغتراب عن اللغة الأمّ كوسيلة تعبير، ولكنّ الظمأ إلى المعرفة والحنين الغيبيّ لغزو أركان المجهول في عرينه (المخبّأ في أحلام الروح الرومانسية دوماً في أوطان البُعْد) كان أقوى سلطاناً سيّما بعد أن اكتشفت أن من العبث قطع مسافات طويلة في رحلة المعرفة بجناح لغة واحدة، أو حتّى بأجنحة لغتين ليقيني الخفيّ بأن هذا القُمقم المستحكم الحاضن لذخيرة الأسرار المسمّى حكمةً لن يستسلم بدون بطولة عبور البحور على طريقة فرسان الأساطير الذين يشذّون الآفاق لقطع رأس التنين في أوطان ما وراء البحار. كما علّمنا الآباءأيضاً بأنّ السليل المتشبّث بتلابيب الأمّ هيهات أن يفلح؛ فهل كانت هذه البيِّنات كافية لقطع الجذور من جديد وتسليم الزمام لمارد المنافي؟

لعلاقة الإنسان بالمكان بُعْدٌ ميتافيزيقي، فكيف إذا كان هذا المكان وطناً؟ إن العلاقةَ عندها تزداد عمقاً، والإفلات من الأسر يتضاعف تعقيداً، لأنّ العسر كلّ العسر في أن يهجر المكان ذلك الإنسان الذي استمرأ المقام إلى جوار النهر كما يعلم هولدرلين. فأي هويّة ينتحل هذا النداء القادر على إفحام كل هذه الحجج واجتثاث الإنسان من جذوره في المكان والذهاب به بعيداً مضحّياً

لا بارتباطه الحميم برحم المكان وحسب، ولكن بحقيقته كإنسان أيضاً؟ ألا يبدو هذا النداء أقوى سلطاناً من طبيعة الإنسان، بل ومن طبيعة الطبيعة الأمّ التي أنجبت من رحمها الإنسان؟ هل كنت سأجرؤ بتسمية هذا النداء حنيناً للمعبودة الأبدية الحريّة، أم إرادة طلب المعبودة الخالدة الحقيقة كما حاولت أن أجتهد فأفسّر فيما بعد؟ أفلا يبدو قران هذين الثنائيّين (الحقيقة والحرية) حميماً على نحوٍ لا وجود فيه لحقيقة بدون حرية، ولا وجود لحرية بدون حقيقة؟

في كلّ الأحوال فإن قراري الأخير كان قهراً لطبيعتي الطبيعة وانتصاراً لطبيعتي الغيبيّة!

2
الدراويش

كنت قد صارحتُ الملحقَ الثقافي السوفييتي برغبتي في الإلتحاق بمعهد غوركي للآداب الذي كنت قد قرأتُ عنه كثيراً في وسائل الإعلام العربية فعبَّر لي بصراحةٍ عن صعوبة الإلتحاق بهذا المعهد من بين كل المؤسسات التعليمية السوفييتّية لا بسبب الإقبال المنقطع النظير وحسب، ولكن بسبب طبيعته النموذجية، أو فلأقل نخبويّته. وكي يعزّيني أضاف قائلاً أن الأنسب أن ألتحقَ بجامعة الصداقة بين الشعوب ثمّ أبذل الجهد في عين المكان.

قررتُ المغادرة إلى تونس برفقة صادق مرغم في رحلة سياحية من باب التمويه لاستحالة المغادرة إلى موسكو مباشرةً لأسباب أمنية بعد الحصول على إجازة سنة بدون راتب من الوظيفة بالجريدة. وكان من المقترح أن ينضمّ لرفقتنا الشاعر جيلاني طريبشان، ولكنه تخلّف لأنه لم يحسم أمر الإلتحاق منذ البدء. وقد ندم بعدها كثيراً لأنه أضاع فرصةً لم يفلح تالياً في استعادتها إلى الأبد، برغم محاولاتنا في موسكو لتجديد الفرصة ثانية، كأنَّ

الأقدار تلقّننا الدرس الذي لم تسمح تجربتنا الدنيوية الهشّة حتّى ذلك الوقت باستيعابه والمعبّر عنه في أمثولة كافكا الدرامية في «المحاكمة» من خلال وقفة السيد «ك.» أمام البوّابة المحروسة برجلين والمشرّعة الباب فوقف ينتظر الإذنَ بالدخول إلى أن أقفلت البوّابة في وجهه بابَ الخلاص إلى الأبد. وهو ما يعني أن القدرَ سلطانٌ عادل لأنه يتيحُ الفرصة للكلّ، كلّ ما هنالك أن بعضنا ينتهزُ هذه الفرصة فيفلح، ويتردّد بعضنا الآخر فلا يفوّت الفرصة فقط بهذا المسلك، ولكنه قد يهلك أيضاً على طريقة هاملت!

وطريبشان كان أوّل من عرفت من بين أدباء الحاضرة عندما كنتُ أحرّر زاوية بجريدة «الأولمبياد»، حيث كان يكتبُ زاويته الأسبوعية أيضاً. وإذا سمحنا لأنفسنا بتصنيف الناس إلى ثلاثة أجناس (جنس كلّه جسد، وآخر نصفه روح ونصفه جسد، وثالث كلّه روح) فلا شكّ أن هذا الطيف إنّما ينتمي إلى فئة الجنس الأخير. بلى! إنه روح تدبّ على قدمين. روح مزمومة، مستنفرة كوترٍ مشدود، ولكنّها نقيّة على نحوٍ موجع، ومجبولة بطفولة تراجيديّة. ويبدو هذا الإستنفار المزمن هو ما تسبّب في قصم ظهر البدن البائس فوسمه بسيماء مَرَضِيّة بيّنة. إنه الهزالُ الذي يؤكّد صدق وصيّة هيراقليط القائلة بأن الروح الربوبية إنما تسكنُ البدنَ الهزيل. فإذا عَنَّ للغيوب أن تضيفَ إلى هذا الهزال في الجسد بصمة إغترابية في الروح فإنّ حضور هذا النموذج في رحاب البُعْد

المفقود سوف يكتمل ليتجلّى. إنه ختمٌ حميمٌ لا نخطئ حقيقته نحن غرباء هذا العالم فلا يلبث أن يصير لنا ترباً قريناً، ترباً ميتافيزيقياً. وهذا الإحساس التراجيدي في ربوع البعد المفقود لا بدّ أن يربّي تلك الحساسية الوجوديّة المميتة المتمثّلة في فقدان الإحساس بالواقع، أو فلنقل فقدان الإحساس بالحضور في الوجود بسبب طغيان الإحساس بالحضور في البعد المفقود. إنه ضربٌ من هوسٍ بالموت رافق مسيرة استفزاز الغيوب التي نسمّيها إبداعاً منذ التكوين. رافقت أئمّة هذه المسيرة كلغة قدرية. وكان لا بدّ أن تنتهي بِرائد هذه اللعبة الخطرة هوميروس إلى انتحارٍ لم تكن له أحجية الصيّادين سوى ذريعة واهية من تدبير قَدَرٍ يستمرئ السخرية. كما تجلّت أعراضها في محاولة فرجيل حرق الأنياذة، أو قيام غوغول بحرق الجزء الثاني من ملحمة «الأرواح الميّتة»، أو الإستجارة بتلابيب خلاصٍ يحقّقه الصرعُ كما هو الحال مع دوستويفسكي، أو الإستمتاع بما أسماه ماياكوفسكي «الدّاء العظيم» الذي لم يجد له ترياقاً إلاّ في الموت انتحاراً كما فعل تربه إيسينين قبله. إنه دينٌ اعتنقه ستريندبرغ ودفع ثمنه جنوناً، وروّضه فان غوغ بقطع الأذن!

وقد تذكّرت سيرةَ قطع الأذن هذه يوم فاجأني أحدُ الأصدقاء قائلاً أن الإنفعال بلغ بجيلاني طريبشان أن هجم على ساعة المنبّه في مقهى «أورورا» ليعضّ العروة بأسنانه وهو يؤدّي أمام الروّاد

رقصةً جنونية، ممّا اضطرّ صاحب المقهى أن يستنجد بالشّرطة بدل أن يستدعي الإسعاف!

مكث جيلاني في مستشفى قرقارش للأمراض العقلية بضعة أسابيع في التجربة الأولى، ولكن النوبات عاودته مراراً فطلبت في إحدى زياراتي إلى لندن في بداية السبعينات من صديق الطفولة وصاحب الجوار في حصن «القارة» الكاتب سيّد قذّاف الدّم أن يتدخّل لعلاجه في مستشفيات بريطانيا في الفترة التي كان يعمل فيها ملحقاً عسكرياً لدى السفارة بلندن، فاستجاب بأريحيّته التقليدية التي كانت رحمةً لهذه الفئة المنبوذة سواء من قبل المجتمع أو من قبل الأنظمة السياسية. كما لم يبخل بضم أحد فرسان البُعْد المفقود (رضوان أبو شويشة) للعلاج مع قرينه الجيلاني بعد أن خضع لتجربة نفسية مماثلة، برغم أنه ظلّ يستنكرُ دائماً عبارة «**لوثة عقلية**» التي راق لسيّد قذّاف الدّم أن يستخدمها للتعبير عن محنة الدرويشين الأبديين: جيلاني ورضوان! ولقد لعب وجود أحمد إبراهيم الفقيه (الذي عمل وقتها مستشاراً صحفياً في السفارة بلندن) إلى جانب خليفه حسين مصطفى (الذي تحجّج بدراسة اللغة للفرار من كابوس الكآبة الذي بدأ يخيّم على البلاد في تلك المرحلة) دوراً في خلق مناخٍ حميميّ ساهم في استشفاء الرجلين النفسي أكثر مما ساهمت عقاقيرُ الأطباء الإنجليز!

كان هذا الإنهيار نذيرَ السوء الذي يرافقُ خيبات الأمل من

حصاد التغيير عادةً. إنه نتيجة غياب الحقيقة الأبدي في مراسم المنعطف: مراسم تسليم واستلام الأنظمة لصولجان القمع الخالد المسخّر لتصفية الحلم، فلا يملك من لا يملك إلاّ الأحلام أمام قتلة الأحلام إلاّ الفرار إلى اليأس، أو التشبّث بتلابيب البعد المفقود!

ولم يكن جيلاني ورضوان في هذه التجربة سوى النموذج الذي جسّد محنة جيلنا جميعاً، وكان هذا القدر سيفاً مسلّطاً على رقابنا، كلّ ما هنالك أن هذين النموذجين كانا أكثر فروسيةً في التعبير عن حقيقة الكلّ. وقد راق لزميلٍ ثالث في المحنة هو زياد علي أن يتندّر دائماً بعبارة لي عن حال الجيلاني تقول: «كلّنا جيلاني طريبشان!». وهي استعارة عبّرتْ عن موقف مماثل عاشه روّاد التصوّف الإسلامي زمن صراعهم مع عَبَدَة الحرف وَرَدَ على لسان أبي بكر الشّبلي بعد إعدام الحلاّج في عبارته الشهيرة: «كلّنا على دين الحلاّج. كلّ ما هنالك أن الحلاّج أظهر، ونحن لم نفعل!». إنه ترجمة قاسية، ولكنها صادقة لشجاعة من اقتحم في مقابل من أحجم، لأن التعبيرَ بالجنون أيضاً شجاعة. وهو موقف سياسي أيضاً إلى جانب بعده الوجودي. والجيلاني كان بالنسبة لي دوماً الصحيفة التي أقرأ في صفحاتها صورة روحي، ممّا دفعني لأن أردّد أغنية أخرى هي: «نحن بخير ما ظلّ جيلاني بخير!». وهي يمكن أن تصدق على رضوان أيضاً، بل وعلى يوسف

القويري! وكم آلمني أن أرى هؤلاء الفرسان الثلاثة يخضعون لاضطهاد المجتمع في مختلف المراحل إلى جانب خضوعهم لاضطهاد النظام السياسي، بل ولخضوعهم لاضطهاد الوسط الثقافي أيضاً برغم نزاهتهم وشفافيّتهم ونبلهم وتسامحهم، لأكتشفَ أن وجهةَ نظر المجتمع عنّا ما هي إلاّ وصيّة مستعارة من الوسط الثقافي في الأصل، ووجهة نظر النظام السياسي مستعارة بدورها من وجهة نظر المجتمع. وهو ما يؤيّد القناعة القائلة بأن السوءَ لا يأتينا ممّن نجهل بقدر ما يأتينا ممّن نعرف، وهو ما يدعو الأوائل لأن يوصوا بإنكار من عرفنا، فإذا تعذّر علينا الأمر، فليس لنا إلاّ أن نختار مائة ممّن عرفنا، ونطرح منهم التسعة والتسعين، لنكون من الواحد الباقي في شكّ، كما يروي أبو حيّان التوحيدي في سيرة «الصداقة والصديق»!.

عاش درويش زماننا هذا بعدها معلّقاً في برزخ بين الوجود والعدم إلى أن قرّر في أحد أيام نهاية السبعينيات الإنضمام إلى قافلة المنافي. هامَ طويلاً قبل أن يستقرّ به المقام أخيراً في بغداد لا لأنها أرضُ الميعاد، ولكن لأن نظامها السياسي هو الأكثر عداوةً آنئذٍ للنظام في الوطن الأمّ، تماماً كما لم تكن طرابلس أرضَ الميعاد بالنسبة لشاعر عراقي كمظفّر النوّاب، ولكنها كانت عاصمةَ النظام الأكثر عداوةً للنظام في العراق: كان الأدباء العرب في تلك المرحلة التي أعقبت الحرب الأهلية اللبنانية ألعوبة

الأنظمة التي دأبت على احتضانهم لا اعترافاً بمواهبهم أو من باب الإنتصار لرسالاتهم، ولكن من باب النكاية في الأنظمة الأخرى التي تناصبهم العداء. وهو ما جعل هؤلاء الأشقياء أكباش فداء مرّتين لا مرّة واحدة؛ وكان جيلاني أحدهم بدليل أن بغداد ما لبثت أن تنكّرت له ما أن تهادن النظامان في البلدَين ليجد المسكين نفسه مضطرّاً للعودة إلى وطنٍ يطالبه بتبرير غيابه لا سياسيّاً وحسب، ولكن إدارياً أيضاً، سيّما عندما سعى لاستعادة وظيفته بالمؤسسة العامّة للصحافة في النصف الثاني من الثمانينات. وقد طلب منّي التدخّل لدى أبي زيد دوردة لإيجاد مخرج من المشكلة التي لم تكن لتتحوّل ورطةً حقيقيةً لولا وقوع الأمر في يد الأجهزة الأمنية.

ويبدو أن سوء الحظّ مازال يلاحق جيلاني هنا أيضاً في اختيار التوقيت على الأقل: فقد تزامنت محنته الجديدة بمحنتي الصحيّة التي بلغت الذروة آنذاك. وإلى جانب المرض كنت أعاني مرضاً أسوأ حتّى من علل البدن وهو داء العلاقة مع الإدارة الثورية الليبية التي كانت علّة العلّة البدنية أصلاً حسب شهادة الأطباء. أمّا أبو زيد دوردة فكان جريحاً أيضاً لا مرّة واحدة، ولكن مرّتين. كان يعاني من جراح الجسد بسبب الغارة الأمريكية التي حوّلت بيته في شارع بن عاشور إلى أنقاض. وكان يعاني أيضاً جراح الروح المتمثّلة في غضبة النظام في فترةٍ بلغ فيها صراعه مع اللجان

الثورية ذروته فتمّ نفيه إلى الجبل الغربي كأمين للجنة شعبية نوعية بعد أن كان قد تولّى ثلاثة أرباع وزارات البلاد كإجراءٍ اعتاد رأس النظام أن يلجأ إليه كلّما عَنَّ له الحظّ من قدر المغضوب عليه. وبرغم ذلك طلبت من طيف المنافي أن يذهب إلى الرجل ويحدّثه بالمشكلة ولن يبخل بالجهد في سبيل الحلّ، لأنه أعلم الناس بعلاقتي بصاحب الشأن أوّلاً، ولأنه الوحيد من بين كلّ مسؤولي ليبيا تلك الفترة الصعبة من حياة النظام الذي يجرؤ على التدخّل في قضية ذات صلة بالسياسة (وقضية جيلاني هنا سياسية) ثانياً، لا لسلطة سياسية مكتسبة، أو حظوة لدى رأس النظام، ولكن لجرأة نابعة من نبلٍ كان أندر عملة في تلك الأيام. والدليل أن هذا الرجل قد أجار الطريد بالفعل. أجاره على طريقة قدماء العرب أمثال السموأل. أجاره مرّتين لا مرّة: أجاره باستصداره لقرار تعيينه من جديد في وظيفته مع الإحتفاظ له بمزايا الأقدمية، كما أجاره من مساءلات الأجهزة الأمنية التي تغفر كل جرم باستثناء جرم تفوح منه رائحة خطيئة سياسية!

لم أرَ جيلاني بعدها إلاّ مرّة واحدة في بداية التسعينيات عندما أخبرني بقراره في الإرتباط بإمرأة. وهو حرمٌ حام الرجل حوله طويلاً قبل أن يستسلم أخيراً ويلقي عصا الترحال لأن المرأة دوماً هي الوتد الرهيب الأقوى مفعولاً من نبع هولدرلين!

إلى أن جاء ربيع عام 2001م لأستقبل نبأ رحيل هذا الخلّ

الوفيّ لخلاّنه من خلال وفائه لآلامه وأحلامه، وحنينه لفردوسه المفقود. نبأٌ تزامن مع وجودي طريح الفراش في مستشفى «جونيلييه» الواقع على مشارف جنيف أصارع مرضاً غامضاً حيّر الأطباء بالإضافة إلى حزمة أمراضي المزمنة الأخرى. نبأٌ نقله لي شقيقي موسى الكوني هاتفياً ليضيف بذلك مرضاً آخر إلى حفنة أمراضي. كنت حتّى ذلك الوقت قد فُجِعْتُ في أخلّةٍ كثيرين بدايةً بعلي بيري مروراً، بعبد الله القويري وسعيد المحروق وصادق النيهوم، وها هو جيلاني ينضمّ إلى القافلة. انضمّ إلى القافلة فجاءةً وبدون مرض. كل ما حدث أن القلبَ لم يعد يحتملُ كما هو متوقّع. كان قد خاض نضالاً مريراً في سبيل إنهاء روتينٍ مميتٍ يتطلبّه العمل في الخارج (الأرجنتين) كمدير للمركز الثقافي فاستنزفتْ هذه الدوّامة التي خبرتُها جيداً البقيّة الباقية من رصيد الطاقة فتوقّف القلب. لم يعرف المرض لأن الروح في بُعْدها النقيّ جوهرٌ لا يعترفُ بأمراض الأبدان. لم يتألّم لأنه استنفد في مسيرته مخزونَ الآلام ولم يبقَ له إلاّ أن يهجع بسلام. كأنّ مرضي الذي تزامن مع رحيله كان مرضاً له بالإنابة فأبى إلاّ أن يكافئني على تضحيتي بالموت عنّي بالإنابة! لقد حدّثني رضوان بعدها قائلاً أنه رأى فيما يرى النائم شبح الموت مقبلاً عليّ في وقتٍ لم يعرف شيئاً عن مرضي، ولكن الموتَ انحرف فجأةً ليقبض أنفاس جيلاني بدل أن يقبضَ أنفاسي!

كم هو قصاصٌ قاسٍ أن ترثَ الذاكرة ذكريات أخلّة رحلوا! الأخلّة إذا رحلوا يرحلون مرّة، ولكننا نرحل كلّ مرة نرث فيها ذكراهم. إننا نموتُ بالتقسيط في وقتٍ يكونون فيه قد اجتازوا البرزخَ وأدركوا الخلاص. فكلّ خلٍّ رحل يسلخ من الروح نصيباً، حتّى إذا تباروا في مسيرة الرحيل انتهبوا الروح كلّها وتركوا لنا قمقمَ الروح خاوياً. وكلّ ما يستطيع أمثالي أن يفعلوه هو تخليد ذكراهم بتحويلهم إلى نماذج تحيا في المتون التي ستبقى بعدنا قبل أن نلحقَ بركبهم. وأعتقدُ اليوم أن سرّ هَوَسِي بملّة الدراويش في أعمالي الروائية ما هو إلاّ تلبيةً استعاريةً لهذا النداء.

3

تانّس

الحدود أخيراً. فاصل الباديات الذي كان دوماً استعارةً لبرزخ الخافيات، لأن ما وراء الأوطان دائماً حلم محتجب بستور المجهول. والمجهول هو البُعْد البعيد الذي يعد باستكشاف البُعْد القريب. المجهول دائماً فردوسٌ مفقود، ولكنه بطبيعة المجهول دائماً فردوسٌ موعود. ولهذا صار الحنينُ إلى ارتياد الآفاق طبيعة ثانية في سليل اللسان منذ التكوين. وهو بالسليقة ما لا حضور له في البعد المعلوم. هو ما لا وجود له في حدود المكان. إنه مفهوم خارج الوطن على الدوام. ففي صحرائي الكبرى لا يُعدّ الإرتحال في نطاق الأوطان عبوراً. لا يُعدّ السفر في الحدود لاستطلاع الكلأ، أو لتفقّد القطعان، أو لاستجلاب المؤَن خروجاً. إنه استطلاع. إنه خروج لإنجاز غاية دنيوية. غاية فانية. أمّا الخروج وراء المجهول فيفترض ضياعاً. يفترض الإستجابة لنداء المجهول المترجم برطانة الحلم. ولهذه العلّة هو إعجازٌ لا يقاوَم. لا يقاوم لأنه نداء المعبودة التي تستعبدنا حتى لو جهلنا

هويّتها. المعبودة الوحيدة القادرة على تحريرنا من عبوديّتنا ومن طبيعتنا الفانية لأنها: الحرية!

وها أنا أرتمي في أحضان غيوبها أخيراً ملبّياً نداء الحلم القديم الذي لم يهدهده المهد، ولم يولد بميلاد الجسد، لأجد نفسي وراء الحدود لأوّل مرة. حدود تغرّب الوطن، ولكنها لا تلبث أن تبعثه بالحنين أمَلاً، هوىً، هَوَساً، معبوداً. تبعثه معبوداً مفقوداً.

حقاً أن الربّ لم يكن ليكون ربّاً لو لم يكن بعداً مفقوداً. ولو استسلمت لنوبة الهوس لأدبرتُ عائداً إلى الوراء. أفرّ إلى الوراء لا فراراً من هول المجهول المنتظر، ولكن حنيناً للوطن الواقع وراء الحدود. ألا تبرهنُ هذه البلبلة بين الحنين للمجهول والهوس بالأوطان على صدق الوصية القائلة بأننا لا نفلحُ في دنيانا ما لم نفلح في إماتة الحنين إلى الأوطان؟ وها هي ربّةُ الأسلاف «تانّس» (التي نالها التحريف في إسم «تونس» كما نالها أيضاً في اسم «تانّيت») تظلّلني بلحافها التقليدي الذي أسهب صاحب «سالامبو» في وصفه كأنه يريد أن يدلّل بدوره على حقيقة الإستجارة بتلابيب البعد المفقود كشرطٍ لحضور الطبيعة الربوبية في الوجود.

هذه هي الأرضُ البتول التي دنّستها روحُ الصفقة بأورامها الخبيثة فصارت في عُرف الأمم رمزاً للمكر القرين لكل تجارة. هذه هي الأرضُ التي كانت ضحيَّةَ لؤم اللئيمة «علّيس» الهاربة من كعبة المنافع في الشرق البعيد لتختلس بأحجية الخداع المبثوثة في

جلد الثور بكارة شطآن بحر ليبيا منذ ثلاثة آلاف عام لتقيم على أنقاضها بابل الغرب قرطاجة! مستغلّةً حسن ظنّ أهل المكان الذين لم يتركوا برزخَ المائة ميل بينهم وبين مياه يمّ الشمال إلاّ ليكون حصناً يجير من غزاةٍ اعتادوا أن يهدّدوا حريّتهم! وأنّى لأبرياء البرّية الذين لم يملكوا يوماً سوى حرّيتهم أن يكسبوا رهاناً مع دهاة التجارة الذين لم يعبدوا يوماً سوى صفقاتهم؟ والدليل في جلد الثور الذي التهم في سيوره الأسطورية الرقعة التي استقامت بالقدرة الأسطورية في أشمل إمبراطورية على سواحل بحر ليبيا الجنوبية، بل وابتلعت في امتدادها شمالاً الجزر والأوطان حتى استولت على القارّة الأيبيرية، وكادت تلتهمُ حاضرة العالم روما نفسها لولا تدخّل الجرثومة التي دسّها أهل المكان في صلب بطل الفتح ذاك فمضى يتسكّع بجنده في الأرجاء بعد أن هزم جيوشَ الإمبراطورية التي لا تُهزم ليفوّت بذلك فرصةَ احتلال المدنية. إنها جرثومة الحرية التي تجعل حتّى من قادة الفتح أصحاب تخلٍّ بدل الإغتنام، ومُريدي فرار بدل الإستقرار. وهي روحٌ تراجيدية في النهاية لأن قدر قرطاجة التي عوّلت على هانيبال في إنقاذ أسطورتها أن تشهد زوالها بيد هذه الروح التي وصفها «هانون» فقال أنها تعرف كيف تنتصر، ولكنها لا تعرفُ كيف تستثمر النصر. لماذا؟ لأن رسالة مريد الحرية الدفاع عن النفس، ولهذا يعجزه الإحتفاظ بالغلبة كشأنٍ من اختصاص صاحب العدوان، لا مريد الدفاع عن النفس.

النصر دفاعاً عن النفس ـ مهنة مريد الحرية.

الإحتفاظ بالنصر ـ مهنة مريد الهيمنة.

تونس (تانّس) هي إذاً لعدوس السُّرى وطنٌ مستعاد. هي فردوس مستعاد إذا علمنا أن عدوس السّرى هذا هو سليلها الأقدم عهداً من كلّ سليل لأنه الوحيد الآن الحامل لأسطورتها البدئية الضائعة. الوحيد الحامل لهويّتها الثقافية المفقودة. وإذا كان أهل الصحراء يردّدون تميمةَ الأجيال القاسية: «إيموهاغ أميهَغَن» (الأمازيغ مسلوبون، أو منهوبون، كدلالة على اغتراب الهوية بفعل الغزوات)، فإنّ من حقّ المواطن الليبي أن يردّد التعويذة ذاتها لأنه منهوب ومستقطع الأرض من كل جانب. فإلى وقت قريب كانت حدودُ هذه القارّة (ليبيا) تمتدّ في الشمال الغربي لتشملَ جزيرة جربة حتّى صفاقس، كما امتدّت في الغرب الجنوبي لتشملَ صحارى نوميديا حتى تخوم «تامنغست»، واستلقت جنوباً حتى مشارف الأدغال وكل شمال نهر النيجر (كوكو)، أمّا في الشرق فقد كانت واحة سيوة وما جاورها قبلتها المقدّسة لأنها احتضنت معبد الإله الليبي «آمون». ولهذا السبب لم يطلق قدماء اليونان إسم ليبيا على عموم القارّة الأفريقية من باب الجهل بحقيقتها كمنارة حضارية أجمع حكماءُ العالم القديم على ريادتها وفضلها على حضارة اليونانيين أنفسهم. ويبدو أن وحدةَ المكان غذّت روح الأجيال فجعلوا كل الأركان السالفة ملاذاً لهم كلّما حاقت بهم محنة. حدث هذا مع مصر زمن الفراعنة، وفي أعماق القارة

زمن المجاعات، ومع تونس التي صارت ملجأ الأسرة الملكية الليبية القرمانلية إبّان بليّة القرصان علي برغل، ثم صارت الملاذ الذي أجار أبناء هذا الوطن الشقيّ زمن الغزو الإيطالي في بدايات القرن الماضي. وبرغم البلايا التي حاقت بالبلاد عبر تاريخها الطويل بيد أنها شهدت طفرات في الثراء أهّلتها لتكون مضرب مثل في السخاء. بل كثيراً ما بخلت على الأبناء لتجود على الغرباء دون أن يتحوّل هذا الجودُ موضوعاً لسخط الأبناء أو مبرّراً لتبرّم ضد الغرباء، برغم أن التاريخ لم يهمل تلك الحادثة التي صار فيها هذا السخاء سبباً دفع فيه الأبناء العبودية ثمناً لسخائهم: فلو لم يستضِف أحد الأكابر أضياف الغرباء بنثر مسحوق الأحجار الكريمة على طعام المائدة بديلاً للبهار لما سقطت طرابلس لقمةً سائغةً بعدها في بطن الإسبان في القرن السادس عشر ليجثموا على صدرها مائة عام!

لم أمكث في تونس سوى بضعة أيام كانت كافيةً لاستخراج تأشيرة دخول إلى الاتحاد السوفييتي من السفارة، واستصدار تذكرة سفر على خطوط «الإيرفلوت» من مكتب الشركة بالعاصمة، ثم.. المغادرة على متن تلك الطائرة التي لا تُقلع إلاّ بعد منتصفِ الليل، كأنّها تؤدّي طقساً استسرارياً يليقُ بكلّ ما له صلة بهذه الإمبراطورية الملفوفة بالغموض: هذا الغموض الذي يبدو تعبير «بلاد ما وراء الستار الحديدي» مجرّد ترجمة موفّقة له!

4
بابل

الرابع من أغسطس من عام 1970م كان تاريخُ اقتحام أسوار هذا الستار الذائع الصيت الذي كانت بوّابته قبلة اليسار العالمي موسكو، عاصمة إتّحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتّية، ذات الخمس عشرة جمهورية رئيسيّة، المشتملة على عشرات الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، المستلقية على شطآن سبعة بحار، المجاورة لعشرات الأوطان، المستولية على النصيب الأكبر من مساحة أعظم قارّتين من قارّات المسكونة، المكوّنة من مئات الأجناس، الناطقة بمئات الرطانات، المالكة للسلطان على نصف القارّة الأوروبية من خلال ما سمّي بالمنظومة الإشتراكية، والمسيطرة على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية أيديولوجياً وعسكرياً واقتصادياً في قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، والمنصّبة لبعبعٍ من طوابير خامسة في كل بقاع الأرض بما في ذلك الدول المعادية كأوروبا وأمريكا من خلال الأحزاب الشيوعية، لتستحقّ بهذا لقب «**بابل الزمان**» عن جدارة!

وعلّ المثير ليس في القدرة على امتلاك السلطة المطلقة على العالم، ولكن في قدرة هذه السّلطة على تحويل هذا المُلك اللاّمحدود معتقلاً يخضع الخروج منه والدخول إليه حرفيّاً لهوى سجّان، لتكون هذه الإمبراطورية الأسطورية أكبر سجنٍ عرفه التاريخ! وهو ما عبّر لي عنه سائق أجرة يوم شهدنا انهيار الأسطورة الرهيب بالقول: «العبقري ليس من أفلح في بناء هذه الأعجوبة في أعوام (يقصد ستالين)، ولكن العبقري الحقّ هو من استطاع أن يفكّك كيانها في أيام (غورباتشوف»)! في ذلك اليوم لم أملك إلاّ أن أبتسم استخفافاً بأولئك الذين أعجزهم أن يقرأوا الرسالة المبثوثة في هذا الإنيهار، فمضوا يمنّون أنفسهم بامتلاك العالم، برغم هذا الدرس البيّن في وصيّة باطل الأباطيل الذي أدهش الدنيا في بيات شتاء عام 1991م، أي بعد أكثر من عشرين عاماً من خروجي الأول إلى رحاب حاضرة الأحلام تلك!

ولكن.. هل كنت سأبيحُ لنفسي خطيئة التلاعب بالتسلسل التراتبي للزمن لو كنت أكتبُ بهذا البيان تاريخاً بلسان الذاكرة؟ كلاّ، بالطبع. فعزائي أن روايتي لا تعترفُ بحرفيّة الزمان لأنها نزيف الذاكرة وليست منطقَ ذاكرة. فرواية الذكريات ضربٌ من ذلك التاريخ المعنيّ بالنتيجة. المعنيّ بالمعلومة، في مقابل سبب المعلومة. في مقابل العلّة التي أنتجت المعلومة وصيّرتها مادة الزمن. صيّرتها حُجّة الزمن في انتحال هويّة تاريخية. فالأسباب

في سيرورة الزمان هي الذخيرةُ التي نطلقُ عليها اسم التاريخ، في حين تهب نتيجة نشاط الإنسان للتاريخ غاية. السيرورة إذاً كلمة الزمن، روح زمنٍ تحوّل تاريخاً بفعلٍ ثقافي. أمّا غاية التاريخ، أما نتيجة هذه السيرورة الثقافية فهو حرف التاريخ. حرف التاريخ الميّت حتّى لو كانت هذه النتيجة تاجاً مرصّعاً بالحقيقة الواقعة. هذا هو الفرقُ بين التاريخ كتاريخ، والتاريخ كرواية. أعني التاريخَ المروي بروح الرواية. وهو الفرق ذاته بين سرد الذكريات، وبين نزيف الذاكرة!

إنّه الإنتصار لسلطان الحرية، في مقابل هيمنة الواقع: زمن الرواية زمن الحريّة، وزمن التاريخ زمن الواقع.

ولكن ما بال الذاكرة تشتطّ، كما فعلت عند دخولي أُمّ الواحات مرّة، فترتاد تخوم البعد المفقود لتستنسخ من زمن المحال تجربةً لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر لي على بال كبشر، ما أن وقع بصري على شوارع هذه المدينة الفسيحة، بساحاتها الشاسعة، الخالية، برغم ترف العمران، من البشر؟ هل يمتلك الخيال صلاحية تخوّله لأن يختلق؟ ألم يتوصّل ديكارت إلى الحقيقة التي تنفي عن الخيال موهبة كالاختلاق عندما أكّد حدوث ما نتخيّله في الماضي، ووجوب حدوثه في المستقبل ما أن يصير غنيمة الخيال؟ ألا يبرهنُ شططُ الذاكرة هذا بصواب نبوءة إمام الحكمة أفلاطون القائلة بأننا لا نتعلّم عندما نتعلّم، ولكنّنا نستعيد ما عشناه في حياةٍ فانية؛ أي أنّنا نتذكّر؟ وإذا صحّ

ذلك فهل يُعقل أن تكون الذاكرة أقوى سلطاناً من سلطان العقل؟ ألا يعني هذا أن العقلَ إذا كان قرون استشعار الكائن البشري، فإن الذاكرة هي قرونُ استشعار الروح؟ وإذا كانت الذاكرة هي عين الروح ومستودعها الذي لا ينام ولا يزول، أفلن يعني هذا خلود هذا الجهاز خلود مولاته وربّة نعمائه الروح؟ ألا يطرح القدّيس أوغسطين حُجّة في هذا السبيل عندما يقول في إحدى وصاياه بأنّنا لا نستطيعُ أن نقهرَ الزمن إلاّ في حالة واحدة: عندما نستجيرُ بالذاكرة؟

وسؤالٌ أخير يَجُبُّ في عُبِّه كل ما سلف من أسئلة: ألا يعني الحضور في الذاكرة على هذا النحو المجبول بالوجد حضوراً لا يأتيه الباطل في الأبدية؟ أليس الحضور في الأبدية (أو الإحساس بالحضور في الأبدية) دليلاً نهائياً على خلود الروح الذي كان همّ الحكمة الإنسانية منذ الأزل؟

ما أعلمه اليوم هو أن عسرَ التجوال في حقيقة الذاكرة لا يشتريه إلاّ لذّة الطواف في ذلك العمران المجهول المتكشف بوحي ذاكرةٍ راق لها أن تخبر عن حياة فانية لتثبت بالمقابل وجود الروح في الخلود. فإذا آمنّا مع دُهاة الـ«ريغفيدا» أو أساطين «أو بانيشاد» بأن الروح لا تُبعث من جديد إلاّ لتكفّر عن خطايا اقتُرفت، فحقّ لي أن أتساءل عن هويّة الألم العظيم الذي ينتظرني في حياتي الآنية لأفتدي به سيّئات حياتي الفانية!

5
اللغات

أوّل عقبة في طريق المريد وهو ينزلُ ضيفاً في قبلة الصقالبة هو: اللغة! وهو ما يبدو مفارقةً في بابل الزمان التي يرطن أهلها بمئات الألسن فيما لو جهلنا حقيقةَ عدم جدوى كل هذه اللغات إذا لم يكن لسان العِرق المهيمن لها سنداً إلى حدٍّ صار فيه إتقان لغة الأمّة الروسية شرطاً لا لاكتساب المعرفة وحسب، ولكن للفوز بحقّ المواطنة أيضاً! فهنا فقط يبطل مفعولُ الألسن المعترف بها عالمياً (كالإنجليزي أو الفرنسي) ليصير اللسان الأممي الوحيد القابل للتداول هو لسان الأمّة الحاملة لراية الأيديولوجيا الأمميّة. وكان بإمكان كلّ مستجدٍّ منّا أن يتسامح مع هذه النزعة لو اقتصرت على عقلية الدهماء، ولكن الموجع أن نكتشفَ أنها عقلية الصّفوة أيضاً. وكان على شخصي أن ينتظر قليلاً قبل أن يكتشفَ أن سرّ هذا الإستكبار في العلاقة مع الآخر إنما يستعيرُ حُجَجه من ما يمكن أن نسمّيه «روح الإمبراطورية» التي لا تعبّر هنا عن وجهة نظر الأيديولوجيا السائدة بقدر ما تعبّر عن الإحساس الآثم بالإنتماء

إلى دولة عظمى حتى ولو كانت هذه العَظَمة كناية عن سجنٍ خرافيّ الحجم ولا يدين لهذه الصفة إلاّ بالإسم! أمّا في أوساط الدهماء فقد تولّت الأمر روح القطيع دون أن يجدي المستوى التعليمي السائد في ردع هواها الذي بلغ به العماء حدّاً افترض فيه عن يقين علم الكلّ بلغتهم بما في ذلك مِلل الأضياف الذين حلّوا للتوّ! لقد كان الطلبة الذين سبقونا إلى تلك الديار يجدون صعوباتٍ جمّة في إقناع هؤلاء بجهلنا باللّغة أثناء محاولاتنا قضاء حوائجنا اليومية بعونهم، بل ويخفقون في أغلب الأحيان ليقين القوم بلؤم الأجانب الذين يأتون لبلادهم بدعوى طلب العلم، في حين يأكلون طعامهم، وينامون مع نسائهم، ولا يكتفون بهذا الترف المجّاني، ولكنهم يتجسّسون على أسرارهم ليقدّموها إلى الغرب المعادي هديّةً! لقد كانوا يجاهرون بشكوكهم في إخفائنا لمعرفتنا بلغتهم بالقدر نفسه الذي يتّهموننا، خفيةً أو علناً، بإخفاء نوايانا الخبيثة نحو بلادهم. وكم أدهشني أن أكتشفَ بعد أعوام طويلة (أي في ذلك التاريخ الذي بطل فيه مفعولُ التعويذة، وانفرط العقد المبرم مع سَدَنة المجهول) أن ثلاثة أرباع هؤلاء الدهماء يتقنون ألسنةَ الأمم الأجنبية إتقاناً مطلقاً، ولكنهم اعتادوا إخفاء علمهم هذا كما اعتادوا أن يخفوا كلّ شيء في حياتهم، بدايةً بأفكارهم ونهايةً بعشيقاتهم، بتأثير نزعة منكرة ربّتها فيهم روحُ الجوسسة التي تهيمنُ على حياة كلّ مواطن من المهد إلى اللّحد، فتنقلب مع الزمن من شبح له حضور في البادية إلى

كابوس يتسلّط على الباطن، لأن رقيبَ الذّات أقوى سلطاناً من رقيبِ الحكومات. والإنسان الذي ترعرع في قلبه الجاسوس لا بدّ أن يرى في كل الناس جواسيس حتّى لو كانوا أقرب ذوي قربى. في النهاية تصير أيديولوجيا الرقابة، أو الجوسسة، عملةً سائدة، بل ديانةً أخرى إلى جانب ديانة اللّادين الذي تدين به هذه الدولة.

نزعة التوجّس من الأجنبيّ التي عشتها في روسيا السوفييتية ذكّرتني بسيرة طريفة رواها لي صادق النيهوم عندما زار الصين في منتصف الستينات من القرن الماضي: فقد حدث سوء تفاهم بينه وبين أحد الصينيّين ما لبث أن تطوّر ليتحوّل إلى شجارٍ لفظي، ممّا استدعى حضور الشرطة. في المخفر خضع الرجل لاستجوابٍ باللّغة الصينية، ولكنه أفاد بأنه لا يتحدّثُ الصينية، ولكن الإنجليزية. حاصروه بنظراتٍ تفضحُ شكوكهم في صحّة ادّعائه، ولكنّهم أوقفوه جانباً وبعثوا في طلب ترجمان. ولكن الترجمان لم يجد لغةً مشتركةً مع صادق لسببٍ بسيطٍ وهو جهلة لا بالإنجليزية وحسب، ولكن بكل اللغات العالمية باستثناء لغة واحدة هي: الروسيّة!

وهو أمرٌ لم يكن كافياً لإثارة دهشة شرطة المخفر، ولكنه استفزّهم في الصميم أيضاً، لأنهم ببساطة لم يتخيّلوا وجودَ مخلوقاتٍ أرضيّة أخرى تتحدّث لغات أخرى باستثناء الصينية والروسية!

وهي حادثة إذا كانت مستهجنةً في روسيا السوفييتية التي تتطلّع لتقديم الفردوس المفقود هديةً للعالم، وبيد أنها تليقُ بتلك العقلية التي شيّدت أعجوبة السّور الأسطوري لتعتزل الدنيا منذ ما يزيد على الألفين والثلاثمائة عام، فألغت حضورها في هذا العالم، أو ألغت وجودَ العالم في مذهبها إلى حدٍّ صار فيه تعبير «**ما تحت قبّة السماء**» رديفاً لوطن الأوطان المتمثّل في الصين وحدها، مؤكّداً على غياب العالم بالمقابل. وهو تعبيرٌ ليس مستغرَباً أن يتحوّل مصطلحاً ثقافياً مسلّماً إذا كان أوّل من دشّنه وتبنّى رسالته هو **لاوتسي** في «**تعاليم الثاو**» ليتحوّل منذ ألوف السنين وصيّةً متوارثةً لها سلطة العقيدة الدينيّة!

6
النّهر

لم أدرك حتّى ذلك التاريخ أن بُعْدي المفقود كان الصحراء. الصحراء لا كعراء، ولكن كخليفة لله في الأرض. الصحراء كأمومة. أي: كطبيعة. طبيعة تجرّدت من حضورها كطبيعة انتصاراً لعشقٍ أعظم شأناً هو: الحرية. ورحلة اغترابي عن أرجوحة المهد هذه لم يكن لها أن تصيرَ ضياعاً لأن المساحة من الصحراء حتى شطآن الشمال، مروراً بواحات الدواخل، لم تكن سوى امتداداً لطبيعة الصحراء بسبب غياب النّبع. بسبب غياب الجنان التي تجري من تحتها الأنهار. فالمعيار الحاسم الذي يفصل القبيلتين الخالدتين (الدنيوية والربوبية) كان دوماً حضور المياه من غياب المياه. ولم تكن مياه بحر ليبيا لتروي ظمأَ عدوس سُرَى لافتقادها للبرهان، لافتقادها للطبيعة الجارية، لينقلبَ البحرُ بخصلة حضوره في الحدّ صحراء أخرى. صحراء من ماء، بالقدر نفسه الذي لا يصلح فيه خصماً الماء المستبطن، الماء الساري في العروق، في مقابل النبع، في مقابل الماء البادي للعيان. ولهذا

صار النّبع هو الشهادة الوحيدة القادرة على استدراج العدوس ليركن إلى صدر أمّه الأرض، ليستعيدَ الصلةَ بحبل السُّرّة ويتنازل أخيراً عن هويّة الإبن الضّال. الماء الساري حيلةٌ لإغواء صاحب السُّرَى لأنه قرينه في العبور، قرينٌ، بسريانه، للسُّرَى. رديف هويّة، ولكنّها هويّة الجدل. هويّة جدل لأن سريان الماء إذا كان للجسد حياةً بالجريان، فإنه للروح شهادة وفاة بالإستقرار. الماء البادي شَرَكٌ لأنه استظهار، ولذلك يميت من حيث أحيا. والماء الخافي ترياق لأنه الحرية التي تحيي من حيث تميت. ولهذا كان الماء منذ الأزل هويّةً ضدّية: حياة عبارةً وأخرى استعارةً. العبارة حرف جسد، والاستعارة إيماء روح!

ففي موسكو فقط قُدِّر لبصري أن يقع على النهر: غمرٌ سخيّ يجري بادياً ولا وجود لحاجة لأن يُستخرج استخارج الكنوز كما في الصحراء. غمرٌ يتماهى مع الضوء سارياً آناء الليل وأطراف النهار بلا حجاب. غمرٌ حقيقي يهب نفسه بالمجّان فلا يلبث أن يبتذل نفسه ويغترب عن هويّته القدسية بروح المجّان، لأن ما لا قيمة له وحده يهب بالمجّان. الغانية التي استمرأت السقوط وحدها تهب نفسها بالمجّان. ولهذا يُهان: يُهان باللامبالاة، يُهان بالإستهانة، يُهان بأجناس الدّنس التي يتلقّاها من أيدي المستهترين الذين لم يجرّبوا ظمأً، ولم يعرفوا يوماً معنى غياب الماء، فاختفت من قلوبهم حقيقةُ الماء، ولم يقرأوا، في حضور الماء، معجزةَ الماء!

وها هو هذا اللّغزُ يسطّر بيانه في طبيعة المدينة التي أُريدَ لها أن تكون حاضرةَ أجيال الفردوس المستعاد، أو حاضرة المليون عام على غرار حاضرة مصر القديمة أو روما الرومان، أو أي حاضرة أخرى خضعت لحكم سلطانٍ قرّر أن يستعيرَ بصولجان السلطة سلطان ربّ الأرباب، فيشيّد على أرض الفناء الكيان المعصوم من سلطان الزمان!

وبيان الماء (الجاري في أحياء المدينة المهولة كبدن ثعبان أسطوري) لا يخلو من شعر. بل هو قصيدة متقنة دائماً. ملحمة حقيقية، متوّج الجانبين بأشجار البتولا أينما حلّ. أشجار تَغنَّى بها كل شعراء روسيا منذ فيت وتوتشيف وبوشكين حتّى إيسينين وبونين وباسترناك. تغنّوا بها لا لأنها امتياز الطبيعة الروسية السخيّة الشديدة الخصوصيّة وحسب، ولكن لاستقامتها في رحلتها إلى السماء. استقامة توحي بإرادة تحدٍّ هو رمزُ الروح الروسية. وقد عبدها الشعراء أيضاً لبياضها لتصير استعارةً للجمال النقيّ. وتغنّوا بها أيضاً لحساسيّتها في العلاقة مع الفصول لتلعب دور المجاز المعبّر عن حساسية المرأة الروسية وطبيعتها المتقلّبة، المستعارة بدورها من تقلّب الطبيعة المحلية. تسرح تلك الروح المجسّدة الملقّبة خطأً باسم الماء فتسري في شرايين المدينة سريان الروح في الجسد. تسرح تعرّجاً لتخترق كلّ الأحياء الهائلة المماثلة في الحجم لمدينةٍ كاملة. أحياء تجسّد من فرط ثرائها مدناً متباعدة في

مدينةٍ واحدةٍ شاملة تبدو متصلةً برغم المسافات الهائلة التي تفصل بينها. مسافات يتحوّل التنقّل بينها سفراً حقيقياً بقياس الحساب. مدن تتداخل بسكّانها كل يوم كأنها تتماهى ببعضها تماهياً، ولكنها تنكفئ إلى نفسها أيضاً عندما تخلد للنوم فتخلو الأوردة الفسيحة التي تربطها ببعضها في حين يظلّ النهر شاهداً على هجعتها ومغذّياً وحيداً لأحلامها، لأنه المخوّل لمدّ الجسور بين أطرافها، وهمزة الوصل التي لا تعترف بقوانين الدولة الجائرة التي تحرّم السّهر إلى أوقاتٍ متأخرة حرصاً على القطيع من خمولٍ قد يزعزع أداءه في تنفيذ بنود الخطّة الخمسيّة التي يتوقّف عليها الوعد: الوعد ببناء الفردوس الأرضي. هذا الوعد الذي صار أفيون الأجيال والأجيال فصَنع بخدره من الأجيال ضحايا تلو الضحايا. ولكن النهر وحده لا يأبه. النهر وحده لا يبالي بالشعارات المعلّقة على كل الجدران، المعبّرة عن التضحية بسعادة اليوم في سبيل سعادة الغد. التضحية بالحاضر الفاني في سبيل مستقبل اليقين. التضحية بأنانية يوم في سبيل مجد الجيل. التضحية حتّى بالحرية في سبيل بعث الأسطورة إلى الوجود: أسطورة الفردوس الضائع الذي سيُستعاد!

ولكن النهر لا يبالي. النهر يجري. النهر يسري. النهر يستخفّ بشعارات الباطل، ويستهزئ بأشباح الصور التي تجسّد ثالوث الخلاص المنتظر؛ فرسان الخلاص الخالدين: ماركس وأنجلز ولينين! النهر في انحطاطه يكابر. النهر بتشبّثه بحضيضه

يتباهى بقدره ويستنكر البهتان. يتباهى بتضحياته ساهراً آناء الليل، سادراً أطراف النهار، مستهيناً في سيرورة الأزل بالدُّمَى تتكاثر في مسيرته لترجمه بالنفايات، مستهجناً الوعود التي تُنثر على شطآنه دوماً فلا يُكتب لها الفلاح أبداً. لأن الظلال التي امتلكت عبقرية أن تتحوّل عبئاً برغم هويّتها كظلال ترفض استيعاب درس الباطل في كل مرّة؛ لأنها عمياء. لأنها لا ترى في الماء ماءً. لأنها لا ترى الآية. لا ترى المعجزة. لا ترى الحقيقة. لا ترى.. النهر!

يجري النهر عبر شرايين مدينة المدائن وحيداً، معتزلاً، مجهولاً. يجري النهر رسولاً. يجري النهر روحاً مجسّدةً، ولكنّها الروح التي تؤكّد حضورها بالعبور، لتنفي نفسها بالإستقرار.

تُرى لهذا السبب يتعفّن الماء عندما يتوقّف الماء؟

ولكن ما سرّ النبع في برزخه الجدلي القائم بين البئر (كماءٍ مستبطنٍ) من جانب، وبين النهر (كغمرٍ عابرٍ) من جانبٍ ثانٍ؟

سرّ النّبع في حقيقته الحاوية للضدّين. عبقرية النبع في هويّته كماءٍ مستبطن، ولكنه جارٍ لا جريان النهر بالطبع، بل مستجيراً بفضيلة الإعتدال. إنه المبدأُ الجامع للهويّتين، والسجيّة التي تنفيهما كليهما. ولهذا صار عسيراً على من أقام إلى جوار النبع أن يهجر مكان النبع. الشاعر (هولدرلين) عبّر فقال: «عسير»ولكنه لم يستخدم في قوله كلمة: «مستحيل»!

النّبع، لهذا، إغواءٌ أقوى سلطاناً، لأن البئرَ في الصفقة طارد، في مقابل النهر الذي يعقل مريده عقلاً!

الطريد ـ صاحب حرية.

والمعقول ـ مريد ملكيّة.

صاحبُ النبع وحده الأسير. أسيرٌ لم يفقد الأمل في انعتاق.

ولكن هل يقنع بيت الشاعر بهذا التأويل؟

ألاَ يبدو تأويلاً أنسب لو قلنا: «عسيرٌ أن يدرك الحقيقة، ذلك الإنسان الذي ارتضى الحلول في الجسد؟!»، ممّا يعني: نحن في أسرٍ ما ارتضينا البقاء في المكان، ما استمرأنا الحضور في الجسد؟

صاحب البئر (مريد السُّرَى) يجاور في عدوسه الموت، لأن الحرية وحدها تجرّد الموتَ من سيماء البعبع لتجعل من هذا المصير ميلاداً، في حين ينتصبُ النبع في الصفقة الموجعة وسيطاً يتأرجح في برزخٍ تتخفّى الحرية كرديفٍ للحقيقة على ميمنته مستترةً ببئرها (عمقها) في حين يسطعُ على ميسرته سلسبيلُ السيل اللئيم مختزلاً في ترجمة صريحة غريزة الإمتلاك لتكون عنوان دنيانا وهويّة القبيلة الأرضية، مجسّدةً بهذا الإغواء الذي لا يُقاوم معقل الخطر الخالد المسمّى في معجم الديانات التوحيدية إثماً. هذا الإثم الذي تخشاه القبيلةُ العدوس ففضّل أبناؤها عبر التاريخ الموت عطشاً بجوار بئرٍ تنضب على الإرتواء من مياه النهر المسمومة. هذه القناعة رَبّتْ بتوالي الأجيال في روح القوم

الناموس الذي يحرّم عبور سيول الأبد (الأنهار) لا خشية غرق الجسد، ولكن خوفاً من غرق الروح الذي لن يعني في الترجمة سوى اقتراف الخطيئة!

هذا اليقين لعب دوراً أوقع أمازيغ الصحراء الكبرى في أسرٍ تاريخي ذي طبيعة غيبيّة يفوق أسر العبرانيين البابلي في نتائجه عندما رسم لحريّتهم حدوداً صارمةً مطوّقةً بأسوار مياه أركان الدنيا الأربعة: بحر ليبيا شمالاً، ونهر كوكو (النيجر) جنوباً؛ أوقيانوس الأطلانطيدي غرباً ونهر النيل شرقاً. إنها تلك الحصون المائية التي اجتازتها فلول الدياسبورا البدئية زمن نكبة الصحراء بغياب مياه السماء فانفضَّتْ القبائلُ عن الوطن لتيمّم صوب جهات الدنيا الأربع، مرتكبةً بذلك الخطيئة: خطيئة اجتياز المياه الجارية؛ وكان أن دفعت الثمن قصاصاً يوم استمرأت التّيه فركنت إلى أوطان الأغراب، ولم تعد إلى الوراء إلى الأبد، برغم أنّها احتفظت بالهوية وصيّةً منسيّةً في لسان اللاّهوت لتكفّر عن الخطيئة، ولتجير روح السّلف من الضياع!

7

روح سقراط

موسكو حقّاً هبةُ الشمال الكلاسيكي. ففيها يلفظ فصلُ الصيف أنفاس النزع الأخير ما أن تتبدّد صرخةُ الإستهلال. إنه موسم تطير أيّامه بجناحين، مكتوم الأنفاس بين شتائين يزحفان زحفَ السلحفاة! وها هي أيام الشموس والجعة وعراء مفاتن الحسان وتزجية الوقت بالتجوال في بساتين غوركي قد انقشعت ما أن حلّ سبتمبر ليبدأ الخريفُ آيات في نزيف أوراق الأشجار، فيجيء دورُ الغابات كي تتعرّى كأنها تتبادلُ الأدوارَ مع صبايا أرض الشمال فتتستّر عندما تتعرّى الصبايا، وتتعرّى ما أن تتستّر الصبايا! ولِمَ لا؟ أليست أشجار البتولا الباذخة هي الرمز الشرعي لحسان أرض السكتيين حسب التقليد السائد في استعارات الشعراء الروس؟

سبتمبر ليس علامة اختفاء الجمال من عالم الشمال وحسب، ولكنه الوعد بحلول موعد الجلوس على مقاعد الدراسة المجبول بإحساس الكآبة. فهو موسمٌ تتأهّبُ فيه الطبيعة للرحيل بالتعرّي. تعرّي الطبيعة في الشمال توطئة لاحتضان الثلوج. هذا الرداء

الناصع الذي لم يكن هنا يوماً رديفاً بالبياض لثوب الزفاف، بقدر ما كان وسيبقى إلى الأبد قريناً للكفن! بلى! الثلج كفن الطبيعة ونبوءة موتٍ نعبّر عنها بالبيات، كما كآبة النفوس كفن الروح ووصيّة الوقوف وقوف الأعجم في حرف المعرفة المتمثّل في فكّ طلاسم اللّغة! فالمعرفة إذا كانت فردوساً (أو الفردوس البديل للعنة الطرد من الفردوس)، فإن الدخول إلى حرمها يشترطُ الحضور في اللّغة. بل يستدعي الحضور في اللغات، في تعدّد اللغات. وإتقان لغة أخرى خارج عالم اللّغة الأمّ عملٌ بطولي لا يعادله عسراً إلاّ الميلاد الثاني. وعلينا أن نتخيّل ما يعنيه ميلادٌ ثانٍ حتى في بعده الحرفي الذي لا فضل لنا فيه ولا جهد به حققناه، إذا قورن بميلادٍ ننحته بأظافرنا ونلفّقه بدمنا ودموعنا ونزيف روحنا. إنه حرفياً معجزة تليقُ بطبيعة الميلاد، أيُّ ميلاد، حتى لو كان لفكرة صواب، فكيف إذا كان عملية خلق حقيقية؟ فإذا كنّا لا نحقّق الميلاد الثاني بدون دفن الميلاد الأول، فإننا لا نحقّقُ الحضورَ في متاهة لسانٍ جديد ما لم نغترب على نحوٍ مّا عن لسان الأمّ. وهي تجربة لم تكن في حال اللغة الروسية يسيرةَ المنال برغم عبوري لتجربتين في هذا المجال هما: العربية والإنجليزية.

ولكن الجلوس على مقاعد السنة التحضيرية لمبارزة المارد الذي يقوم حارساً على بوّابة العرفان عملٌ لا يتمّ في مجاهل هذا العالم دون ممارسة طقس آخر رآه كهنة المعبد توطئةً ضروريةً

لضمان الفلاح في طقس اللّغة محاكاةً لناموس الطبيعة التي خلعت هندام الجنّات التي تجري من تحتها أنهار الأصياف تمهيداً لارتداء أكفان الشتاء. ولمّا كانت عقيدة ديانة اللّاديانة لا تؤمن بناموس كما تؤمن بناموس الطبيعة فإن دهاتها آلوا على أنفسهم أن يحاكوا هذه الأمّ في كل شيء بما في ذلك استبدال ستور الفصول. وها نحن المستجدّين نجد أنفسنا نُقادُ كجليبة قطيع إلى مركز موسكو التجاري الرئيسي الواقع على طرف الساحة الحمراء لاختيار الألبسة التي تسجير الأضياف من بطش الصقيع المنتظر. إنه سخاء المضيف التقليدي الذي يجب الإعتراف به دوماً برغم دسائس الخصوم، ولؤم اللئام الذين وجدوا دوماً أيضاً، وفتّشوا في كل إحسان سوءاً، كأن يقولوا في التقليد المتعلّق بنا أن السلطات لا تتعطّف على أمثالنا رحمةً بنا، ولكن خوفاً من تحمّل مسؤولية هلاكنا أمام الرأي العام العالمي فيما إذا باغتنا الجليدُ وتمكّن منّا. هذا الرأي الذي كان دائماً في الأنظمة الشمولية بمثابة «كعب أخيلوس»، فعرف الغرب كيف يستخدمه في حربه مع «بابل الأجيال» أسوأ استخدام بتصيّد الصغائر، والنفخ فيها لتحويلها أكبر كبائر.

نعود من أسواق «غوم» الذائعة الصيت بألبسة تليق بشتاء روسيا الشهير: هندام كامل من غطاء الرأس المصنوع من الفرو حتّى الحذاء الفظّ الشبيه بأحذية العسكر مروراً بالبدلة الكثيبة والمعطف

المبطّن أيضاً. ولكن يبدو أن قدر هبة المجّان الإستهانة حتى لو كانت درعاً فعّالاً في مقاومة عدوٌ مميتٍ كصقيع أقاصي شمال الكرة الأرضية التي تهوي فيه درجات الحرارة إلى الخمس والأربعين تحت الصفر.

بلى! نجد العُدَّة قبيحةً، وصورنا في المرآة مثيرة للضحك في أجوافها، بل ونبدو كأشباح بائسة شبيهة بمتسوّلين، فنستبعدها، ونعود لارتداء أثوابنا إرضاءً لأذواق الحسان اللآئي ينتظرننا دون أن ندري أنّنا نحن من يدفع الثمنَ في النهاية، لأن حكمةَ الكهنة معنيّة بوظيفة الهندام، لا بمظهر الهندام. حكمة الكهنة معنيّة بالوقاية. بصيانة الأبدان من تقلّب أمزجة الطبيعة، وليس لأداء أي رسالة جمالية. إنّهم سقراطيّون في وجهة نظرهم، ولا يعترفون بغير المنفعة جمالاً، في حين اعتنقنا الديانة الكانطيّة عن الجمال، ديانة الوردة في مقابل سلّة القمامة. ديانة الهشاشة الأنثوية في مقابل ديانة الصرامة النفعية، فدفعنا الثمن أمراضاً أسكنها الصقيع أبداننا إلى الأبد تكفيراً منّا عن خطيئة الإستسلام للإغواء الخالد: إغواء حوّاء في تبنّي الشكل الذي يضحّي بالمضمون، بدل التضحية بالشكل في سبيل المضمون، على طريقة الكهنة!

8
المحفل

اتّحاد! رابطة! نقابة! جمعيّة! حزب

يا لها من أسماء أنيقة نختلقها لتحسين صورة الشَّرَك في نفوسنا المهووسة بكلّ ما مَتَّ بصلة إلى القمقم الذي نصنعه بأيدينا لنتناطح فيه كالقطيع!

كان يجب أن أترنّم بالإمتنان للأقدار التي أجارتني من التوفيق في تأسيس «اتحاد الأدباء» بالوطن لأجد نفسي في بلاد الأغراب لا عضواً في جماعة وحسب، ولكن رئيساً لتجمّع يطلق على نفسه «رابطة الطلبة الليبيين لعموم الإتحاد السوفييتّي» بخيار الإجماع! انتخابٌ كنت منه في شكّ استجابةً لتحذير الضمير الذي لم يخذلني يوماً برغم أنّي خذلته كثيراً بعدم طاعة صوته الذي اكتشفتُ بالتجربة أنه لم يكن يوماً سوى صوت الخالق في وجدان المخلوق، سيّما يوم لاحظتُ استنجاد بسطاء الروس (الذين سمّم عقولهم التلقين الأيديولوجي) بالربّ الوحيد المتبقّي لهم بعد تحريم دين الربّ من التداول، وهو: الضمير!

فانخراط مبدع، أو كلّ صاحب رسالة، في تنظيم مهما كانت هويّته هو تنازل مجاني عن إرادة. عن روح. صفقة خاسرة سلفاً لأنها عقد مع ميفستوفلس! إنه رهن للضمير لمؤسسة تنكر أوّل ما تنكر في معجمها الضمير. لأن دين أي عصبة دنيوية هو الأيديولوجيا. هذه السلطة العمياء التي لم تعترف يوماً بأي مبدأ أخلاقي مهما تغنّت بالشعارات، أو تشدّقت بالعدالة. إنها نظام خُلق ليميت في مريديه أول ما يميت: الحرية! حرية الإختلاف، وإرادة الجدل، وعفوية الفعل. إنها تقنين ما لم يخضع يوماً لقانونٍ في الطبيعة البشرية: تقنين التفكير، وتحريم التأمّل!

من هنا صار انتماء المخلوق الذي هدهَد في القلب وسوسة إبداع هو انتهاك فاحش لحرم المبدع الوحيد: الركن! أو الزاوية، أو الربّاط، أو كلّ اسم دلّ على خلوة حقيقية بما في ذلك أسماء أهل التصوّف الذين كانوا أول من استشعر الخطر: خطر الحضور في محافل السِّوَى!

فالسوادُ الأعظم إذا كان يحيا العالم الدنيوي المكبّل بأصفاد الواقع اليومي (أو فلنقل النفعيّ)، فإن المهووس بالأفكار يحيا عالماً حلمياً تغيب فيه التجربةُ العمليةُ غياباً كثيراً ما تسبّب في إصابة هذه الفئة الشقيّة بأشرس الأمراض النفسية ويأتي على رأسها انفصامُ الشخصية. يحيا عالم الحُلُم الذي لا يشاركه فيه شريك، فراراً من عالم اليقظة الذي أخفق في امتلاكه بسبب جهله بقوانين

الصفقة التجارية. إنه روح طفليّة، لأن حضوره كلّه وجدان، فيغترب عن دنيا اليقظة استجابةً لنداء الفطرة التي يمليها ناموس الحُلُم. يمليها ناموس عالمه المعادي بالطبيعة لعالم الواقع. إنه كائن وحيد وحدة موجعة، مغلولٌ بعزلةٍ لا ترياق لها، ولا يملك في اغترابه إلاّ نزاهته برهاناً. لا يملك إلا حُلُمه الهشّ متوّجاً بضمير أكثر هشاشة في عالم اليقظة لأن قَدَره أن يجابَه بالإنكار في دنيا الواقع الملوّث بجرثومة النفع!

هو إذا، ضحيّة إذا لم يكن الجنون قدرها، فإن التحلّي بروح الطفولة هو أهون ما ينتظرها. وهو لهذا أعجز مخلوق أرضيّ في تسيير شأنه الدنيوي كأي طفل تماماً. وعلينا أن نتخيّل ما يمكن أن يحدث عندما يُرتجى من عديم الحيلة هذا أن ينخرطَ في عصابة هدفها إنجاز رسالة جماعية بقطع النظر عن هويّتها الأخلاقية. إنه جور في حقّ الحقيقة التي اصطفته باللّاحول قبل أن يكون جوراً في حقّ القضية، أو جرماً في حقّه هو. وها هو عدوس المنافي يخضعُ لتجربة اللّاحول هذه في عجزه عن رفض قرار الجماعة ليحيا مهزلةً ذكّرته بتجربة اختياره رئيساً للجنة التمرّد الطلاّبي في العهد الملكي الفاني، فامتطى آلته الهوائية وفرّ إلى «القارة» ليتحصّن بقلعتها الأثرية المنيعة تلبيةً لنداء السجيّة التي أَبَتْ إلاّ أن تستنكر عصيان ضميرٍ يهتفُ محذّراً من التورّط في ما لم يُخلق له. فهل كان هذا كلّه موقفاً من التمرّد قبل أن يقفَ على حقيقة هذا

الفعل من خلال أعمال دستويفسكي الكبرى ليبدو تجديفاً في حقّ الألوهة، وقبل أن يهتدي إلى موقف كانط الذي سَخَر من الثورة الفرنسية عندما بلغه النبأ ليعقّب قائلاً أن ثورة الفرنسيين ليست ثورة، ولكن ما فعله هو بـ«نقد العقل المجرّد» هو الثورة الحقيقية؟

ألاَ يبدو الحدس أقوى سلطةً عندما يوسوسُ مبكّراً بما انتهى إليه أئمّةُ الحكمة في شأنٍ زعزع الأجيال منذ الأزل وصار شغل الخليقة الشاغل كالموقف من التغيير؟ ألا يبدو التوجّس من كل أمر غايته تغيير ما بالعالم، بدل الهوس بتغيير ما بالنفس تبنّياً ضمنيّاً لموقف جيمس جويس من الثورة البلشفية (بل ومن الثورات قاطبة) يوم خيّب ظنّ رسول ستالين بجوابه المخيّب لآمال بعبع الزمان عندما سأله الرسول عن رأيه في هذه الثورة فأجاب قائلاً أن همّه لم يكن يوماً عالم الإنسان الخارجي، ولكن عالم الإنسان الباطني، والثورة الروسية إذا صنّفناها بهذا المقياس فهي من نصيب العالم الخارجي؟ ألا يكفي الهوس بالتغيير عاراً شهادات أساطين التغيير؟ ألم يعترف زينوفييف كأحد كبار قادة الثورة البلشفية أن الثورة ما هي إلاّ استبدالٌ لإرهابٍ فردي، لا قانوني بإرهابٍ جماعيّ وفوق ذلك قانوني؟ ألم يستصرخ دانتون الدنيا معبّراً عن خيبته في الثورة الفرنسية وهو أعظم روّادها بعد أن ثبت له بالدليل أن السلطة في هذه الثورة إنّما تسقطُ في النهاية غنيمةً في أيدي أحطّ الخلق شأناً؟ ألم يحن الأوان لأن نقنع أخيراً بقدرٍ هو

لعنة مصاحبة لكلّ تغيير متوّج بالثورة التي كانت دائماً ذروته، إلى حدّ يبدو فيه مسمار بسمارك الذي دقّه في نعش هذه الظاهرة الأكثر تراجيدية في دنيانا يوم قال بأن الثورةَ من إبداع الدهاة، وإنجاز صحبان التعصّب، ولكن ثمارها تسقطُ عادةً في أيدي السفلة؟

وأحسبُ اليوم بأن الهوسَ بالتغيير لم يكن ليُبصَم بأختام الإثم على هذا النحو المثير لليأس لو لم تكن الغاية هي السبب. لو لم يكن الطموح مطبوعاً بخصلة أنانية، خصلة نفعية. فهل كانت الرغبة في تغيير العالم يوماً رغبة صادقة في تحرير العالم؟ هل كانت حقيقية في تطهير العالم؟ كلّا، بالطبع! الهوس في تغيير العالم كان دوماً مجبولاً بالنيّة في الإستحواذ على العالم، مجبولاً بوجدٍ لا يقاوم في امتلاك العالم. وما الصراع الذي ينشب بعد تحقيق التغيير سوى مظهر للرغبة الخبيئة في السيطرة على زمام الأمر. مظهر للتعبير (الواعي أو اللاواعي) عن الطبيعة الأصلية، للتعبير عن الجوع إلى الملكيّة. وهي اللحظة التي تتبخّرُ فيها الطبيعة الألوهية (أو الحرية) لتنتصر في السجال الروح النفعية. وهو في النهاية تغليب للمبدالوقتي في الصفقة الدنيوية على المبدأ الأبدي، فتغترب، نتيجة ذلك، الحرية!

لقد وجدتُ نفسي في تجربة ذلك النموذج التنظيمي في حجمه المصغّر ضحية الأوهام والأهواء والنزعات المَرَضيّة لأناسٍ يريدون، ولكنهم لا يدرون ماذا يريدون. ولهذا يعمدون لصبّ

جام غضبهم على ذوي القربى تعبيراً عن هذا العجز، حتّى أيقنتُ أنهم لم يخترعوا هذا القمقم لكي يجمعهم إلاّ لينتقموا من بعضهم البعض بسبب وبلا سبب. إنها وكر للدسّ والنمائم وحبك المكائد، لا تأدية رسالة، أو الأخذ بيد من سقط أو كاد يسقط، أو تلبية نداء أي واجب. إنها شرك ماكر لتضييع الوقت وتأجيج روح العداوات مثلها مثل كل المحافل المكبّلة بالنوايا الأنانية. وكان لا بدّ لهذه اللعبة أن تقود إلى ما لا تحمد عقباه فتنتهي بجلسة درامية كادت تؤدّي إلى جريمة يوم احتدم العراك بين عضوين من أعضائها فتناول أشدّهم هَوَجاً دورق الماء الفارغ ورمى به الخصم بكل ما امتلك من قوّة. ولو لم يتمكّن الخصم الآخر من تفادي الرمية لكنّا لا شهوداً على الجريمة، ولكن شركاء ربّما في جريمة: لقد أصابت كتلةُ الزجاج ذات الوزن الثقيل (ككل شيء في روسيا) الباب الخارجي المواجه لباب غرفة الإجتماع الذي كان مفتوحاً، فحطّمته إلى شطرين!

هذه الحادثة كتبتْ شهادة الوفاة لتلك المنظّمة العبثية فلفظتْ أنفاسها إلى الأبد، ولكنّها خلَّفَتْ في وجداني اليقين بخطورة الإنتماء إلى كل ما متَّ بصلة لدنيا المحافل حيث تلتئمُ الجموع بروح القطعان التي إذا تباعدت تصايحت، وإذا اجتمعت تناطحت!

روح القطيع هذه المرّة أيضاً.

9

الإستثمار

لم ينقطع ذلك العام الدراسي حتّى تصدّعت أركانُ المحفل ببلايا حدثانٍ أصابت نصف الأعضاء تقريباً. فها هو المجون وضروب العربدة اليومية تطيح بأوّلهم متحالفةً مع كابوس الكآبة فيحاول الإنتحار أوّلاً، وعندما أخفق هذا الفعل الجنوني في وضع حدٍّ للعناء فضّل الرجل الإنسحاب بالعودة إلى الوطن. وهو قرار تبدّى أكثر حكمةً إذا قورن بمصير صاحبنا الأهوج الذي صدر بحقّه قرار طرد من إدارة الجامعة بسبب إساءة استعمال المشروبات الروحية، فدأب على الشجار وإهانة رجال الشرطة على نحوٍ تكرّر على مدى سنوات وهو الذي حلّ ضيفاً على البلاد منذ منتصف الستينات وأشرف على التخرّج. وهو قرار لم تكن الجامعة لتتخذه بسهولة (كما كنّا نتخيّل) لولا تدّخلُ السياسة. إذْ يجب الإعتراف هنا بتسامح النظام السوفييتي إزاء حماقات الطلبة الأجانب (سيّما طلبة العالم الثالث)، فيغضّ النظر عن جلّ خطاياهم، بل كثيراً ما يغفر لهم جُنَحاً قد ترتقي إلى مستوى الجرائم، إدراكاً لحجم الخسارة التي سيُمنى بها مادياً ومعنوياً بحرمان إنسانٍ أقبل من آخر

نقطة في الأرض مراهناً على اغترابه، آملاً في الحصول على مؤهّل يسهم في تقرير مصيره: خسارة مادية كلّفت المجتمع السوفييتي ألوف، بل وعشرات، ألوف الروبلات أُنفقت على الرسوم والمكافآت والسكن وإجراءات الإستقدام. وهو خسارة معنوية أيضاً لأن قرارَ الطرد هو قرار بخلق عدوّ. ليس قراراً بخلق عدوٍّ فحسب، ولكنه قرار بتفويض جهاز إعلامي متنقّل لممارسة الدعاية المضادّة للنظام خارج الحدود. وهو ما كان هذا النظام يخشاه دائماً ويحسب له ألف حساب لأنه نقطة ضعف كل نظام شمولي. ذلك أن النظام السوفييتي لم يكن غبياً بحيث ينسى أنّ المنح الدراسية ما هي في النهاية سوى استثمار: استثمار سياسي أيضاً إلى جانب طبيعة هذا الإستثمار الثقافية. فخرّيجو بلدٍ مّا هم في الواقع رسل ثقافة هذا البلد إلى العالم في المقام الأوّل. فإذا أمكن ترويض قناعاتهم السياسية ليكونوا رسلاً أيديولوجيين أيضاً فذلك كسب لرهان إضافيّ لم تعوّل عليه الأنظمة الشمولية وحدها، ولكن عوّلت عليه الأنظمةُ السياسيةُ الساعيةُ إلى الهيمنة الثقافية أيضاً.

متى يضطرّ السوفييت لاستصدار قرار طرد مريد العلم إذاً؟

يضطرّ السوفييت لفعل ذلك فقط في حال المساس بالعَصَب السياسي!

ما معنى العَصَب السياسي هنا؟ العَصَب السياسي هنا يعني العداء للنظام!

ولكن أي نظام؟ هل هو العداوةُ التقليدية الشائعة للنظام الشيوعي؟

لا يتصوّر الكثيرون اليوم، كما لم تتصوّر الأكثريةُ بالأمس، وجود فرق جوهريّ بين معادة النظام الشيوعي، ومعاداة النظام السوفيتي ليقينٍ خاطئ يراهما وجهين لعملةٍ واحدة، بل عملة واحدة ذات وجه واحد! ولكن ناموسَ السوفييت يرى أن الشيوعية هي أيديولوجيا يعتنقها النظامُ السوفييتي، ولكنها ليست النظام السوفييتي. إنها فكرة مثالية (ويا له من اعتراف سيدهش كل من جهل الواقع السوفييتي) يسعى النظام السوفييتي لتحقيقها، ولكنها فكر سياسي اعتنقه الكُثر قبل قيام النظام السوفييتي في الماضي، ويعتنقه آخرون في الحاضر دون أن يؤمنوا بصواب التجربة السوفييتية، كما سيعتنقه في المستقبل البعض بعد زوال الإتحاد السوفييتي. وأستطيعُ أن أجزمَ بالتجربة أن المجاهرةَ بالعداوة للأيديولوجيا الشيوعية لم يكن تهمةً سياسيةً في ظلّ النظام السوفييتي، ولكن التهمة التي لا تُغتفر حقاً في يقين النظام هي العداوة للأيديولوجيا السوفييتية كنظام سياسي. في هذه الحال فقط يصبح قرارُ الطرد قراراً غير قابل للنقض، لأن التهمةَ في هذه الحال هي الجرمُ الوحيد الذي لا يقرأ حساب الربح أو الخسارة!

ولهذا السبب لم تفلح الوساطات، ولا شفاعة الرابطة، ولا تدخّل السفارة، في أن تشفعَ لأقدم طلبة ليبيا للبقاء في البلاد لاستكمال دراسته برغم ارتباطه إلى جانب كل هذا بعقد قران مع

مواطنة سوفييتية. وهو قرار لم يكن من نصيب هذا الرجل وحده، ولكنه أصاب زميلاً آخر كان قريناً حميماً له، كأنه عدوى، ليخضعَ بدوره للترحيل. كما وُجه إنذار لزميل رابع اعتاد أن يشارك هذين مجون الليالي وعربدة الغيبوبة! والمفارقة أن ينجو الأخيرُ من القصاص ويدفع قريناه الآخران الثمن كما يحدث عادةً عندما تحالفُ الحظوظ بعمائها التقاليدي النموذج الأرذل على حساب النموذج الأفضل لمجرّد أنه الأكثر خبثاً في انتهاز الفرص، والأعظم دهاءً في التصرّف فكان يلوذُ بالفرار في الوقت المناسب كلّما نشب العراكُ ليقع زميلاه في يد الشرطة. أمّا أكثرهم تطرّفاً وأعمقهم دراميةً فكان صاحب الإنتحار. ولم يكن ليلجأ لهذا الخيار لو لم يكن أشدّهم إحساساً بالوجود بسبب حساسية رومانسية نادرة، وروح شعرية لم يفلح في التعبير عنها بالعبارة، فقادته إلى اللّذّات الإصطناعية، كما يحدث عادةً، للفرار من المواجهة مع شبحِ الوجود. فإذا أضفنا إلى هذا الإغتراب الوجودي اغتراباً آخر عن الوطن، وحمّى عزاء لا وجود لها إلاّ في النساء، إلى جانب كآبات الشتاء الروسي الذائع الصيت الذي أوتي القدرة على تحويل النهارات إلى ليالٍ تستقطعُ من العام تسعة أشهر كاملة، فإن الماليخوليا المزمنة تنقلبُ لا قدر هذا النموذج وحده، ولكن قدرنا جميعاً. كلّ ما هنالك أن بعضنا صمد بفضل فُضْلةٍ متبقيةٍ من بسالة، واستسلم آخرون بسبب الهشاشة!

10

إيثاكا

إذا كان استحضار الماضي بنزيف الذاكرة مغامرةً معرّضةً للعطب بسبب آفة الزمان (النسيان)، بيد أنّي لا أنسى ما حييت استنكاري المبكّر والفطري لاحتمال الحرمان من الوطن إلى حدٍّ كنت أزاوج فيه هذا الحرمان (سواء أكان اختياراً أم إجباراً) بإنكار الوطن. فالصحراء التي سكنتني منذ تجربة التّيه صارت هاجسي، بل فردوسي المفقود الذي استقرّ في قيعان الباطن ليتحوّل حلماً أبدياً، نداءً قَدَريّاً، بل حنيناً ذي بعد ديني غيبيّ. وكم كان يدهشني في تلك السنوات قيام طريدي **«الفردوس الموعود»** بالإرتماء في أحضان الغرب ليصيروا له أبواقاً دعائية في حربه الإعلامية ضدّ النظام السوفييتي لا من باب الثأر وحسب، ولكن لخلق مبرّرٍ يبقيهم خارج أوطانهم بتصوير أنفسهم أبطالاً تعرّضوا لاضطهاد السوفييت بسبب آرائهم! بلى! الحرب الباردة خلقت بدورها فئةً انتهازيةً استثمرت الصراع الأيديولوجي بين العالمين المتنازعين لإنجاز صفقات نفعية أيضاً. وقد عرفتُ زملاء كثيرين

(سيّما تالياً في معهد غوركي للآداب) احترفوا الفرار إلى الغرب ليدلوا بأصواتهم في إذاعة «أوروبا الحرّة» أو «دويتشي فيلّلي» التي تتحدّثُ عن القمع في روسيا السوفييتية كشهادة تتيحُ الحصول على الموافقة باللجوء. وبرغم خطر العودة، وشبح الحبوس الذي انتظرني في كلّ مرّة إلاّ أن اللجوء هو ما لم يخطر لي يوماً على بال ليقيني بأن الوطنَ هو قدرٌ في رقبة الإنسان، والحرمان منه لأي سببٍ كان يعادل الحرمان من **الإيمان**. بلى! بلى! إنسانٌ بلا وطن هو إنسانٌ بلا ربّ حتّى لو كان هذا الوطن هو وطن اللاوطن، حتى لو كان هذا الوطن صحراء كبرى تتنكّرُ للمفهوم التقليدي للوطن! ذلك أن ليبيا كلّها بما امتلكت من سواحل ومدن وواحات لم تكن لمريد السّرى سوى الإمتداد لصحرائه الكبرى. إنها فردوسه الأوّل والأخير: فردوسه الذي طُرد منه في الأزل، وفردوسه الموعود الذي سيستعيدهُ يوماً. واغترابه عنها لم يكن سوى الدرس الذي أكّد له هذه الحقيقة بدل أن ينفيها. أجل! المفارقة في أننا لا نحبّ أوطاننا كما يجب أن تُحَبّ، ما لم نغترب عن أوطاننا كما يجب أن نغترب.

هذا الهوس أنساني الخطرَ الذي يتهدّدني فوجدت نفسي في أول عطلة شتوية في نهاية عام 1970م بداية 1971م أدفع مالاً كنت في أشدّ الحاجة إليه ثمناً لتذكرة السفر إلى طرابلس. ومن طرابلس إلى الصحراء التي تحمّمتُ بشموسها، وتطهّرتُ بحرَمها في

طريقي لزيارة الأهل في الجنوب، ثم العودة عبر برّ الحنين مجدّداً إلى رحاب الحاضرة لأروي الروحَ بمجالسة فرسان الدروشة وأمراء النبالة أمثال جيلاني ويوسف القويري ورضوان وقلّة أخرى من خلّان الوجدان. وأذكر أنني في هذه الرحلة بالذّات أضفتُ إلى قائمة هؤلاء مريداً جديداً هو زياد عليّ الذي أسكنني قلبه منذ أول يوم قبل أن يسكنني بيته، وأطعمني من سريرته في أوّل لقاء قبل أن يطعمني خبزاً بيد والدته. وكان عليه أن يحملَ نصيباً من صليبي إلى جانب وزر صليبه في ذلك العام، وفي الأعوام التالية. وكان هو من أوصلني إلى المطار في تلك المرّة ليعود بي خائباً، لأن الأجهزة الأمنية لم تعدم الحيلةَ في اختلاق المبرّر الذي يحول دون سفري كما اعتادت أن تفعل في كلّ مرّة. ولكن العنايةَ الألوهيةَ التي تولّت أمري منذ المهد أجارتني من شرّهم، كما أجارتني من كل الشرور عبر عدوسي في ليل الدنيا الطويل! لا أستطيعُ إلاّ أن أعترفَ اليوم، بعد مضي كل هذه الأعوام، أن ما أجارني من الأجهزة، ومن الأنظمة، ومن دسائس الحاسدين والكائدين، هو **الإيمان**: الإيمان بأن الوطنَ حقٌّ مكتسب بالطبيعة مثله مثل الربّ. مثله مثل الإيمان في بعده الديني. وهو إيمانٌ لم يكن ليتحوّل في الدرب تميمةً لو لم يكن له إيمان آخر سنداً وهو: **الروح الرسالية**، أي الوعي المجبول بالرغبة المحمومة في إعلاء شأن الوطن. الوطن في هويّته **كقيمة رمزية**، لا بالنظر إليه كغنيمة كما هو شائع، أو بترجمة أخرى: الوطن كعقيدة رديفة **لنداء الواجب**. نداء

واجبٍ هو ضمانٌ وحيدٌ لاستدراج تلك العنقاء العصيّة المسمّاة **سعادةً**. وهكذا تنقلبُ الوصيّة الكانطية رأساً على عقب: تتبادل الغاية مع الوسيلة الأدوار فيصبح أداء الواجب الوسيلة التي تأتي في أعطافها بالسعادة بدل العكس الذي يحذّر منه الحكيم. وهكذا يصبح الوطن كقيمة وجودية معبوداً. وأحسبُ أن سرّ خلود ملحمة كـ«**الأوديسة**» إنما يكمنُ في تحويل الوطن إلهاً. فاحتمال الأهوال والتضحية بالروح لعقدين من الزمان لم يكن في سبيل بنيلوب، لم يكن في سبيل تليماخ، ولكن في سبيل إيثاكا!

لم أكن أدري حتى ذلك الوقت أن الوطنَ الذي سخّرتُ له الحياة منذ الوعي بالوجود، والذي تغنّيتُ به في المراحل التالية في كلّ أشعاري المبصومة خطأً باسم الروايات، سوف يصيرُ لي قَدَراً لوّثه جنونُ النظام بصنوف الأفعال حتّى انقلب في نظر الدنيا **تهمةً**، بل في مرحلة تالية عاراً، ثمّ نقمةً. وكان من سوء حظّي أن يتزامَن أمري مع هذه المحنة، ممّا ضاعف من وزر الواجب حتّى كاد ينافس في عبثيّته سيرةَ سيزيف. وهو ما يبيحُ لي اليوم أن أقول بلا استيحاء:

يسيرٌ أن نحمل صليبَ الأوطان وهي في عرف الناس نعمة.

عسيرٌ أن نحمل صليبَ الأوطان وهي في عرف الناس نقمة!

الوطن المغترب بخطايا السلطة لعنةٌ لا ذنب لنا فيها، ولكنّها تأبى إلاّ أن تلاحقنا في الهويّة التي نحملها.

11
الضّمير

الصمود في الواقع السوفييتي يستدعي مواهبَ استثنائية فوق طاقة الأغلبيّة، ولهذا لا يستقيمُ الحال إلاّ للأقليّة. وقد حدّثنا الأساتذةُ منذ البداية عن الدراسات التي أُجريت على المجتمع الطلاّبي الأجنبي فبرهنت على عسر تأقلم هذه الفئة أو اندماجها في المجتمع السوفييتي عسراً كثيراً ما أدّى إلى نتائج درامية. ولكن الأبحاث برهنت أيضاً على عسر تأقلم هذه الفئة في بلدانها ما أن تعتاد أسلوبَ الحياة السوفييتية. ولهذا يندرُ أن يعود إلى الوطن من اعتاد، كما يندر ألاّ يعود إلى الوطن من لم يعتد بعد. أي أن التجربة مجبولة باغترابٍ موجع في كلتا الحالتين إلى حدٍّ يجيزُ لأيٍّ منّا أن يتهم أيّاً منّا بالكذب فيما لو حاول أحدنا أن ينفي عن نفسه تهمةَ الرغبة المحمومة في الإنسحاب منذ البدء، أي قبل أن تبدأ المعركة، بوصفها جبناً، بل هزيمةً مسبقة. وأعتقد أن الاستكبار (الاستكبار أمام الذّات قبل أن يكون استكباراً أمام الأغيار) قد أنقذ جلّنا، إن لم يكن كلّنا، من شبح الفرار. ولهذا لعبت الأسبابُ

البيئية والإجتماعية والإقتصادية دوراً في تحفيز تلك العلل النفسية التي أعادت إلى الأوطان طوعاً أبناءً يفوقون في العدد أولئك الأبناء الذين عادوا إلى هذه الأوطان جبراً لأسبابٍ سياسية أو أمنية.

فقسوةُ الطبيعة الروسية تبدو قصاصاً أهون إذا قيس بقسوة طبيعة الإنسان الروسي. ويبدو أن قسوة الطبيعة البيئية هي علّة قسوة هذا الإنسان ما دمنا نؤمن بأن الإنسانَ ما هو في الأصل سوى سليل طبيعة، دون أن ننسى بالطبع أن نضيفَ إلى هذه القسوة قسوة مستعارة من طبيعة النظام الشموليّ الذي يروقه أن يخلق من الناس قطيعاً ليُساقوا أفواجاً إلى الجنّة **بالسلاسل**! والبليّة هنا إنّما تكمنُ في سيرة **السلاسل** التي ينفي حضورها في أي مناسبة حضور **الجنّة**. وهو ما يعني أن الإجبار المتمثّل في السلاسل يغيّب تلقائياً حضورَ **الخلاص**، وينفي وجودَ **الحرية** ببعديها الطبيعي والأخلاقي. وهو حُجّة لم تبخل بها متونُ التوحيد منذ أوّل الأسفار، لأن التقام فاكهة التحريم لم يكن إلاّ كسراً للحظر وانحيازاً تراجيدياً للحرية.

ولكن الأيديولوجيا لعنة ترفضُ استيعابَ الدرس، فتأبى إلاّ أن تستعيدَ السيرةَ حرفياً بإقامة نظام الوعد بالجنّة الرهين دوماً بالسلاسل، مع تعديلٍ فادحٍ في المتن ينصّب فرداً أو ربّما حزباً، بمثابة ربٍّ بديلٍ للربّ!

فكيف لا يستغيثُ الناس في واقعٍ كهذا ليستجيروا بخليفة الربّ الوحيدة التي استودعها قلب الإنسان وهي الضمير؟

الضمير هو الضمانُ المتبقّي الوحيد من ناموس القبيلة الإنسانية الضائع في واقعٍ يستطيع فيه أي شرطي أن يسجنَ بدون تهمة، ويملك فيه مستخدم في جهاز أمن الدولة أن يلفّقَ دسيسةً لأبرياء تقودُ إلى المشانق، ويعطي الحقّ للحزب في أن يُهجِّر شعوباً بأكملها من وطنها في القوقاز أو آسيا الصغرى، أو أي منطقة أخرى، لتحلّ ضيفاً ثقيلاً على أهل سيبيريا أو الأورال أو أي وطن آخر يخطر ببال زعيم هذا الحزب في لحظة غضب أو تجلٍّ أو سكر!

هذه النزعة (نزعة الإستهانة بالأنام ومعاملتهم معاملة أسوأ من معاملة العبيد وهي معاملة الأنعام) لا بدّ أن تُلقي بظلّها الثقيل على النفوس فتربّى فيهم مع مرور الزمن روح العدوان! روح العدوان هذه كانت في روسيا السوفييتية عملةً يوميّةً كان من الطبيعي أن نُخفق في مهادنتها، فكيف بالإعتياد عليها؟ فإذا أضفنا لها خشونة الإنسان الروسي الطبيعية المستعارة من قسوة الظروف البيئية، فإن الحياة لا بدّ أن تتحوّل في نظرنا كابوساً، بل جحيماً يومياً ينذر أن يشهد غياب شمس دون تجربة عراك: العراك تلاسناً على الأقل إن لم يكن عراكاً بالعضلات! ولكن. . ما موقف القوانين الوضعية في ظلّ غياب النواميس الأخلاقية؟ القوانين الوضعية في ظلّ الأنظمة الساعية لاستعادة الفردوس المفقود لم تُسنّ لإسعاد الناس، أو لتحقيق عدالة من أي نوع، أو حتّى لتيسير حياتهم الدنيوية،

ولكنّها سُنّت خصّيصاً لتوائم مجتمعاً يهفو لاستعادة الجنّة الضائعة، وهو ما يعني أنها ليست معنيّة بحياة الفرد في مجتمع إنساني، ولكنها معنيّة بتهيئة كمّ مفترض ليستقيم في قطيعٍ يسير نحو غايةٍ مفترضة ضمانها الوحيد الوعد الموجّه للأجيال القادمة وليس لأهل الحاضر بأي حال!

إنه واقع عدميّ تصلح أعمال كافكا تعبيراً عنه، بل هي النبوءة التي بشّرت به.

في واقعٍ كهذا لا يعدم وجود أخيار. أخيار الفطرة الأبطال الذين استطاعوا أن يجيروا جوهرهم بأعجوبةٍ مّا فاحتفظوا بالوديعة نقيّةً. احتفظوا بالضمير، واتخذوا منه عروةً وثقى في مغالبة الحياة اليومية المعادية، فكان لوجودهم في نفوسنا عزاء كثيراً ما أعاننا في استعادة الثقة إن لم يكن في وجود العدالة، فالثقة بوجودنا قيد الوجود، الثقة في بقائنا على قيد الحياة، الثقة في حضور ضمير هو الشهادة على حضور الله.

في هذا الزمن العصيب الذي تحالفت فيه قسوةُ الطبيعة مع قسوة الواقع اليومي مع قسوة اغترابي هرع لنجدتي الخلّ رسولاً لعناية ألوهيّة لم تخذلني يوماً: وجدتُ في أحد أيام البيات الشتوي (التي تحوّل فيها مشيئة الشمال النهار ليلاً موصولاً) إلى جواري محمداً التاجوري، إنساناً نبيلاً بادلني عزلةً بعزلة كما يليق بحميمين حقيقيّين لم تنل من علاقتهما تجربة عشرات الأعوام.

أقول هذا لأن الأغلبيةَ في عالم اليوم لا تدري أن العملةَ السائدة في علاقات ذلك الزمان كانت تقاس بمعيار المعتقد الأيديولوجي لا الإنساني؛ فكان على شخصي أن شهد اغتراباً جديداً بسبب هذه التقليعة لا يمكن أن يُقارن إلاّ بفعل رذيل كالخيانة. خيانة لأن الأصدقاء الذين شاركتهم الإيمان بالتقدّم وباستلطاف روح اليسار سرعان ما يديرون لك الظهر عندما يكتشفون أن إيمانك مشبوه ومشكوك فيه ما دمت لا تتشدّق بشعارات الأيديولوجيا الشيوعية لا معرفةً حقيقية بالجدل (الديالكتيك)، أو إيماناً عميقاً بالمادّية التاريخية، ولكن كصفقة لذرّ الرماد في عيون السوفييت ظنّاً منهم أن هذه الزُّلفى أجدى في قضاء الحوائج. ولم أكن في حاجة لأن أحيا تجربةَ انهيار الكيان في عودتي الثانية بعد انقضاء عشرين عاماً من ذلك التاريخ كي أكتشفَ كيف كان السوفييت يُكبرون أهل الجدّ في تحصيل علمهم من بين الأجانب، ويفضّلونهم دون أن يضطّروا لإخفاء ذلك عن أترابهم من مردّدي الشعارات الأيديولوجية الجوفاء زلفى وبهتاناً. بل كثيراً ما عبّروا عن استخفافهم بهم في وقتٍ سبق بزمنٍ طويل كشف هؤلاء عن وجوههم الحقيقية فتنكّروا لتلك المبادئ التي أطعمتهم أيام الإزدهار من جوع، وآمنتهم أعوام السلطان من خوف، ما أن تزعزع الكيان بالزلزال.

وما سمحتُ لنفسي بأن أطلق عليه تعبير روح اليسار مسألة

تستحقّ منّا وقفة. وأذكر أن سيمون دي بوفوار هي أول من نادى بضرورة استعارة الهوية اليسارية في الأدب كشرطٍ لقيمة الأدب. وقد أُسيء فهم هذه المقولة في ثقافتنا كما أُسيء فهم مقولات كثيرة صدرت عن روّاد فكر أوروبا ذلك الزمان الذي كان ما يزال يتصدّرهم سارتر الذي مضى يتنفّس أهوية أيديولوجية بعقلية حرب التحرير الفرنسية ضد النازية. فما معنى روح اليسار على وجه اليقين في زمن هيمنة أيديولوجية رائدة كالشيوعية؟

يعترفُ سارتر بنزعته الإلحادية في أكثر من نصّ، ولكنه لم يخفِ خلافه مع العقيدة الشيوعية وهو المؤمن بالماركسية، ولكن برؤية وجودية توّجها بمؤلفه المرجعي «الوجود والعدم» الصادر عام 1943م (أي في ذروة الإحتلال). وأعتقد أن دوره في المقاومة ضدّ النازية هو ما جعل منه أسطورةَ العصر والأنموذج المثال للمفكّر الذي يضع أفكاره موضع التجربة العملية خلافاً للعقلية السائدة. وكان من الطبيعي أن يُحتذى حتّى من قبل واقع ثقافي مُسَيَّس حتى العظم في أوروبا ذلك الزمان، فكيف لا يتحوّل مثالاً يُحتذى في واقعٍ ثقافي اعتاد أن يستنسخَ كل شيء كأي مرآة عاكسة؟

ولكن الهوسَ باستنساخ التقاليع (سواء أكان تقليعة في الأزياء أو مفهوماً في الثقافة السياسية) عملٌ مجبولٌ بالخطر بسبب يسر الإساءة للأصل. وأعتقد أن الدعوة للتحلّي بروح اليسار في

الإبداع التي أطلقتها رفيقة سارتر وتلميذته الفكرية دي بوفوار من المقولات التي تعرّضت لسوء الفهم. فالتحلّي بروح اليسار لن يعني بأي حال ترديد الشعار السياسي ترديداً فجّاً لأن التجربةَ السوفييتية في مجال الإبداع برهنت على عجز الأيديولوجيا في صنع أدبٍ حقيقي، أيْ أدب إنساني. ولكن التحلّي بروح اليسار يجب أن تُفهم في ظنيّ كتحلٍّ بالنزاهة. ما معنى التحّلي بالنزاهة في مفهوم الأدب؟ التحلّي بالنزاهة هنا سوف يعني الإيمان بالإختلاف. اعتناق حق الإختلاف على كل مستوى. إنه التشبّعُ بروح الجدل الذي لن يعني في النهاية سوى ما تسمّيه لغة الصحافة بالمعارضة! وهي معارضة ذات أوجه ثرية ليس السياسي أوّلها، ولا الوجه الوجودي آخرها. وهذا ما لم نفهمه في المقولة الديبوفوارية، لأن مفهومَ المعارضة عندنا كان ضبابيّاً ضبابية مفهوم الشيوعية كأيديولوجيا. فأين نحن في ذلك الزمان من فهم المعارضة كطبيعة أشياء لولاها لما وُجدت الأشياء ولما وُجد الوجود؟ ولا أحسب أننا يجب أن نقرأ هيغل أو هيراقليط من قبله كي نعلم أن عراكَ الأضداد شرطُ الحياة الدنيا حتّى من منظورٍ ديني، فكيف إذا تأمّلناه من منظورٍ طبيعي؟

أفلا يبدو التسامحُ مع إبليس في سيرة الكتب السماوية قبولاً صريحاً بمبدأ الضدّيّة وتشريعٌ للتعارض جوهري؟ ألا نجد جذوراً أبعد لهذه القناعة في الديانات الطبيعية أيضاً إلى جانب الديانات

التوحيدية (السماوية)؟ ألا تقوم ديانة بذْئية كالزرادشتية على مبدأ الإزدواج في ثنائية الخير والشرّ؟ ألا تتغنّى متونُ الحكيم «آنهي» بصراع الشقيقين المتعاديين (شث وأوزوريس) كتعبيرٍ مجازي لاختزال سيرة الضدّين الخالدة؟ وما هو مبدأ الـ«إنْ» في مقابل قرينة المضادّ الـ«آنْ» في الديانة الثاوية إن لم يكن التأكيد على وحدة النقائض كشرطٍ لانوجاد الوجود؟ ألا تنسحبُ وصيّة فولتير الجارية على كل لسان والقائلة بوجوب اختلاق الإنسان لله في حال عدم وجود الله على النقيض أيضاً فنقول (استنتاجاً لكلّ ما قيل) بوجوب اختلاق إبليس في حال عدم وجود إبليس؟ أليس حضورُ الآخر في هذه الحال شرط أول لوجود شريكه الأول، بحيث يصبح الاعتراف بِحُجّة الآخر (التي هي رأي الآخر) اعترافاً بهويته كشريكٍ في صفقة الوجود، لا النظر إليه كدخيل؟

المريب حقّاً بعد كل هذه السنين المتوّجة بكل هذه المعارف أن يقوم نظام سياسي يُدين بالجدل (الديالكتيك) كالنظام الشيوعي بنفي المعارضة نفياً قاطعاً مدّعياً احتكار الحقيقة (التي لم توجد يوماً خارج نطاق الجدل)، ثمّ يستنكرُ بعد هذا أن يتعرّض لزلزلة عاتية كتلك التي تعرّض لها كيان الفردوس الموعود في بدايات التسعينيات!

لقد احتفرت الشيوعيةُ لنفسها مثواها الأخير بيدها لا بيد غيرها. والأدهى من ذلك ألاّ تستوعب أنظمة أقل كفاءة وأضعف

شأناً هذا الدرس الدّال فنراها تواصل خداع الذّات إلى يومنا هذا ممنّية نفسها بالقدرة على التحليق عالياً بجناحٍ واحد، في سماء لا يشاركها فيها أحد!

أمّا في عالمنا الذي دأب على استنساخ المفاهيم إلى جانب استنساخ كل شيء آخر فقد أقام مسوخاً لأنظمة مغتربة عن حقيقة الاختلاف بسبب الخطأ في فهم الماهيّة في الأصل: الخطأ في فهم المفهوم. ذلك أن تهمةَ الشيوعية التي يروق أنظمتنا أن ترجم بها أهل الإختلاف لمجرّد اعتناقهم للفكر الماركسي سوف تفقدُ مبرّرها السياسي ما أن نعلمَ حقيقةَ الشيوعية التي لم تكن في يومٍ من الأيام مجرّد قناعة فكرية، ولكنها تشترطُ الإنضمام إلى محفل سياسي. أي تنظيم يدينِ بالأيديولوجيا الماركسية. أي عضوية في حزب سياسي زائد فكر مارَكسي. وهو ما يعني لا وجود لشيوعية بدون حزب، كما لا وجود لحزبٍ شيوعي بدون عقيدة ماركسية. وهو ما لم نفهمه في ثقافتنا السياسية، أو فهمته أنظمتنا، ولكنها تجاهلته لأن الغاية مَن التهم لم تكن اكتشاف الحقيقة، ولكن الغاية دائماً هي البحث عن ذرائع لنفي مبدأ المعارضة من الوجود. البحث في ذرائع للتخلّص من الشريك في صفقة الوجود. إنه التجديفُ ضدّ طبيعة الأشياء الذي لا بدّ أن يجلب في النهاية أكثر النتائج تراجيدية.

ولكن هذا ليس كل شيء في مهزلة الأيديولوجيات. فالشيوعية

التي اعتاد مريدوها أن يستخدموها ذريعةً لتسميم حياة الخصوم (كأنهم يحاكون أنظمة يدّعون معاداتها) لا وجود لها في الواقع، ولكن في خيال من ابتكرها وحده! كيف؟ لأنها أيضاً مثال يسعى للتحوّل واقعاً مثلها في ذلك مثل المثل الدينية التي تجاهر لها بالعداء. أقول أنها تسعى للتحوّل واقعاً رهيناً بشرط يبدو تعجيزياً لسبب بسيط وهو: **زوال الدولة**. وزوال الدولة صار تعجيزياً بسبب وجود بعبع الدولة المعادية المتمثّلة في الدولة الرأسمالية. وكان منظّرو الأيديولوجيا السوفييتية لا يجدون حَرَجاً في أن يدعوا مواطنيهم بالتحلّي بالصبر إلى حين زوال الخصم من الوجود لتحقيق الحلم في إقامة النظام الشيوعي المأمول. وأذكر تصريحاً لبوريس يلتسن في معركته الإنتخابية ضدّ بقايا الحزب الشيوعي بعد الإنهيار يقول فيه أن **على الشيوعيين أن يكفّوا عن إطعام الناس بالأوهام!** وأعتقد أن هذه العبارة قد لخّصت حقيقة هذه الخدعة الدموية التي سمّمت العقول ودفعت البشرية مقابلها ثمناً فادحاً، سيّما عندما ترد على لسان أحد فرسانها الذين لن يكونوا لينشقّوا عنها لو لم يدركوا إفلاسها.

كان من الطبيعي، إذاً، أن تؤدّي روحُ الإستنساخ في ثقافتنا إلى تحريف المقولة الديبورفوارية لينتهي إلى نتائج أخلاقية إلى جانب نتائجه الأيديولوجية ليبرهنَ من جديد على عصبيّتنا وعمائنا وعدم قدرتنا على التسامح لا في العلاقة المفترضة مع الآخر وحسب،

ولكن في العلاقة مع الخلّ الذي ينعته أفلاطون في إحدى وصاياه بـ«**الأنا الثانية**» أيضاً. وها هو الإختلاف في الرأي يتسلّل إلى العلاقة الشخصية خلسةً ليفسدَ رباطاً قدسياً كالصداقة فيدبّر القطيعة مع أناسٍ حسبتهم خلّاناً، بل ويلعب دور البطولة في تحويل الصداقة إلى عداوة في حالاتٍ أخرى معوّلين في هذا الفعل على وهمٍ لا يعترفُ بوجوده حتى أربابه الذين اختلقوه. وكان من الموجع أن يلعب عبد الرحمن الشريف دورَ البطولة في المهزلة الأولى، كما كان أكثر وَجَعَاً أن يلعب جيلي عبد الرحمن دور البطولة في المهزلة الثانية، ليبرهنا معاً إلى أي درجة بلغ الضلال الأيديولوجي، والإستهانة بكل ما عداها، في حياتنا الدنيوية التي لم تكن بالسّجية معنيّةً بهذه البدعة، لأنها التضحية البلهاء بالقيمة الألوهية فينا مقابل عبادة الصنم الذي لاشأن لنا به! إنها التضحيةُ بالروح التي يقول القدّيس بأنها تحيي، في مقابل عبادة الحرف الذي يقول أنه يميت!

ولم أكن لأضطرّ لسرد سيرة إنسانٍ كان في حياتي عابراً لو لم يكن النموذج الذي يمثّل الجنون بالأيديولوجيا كنزعة أقلّ ما يمكن أن يُقال عنها أنها كانت دين ذلك العصر. ففي طرابلس لم ألتقه إلا مرةً واحدة عندما قدّمه لي صادق مرغم أثناء زيارته للعاصمة إبّان العطلة الشتوية بداية عام 1970م إن لم تخذلني الذاكرة. لقاءٌ فهمت منه أنه لعب دوراً في تسيير منحة صادق وهو الذي سبقنا

إلى هناك بسنتين لدراسة موضة تلك الأيام التي استهوت الكلّ فالتحق بها ثلاثة أرباع الطلبة الليبيين وغير الليبيين وهي بدعة «القانون الدولي» في زمن الحرب الباردة الذي يسخرُ من القوانين الدولية ولا يعترفُ بوجود قانونٍ كهذا بطبيعة الحرب التي هي حربٌ كونية غير معلنة برغم وصفها بالباردة. وكان على هؤلاء البؤساء أن يكتشفوا الحقيقةَ عقب تخرّجهم مباشرةً عندما وجدوا أنفسهم يضطّرون للعمل في مهنٍ لا علاقة لها بالتخصص الذي نذروا له اغترابهم.

لا أعرف الصورة التي نقلها له الصادق عنّي، ولكني لا أشكّ اليوم بأنّها صورة إيجابيّة بمفهوم تلك الأيام مشفوعةً بصفة سحرية هي «التقدّمية» بدليل أن الرجل عاملني تالياً كما يليق، أي كـ«رفيق»! ولكن ليس مُستبعداً أن أكون قد خيّبتُ ظنّه بي منذ الأيام الأولى لعزوفي عن حضور الندوات الحزبية للشبيبة الشيوعيّة السوفييتّية بالجامعة وخارج الجامعة، وزهدي في المشاركة بالمؤتمرات الطلاّبية العربية المطبوعة بروح الأحزاب الشيوعيّة العربية، أو عدم اكتراثي باجتماعات زعماء الأجزاب الشيوعية العالمية، بما في ذلك العربية، مع الطلبة لا لتلقينهم الشعارات الأيديولوجية عن آخر إنجازات الأممية الدولية وحسب، ولكن لاطّلاعهم على آخر مستجدّات الساحة العالمية من وجهة نظر شيوعيّة! وهي «حماقات» من جانبي كانت كافية لجرح كبرياء

الرجل الأيديولوجيّة، وإثارة شكوكه، فما كان منه إلاّ أن لمّح لي مراراً، وعندما لم استجِب عاملني كما يجب أن يُعامل أمثاله أمثالي؛ أي كـ«مرتدّ» أو، إذا استخدمنا المصطلح السياسي الشائع، كـ«منشقّ»!

وهي تهمة شنيعة في تلك الأزمان، لأنّها لاتضع الموصوف بها في القائمة السوداء على المستوى الشخصي فقط، ولكنّها تسود في الأوساط الطلاّبية كحكمٍ نافذ المفعول. حكم بالإعدام ينتظر التنفيذ حال الإعتراف الرسمي به من قِبَل السلطات. سلطات الجامعة بوصفها الصورة المصغّرة للسلطات الحزبيّة السوفييتية العليا. ولكن سلطات الجامعة لاتُصادق عادةً على مثل هذه الأحكام ما لم تتوَّج بالتهمة الأسوأ من تهمة الإنشقاق وهي تهمة معاداة النظام السوفييتّي، لا الشيوعي. وهي التهمة الوحيدة التي قضت العدالة السوفييتية بعدم اعتمادها في حقّ الأجنبي إلاّ ممهورةً بإمضاء قُضاة الخفاء الأقوى سلطاناً من قضاة المحاكم وهم: عملاء لجنة أمن الدولة السرّيين؛ أي عملاء تلك المنظّمة الخفيّة والوحيدة في سلّم هذا النظام الرهيب التي لم تمتلك الحقّ في أن تُحيي إلاّ إذا شاءت أن تحيي مَنْ شاءت إذا شاءت، لأنها روح الدولة، وما الآلة الهائلة التي تسيّر ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة سوى مجرّد جسد محكوم بإرادتها هي لا سواها. إنها المنظمة الموسومة بثالوث الأحرف التي تهتزّ لسماعها أركان الدنيا، وتزرع الفزع في

قلوب جبابرة عالم ذلك الزمان بما في ذلك رئيس الخصم الأكبر المتمثّل في أمريكا، بسبب قدرتها التي برهنت عليها مراراً، في تصفية أعداء الخارج بالقدرة ذاتها التي تصفّي فيها الحساب مع أعداء الداخل! إنّها الـ«كي. جي. بي»!

وعلينا أن نتخيّل كم كان البلهاء الذين يظنّون أنّهم يستطيعون أن يخدعوا تنظيماً أعجز دهاة الدهاء في الدنيا بشائعة، أو اكذوبة، أو دسيسة حقديّة من إنسانٍ نكرة ضدّ نكرة أخرى، فتتّخذ موقفاً متطرّفاً كالطرد من أراضي الإتحاد السوفييتي وهي التي تتصرّف بوحي علماء كل العلوم فتدرك روح النميمة التي يتميّز بها هذا الشعب أو ذاك، وتدري عن الأمم أكثر ممّا تدري الأمم عن نفسها، وتخبر الطبيعة الإنسانية المهووسة بالكيد بسببٍ وبلا سبب أكثر ممّا يتخيّل بلهاء الدنيا قاطبةً، فبأيِّ حيلةٍ يُراد لها أن تكون أُلعوبةً من ألعاب الصغار إذا كان العالم كلّه ماهو إلاّ دمية في يدها؟

وهكذا تشاء عدالة الّأعدالة أن تكون خصماً لضعاف النفوس الذين لا يجدون حَرجاً في أن يدسّوا لذوي القربى سوءًا لمجرّد خلاف في الرأي هو من طبيعة الأشياء على طريقة عبدالرحمن الشريف، أو يذهبوا شوطاً أبعد فيكافئوا خِلاًّ منحهم قلبه بالدسّ له لدى السلطات المعنيّة متّهماً إيّاه بالتهمة الأشنع في ناموس السوفييت وهي عداوة نظام السوفييت على طريقة جيلي

عبدالرحمن لمجرّد اعتذاره المهذّب عن التنازل عن روحٍ مجبولةٍ بضمير هما كل ما يملك مقابل اعتناق دينٍ دنيويٍّ لم يؤمن به يوماً، كأن الأيديولوجيا هي القياس، وليس النزاهة. كأنَّ الإنتماء العقائدي الذي يحوّل الوهم مثالاً معبوداً هو المعيار، وليس الحقيقة التي هي غاية كلّ نزيه، فكيف إذا كانت هذه النزاهة مشفوعةً بروحٍ تهدهد إبداعاً؟

ولهذا السبب كانت الطعنة التي تلقّيتها من إنسانٍ أحببته كإنسانٍ وشاعرٍ مثل جيلي عبدالرحمن أقوى مفعولاً في نفسي بالمقارنة مع جراح الأغيار أمثال الشريف الذي لم أعرفه بما يكفي لأنّني لم أستسغ خطابه منذ البدء بسبب فقر الخطاب الأيديولوجي بطبيعته من جانب، وجهله بأبجديّات هذا الخطاب من جانبٍ ثانٍ، في حين اختلف الأمر مع جيلي الذي عرفته بعد وصولي موسكو بقليل، وكان قد أنهى الدراسة بمعهد غوركي للآداب قبل إلتحاقي به بسنوات ليعمل محرّراً بجريدة «أنباء موسكو» الصادرة بالعربية آنذاك، فكنت أزوره بمقرّ الجريدة المجاور لمقرّ المعهد، ويبادلني الزيارة بمقرّ إقامتي لنتسامر بقوت الروح أكثر ممّا نتسلّى بتناول طعام الغداء أو العشاء، ففي بيته الأوّل الواقع في مواجهة مقرّ وزارة الخارجيّة بشارع «سمولينسكي» تعرّفت إلى إيغور يارماكوف المستشار باتحاد الكُتّاب السوفييت الذي صار تالياً مترجم أعمالي القصصيّة المبكّرة إلى اللغة الروسية. استمرّت علاقتي بجيلي لعدّة

أعوام إلى أن تدخّلت الأيديولوجيا البغيضة لا لتعكّر صفوها، ولكن لتضع لها حدّاً بالنسبة لي، وتحيلها بغضاً بالنسبة له بدون حجّة أخلاقية اللّهم إلا بمكيدة من مخلوقٍ خسّيس كان يعمل سكرتيراً بالسفارة الليبية وقتها ويدّعي الانتماء إلى نفس الأيديولوجيا، فإذا بجيلي يفاجئني في أحد الأيام باتصال هاتفي ليخاطبني بوجوب «**تحديد موقف**» كما عبّر حرفياً. وهي لهجة لم أكن لأتسامح معها لا بسبب اشمئزازي من هذه اللغة التي اتّخذها الجميع تقريباً آنذاك معبودةً بديلةً للمعبود، ورأوا فيها خلاصهم الوحيد، ولكن لأن الرجل تخطّى حدود الأدب بالمدلول الأخلاقي للكلمة قبل أن يتخطّى حدود كلمة «أدب» في مدلولها كإبداع. وكان لا بدّ أن أثأر لنداء الحقيقة الذي لم أهدهد في الوجدان سواه، فاستنكرتُ! استنكرت هذا التدخّل في شأنٍ له طبيعة قدسية كالإيمان، لأني سمعت بأذنيّ صوت الضمير وهو يتكلّم باستغاثة الروح، فقدح زند الذاكرة بنبوءة: تذكرت لحظتها سيرة رواها لي بنفسه في لحظة تجلٍّ، وكان يروقه أن يتندّر بها تقول أنه سكر مرّة في مأدبة حضرها كبار أساتذة المعهد فقرّر أن يتبسّط بوحي الخمر فخاطب الأستاذ الذائع الصيت (وهو كاتبٌ مرموقٌ أيضاً) باسم «فانيا» كتصغير منكر لإسم «إيفان»، وهو ما لا تبيحه التقاليد الروسية حتى بين أصدقاء رفعوا الكلفة بينهم، فكيف بغريب، وفوق ذلك تلميذ، في حضرة أستاذه؟ وكانت نتيجة هذه الوقاحة

أن تحوّلت نكتة يتندّر بها الأستاذة وغير الأستاذة لسنوات وذلك لنزع فتيل مفعولها فيما لو أُخذت مأخذ الجدّ. وهاهو الرجل يسمحُ لنفسه بأن يملي على شخصي تأدية صلاةٍ غير صلاتي، ويدعوني لربٍّ غير ربّي، ويحاول أن يرغمني على إيمانٍ غير إيماني.

لقد ذكّرتني طرفته مع أستاذه الروسي بمثلٍ ليبيٍّ راق شوبنهاور أن يتبنّاه في فلسفته فأورده مراراً يقول نصّه: «إذا ضحكتَ في وجه العبد فلا بد أن يكافئك بأن يستدير ليريك مؤخّرته!». وهو مثل سيبدو بذيئاً إن لم تشفع له دلالته كوصيّة تستنكر تعرية الروح أن يعرّي الرجل روحاً في حضرة مَن لم يؤتَ استحقاقاً، لأنه فعل يفوق قيام المرأة بتعرية جسد! بلى. تعرية الروح هي نقطة ضعف البسطاء، لأن الناس يرونها شطحةً من شطحات الغباء، بدل أن يقرأوا فيها بساطة كانت في كل الثقافات قريناً للربوبية. فأين روحُ الشاعر في الشاعر؟ الواقع أن ما تبقّى من هذه الروح تبدّد أيضاً يوم لقّن زوجته بالوصية التي تروّج لعدائي للسلطة السوفييتية. وهو فعلٌ تبدَّى لي أكثر سذاجةً من إنسانٍ مثله يدري جيداً (أو يجب أن يدري) موقف السوفييت من النمائم لعلمه بفلسفتهم من وراء سَنّ تقليد المنح الدراسية التي أقرّها نظامٌ يدري ما يفعل؛ أي أنها سياسة تمّ إقرارها لتأدية رسالة ثقافية أبعد نفعاً من الأيديولوجيا، وأقوى مفعولاً لا يستطيعُ أحد أن ينكر كيف أفاد منها عالمنا

الثالث بالذّات. وهي لهذا السبب ليست خطّةً خاضعةً لمزاج فرد أو مؤسسات حتى يمكن العبث بها استجابةً لأهواء أو تلبيةً لمكائد تنسج بعقلية الأجهزة الأمنية كما في بلداننا، وهو ما فَوَّتَ الفرصةَ على فلاح مثل هذه الأساليب! فكيف السبيل لردع الروح العبودية المنتجة لمثل هذه التدابير الكيدية؟ السبيل الوحيد هو: التخلّي! التخلّي، كما اكتشفتُ تالياً، أصلح ترياق لمداواة مثل هذه الجراح. أمّا قطع دابر علَّة الجراح، ففي النسيان!

كم يبدو محزناً تضعضع علاقة حميميّة بين إنسانٍ وإنسان؛ فإذا كان هذا التدهورُ للعلاقة يحدث بين رجل وامرأة فإنه سيبدو وجودياً أهون في تراجيديته فيما لو كان بين رجلٍ ورجل، أي بين خلٍّ وخلّ. ذلك أن هذا الخلل يحدثُ بين الرجل والمرأة بسبب طبيعة العلاقة بين هذين (هذه العلاقة المعقّدة بسبب دخول مبدأ الملكيّة طرفاً سلبياً فيها ينتج تلقائياً كإفرازٍ لحبٍّ يعادي الحرية بالسليقة)، أمّا بالنسبة للعلاقة بين خلّين فالتجربة معصومة من هذا البعد الوجودي، ولكنها تخضعُ بالأزمة إلى سببٍ دنيوي عادةً، فإذا أُصيبت بمسّ بفعل خارج نطاق النظام الأخلاقي، أي النظام الأيديولوجي بصفته **اللاأخلاقية**، فإن الدراما هنا تبلغُ ذروتها. هنا، فقط، تصيرُ القطيعة بين الخلّ والخلّ مهينة، بل مجبولة بالعار لكلا الطرفين بقطع النظر عن التفاصيل. وكان على شخصي أن يحيا صدمات كثيرة من خلّان كثيرين كي يستوعب الدرس

ويفلح في تأويل لغزٍ معقّد كالعلاقة الإنسانية، سيّما علاقة الصديق مع الصديق. ولو فكّر أيّ منّا في الجهد الذي نبذله، وفي الوقت الذي نهدره، والثمن الفادح الذي ندفعه، كي نبني علاقة صداقة حقيقية، لأدركنا الحمق الذي نرتكبه عندما نمحو هذا الكيان الجسيم بجرّة قلم!

فالحبّ بين الرجل والمرأة يكتسبُ الطبيعةَ التراجيدية تلبيةً لنداء رسالة وجودية مفروضة بسلطة الطبيعة التي تحتّم حضورها في قمقم يشهد صراع ضدّين ينفي كل طرف فيه الطرف الآخر لغاية إيجاد طرف ثالث يحويهما كليهما، بعد أن ينفيهما كليهما، مستجيباً لمشيئة الطبيعة المعنيّة باستمرار النوع، لا بسعادة النوع!

ولكن العلاقة بين الأخلّة تستثني من معجمها وجود العاطفة الفانية الضرورية لتأدية الوظيفة الطبيعية، لتنصّب مكانها إرادة. إرادة ممهورة بأختام نزعة عقلية قادرة على تحقيق الأعجوبة: أعجوبة تحويل الصديق إلى مرآتنا في رصيد ذكرياتنا، لا كاجترارٍ لحياةٍ زائلة، ولكن كبرهانٍ على تعطيل فرار الزمن. أي الإحتيال لتحقيق جنس من خلود نجد فيه سعادتنا. وهي سعادة لا تخلو من قسوة كسعادة كل حكيم، ولكنّنا بها نستعيدُ ذاتنا الثانية (التي يتحدّث عنها أفلاطون)؛ نستعيدُ ذات بُعْدنا المفقود!

فماذا يعني فقدان الخلّ إذا استنرنا بهذا التحليل؟

فَقْد الخلّ هنا لن يعني سوى استقطاع فلذة من حياتنا الوحيدة

التي نملكها والتي لا تتجزّأ وتقديمها طعاماً لنار الفناء! لأن العلاقةَ من هذا الضرب تجربة. والتجربة اليوميّة اختزال للتجربة الدنيوية إجمالاً، أي أنها نموذجٌ مصغّرٌ من حياة. والخلّ الحقّ فيها روح مجبولة بالحياة ما ظلّ حاملها على قيد الحياة، فإن صار في عداد الأموات لفظت الحياة (أو هذا الشطر النفيس من الحياة المعادل لكل الحياة) أنفاس نزعٍ أخير. وغياب حامل هذا الكنز من أفق الدنيا بالنسبة للصديق غياب مطلق لأن الطرف المفقود يأخذ معه في رحلة الفقد هذه نصيباً لا يعود من حياةٍ لا تُستعاد بالطبيعة، ولا يبقى لمن فقد إلاّ أن يرتدي البُلُس ويمارس طقوسَ الحداد!

فلنتخيَّل مدى قبح قطيعة كهذه عندما يكون حطام الدنيا سبباً في وقوع مثل هذه البليّة، أو أن يكون السبب وهماً مدموغاً بالآثام كالأيديولوجيا.

بلى! العار هو أن نسلّم مقاليدَ الأمر لسلطانة الخطايا فنسمح لها بالتدخّل في كل شيء لتفسد حتى علاقة مجبولة بالقداسة كالصداقة. ولكن العقيدة السياسية العمياء كان لها السيادة المطلقة على عقول ذلك الزمان. وقد حصدت بمنجلها المميت جلّ من عرفت لم يكن جيلي أوّلهم، ولم يكن آخرهم؛ برغم أنّه مَثَّلَ نموذج الضحيّة الجديرة بالأسف لسببٍ بسيط وهو تحلّيه بالصدق إذا قورن بآخرين لم يروا في انتماءاتهم الأيديولوجية سوى صفقة نفعية كالمنتمين للأحزاب الشيوعية، أو المتعاطفين معها أو الدائرين في فلكها تمشّياً مع نزعة الأوساط الثقافية في تلك الأيام.

وجيلي انتمى إلى جيلٍ سبق جيلي بما يزيد على العقدين من الزمان. درس في مصر قبل أن يلتحقَ بمعهد غوركي للآداب في بداية الستينات بدعم من الحزب الشيوعي السوداني. أصدر حتّى تاريخ تعرّفي به ديواناً واحداً هو: «الجواد والسيف المكسور» الذي اعتاد أن يرتجلَ لنا منه أشعاره في جلسات التجلّي. كما كان يقرأ لنا مرثيّاته تالياً في عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني الذي أعدمه النميري عام 1971م إثر محاولة هاشم العطا الإنقلابية الفاشلة. ولست أبيحُ لنفسي تقييم تجربة الرجل الشعرية، ولكن تشبّع أشعاره بالروح الوجدانية يمكن أن تلعب دور صكّ الغفران الذي يبرّئ ساحةَ الشاعر الموسومة باللّوثة الأيديولوجية. أقول لوثة الأيديولوجيا لا نزعة الخلاف الذي تناولناه سالفاً ولا يضير أن نضيف في شأنه ملاحظة. فالتاريخ عرف منذ القدم جنسين اثنين من اختلاف يروقنا أن نسمّيه اليوم بلغة الحداثة معارضة: خلاف وقتي، وآخر أبديّ؛ أو معارضة موقوتة لأنها محكومة بموقف من هذا النظام أو ذاك. ومعارضة مؤبّدة لأنها محكومة بالموقف من كل الأنظمة لا بوصفها منظومة منتظمة في سياق سياسي لا أخلاقي وحسب، ولكن الأنظمة ككيان لم يكن ليوجد لولا طبيعته كجهاز ردع، أي القمع. وهو لهذا السبب بالذّات سلطة!

وأحسب أن الوقوفَ على الطرف الآخر المناوئ من هذا

الجهاز هو موقف مبدئي لكل إنسان نزيه، فكيف إذا كان هذا الإنسان مبدعاً؟ وكون هذا الموقف مبدئيّاً يهبه شرعية أخلاقية. والشرعية الأخلاية تحوّله هنا واجباً. والواجب يحيله بسلطان القداسة رسالةً. رسالة مجبولة بروح القداسة كأي رسالة. والوقوف موقف نقدي من السلطة (أيّ سلطة دنيوية) يستدعي في مبدئيّته الأخلاقية إيماناً عميقاً بوجوب رفضها بوصفها استعارة منكرة غايتها الإستيلاء على سلطات الربّ وتنصيب نفسها في الأرض بديلاً لربّ السماوات والأرض. أي معاملتها كخطيئة لا تختلفُ عن الخطيئة الأولى. هذا الموقف وحده مؤهّل لأن يربّي فينا روحَ الزهد في السلطة بدل أن يحيى فينا إغواء السلطة. يميت فينا حبّ السلطة (بالمفهوم النيتشوي) بدل الهوس بالسلطة الذي لن يعني سوى الهوس بالخطيئة. لأن ليس عسيراً على من أحبَّ العدالة أن يكتشف أن السلطةَ ليست عاجزةً عن تحقيق هذا الحلم وحسب، ولكنّها معادية بالطبيعة للعدالة. فكم كنت سأتسامح مع كل من عرفت من هواة الترنّم بأنغام الأيديولوجيا فيما لو تحلّوا بروح الموقف الأبدي من السلطة كما أوّلناه بدل موقف من يعادي سلطة قائمة متمثّلة في نظام سياسي ليستولي على السلطة. لينال السلطة، لأنه يرى نفسه أحقّ بهذه السلطة، وأنه هو لا سواه البديل الأنسب لهذه السلطة. وهي نزعة مخزية لا تُفقد الصفوة مبرّر الإختلاف وحسب، ولكنها تُبطل مفعولَ حججهم الأخلاقية، بل وتجرّدهم من النزاهة أيضاً، لتقلب عقيدتهم أكثر دوغمائيةً،

وخطابهم أكثر ديماغوجيةً. وهو حال أغلبيّة فرسان ثقافتنا البائسة، حيث يتبارى الكلّ تقريباً بالتستّر وراء الرغبة في التغيير طلباً للسلطة ناسين أن التغييرَ ليس أن نغيّر، ولكن التغييرَ أن نتغيّر، بدليل أنّنا لا نتغيّر حقاً عندما نغيّر العالم، ولكنّنا نغيّر العالم عندما نتغيّر. وهو ما يعني أن حضورَ العالم فينا أقوى من حضورنا في العالم. العالم لنا ظلّ، نحن له روح. ولكن الوصول إلى هذا اليقين يستدعي طلب **الحقيقة**، لا طلب السلطة!

الموقف الحقيقي، إذاً، هو الموقف من الحقيقة، لا الموقف الذي استهوى الكلّ، وهو الموقف من السلطة الذي لن يعدو أن يكون طمعاً في نيل السلطة فيما إذا ترجمناه من لغة الخطاب السياسي المبتذل ونقلناه إلى لغة الحقيقة. هذه الحقيقة التي استودعها المجهول في وجداني منذ سنّ مبكّرة (ربّما منذ تجربة التّيه) لتصير لي وسوسةً أقوى من كل حلم، بحيث يبدو الموقف من أشباح هذا العالم (الذي تروّج له صفوة الجيل أمثال جيلي) لا استخفافاً بضمير من لم يؤمن بغير الحرية ديناً وحسب، ولكنه إهانة لهذا الضمير، بل الإستفزاز له!

فإذا سمحنا لأنفسنا باحتراف المواقف السياسية فلن نلومَ الساسة إذا احترفوا الأدب! وهو الوجه الآخر لإقحام هذه السياسة في رحاب الأدب. هذا الإقحام الذي سخر منه ستاندال عندما قرنه بإطلاق عيارٍ ناريّ في ذروة المعزوفة السيمفونية. وعلينا أن نتخيّل النشاز الذي سينتج عن عملٍ همجيٍّ كهذا!

ففي عالمنا الذي تغترب فيه المفاهيمُ الكلاسيكية لا نستحي من ممارسة العبث بقوانين الأدب ظنّاً منّا أننا نمارس التجديد، أو ما اعتدنا في الآونة الأخيرة أن نطلق عليه اسم: **الحداثة!** فرسالة الأدب منذ البدء تكمن في حبك **الأسطورة** كما يعلّم أرسطو. وهو قانونٌ ما زال سارياً لطبيعته الصالحة لكل زمان ومكان، لأنّه قانونٌ مستعارٌ من روح الأدب وليس تنظيراً مفروضاً على الأدب من خارج. وهو ساحة فسيحة تتّسع لهوميروس كما تحتمل سرفانتس، كما تستوعب بلزاك أو دوستويفسكي أو فوكنر. وهي أسطرة طيّعة ومرنة وثرية لأن التجربة برهنت على عبقريّتها في التعبير عن واقعٍ يتحوّل بين يدي المبدع الحقيقي أسطورةً على طريقة كافكا أو ماركيز، كما دلّلت على موهبتها في تبنّي أسطورة شائعة جرت على السنة العامّة في مرحلةٍ مّا واستزراعها في واقعٍ معاصر على طريقة توماس مانّ. لا يفوتني هنا أن أعبّر عن دهشتي يوم اعترف لي صديقي الراحل صادق النيهوم أثناء إحدى زياراتي له في جنيف في منتصف الثمانينات قائلاً أن غايته من كتابة الأدب كانت بالأساس سعياً لنيل السلطة؛ نيل السلطة بالمفهوم الحرفي (السياسي) لا المفهوم الوجودي، كل ما هنالك أنه ذهب في طلبها بأبعد سبيل فسبقه إليها العسكر من أقصر سبيل!

عقدت الدهشة يومئذٍ لساني إلى حدٍّ أعجزني بأن أقول له ما يجب أن يقال في موقفٍ كهذا: عجزت أن أقول له أن سلطة

الأدب أنبل من سلطة السياسة، بل وأقوى من كلّ سلطة، لأنها سلطةُ الحقيقة في مقابل سلطة الخطيئة. سلطة الأبدية بالمقارنة مع السلطة الوهمية. ولذلك هي أبْقَى ومريدها بالخلود أحقّ، لأنها القربان الذي يقدّم فيه المبدع نفسه في تجربة الحضور في مواجهة الربّ. لأن بقاءنا بعد زوالنا (الخلود) رهينٌ بعظمة القرابين التي نسفحها في دنيانا. والدليل؟ الدليل اليوم هو صادق نفسه: لقد ذهب العسكر، وزال كل مهووس بهذه اللعنة، وبقي صادق حيّاً في «سبع قصص للأطفال»، وفي «الحيوانات» وفي كل متنٍ سطّره بنزيف الروح الأنقى من كل نزيف!

فإذا كان صادق، المعصوم الأول من وباء الإنتماء الأيديولوجي، والمريد الأكبر للتسامح، كان يبيّت نيّة سياسية خفيّة من وراء هوسه بفكرة «الجامع» وهو الذي امتلك سلطة موهبة أدبية ثرية أصلح أن تكون بديلاً فيما لو أحسن استعمالها؛ فكيف سيبدو الأمر مع نخبة ثقافية لم تدخل حرم الأدب أساساً إلاّ من باب الأيديولوجيا لتجد نفسها في واقعٍ لا يتنفّس سوى أهوية ملوّثة بوباءٍ لم يكن ليعمّ على هذا النحو الدراميّ لو لم تهيِّئ له الأجواء نزعة تسييس الوجود المنبثقة بدورها من الإحساس ببَعثٍ تحقّق بفضل التحرّر الوطني؟

12
الخلاص

الثلج!

الثلج كفنُ الصيفِ، ولكنه لقرينه الشتاء شيبٌ!

الثلج ببياضه نورٌ في العين، ولكنه في القلب سواد!

الثلج من وجهة نظر النَّظَر، حُسْنٌ ؛ ولكنه برؤيا الروح غمّ!

الثلج كفن الطبيعة الذي يحوّل الدنيا بياضاً، والحياة حداداً.

الثلج طاغية الفصول الذي أوتي القدرة على أن يغتصبَ من الخريف دفئه، ومن الربيع زهره، ومن الصيف شمسه، ليحكم على الشمال سطوة المأتم!

ثلج الشمال ليس مأتماً للجسد وحده، ولكنه مأتم الروح أيضاً: ففي الوقت الذي يتولّى فيه مهمّة تغذية المستشفيات بأفواج الجرحى الذين صرعهم في الطرقات، يجد نفسه مخوّلاً بأداء رسالة أفظع وهي العمل حفّاراً لقبور أولئك الذين صرعهم بداء الكآبة، أو كما كان يطلقُ عليها القدماء: داء الماليخوليا. وأعتقد

أن من عايش هذه التجربة طويلاً وحده يملك الحق في أن يؤمن بالشمس معبوداً على طريقة الأوائل. ففي عالم الشمال فقط يموت الناس بالأمراض النفسية كالكآبة الناتجة عن الظروف البيئية القاسية بأعدادٍ تفوق ما تحصده الأوبئة أو الأمراض الأخرى مجتمعةً. كما تستقبل المستشفيات في بلدٍ كروسيا في موسم الشتاء الطويل مرضى أثخنهم الثلج بالجراح بأعدادٍ تفوق المرضى بأيّ سببٍ آخر. فالثلج لا يقنع بدوره ككفنٍ للطبيعة وحدها، ولكنه يتغلغل ليصير كفن الروح أيضاً!

بكفنٍ في الروح، وآخر في الطبيعة، كنتُ أتنقّل في غياهب ليلٍ موصولٍ على مدى عشرين ساعة، عبر شتاءٍ يهيمن تسعة أشهر، كأنّي أسعى لإضفاء الشرعية على اللقب الذي انتحلته لنفسي في «عدوس السُّرى»، في رحلة يومية بين بيت الطلبة في أطراف موسكو الجنوبية الغربية ومقرّ المدرسة الليلية التي التحقت بها أخيراً، والواقعة في طرف مجهول من المدينة يبعد ما لا يقلّ عن الثلاثين كيلومتراً. وهي رحلة أوليسيّة مصغّرة إذا قيست برحلتي الأوليسيّة الكبرى المنطلقة من قلب الصحراء الكبرى إلى مجاهل أرض الديلَم.

ولِمَ لا؟ ألسنا جميعاً في هذه الدنيا الشقيّ أوليس، وكلّنا يبحث في ليل هذا العالم عن جزيرته المفقودة؟ أليست روسيا أجدر الأوطان بحمل وزر لقب الفردوس المفقود بسبب البعد أولاً، وصحراء الجليد ثانياً، ودوام الليل ثالثاً؟

ولكن أي غاية طلبتها بانخراطي في رحلة أوليسيّة صغرى داخل الرحلة الأوليسيّة الكبرى؟

إنّها اللعنةُ القديمة! إنها الشهادة؟ ولكن أي شهادة؟ إنها الشهادة الثانوية هذه المرّة. الشهادة التي تؤهّلني لدخول حرم ذلك المعبد الذي حلمت بالصلاة في محرابه منذ زمن بعيد: معهد غوركي للأدب العالمي!

فما أن انتهت سنةُ العراك مع اللغة ومع بعض المواد الأخرى حتّى بدأت الحملة.

حملة السعي للإلتحاق بالمعهد التي لم أكن لأجهل تبعاتها بعد أن آمنت بنفسي كطريدٍ لرحمة الحظوظ التي لم تقدّم لي شيئاً على سبيل الهبة يوماً. لأنّ سليلَ العدم الذي وجد نفسه مهجوراً في صحراء لا حضور فيها لشيء أبداً باستثناء الروح، ليس له أن يعوّل في رحلة السُّرَى على وسيطٍ لقضاء حوائج دنياه سواء أكان أباً أو خلاًّ، أو وطناً، أو حزباً، أو نظاماً، أو أي قوة دنيوية. لمخلوقٍ كهذا لا وجود لنصير، ولا حضور في دنياه لمعين سوى: **الإيمان!** وقد دلّل على هوية الأقوى في كلّ مرة.

أوّل عقبة في المغامرة الجديدة هي واقعُ العقلية السوفييتية التي كان الروتين أهم خصائصها، وأكبر رذائلها أيضاً، لأن الروتين هنا ليس وليد النظام الإداري، ولكنّه وليدُ الإيمان الأعمى في بعده كنظام، من خلال تأويله في سياق أيديولوجية النظام السياسي

الذي لا يقدّس شيئاً كما يقدّس الحرف. إنه فلسفة يطيبُ لها أن تضحّي في كل خطوة بالمعنى في سبيل الحرف، بالمضمون في سبيل الشكل، بالإنسان في سبيل المقولة الأيديولوجية. وقد جرّب كلّ من عاش هناك (بل وعانى الأمرّين) أن القيامةَ تبدأ ساعة الإحتكاك بالمجتمع السوفييتي لأي سببٍ كان. فإذا كان مجرّد الإحتكاك علّةً للوقوع ضحية دوّامة كافكا، فأيُّ كابوسٍ يمكن أن ينتظر مَنْ قرّر أن يحرّك ساكناً؟ إنه تفنّنٌ عبقريٌّ في خلق كلّ ما من شأنه أن يحوّل حياة الإنسان جحيماً! بدأت الحملةُ بعمليات استقصاء، وجسّ نبض، ولكن الكلّ أجمع على استحالة الإلتحاق بهذا المعهد بالذّات دون سواه. والسبب؟ السبب الأول: طبيعته كمؤسسة تعليمية نموذجية. ما معنى نموذجية؟ نموذجية تعني أنها ليست مؤسسةً تقليديةً كبقية المعاهد السوفييتية العليا أو الجامعات، ولكنها مؤسسة صفوة. وأن تكونَ مؤسسة صفوة يعني أنها حكرٌ على فئة معيّنة لا يخضعُ القبول فيها للمعايير الدراسية المعتمدة لدى وزراة التعليم العالي برغم أن هذه الوزارة هي المخوّلة باستصدار قرار القبول من الناحية الشكلية، لا الفعلية. فماذا يمكن أن تعني هذه الأحجية في نظامٍ يتباهى بعبادة النظام؟ ولكن التجربةَ أثبتت أن البحثَ عن أصابعِ الحسّ الأمني الوثيق الصلة بالعقل الحزبي المدبّر هو كلمة السرّ في كل لغزٍ استعصى. والنموذجية هنا ناتجة عن هذه التبعيّة لسلطات أعلى من وزارة التعليم العالي وهي الحزب أوّلاً. وذلك لسببين اثنين: أوّلهما ذو

صلة بالمنهج، وثانيهما على علاقة مباشرة بالإمتيازات الحزبية في مجالٍ قادر على تربية الكوادر العلمية كالتعليم الذي قضى في هذه الحال باستقطاع نصيب الأسد من مقاعد هذا المعهد الدراسية لذريّة كهنة الحزب كحصّة مشروعة مثلها في ذلك مثل الإمتيازات الدنيوية التي يتمتّع بها قادةُ هذا الجهاز دون الأغيار. أمّا فيما يتعلّق بالمنهج فهنا تتدخّل الأجهزة الأمنية الحزبية لتفرضَ سلطتها بما يتناسبُ مع سياسة الدولة، أو بالأصح، بما يناسب سياسة أمن الدولة الثقافي. فما هو هذا الأمن الثقافي الذي تحرص الأجهزةُ الأمنيةُ على الإشراف عليه في معهدٍ يعنى بتدريس الآداب؟ الأمن الثقافي يكمن في خصوصيّة المنهج العلمي الذي يتيح للدارس أن يطّلع على الثقافة المعادية المبثوثة في آداب أوروبا البورجوازية سّيما الآداب المعاصرة المعبّرة عن تيارات تتعارضُ مع الفلسفة الماركسية برغم طبيعتها الأدبية كالوجودية مثلاً. وهي فرصة خطرة جدّاً لأنها تربّي في نفوس ضعاف النفوس من الأدباء الشباب روح المعارضة من خلال الإطّلاع الواسع على هذه النماذج المعادية فتكون الدولة كمن يقومُ بتأهيل العدوّ بالتدريب والتزويد بالعدّة اليوم، لكي يرفعَ السلاح في الوجه غداً. والحرص على الاختيار هنا لا يقتصرُ على أبناء الصّفوة السوفييتية، ولكن على المنح الممنوحة للطلبة الأجانب أيضاً خوفاً من استخدام الثّروة المعرفية ضد النظام السوفييتي عند فرارهم إلى الغرب وهو ما حدث بالفعل مراراً؛ ممّا يعني أن منظومة التدابير الاحترازية ذات طبيعة مزدوجة

ازدواجية السلطة المشرفة على مثل هذه المؤسسات العلمية (ما معهد الآداب سوى شقّها الثقافي، في حين توجد المعاهد المعنية بعلوم استراتيجية كالذّرّة على سبيل المثال): سلطة الحزب، وسلطة الأجهزة الأمنية. ولكن هذا كلّه لا يلغي السياسة العامة التي تستوجبُ ذرّ الرماد في العيون، أي الاحتيال على الواقع لئلاّ يتحوّل معهد آداب إلى صومعة مغلقة على نحو معلن. هذا استوجب نوعاً من مرونة يمكن أن تسمّى الاستثناء. وهو الاستثناء الذي قضى بقبول طالب واحد من العالم الثالث في كلّ سنتين اثنتين على أن يكون وقفاً على الأحزاب الشيوعية العالمية. أمّا المقاعدُ المخصّصة لأدباء الجمهوريات السوفييتية (بعد استقطاع حصص اللجنة المركزية) فتخضع لشروطٍ قاسية، لا في وجوب تقدّم الأديب بعمل أدبي منشور وحسب، ولكن في خوض امتحانات عسيرة يتسابقُ فيها عدد يصل إلى الخمسين أديباً للفوز بالكرسي الواحد! فماذا بوسع من عدم امتلاك كل هذه المؤهلات (إذا استثنينا النصوص) أن يفعل إزاء واقع كهذا؟

ولكن العدوسَ الذي لم يعرف سوى عبور الليل منذ تجربة التّيه الصحراوي الأوّل يملكُ تعويذةً سحريةً برهنت على فعاليّتها مراراً؛ يملك: **التحدّي**! هذا التحدّي الذي اكتشف تالياً أنه مفتاحُ سرّ إبداع الرواية أيضاً، وهو ما لم يكن ليخطر له على بال. عاند بوحي التحدّي وهو الذي لم يملك دعماً من حزب، ولا من

دولة، ففاز بالقبول المبدئي برغم العراقيل التعجيزية. شفعت له النصوصُ القصصية المنشورة بمختلف الصحف (التي صدرت تالياً في مجموعة «الصلاة في غير الأوقات الخمسة») إلى جانب المؤلَّفَين الصادرَين حتى ذلك الوقت وهما «ثورات الصحراء الكبرى» و«نقد الفكر الثوري»؛ ولكن شفاعة المتون فرحة لم تكتمل، لأنّ إجازة اللجنة بالقبول خطوة لا تكفي، كما لم تعفِ الحصانة المتمثّلة في هويّة الأجنبي برغم أنها تجير من أداء امتحانات القبول القاسية، لينتصب شرط جديد لم يكن في الحسبان يكاد يكتسب طبيعة تعجيزية لأنه يعيد الأمر إلى نقطة الصفر، وهو: الشهادة الثانوية! إنها اللعنة القديمة التي هجر بسببها التعليم المدرسي ليلتحق بالمدرسة الأقسى: مدرسة الحياة! فأيّ علاقة يمكن أن تقوم بين بدعة توثيقيّة كالشهادة وبين عمل تأمّلي كالإبداع؟ أليس الفرق بينهما كالفرق بين البدعة والإبداع؟ أليس القرار الذي يجيز مريد الإبداع بفضل نصّ الإبداع هو شهادة مبدعٍ ينوي دراسة قوانين الإبداع؟ أليس القبول، المستند على موهبة مبرهنةً بالنصّ، هو الإعتراف الرسمي والضمني بالكفاءة التي تؤهّل للمثول في حرم الأدب؟

لقد استمع إلى حجحجي الكاهن غالانوف نائب رئيس المعهد والرسول الذي انتدبته اللجنة المركزية ليكوّن لها خليفةً تعصم المعهد من الإنحراف الأيديولوجي. استمع بفضول قبل أن يوافقني

ذلك الحكيم قائلاً أن الشهادة هنا قرطاس هشّ لا يعني شيئاً، ولكنه برغم ذلك ضروريّ لاستكمال اللعبة! لقد استخدم مصطلحاً عدميّاً خطيراً في عرف الأيديولوجيا السوفييتية لأنه ينذر باعتناق أفكار تحريفيّة. وقد لاحظتُ فيما بعد كيف يروق أساتذة المعهد الذين لم يعدموا روح السخرية (أو فلنقل روح التمرّد) استعمال تعبير «اللعبة» كلّما عَنَّ لهم الاستخفاف بإحدى المقولات الدوغمائية. ويبدو أن البروفسور غالانوف لاحظ سيماء الحيرة في وجهي فأوضح قائلاً أن الشهادة في الواقع ليست شأناً مشترطاً من قبل المعهد، ولكنها مستند إداري ملزم بلوائح وزارة التعليم العالي المخوّلة باستصدار قرار القبول. فكيف السبيل لفكّ الطلسم الجديد؟

عبورُ المتاهة الأولى وصولاً إلى المتاهة الجديدة كلّفني زمناً طويلاً التهم نصيباً من السنة التحضيرية، وكلّ العطلة الصيفية، وها هي أوراق الأشجار تنزف مبشّرةً بحلول الخريف لأجد نفسي مضطرّاً للالتحاق بالسنة الأولى من كلية الآداب بالجامعة دون أن يعني هذا التسليم استسلاماً في مطاردة الحلم. في هذه الأثناء استشرتُ الزملاء من كلّ الأجناس فأجمعوا على استحالة اجتياز امتحانات الشهادة الثانوية السوفييتية بالنظر إلى استعصاء المناهج سيّما المواد العلمية. فما يندرج في مناهجنا التعليمية ذات الاثني عشر عاماً يبدو مضغوطاً ومبتسراً في مناهج النظام السوفييتي ذي

العشر سنوات فقط. وقد حدّثني بعض طلبة أمريكا اللاتينية عن زملاء لهم جاءوا ليلتحقوا بكليات علمية وواجهتهم عقبة مماثلة فحاولوا تأدية امتحانات تأهيلية لنيل الشهادة الثانوية، ولكنهم أخفقوا جميعاً فلم يبقَ لهم خيار غير الفرار إلى أوطانهم. وإذا حدث هذا مع مناهج دراسية مستعارة من التقاليد العلمية الأوروبية كمناهج بلدان أمريكا اللاتينية، فكيف سيكونُ الأمر مع مناهجنا الأكثر تخلّفاً سيّما إذا أضفنا إلى هذه النقيصة خللاً آخر تمثّل في نظام تنقسمُ فيه الشهادة الثانوية إلى أدبي وآخر علمي منذ السنة الثانية الثانوية؟ أليست هذه الظروف مجتمعةً إذا أُضيفت إلى ما سبق من عراقيل إنّما تجسّد هرم التعجيز الذي يسهم في النهاية في بناء كيان الاستحالة؟

ولكن أحلامنا هي أشراكنا، والتخلّي عنها يعني التخلّي عن أقدارنا. أقدارنا المخوّلة بأن تبقينا على قيد الحياة بإخفاقاتنا، في حال أعجزها أن تسمّم حياتنا بتحقيق أحلامنا. إنّها عدوّنا الذي يستدرجنا بالفردوس، ولكنه لا يخيّب ظنوننا قبل أن يعبر بنا نقيضَ الفردوس!

الفردوس! الفردوس دوماً! الفردوس لم يكفه أن يكون لعنة الأزل، ولكنه يبقى دوماً حنينَ الزمن، وحلم الأبد! فأين أنت أيها التحدّي الذي يبيد المحال ويستعيد الحلم من اغترابه في رحاب الفردوس الموعود الذي لم يكن يوماً سوى الحلم ذاته متنكّراً في

القناع لكي يؤكّد هيمنته على عالمنا الهشّ! ولكن ليس لعدوس السّرى أن يقنعَ بوعود الحلم حتى في حدودها القصوى لأنّ المحسوسَ وحده يعدو لاستكشاف آفاق ما وراء الآفاق حيث يسكنُ البُعد المفقود!

البعد المفقود كان معبودي، ولذلك وجدتُ نفسي أركب رأسي. ذهبت إلى وزارة التعليم العالي لأبدي استعدادي للإنخراط في مدرسة تؤهّلني لاجتياز امتحانات الشهادة المطلوبة، فلم أجد منهم سوى الاستجابة على عادة الروس الذين لا يكبرون شيئاً كما يكبرون إنساناً ظامئاً لمعرفة أو علم حتّى أنهم كثيراً ما يضحّون بصرامة بيروقراطيتهم لتيسير الأمر للمريد. وقد فعلوا هذه المرّة مرتين لا مرّة واحدة. كافأوني بتحديد المدرسة، ثمّ فاجأوني بإعفائي من تقديم امتحانات مواد العلوم الإنسانية واعتمادها في الشهادة بعد اكتشافهم لتقديمي لها في السنة التحضيرية بالجامعة بدرجة الإمتياز. ولكن لتنفيذ هذا القرار برزت عقبة جديدة: فالالتحاق بمدرسة نهارية بدا مستحيلاً، لأنه ينفي عملياً الالتزام بالدوام اليومي بكلية الآداب، وهي حماقة كفيلة بأن تُفقدني مبرّرَ الإقامة في الإتحاد السوفييتي فيما لو أخللت بشروطها. ولم يتمّ الإهتداء إلى مخرج إلاّ بعد كفاح آخر استنزف وقتاً بعد أن استقطع جهداً. فقد تقرّر الالتحاق بمدرسة نائية جداً، ذات نظام دراسي مسائي يُعنى بتأهيل الراغبين في مواصلة تعليمهم من قوى

الشعب العمّالية. وكان على شخصي أن يسافر يومياً لارتيادها عقب الخروج من الكلية مباشرةً، لأن المسافةَ إلى تلك الأنحاء تستغرقُ بمترو الأنفاق ما لا يقلّ عن الثلاث ساعات ذهاباً وإياباً. وهكذا وجدتُ نفسي في خريف ذلك العام (1971) أبرّر الاسم الذي أطلقته على شخصي في «عدوس السّرى» كعابر أبديّ لليلٍ أبديّ، لأني أذهب إلى الكلية بشارع «مكلوخامكلايا» تحت جنح ظلمة يوم خريفيّ يرفض أن يجود بكوكب ضيائه قبل حلول التاسعة، وأعود من الكلية تحت جنح الظلمات بعد الثالثة مساء، لأغادر إلى الثانوية النائية خوضاً في الغيهب ذهاباً وإياباً. وكان عليّ أن أواكب مسيرةَ المنهجين الاثنين في الفسحة الوحيدة المتاحة وهي مترو الأنفاق الذي صار لي فجأة بيتاً أوّل لا بيتاً ثانياً، لأن الوقتَ الذي أقضيه في رحابه هو الوقت المنتج الوحيد! إنها تجربة حاضرة الواحات ذاتها تتكرّر: السباق الجنوني وراء وثائق صارت للإنسانية منذ زمن بعيد البرهان على وجود الحقيقة كمنهج لتغييب حقيقة حاملها بدءاً من شهادة السيرة والسّلوك وانتهاءً بشهادة الوفاة. فالإنسانية لم تعد معنيّةً بحسن سيرة المخلوق التي تبرهنُ عليها سيرته الدنيوية اليومية المعروفة بين الناس، ولكن ما يهمّ هو القرطاس. هو الوثيقة الممهورة بختمٍ بليد من مخلوقٍ بليد. المهم هو الشهادة. الشهادة هي البرهان. هي الحقيقة، والإنسان هو البهتان. ولهذا السبب اغتربت

الفضيلة. كما اغتربت حقيقةُ الوجود ذاتها لأنّ النظامَ الإنساني لم يعد يعترفُ بالإنسان مهما دبّ على قدمين بدون قرطاس إثبات. كما لم يعد في نظره في عداد الأموات مهما شبع موتاً بدون مستند إداري. مستند رسمي من السلطات. أصبحت القراطيس هي البراهين الدّالة على حقيقة الوجود أو حقيقة العدم بدل أن يكون الوجود الحقيقي أو العدم الحقيق هما البرهان على الحضور أو على الغياب! وإذا كانت الحقيقة بجلالة قدرها تخضعُ لصنوف التنكيل على هذا النحو، فكيف لا تشهد المعرفةُ المصير نفسه؟ فالمهم ليس ما تعرف أيها الإنسان الشقيّ، ولكن الأهمّ ما يشهد به البلهاء بالإنابة عنك! ولهذا السبب سادت عبادة الوثائق. لهذا السبب صار الإنسان قرطاساً لا إنساناً. صار الإنسان أوراقاً منذ خرج من صحراء العالم ليستوطن أرضاً. لأن الملكيّة كخطيئة وليدة خطيئة الاستقرار في المكان. الوثائق ربّ إنسان الاستقرار في مقابل حرية إنسان العبور. في مقابل العُدُوس!

تذكّرت السنوات التي لا أجدُ فيها وقتاً لقراءة المنهجين بحاضرة الواحات، فكنت أضطرّ أن أقتات لسدّ الرمق والكتاب مفتوح في حجري. تذكّرتُ أيضاً العاصفة الرملية المحمّلة بحجارة الحصباء يوم حاصرتني عاصفة ثلجية جنونية عند خروجي من جوف مترو الأنفاق في طريقي إلى المدرسة. لقد أوسعتني صفعاً في درجة حرارة انخفضت عن العشرين درجة حتى ظننتُ أن

وجهي لم يعد جزءاً من جسدي. لقد فقدتُ الإحساس به، وعبثاً حاولت أن أستعيده من قبضة الجليد بغسله بالماء الساخن، وهو ما خلّف لي برداً سكن عظام الوجه (الجبين والوجنتين والصدغين) سكناً مزمناً كان له أسوأ الأثر على العينين اللتين تعرّضتا للتدخّل الجراحي مراراً.

وإذا كنتُ قد وجدتُ نفسي على مقاعد الكلية الصباحية أعاند المادّة الوحيدة التي تلعب دور القاسم المشترك بين الطبّ والأدب هي اللغة اللاتينية، فإني وجدتُ نفسي في الليل أجلس على مقاعد الثانوية السوفييتية لأتعلّم ما لم يخطر لي أن أتعلّمه يوماً وهو الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، لا باللغة الثانية بعد اللغة الأم، وإنما باللغة الروسية أيضاً. ولكن.. لِمَ لا؟ أليست هذه المواد علماً؟ أليس الإنسانُ جملة عناصر مركّبة من أخلاط الكيمياء وإرادة البيولوجيا ولغز الفيزياء؟ أليس الإنسان كائناً طبيعياً قبل أن يكون ثقافياً؟ أليست الطبيعة في الإنسان هي صاحبة الكلمة الأولى التي سبقت كلمة الروح في صفقة حضوره في رحاب الوجود؟ ألم تبرهن كتب الوحي أيضاً، قبل أن يبرهنَ العلم، على هذه الأسبقية عندما تحدّثت كيف أبدع الربّ الإنسان من طين قبل أن ينفخَ فيه من روحه؟ فلماذا قَضَتْ التقاليد إذاً أن يقتصر الشاعرُ على تعلّم الشعر، أو ما لاءم الشعر، دون العلوم الطبيعية؟

اليوم فقط أستطيع أن أعترف أنني لم أندم على خوض تلك

التجربة لأني تعلّمت منها أيضاً من حيث ظننت أنّي أهدر الوقتَ عبثاً. لم أتعلّم علماً وحسب، ولكنّي نلتُ وصيّةً ملهمةً تقول أن الأقدار لا تؤدّبنا بما نحبّ، ولكنها تقوّمنا بما يتبدّى في البداية شرّاً. إنها ترحمنا بالقصاص، وتهلكنا عندما تنيب في شأننا الحظوظ التي تبتسم لنا وتهشّ عنّا التجريب.

والأدب، إذا كان موضوعه الإنسان، يشترط الاعتناء بالطرف الدّال على حضور هذا الإنسان في صفقة وجوده على الأرض، وهو **الجسد**، قبل أن يولي كلّ الاهتمام إلى الشريك الغائب في هذا اللغز. ولا حيلة لفهم طبيعة هذا القمقم بدون فهم طبيعة العناصر الطبيعية المكوّنة له فهماً غيبيّاً، لأن البعدَ المفقود هوية أوجدها زواج الازدواج، وليس البعد الغيبي بمعزل عن البرزج الذي يلتئم في حدّه الضدّان الخالدن لكيانٍ اسمه الإنسان: بلى، الفيزياء هي الجانبُ الآخر من الميتافيزياء. وإذا كانت رسالة الأدب اهتماماً مشغولاً بالشقّ الأخير من الأحجية الخالدة في الأساس، فإن طبيعة الأشياء هي التي قضت بأن ينالَ شطرُ الأحجية المستظهر نصيبه من العناية أيضاً؛ بل استشراف الجانب المستتر رهين اكتشاف حقيقة البعد المستظهر في الصفقة. وكان عليّ أن أقنعَ نفسي مائة مرّة بحرف هذه المعادلة كي أخنق في طبعي اشمئزازاً فطرياً من كلّ ما مَتَّ بصلة إلى الجسد فناصبته العداء منذ الصّغر. فكان مرأى اللحم والشحم والدّم وإفرازات

البدن يصيبني بالغثيان ونوبات القيء. وكان من الطبيعي أن تؤدّي هذه الحساسية في النهاية إلى الامتناع عن تناول اللحوم واستبدالها بطعوم النّبوت. ولكن تشخيصَ العلاقة الحميمية بين الروح والجسد أفلح في تغذية القناعة الضرورية (أو فلنقل الفضول إذا استخدمنا مصطلحاً وجودياً) للفلاح في أي عمل. ففي فبراير من شتاء 1972م استطعتُ تقديم امتحانات الشقّ العلمي أيضاً بدرجة الحدّ الأدنى ليحقّق هذا الإنجاز، بجوار مواد العلوم الإنسانية المقدّمة في السنة التحضيرية بدرجة الامتياز، الحُجّة الأخيرة في سلّم الحكم: الشهادة. وثيقة المرور. صكّ البراءة. بل هويّة الروح فيا للسخرية!

وها هي الأقدار تسخرُ بالفعل. ها هي الأقدار تستهين بمجد الإنسان في بعده الثقافي، مقابل تسليم الإنسان في هويّته الطبيعية، فتدفع إلى السبيل بحجر عثرة آخر: صدر قرار وزير التعليم العالي بدخول حرم معهد الآداب، ولكن مدير عام جامعة الصداقة طعن في القرار عندما أُحيط علماً بهويّة المريد كحامل للقب كان مصطلحاً مهيباً في الأوساط الجامعية وهو: صاحب الامتياز. وهو المصطلح المترجم لإرادة هواة التفوّق في الفوز بالدرجات القصوى في كل المواد، فإذا أخفق أحدهم في نيل الدرجة القصوى في إحدى المواد أُصيب بإحباطٍ كثيراً ما أدّى إلى انهيارٍ عصبي! إنه حالة مرضية تسعى لإثبات الذّات أكثر ممّا تسعى لنيل

المعرفة. ولكنها الفئة التي لها الحظوة في الجامعات مع ذلك، ليقينٍ يرى في هذه الفئة مشروعاً لعلماء المستقبل. والعلماء هم المفخرةُ التي تتباهى بها الجامعات. فهل أَقْبَلُ بالذهاب ضحية المنافسات الغبيّة بين الجامعات؟

موقف الجامعة لم يزدني سوى الإصرار على موقفي. ذهبت لأبلغَ المشرف على الطلبة بأن قراري في الإنتقال نهائيّ حتّى لو اضطرّني الأمر إلى التخلّي عن الطرفين الجامعيَّين. كان ذلك المشرف أستاذاً متقاعداً وإنساناً نبيلاً حاول بإخلاص منذ وصولي لأوّل مرّة أن يخفّف من صدمات الواقع السوفييتي القاسي بكلّ حيلة على المغتربين أمثالي. وكنت أشفق عليه عندما أراه يعاندُ روتيناً مميتاً لا يملك لتغييره أو للحدّ من غلوائه وسيلةً. كنت أشفقُ على إشفاقه علينا، لأنه الضحيةَ الأكثر استحقاقاً للشفقة منّا. هذا الرجل هو الذي فهم عبثيّة الموقف لأنه الوحيد الذي عايش كفاحي منذ بدء الملحمة، وكان عليه أن يحمل صليبه في أحد الأيام ويسافر إلى مقرّ الجامعة الرئيسي في شارع «دنسكوي» لمقابلة الرئيس الذي كان دوماً بعبعاً مجهولاً، لم يعرفه أحد، ولم يره أحد، لا من الطلبة ولا من الأساتذة، كأنه عرّاب المافيا الأكبر، لتضفي عليه مسوح المجهول غموضاً أسطورياً مثيلاً لتلك القوة الخفيّة الغائبة شخصاً الحاضرة فعلاً المعبّر عنها في أعمال كافكا، سيّما «المحاكمة». من صومعة هذه القوّة الخفيّة عاد ذلك الرسول يومئذٍ بوثيقة الخلاص!

القسم الخامس

البُعْد المفقود

«بقدر ما نجدُ العزاء أحياناً في أن نفقد، بقدر ما نتفجَّع أحياناً بما ننال»

(شكسبير)

* * *

«مَنْ قام إليَّ لا إلى وِرْدٍ معلوم، ولا إلى جزءٍ مفهوم»

النّفّري،

(المخاطبات)

1
جنَّة من عدم

الزمن الضائع هاجسٌ رافقني مبكّراً؛ ربّما بسبب نزوحي إلى الواحات متأخّراً، وبداية التحصيل بعد سنّ العاشرة. ثمّ جاءت صدمة نظام الثلاث سنوات الغبيّ فَتَنَّتْ لتستقطع من الاغتراب عن واحة المعرفة خمسة أعوام أخرى (منذ 1965 حتى 1970م) ولهذا السبب ظلّ الإحساس بفوات الأوان جلّاداً نفسياً ما لبث يسلّط على الرقبة سيفَ الإعدام. وكان عليّ أن أستنطق المجهولَ طويلاً كي أدرك في أحد الأيام أن هاجسَ الزمن الضائع ليس سوى الإحساس الوجودي بالموت. هو إحساس تراجيدي بالطبع بسبب طبيعته الوجودية. فانتظار الحضور في الموت وحده يحقّقُ لنا العمق الضروري الذي يجعلنا نستطعمُ اللحظة ويحيلها في كلّ مرّة بعثاً، بالقدر نفسه الذي تتبدّد فيه عدماً. هذا السباق لالتقاط الأنفاس باقتناص اللحظة العدمية هو ما ربَّى في الوجدان الرغبةَ المحمومة في اختزال الشأن المعرفي لاقتصاد الزمن. كنت مغلولاً بهذه الحمّى يوم ذهبتُ إلى البروفسور غالانوف آملاً أن يسمحَ لي بالالتحاق بالسنة الأولى للمعهد رغم انقضاء النصف الأول من

العام. حاولت إقناعه مبدئياً لعمل المستحيل كي أعوّض الزمن الذي التهمته الأسبابُ الإدارية وغير الإدارية في سبيل الالتحاق، ولكن هيهات؛ لأن كثافةَ المنهج بهذا النوع من المعاهد العلمية ذات الطبيعة التخصصيّة كفيلٌ بتحويل النيّة البطولية فعلاً عبثياً، كما أفاد.

إنها الرغبة القديمة تستيقظ: الإيمان بإمكان قهر الزمن باختزال تجربة. وهو إيمان موسوم بروح جدليّة غامضة، لأن القفزَ فوق قنطرة الزمن يلغي الحنين الغيبي لتكديس التجربة. وهو تكديس رهين الزمن في السيرورة، أي في بعده الدنيوي، لا الأسطوري. لأن أي عمق معرفي يمكن أن يسكن تجربة لم تنل مجالاً في زمنٍ لم يتدفّق بالعرف الطبيعي؟

ولكنّ الخلاصَ من كابوس الروتين الإداري أهداني فسحةً لالتقاط الأنفاس برغم الالتحاق الذي تأجّل إلى بداية العام الدراسي الجديد في الخريف. توقفتُ عن ارتياد كلّية الآداب واستأجرت سكناً يقعُ في الطرف الآخر من الغابة التي تفصل حيّ «مكلوخامكلايا» حيث السكن الجامعي أيضاً، وركنت لاسترخاء في انتظار العطلة الصيفية كي ألتحق بمقرّ سكن أهل الأدب في ضواحي العاصمة الشمالية. فهل أوجعني قتل الوقت؟ بالطبع! فلا وجع أوجع من وجعٍ نميت فيه الوقت. لأن الوقتَ الذي نظنّ أنّنا نقتله بالفراغ هو الوقت الذي يقتلنا، لا نحن من يقتله. ولكي لا يقتل تماماً جاهدت لكي لا أقتله تماماً. بدأت أرتاد المكتبات،

والمسارح، والمتاحف التي امتازت بها موسكو لتنافس عواصمَ العالم الكبرى. بدأت رحلة امتلاك اللغة الروسية في تلك الفسحة بالقراءة أوّلاً، وباجتناب الزملاء العرب بالعزلة من جهة، وبمخالطة بسطاء الروس من جهة أخرى. ولكن عدم استخدام اللغة العربية (كلغة مكتسبة أيضاً) أدّى إلى اغترابي عن هذه اللغة (التي اخترتها لسان تعبير) اغتراباً كانت عواقبه وخيمةً تالياً. كانت تلك المرحلة بدايةَ الاغتراب، ولكن لم تكن نهايته. لأن سنوات الدراسة الخمس التالية في المعهد شهدت عن هذه اللّغة انقطاعاً كاد يتحوّل نسياناً لو لم أشدّ الرحال إلى أرباع الوطن. وكان يمكن أن يبدو هذا مدهشاً لكلّ من لم يعش تجربةَ الحياة في الاتحاد السوفييتي حيث لا يتشدّد النظام في شيء كما يتشدّد في كل ما له صلة بالكلمة المطبوعة سواء أكانت كتاباً أم جريدةً أم منشوراً. إنه احتراز الأنظمة الشمولية التقليدي إزاء وباء الرأي الآخر. إنه الحرصُ على إحكام جوف القمقم بحيث لا يجرؤ الناس على قراءة إلاّ ما يُراد لهم أن يُقرأ. فليقرأوا الصحفَ السوفييتية، وكتب الكتّاب السوفيات، وحتّى كتّاب الأدب الكلاسيكي العالمي ما شاء لهم أن يقرأوا، ولكن لا يجب أن يقرأوا الأدبَ المعاصرَ إلاّ بإشراف الرقيب الأيديولوجي الذي يُدين بالولاء الأعمى للحزب ويتلقّى التعليمات مباشرةً من سوسلوف الزعيم الروحي للنظرية السوفييتية. وهو ما يعني غياب الكتاب الأجنبي لا من الدخول وحسب، ولكن من التداول أيضاً، برغم وجود المكتبات

الثرية بالكتاب الكلاسيكي. وقد يمّمتُ شطر مكتبة الآداب الأجنبية بحثاً عمّا يمكن أن يُقرأ باللغة العربية فلم أجد بها سوى كتب بداية القرن، ورواية واحدة على ما أذكر لنجيب محفوظ سبق لي وقرأتها في مرحلة الواحات. فلم يعد أمامي إلاّ الاكتفاء باللغة الروسية، وبارتياد دور سينما تعرض أشرطةً عقائدية، ونادراً ما تخطئ فتقترف إثماً سياسياً بعرض أفلام غربية ذات هوية أيديولوجية أيضاً بالطبع، فيخون القائمين على أمرها الحدس. وأذكر أن ضجّةً سياسيةً أثارها في وسائل الإعلام عرض فيلم كوميدي بإنتاج فرنسي لا لشيء إلاّ لأن الأزياء التي كانت ترتديها البطلة كانت من الأناقة بحيث أثارت استفزاز حماة العافية الأيديولوجية، فشنّوا حملتهم على تساهل الرقابة بدعوى تقديم نماذج سينمائية تعمل على إغواء المشاهد السوفييتي مصوِّرةً الحياة في الغرب كأنها النعيم!

باستثناء أفلام تعرض في الدور، هناك الأفلامُ المعروضة بقنوات التلفزيون: أفلام سوفييتية ذات خطاب تقريري مباشر تتحدّثُ عن الحرب الأهلية، أو الحرب الوطنية العظمى (كما يصفُ المصطلح السوفييتي الحرب العالمية الثانية) بحرفيّة مملّة تصاحبها حملة إعلامية تلقينيّة أقنعت بالتكرار المشاهد السوفييتي بهوية السينما السوفييتية بوصفها الأفضل في العالم، فكان المواطن أن صدّق هذه الأكذوبة بفضل سياسة التلقين، كما صدّق أكاذيب كثيرة بسبب هذه السياسة، ولم يفق من غيبوبته إلاّ سنوات

الزلزال التي سبقت الإنهيار المهين. وليس عسيراً ملاحظة القيد المنفّر المرسوم في وجوه مذيعي هذه الشاشة المنزلية: إنه الختم النموذجي الذي يطبع به نظام الاستبداد روح المواطن المستعار كتوقيع في سيماء المذيع. إنه قرون استشعار النظام الاستبدادي القائم. وهو شعار لا تترجمه السيماء فقط، ولكن يتعثّر به اللسان أيضاً. فالسحنة في وجه المذيع مطبوعة بالكآبة، والجمود، وعبوس منكر كأنه قناع صُنِعَ خصّيصاً لأداء دور في مسرحية هزلية، وليس في قناة تلفزيونية. إنه انعكاس صريح للسلطة القائمة على التحريم: تحريم الرأي الآخر، وقمع التعبير. هذا القمع للسان الذي يؤدّي إلى شلل عضلة اللسان فيعجزها القول. وكلّما كان النظام أشدّ طغياناً كلما كان اللسان في واقع النظام أعجز في استخدام العضلة. إنه العلاقة بين اللغة والطغيان الذي أهملته الفلسفات والدّال على المفعول السحري للتعويذة الخالدة: **الحرية!** فاللسان تحت راية الأنظمة الشمولية ينطق بالوعود في اللحظة التي تأبى فيها الروح إلاّ أن تبثّ في السِّيماء رسالتها التي تروي الموت وتعلن الحداد! فغياب الحرية لا يكتفي بأن يصيبَ الروح بالورم وحسب، ولكنه يصيب السيماء بالخلل، كما يصيب اللسان بالشلل!

في هذه الفسحة عرفت أيضاً الروائي العراقي غائب طعمة فرمان الذي كنت حتّى ذلك الوقت قد قرأت روايته «خمسة أصوات». كنا نلتقي في الأمسيات في مقاهي نهاية شارع غوركي

في نقطة التقائه بشارع ماركس، قبل أن ننتقل إلى فندق «إنتو ريست» في الناحية الأخرى من الشارع ذاته لنحوّله بمرور الأيام منتدى دائماً. كان غائب قد سبقنا للإقامة في موسكو لأعوام بعد فراره من منفاه في الصين زمن الخمسينيات ليستبدله بمنفى آخر في موسكو. وكثيراً ما راق له أن يحدّثني عن حياة المنفى في الصين الذي يصفه بأنه منفى داخل منفى إذا قورن بالمنفى الموسكوفي، ممّا يعني أن على الإنسان أن يختار منفاه جيداً لكي لا يجدَ نفسه في منفى داخل منفى كما حدث معه في الصين التي بلغ التحجّر الأيدولوجي بسلطاتها حدّاً حرّمت فيه احتكاك صاحب المنفى بأهل البلاد تحريماً قاطعاً، بل وحرّمت عليه التواصل حتّى مع أبناء الملل الأخرى سيّما الآسيوية حتّى أنّه أضطرّ أن يلتقي بفتاة أندونيسية ربطته بها علاقة عاطفية خِفْيةً في مكانٍ سرّي يقع خارج بكين!

لغائب طعمة فرمان يرجعُ الفضل في تنبيهي إلى مسألة في غاية الأهمية في تجربتي الأدبية، لأنها كانت بمثابة حجر الزاوية في مسيرتي التالية وهي: **الصحراء** لا في بعدها التقليدي الشائع كمكان، ولكنها كقضيّة روائية يغتربُ فيها المكان عن المكان. وقد شدّد الراحل على هذه المسألة بعد أن قرأ مجموعتي القصصية الأولى: «الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة» ليكتشفَ حضور هذا البعد الغائب قبل دخول منيف إلى مسرح الصحراء المكانية بسنوات، وليسرّ لي بأن أتخلّى عن كلّ همّ وأولي كل اهتمامي

لهذا البعد الذي يميّزني. حدث هذا قبل أن أهتدي إلى وصية تولستوي عن شرط أن يكتب الكاتب **عمّا يعرف**، لتصير وصية فرمان بمثابة النبوءة لوصية تولستوي، بل والتمهيد لاستيعابي لها ذلك الاستيعاب الذي يتحوّل قناعةً، ثمّ عقيدةً. لقد لمس فرمان بروح الروائي الكبير العَصَب الجديد بأن يكون النموذجَ الذي يختزلُ العالم في تجربتي المبكّرة ليصير استعارة لمغامرة الوجود والمؤهّل لأن يعبّر عن لغز الإنسان في هذا الوجود. لمس ذلك لأنه اكتشف أن الصحراء هي **ما أعرف**، وما عرف المبدع هو حلم المبدع، هو **الفردوس** في تجربة المبدع، هو الجنّة الموعودة حتى لو كانت جنة من عدم كالصحراء!

كان غائب إنساناً نبيلاً إلى جانب كونه مبدعاً كبيراً. كان في علاقاته أخلاقياً اختلف عن كل من عرفت من أدباء جيله المبلبلين بوباء الأيديولوجيا. فهو الوحيدُ الذي لم يقحم قناعاته الأيديولوجية لا في أدبه ولا في مسلكه عكس الأغلبية الثقافية في ذلك الزمن التي لم تكن تكتفي بإقحام هذا الوباء في أدبها، ولكنها أَبَتْ إلاّ أن تقحمه في صلاتها الإنسانية أيضاً. بل ترفَّع فرمان عن هذه العقليّة إلى درجة لم أعرف فيها يوماً عمّا إذا كانت معارضته لأنظمة وطنه العراق معارضة رأي أم أنها اعتناق للشيوعية تمشيّاً مع تقليعة تلك الأيام التي ربّما كفر بها وتخلّى عنها بسبب معايشته لأنظمتها تالياً ليستبدلها بالعقيدة الوحيدة اللائقة بملّة الإبداع وهي: أحجية خالدة اسمها الإنسان!

2

لقاءٌ للوداع

لم أكن لأُوْلي مسألةَ التشدّق بالأيديولوجيا هذا الاهتمام لو لم تنقلب أيامها هوساً عامّاً صار مقياساً لكل شاردة وواردة، فسمّم الحياة وأصابني بالغثيان. فلم تعد الأيديولوجيا مجرّد برنامج دنيوي لتحسين حياة الإنسان، ولكنّها أصبحت مثالاً طال الأحلام، وألقت بظلّها الثقيل على الحياة اليومية، وتحوّلت تجارة الزمان وداء يتبادله أشقياء الأنام كتعويذة دواء تجير من أمراض بعبع الرأسمالية التي تتربّص بالعباد. إنها الديانة التي لم تفلح الأوساط الثقافية العربية في التعافي من آثارها إلى يوم الخلق هذا. وكان يمكن أن نغتفر هذا الضلال لو لم تسحق هذه الكذبة بكلكلها الفظيع أنبل ما في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان: الحبّ!

وكان المروّجون لشعاراتها ينقسمون إلى فريقين: فريقٌ مؤمنٌ بها كدِين قادر على تحقيق الخلاص (وهم الفريق الأكثر استحقاقاً للرثاء)، وفريقٌ انتهازي استمرأ استعمالها كلافتة لذرّ الرماد في عيون السوفييت قضاءً للحوائج (وهم الفريق الأكثر استحقاقاً

للاستخفاف لا من قبل الشرفاء فقط، ولكن من قبل السوفييت أنفسهم الذين لم يكونوا بالسذاجة التي يتخيّلها هؤلاء حتى يغفلوا عن حقيقة الرياء وهم الأعلم بالوهم الذي تخفيه عقيدتهم). وهو انقسامٌ لم يكن حكراً على الأوساط الأجنبية المقيمة في الاتحاد السوفييتي، ولكنه استنساخٌ مستعارٌ من الحركة الشيوعية العالمية. فكانت الدعوات تنهال علينا كل يوم لحضور اللقاءات المتواصلة التي دأب زعماء هذه الأحزاب على تنظيمها بالعاصمة لشرح آخر مواقف هذا الحزب أو ذاك في مسيرة النضال ضدّ الإمبريالية العالمية. تلك اللقاءات التي تبدأ بمعزوفة النشيد الأممي، وتنتهي بالهتاف بحياة الاتحاد السوفييتي وبالصداقة بين الشعوب. وقد قمعتُ في نفسي صوت الضمير فذهبت مرّة للاستماع إلى محاضرة لخالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري الذي أسمعنا سيلاً من الشعارات ختمها بالهتاف للصداقة العربية السوفييتية وبحياة الاتحاد السوفييتي العظيم قبل أن يغادر إلى القِرَم للاستجمام على حساب المواطن السوفييتي الشقيّ!

وإذا كنتُ قد أكبرتُ في غائب طعمة فرمان روح المبدع المؤمن بأسبقية البُعْد الإنساني في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فإنّي أسفتُ أن أفقد إنساناً أحببته كجيلي عبد الرحمن، لا لأنه أراد أن يستبيحَ في شخصي مجالاً قدسياً كالروح، ولا لأنه أراد أن يفرضَ عليّ حقّاً لا يملكه وهو الوصاية، ولا لأنه تجاهل طبيعتي الغير معنيّة بالأيديولوجيات، ولكن لأنه إنسان بريء شاءت

الأقدارُ أن يؤمن بدين لم يكن مؤهّلاً لتحقيق الخلاص وحسب، ولكنه خدعة مقنّعة خذلتْ مريديها دوماً كلّما تكشّف عن وجهها القناع! والدليل لم يكن في حاجة لينتظر أعواماً حتّى يعلن عن نفسه بعد حدوث الزلزال بأعوام، ولكن تجاربَ الأدباء هي التي كانت قد برهنت وقتها على صوابه سواء ممّن حمل منهم الهوية العربية، أو الأجنبية. فإذا كانت الرؤية الرومانسية للعالم قد لعبت دوراً في التعبير عن الإعجاب بالتجربة السياسية السوفييتية من قبل أئمّة الأدب الأوروبي في ثلاثينات القرن العشرين (أمثال أندريه جيد، أو أندريه مالرو، أو رومان رولان، أو سارتر، وغيرهم)، فإن جلّ هؤلاء استدرك تالياً فعاد وسحب هذا الاعتراف. أمّا بشأن الأدباء العرب فأذكر منهم عبد الوهاب البيّاتي الذي غادر موسكو مصدوماً قبل وصولي بسنتين أو ثلاث. ولم تتح لي فرصة لقائه إلاّ في عام 1993 بمقرّ المؤسّسة العربية للدراسات والنشر بعمّان ليأخذني بالأحضان كأني صديق قديم ما أن وقع بصره عليّ.

هل قلتُ صديق قديم استغراباً؟

الواقع أنه صديقٌ قديم بالفعل. إنه الصديقُ القديمُ الذي لم ألتقه إلاّ في تلك اللحظة. لأن الصداقة الحقيقية بين مبدعٍ ومبدع لم يكن لها أن تستقيم بدون ترشيح من جلالة النصّ. ونصّ البياتي أحد الينابيع التي ارتوى منها جيلنا. وكنت قد قرأت كلّ دواوينه الصادرة قبل رحيلي إلى بلاد الصقالبة. وهو لم يكن ليعترف بي لو لم يعرفني. لو لم يقرأني كما علمت فيما بعد عندما

حدّثني بانبهاره برواية «التبّر» الذي بلغ حدّاً جعله يقوم بتوزيعها على أصدقاء له يزيد عددهم على العشرين كما قال لي. كان لقاءً يتيماً استبشرتُ به خيراً، ولم أكن أدري أنه لقاءٌ للوداع. لقاءٌ لم يتكرّر لأن سليل المنافي هذا سرعان ما رحل بعدها حافراً في قلبي سيماء لا تنسى تليق بتجربته الدنيوية والشعرية: مزيجٌ من تعبٍ مجبولٍ بعمقٍ شوّشه الألم!

لقاء الوداع مع البياتي تكرّر مع شاعرٍ كبيرٍ آخر هو محمود درويش الذي غادر موسكو أيضاً مفجوعاً بعد أن لجأ إليها فراراً من أرضه المحتلّة. غادر قبل وصولي بقليل كما حدّثني إيغور يارماكوف المستشار باتّحاد الكتاب السوفييت منتقداً عبد الملك خليل (مراسل الأهرام وعميد المراسلين الأجانب) الذي قال أنه هو المسؤول عن تهريبه إلى القاهرة كما عَبَّر، فلم أفهم لماذا يوصف خروج الشاعر إلى وطنه الثاني «هروباً» هنا. كنت قد قرأت حتّى ذلك الوقت ديوانه الأوّل «آخر الليل»، ولكنّي لم ألتقه شخصياً إلاّ قبيل رحيله بقليل، أي في العام 2006م عندما كنّا ضيوف شرف (مع الطاهر بن جلّون) بإيطاليا للمشاركة في فعاليات معرض الكتاب الدولي الذي تشرف عليه اليونسكو في تورينو كعاصمة للكتاب ذاك العام، ولم أتخيل أن ذلك اللقاء سيكون لقاءً لوداع كما كان للبياتي قبله؛ لأن اللقاء الأحقّ باسم اللقاء كان قد حدث قبل اللقاء الذي شاءت له الأقدار أن يكون لقاء الوداع لا لقاء التواصل؛ هذا التواصل الذي حدث بيننا منذ قرأت لدرويش

ديوانه الأوّل واستمرّ في أعماله التالية، كما حدث اللقاء من جانبه أيضاً عندما قرأت أعمال ميلادي الثاني كما يروقني أن أسمّي روايات مرحلة التخلّي كـ«نزيف الحجر» و«التبر» و«المجوس» على التوالي. فقد حدث وخاطبني من خلال بعض الأصدقاء مبدياً إعجابه الشديد بما قرأ، بل وأشاد بهذه الأعمال في مقابلات صحفية بوسائل الإعلام العربية. وعندما قلتُ له أني بادلته الوصايا مع بعض الأدباء في لقاء تورينو انفعل وخاطبني قائلاً: «إيّاك أن تخاطبني من خلال الأدباء!». ضحكت يومئذٍ بمرارة لأني فهمته كما لم يفهمه أحد بعد أن قرأت مقالات عدوانية مخجلة ضدّه في وقتٍ كنت فيه هدفاً لحملاتٍ مماثلة على يد الفئة الأكثر تعرّضاً لآفة الحسد على الإطلاق وهي ملل الأدباء لتَصْدُق فيهم وصية الإمام الغزالي عن العلماء!

لم يكن الفقيد محمود درويش في حاجة كي يلتقيني شخصاً بعد أن عرفني روحاً، كما لم أكن في حاجة لأن أعرف درويش شخصاً بعد أن عرفته نصّاً قبل أن يعرفني هو، لأن حضورنا في النصّ لا في الشخص. وحكيم الأزمنة سقراط لم يخطئ عندما قال: «تكلّم لكي أراك!»، لأن الرؤية كمعرفة تسكن اللغة في بُعْد التجلّي، لا اللغة لحظة اللّغو!

والوداع أيضاً لن يكون وداعاً عندما يكون اللقاء غنيمة الذاكرة، لا الواقع الحسّيّ.

3
القوانين

قبيل العطلة الصيفية انتقلت للإقامة في بيت المعهد الواقع في أطراف موسكو الشمالية بشارع دبرولوبوفا المجاور لبرج التلفزيون المركزي (أوستانكينو). ولكن بُعْد المسافة لم يحل دون المشاركة في احتفاء طلبة الوطن بجامعة الصداقة بمناسبة تخرّج أول طالب ليبي في أوّل مؤسّسة تعليمية سوفييتية من كلية القانون بالطبع! فالهوس بدراسة القانون كان حمّى ذلك الزمان كما سبق وأن أسلفنا. وما أدهشني دوماً هو حسن ظنّ الجيل بالقانون الوضعي إلى حدٍّ ذهب فيه الكلّ للانخراط في جنان كلياته أفواجاً. هل هو حنينٌ إلى إقامة صرح العدالة في عالمٍ تنكّر للعدالة بحرف القانون؟ أم أنه نقطة ضعف زماننا تلبيةً للقاعدة القائلة بأن لكل زمان نقطة ضعفه؟

ما أدريه حقّاً هو عجز القوانين الأرضية في إقامة أيّ عدالة أرضية. لأن القانون الوضعي مجبول بالخطيئة بالأصل بسبب هويّته الدنيوية. فعلاوة على حقيقته كعمل من تلفيق الإنسان، فهو غير قابل لتقنين واقع تجريبي غاية في التعقيد. إنه حرف غبيّ خُلق

لإنجاز ردع لا يخضع للنصّ، ولكنه لا يرتضي غير المنفعة ديناً. ولو شئنا تشخيص سيرته لوجدنا أن كلمة «معات» الدّالة على ربّة العدالة في ديانة مصر القديمة إنّما تعني في اللغة معنى «**الخنق**». وهو ذلك الفعل الردعي المتمثّل في كتم الأنفاس بإحكام قبضة الكفّين على الرقبة. أما في اليونانية فكلمة قانون (Canon) هي تركيب لغوي بدئي ملفّق من «كن» (أو قنّ»، وكلمة «أون» (on) التقليدية. الشقّ الأوّل يعني في لغة أم اللغات: **القيد!** ولم تخطئ اللغة العربية التي استعارت كلمة القيد هذه في «قنّ» للتدليل على العبد. لماذا؟ لأن العبودية لم تتحوّل مفهوماً في مجتمع العالم القديم إلاّ مع اندلاع الحروب التي بدا فيها الطرف المنتصر يوقع الأعداء في الأسر بدل نزعة القتل السائدة في مرحلة بدائية أسبق. فعل ذلك لا رحمةً بالمغلوبين، ولكن استجابةً لروح المنفعة. أي لاستغلالهم في أداء مختلف الأعمال مقابل إبقائهم على قيد الحياة. إنها أول صفقة نفعيّة أوجدت أول انقسام طبقي على الإطلاق. وكلّ من تسنّى له أن يرى مشهد أفواج الأسرى في نقوش مصر القديمة وهم يرفلون في قيودهم التي تشدّ أيديهم إلى الوراء سيدرك المصير الذي ينتظرهم والموسوم على وجوههم، لأن الوقوعَ في الأسر لم يعد خلاصاً، ولكنه منذ اليوم صار قدراً أسوأ من الموت وهو: **القيد** الرديف المميت للعبودية!

ولمّا كان دهاةُ لغة التكوين أكثر حرصاً على تسمية الأشياء بأسمائها، بيد أن حكمتهم لم تكن أقل دبلوماسية أيضاً. وها هم

يضيفون لكلمة قيد (قنّ) كلمة أنبل وقعاً في التركيب وهي «**أون**» الدّالة في كل لغات اللاهوت على «**الارتفاع**» بشقّيه المادّي والمعنوي. والدلالة المقصودة هنا هي الشقّ **المعنوي** بالطبع، أي «**السموّ**». وهكذا نفوزُ بمصطلح يعني في الترجمة من اللغة الأصل: «**القيد السّامي**»، أو بعبارة أخرى: «**العقد الإلهي**» كناية عن القانون.

ولكن هل نستطيع أن نقتنعَ بالقانون الوضعي كـ«**عقد ربوبي**» حقّاً؟ كلاّ، بالطبع. العقد مع الربّ يستوجبُ شروطاً أخرى لا علاقة لها بالقانون الوضعي. لقد أراد الأوائل أن يحقنوا المفهوم بروح الردع عندما حاولوا أن يُكْسِبُوا العبارة نزعةً سماوية. أي أنها محاولة لاستدراج الخطاة للدخول في حرم العهد الذي يحيل ميثاق العبودية صفقة مقدّسة ممهورةً بختم الغيوب. وهو ما يطهّرها من دنس الضدّية، لأن المنكر حقّاً هو برزخ يجمع القيد كبرهان عبودية مع **الحرية** الكامنة في مباركة الربّ.

فالقانون الوضعي حرفٌ ميّت غايته **تحرير** الرغبة الآثمة من سلوك المخلوق البشري. أي أنه ردع ليس إلاّ. في المقابل ينتصبُ القانون الأخلاقي متوّجاً بسلطان **الإيمان**. لأن صاحبَ الشأن المسيّر هنا ليس إرادة الطبيعة العمياء، ولكنه تلك الوديعة التي استخلفها الله في قلب الإنسان يوم نصّبه خليفةً له على الأرض، وهي: **الضمير**! لأن هدفَ القانون هو إماتة الطبيعة العدوانية في طبيعة الإنسان. ففي حين يستخدمُ القانون الوضعي

تدابير ردعية بالقوّة لمواجهة هذه الطبيعة البشرية، يحتكم القانون الأخلاقي لسلاح الإيمان في سبيل تحرير النفس الإنسانية. وهو سلاح الحرية، في مقابل السلاح الآخر المستخدم بيد القوانين الوضعية الذي تفضحه الترجمة من اللغة الأصلية في عبارة: «الاستعباد السّامي»!.

بالقوانين الوضعية نحن مدانون سلفاً بالعبارة التي تفترضُ فينا سوء النيّة. بالقوانين الأخلاقية نحن براءة، لأن شهادة الضمير حرية!

هل كنتُ سأجرؤ على اعتناق قناعة كهذه لو لم يقدّم لي الشعب السوفييتي كلّ يوم الدليل على حقيقتها وأنا أسمع كلّ من حاقَتْ به مظلمة لا يستحضر حرف القانون، ولكنه يستنجد بمحكمة الضمير بعد أن يئس الكلّ من عدالة قوانين يستطيع أصغر شرطي أن يدوسها بحذائه الفظيع ليلفّق ما شاء من تهم لأيّ إنسانٍ بريء؟

ففي واقعٍ يرى في الناس قطيعاً ليس في حاجة لسنّ قوانين الحقوق والواجبات، ولكنّه يسنّ قانون العقوبات. أمّا قانون حقّ الإنسان، فمنكر لأن النظام لم يفترض وجود الإنسان يوم أقرّ وجود القطعان!

وبرغم هذه المفارقة يتدافعُ الناس لدراسة القوانين في الجامعات ربّما سخريةً من الواقع، وربّما إرواءً للظمأ إلى الحلم بواقعٍ تهيمن فيه القوانين!

4
الحرم

سبتمبر!

انقشع صيفُ الشمال فكشّرت الطبيعةُ بالصقيع. أقبل الخريف بسحنة الشتاء فوجدنا أنفسنا على مقاعد السنة الأولى في رحاب ذلك الحرم الرومانسي، بل والأسطوري، الذي انتظرنا أن يلقّننا الحلم، يلقّننا الأدب بجرّة قلم!

لم ننتظر أن يلقّنا معهد غوركي الأدب وحسب، ولكنّنا توقّعنا أن يحقن أرواحنا بالموهبة حقناً! إنه الحلمُ عندما يتمادى ويستعير أجنحةً فيتجلّى. إنها روح الشّعر، المدفوعة بنزعة الزمن الرومانسي، الموعودة بارتياد آفاق البعد المفقود. وما استنزل مسوح الأسطورة على المعهد ليس مكسيم غوركي الذي قام بتأسيسه عام 1932م، ولكن أفواج الأدباء ذوي الصيت الذين خرجوا من حرمه وصاروا ركيزةَ الأدب السوفييتي أمثال آيتماتوف وحمزاتوف وسليمانوف، ويفتشنكو وبيلوف وراسبوتين وغيرهم، إلى جانب أدباء المنظومة الاشتراكية أمثال الألباني إسماعيل

كاداريه الذي التقيته ببرلين شتاء عام 1996م في ندوة المائدة المستديرة حول ثقافة المتوسط بدعوة من «بيت ثقافات العالم» ليتولّى الحديث عن ثقافة شمال المتوسط ولأتولّى أمر ثقافة جنوبه. هذا إلى جانب أساطين النقد الذين يديرون دفّة الحركة الأدبية السوفييتية تلك الأيام. وقد تزامن التحاقنا بتوقيع اتفاقيات عام 1972م التي أنهت فعلياً عصر الحرب الباردة واعدةً بحلول عهدٍ جديدٍ يبشّر لا بالانفتاح السياسي وحسب، ولكن بالتسامح في مجال الحرّيات أيضاً. وها هو جنكيز آيتماتوف ينشر في ذلك العام نفسه رائعته: «**السفينة البيضاء**» التي تطرح بجرأة قضيتين مركزيتين في الواقع السوفييتي آنذاك وهما: **مصير الأقليات في ظلّ** هيمنة إمبراطورية عظمى يتزعّمها «أخ أكبر» (كما كانوا يطلقون على الملّة الروسية)، وشبح **الكارثة البيئية** الناجمة عن استهتار البيروقراطية السوفييتية بالطبيعة. وقد قوبلت الرواية باستقبال حافل لا في الصحافة الأدبية وحدها، ولكن في جلّ وسائل الأعلام المطبوعة. وأحسب اليوم أن هذه الرواية كانت الصّيحةَ التحذيريةَ الأولى المترجمة بلسان الأدب التي تنبّأت بالكارثة البيئية التي يعيشها عالمنا اليوم.

في مفتتح السنة الأولى عرف كهنةُ المعبد كيف يستدرجونا لارتياد الحرم لئلاّ يتهشّم الانطباع الرومانسي الهشّ فتنال الصدمة من معنويّاتنا. وها هم يدفعون لملاقاتنا بعرّافة المعبد لتلعب دور

فرجيل في رحلة دانتي إلى عالم البعد المفقود. إنّها طه غودي، السيدة القوقازية المهيبة، ذات الصوت الرجولي، والنبرة الوجدانية المترفة، التي تحمل في أعطافها سيرة ذاتية حافلة بالأساطير، كما حملت في لسانها روح هوميروس كأستاذة للأدب اليوناني القديم. فهي برغم الشيخوخة ما زالت تحتفظُ في سيمائها بفُضلة جمالٍ شرقيّ غابر يجعلها جديرةً بالشائعات التي تجري على الألسن وتتحدّث عن سيرتها كعشيقة سابقة لمؤسس الإمبراطورية ستالين. ولكن مجد طه غودي ليس مستعاراً من علاقتها العاطفية بزعيم الفردوس الموعود، وليس وليد مواهبها السّردية وهي تروي عراك أرباب الأولمب كأنها تشاركهم في خطط الكيد، فتتضاحك بصوتها الجهوري حيناً، وتتمخّض حيناً آخر على طريقة الـ«بيثيا» لحظة استجداء النبوءة؛ ولكن مجد هذه المرأة في دورها الأكاديمي كعالمة مرجعية في آداب اليونان القديمة. ولم يكن مقدّراً لنا أن نعرف ذلك في بداية عهدنا بالحرم، ولكن جلّنا لم يكتشف حقيقتها إلاّ بعد أن قطعنا شوطاً بعيداً في سبيل الطلب، أي في الفترة التي توقّفنا فيها عن التباهي باحتراف الأدب، وصرنا فئران كتب! وهي مرحلة كان يجب أن تنتظر، لأن إقبالنا على الأدب كان ممزوجاً بنصيبٍ من طيش لم يكن انتظار تنزيل الوحي في أفئدتنا تنزيلاً سوى ترجمةً له. لهذا السبب لم ندرك قيمة طه غودي كسادنةٍ للمعبد ومعبودةً للأدب إلاّ بعد أن تحوّلت المكتبات لنا سكناً، والمثول في حضرة الكتاب صلوات،

لنكتشف أنها هي لا سواها من أبدع كل متنٍ ارتبط بصلةٍ لآداب اليونان القديمة، فإن لم يكن ممهوراً بإمضائها حرفاً، فهو متوّجٌ ببركاتها المبثوثة في تقديمها لكلّ نصٍّ شاء ارتياد عالمٍ هو حكرٌ عليها وحدها!

وبقدر ما تبدّت مريدة آداب قدماء اليونان شخصيةً قوية وحيوية، بل وأسطورية، بقدر ما اغتربت أستاذةُ الأدب الروسي القديم عن كل هذه القيم: كانت تستعينُ على الشيخوخة بعكّازين لتستقرّ قبالتنا كجثّة هامدة. تخاطبنا بصوتٍ واهن عن متونٍ مملّة، تحوم الشكوك حول مدى انتمائها إلى ملكة الأمّة الروسية لعلّة القدمة أولاً، وبسبب الرغبة المحمومة في إعطاء قوم الصقالبة عمقاً ثقافياً تاريخياً ثانياً. وكان من الطبيعي أن ننفضّ من حولها بالذهاب إلى «بيت الأدباء» المجاور حيث يلتقي كبار أدباء الاتحاد في المطعم لاحتساء الجعة أو الفودكا والخوض في كل شيء باستثناء الأدب!

أمّا الأكاديمي والناقد المعروف فلاديمير غوسّيف أستاذ نظرية النثر فلم يكن لسلطة النسيان أن تنال منه بسبب موقفٍ لم يخلُ من متعة. فقد وجّه إليّ سؤالاً أثناء تأديتي لامتحان نصف السنة عمّا إذا كان للإيقاع حضوراً في النصّ النثري. وقد استخدم مصطلحاً أدبياً مستعاراً من اليونانية هو: «ريتم» الدال على معنى الإيقاع، ولمّا لم يكن عود لغتي الروسية قد استقام لدرجة تؤهّلني للتفريق

بين كلمة «ريتم» كإيقاع، وبين كلمة «ريفم» ذات الأصل اليوناني أيضاً والدّالة على القافية، فكان أن اقترفت خطأً قاتلاً بإجابتي على السؤال بالنفي!

أذكر أن ذلك الرجل الخجول ذا السّيماء الروسية الأرستقراطية حدجني يومئذٍ بنظرة دهشة، ولكنه عاد فابتسم بتسامح فخمّنت خطيئتي على الفور؛ ولكن بعد فوات الأوان. كان عليّ أن أقبل بإعادة الإمتحان خجلاً من أن أعترفَ بالحقيقة التي ستبدو في حالي ادّعاءً، لأن الطلبة الأجانب كثيراً ما كانوا يتحجّجون بجهلهم باللّغة الروسية كي يخفوا جهلهم بالمادة العلمية. ارتضيت السقطة في الامتحان لأنها تبدّت لي أهون من السقطة الأخلاقية فيما إذا قلت الحقيقة التي تبدو كذبةً تقليديةً لتبرير السقطة الأدبية!

ولكن الحقيقةَ التي لم يحدث أن خذلت مخلوقاً أختارها حَكَماً لم تخذلني أيضاً. فبعد ما يزيد على الثمانية عشر عاماً يفاجئني فلاديمير غوسيف عقب عودتي الثانية إلى موسكو بمقالٍ نقديٍّ جريء حول رواية «التبر» التي قرأها مسوّدةً في ترجمة سيئة جداً من حسن الحظ أنها لم تُنشر بالروسية. فبعد تحليلٍ طويل ينتهي الرجل إلى ملاحظة لم يكن لي أن أنساها لم أجد لها مثيلاً في كل ما نُشر حول هذه الرواية في النقد الأوروبي أو الأمريكي، أو الياباني، وهي التأكيد على حضور الأحداث في عالمٍ يقع خارج الزمن. عبارة عابرة زعزعتني لكنها أيقظت في الوجدان الهوس

بالبعد المفقود لتحيي في الذاكرة عبارة مثيلة لم يكن لي أن أنساها وصف بها توماس إليوت أبطال دوستويفسكي عندما قال أنهم لا ينتمون إلى هذا العالم.

إنه الدليل على عدم استحالة الحضور في الخلود، لأن البعد المفقود وحده الوجود خارج الزمن!

فالمحنة التي تواجهنا ليست في كيفيّة التعبير عن الواقع، ولكن في كيفية الإفلات من الواقع. في كيفية الرحيل بعيداً عن الواقع، **في كيفية تحويل الحلم إلى واقع**. والقدرة على تحقيق هذه المعجزة هو مقياس الموهبة، بل ومعيار العبقرية. فأن يتحوّل الإنسان بقدرة قادر إلى حشرة وليس إلى ملاك، أو حتى إلى إله، وهو الإعجاز. هو الفتح المبين في حال أفلح المبدع في إقناعنا بتجاوز الإنقلاب في برزخ المسوخ إلى **المعاناة** الناتجة عن معايشة الواقع الجديد. ثورة كافكا هذه التي ألهمت غارسيا ماركيز تجربة الإفلات من الواقع بالواقعية السحرية حسب اعترافه. وهي الثورة التي كشفت لـ ساراماغو الآفاق التي صنعت منه روائياً معنيّاً بتحويل الواقع إلى حلم على طريقة كافكا أو العكس. فإذا كان غيابُ الحرية كفيل بتحويل الإنسان إلى صرصار، فلن يكون مستهجناً أن يؤدّي غياب هذه الحرية إلى القبول بواقعٍ معادٍ يحكم فيه المجهول على هذا الإنسان منذ المهد بقصاصٍ غيبيّ لا مهرب منه إلاّ بوضع الرقبة على نطح الجلّاد. فإذا كان **تحرير الواقع من المنطق**

هو فتح كافكا، فلا شكّ أن التحدّي يبقى **تحرير الواقع من الزمن!** وهو ما لا يتحقّق بدون خلق زمن آخر مجاور للزمن الدنيوي. زمن يؤدّي وظيفة تطهير الواقع من أشرس شَرَك إلى جانب المنطق وهو الزمن في بعد الإبادة، الزمن في سيرورة التراتب، الزمن الفاعل، الزمن الحامل لقدر الموت. من هنا جاءت ضرورة **الزمن الأسطوري** الذي لا يعترف بقوانين الواقع، ولا بناموس المكان. أي نشوء ضرورة لوجود مكان يغترب فيه المكان عن المكان. مكانٌ لا يستوفي شروط المكان كمكان. مكان هاجر منه المكان فصار ظلاّ لمكان. صار روحاً لمكان. ولا وجود لمكانٍ كهذا خارج **الصحراء!** فيا له من اكتشاف! اكتشاف لن نغالي إذا قلنا أنه قرينٌ لاكتشاف كافكا. فهنا فقط في هذا المكان الحامل لهوية اللاّمكان يستطيعُ الزمن الأسطوري أن يهيمن. يستطيع الزمن أن ينفي الزمن كشرطٍ لإطلاق سراح الحلم إلى عالمٍ خارج العالم. إلى عالمٍ لا أدري لماذا راقني دوماً أن أطلق عليه «**البعد المفقود**». لأن.. لأن في هذا البعد المفقود فقط تستطيعُ معبودة الأبود **الحرية** أن تسود. تستطيع أن تسود في بعدها البتول، النقيّ، كوجهٍ آخر للحقيقة. فإذا أفلحتُ في دفن الزمن في بعده الدنيوي، ونجحتُ في استبداله بالزمن الأبدي في عملٍ مبكّر كـ«التبر» (كما اكتشف أستاذي القديم بإشارته الذكية) فأظنُّ أن هذا كافٍ كي أكفّر أمامه عن خطيئتي القديمة بشأن نكتة الإيقاع!

5

قُدسُ أقداس

لم يكن معهدُ غوركي كعبةً لأدب الشباب وحسب، ولكنه كان حرماً لذلك الفريق من كبار الأدباء الذين حقّقوا اعترافاً أدبياً سواء على مستوى الإتحاد أو على النطاق العالمي بالموهبة وحدها، دون استكمال دراسات علمية أو عبور مناهج جامعية. وبهدف الأخذ بيد هؤلاء تمّ تأسيس حلقة باسم «الدراسات الأدبية العليا» بالمعهد ليلتحق بها هؤلاء. وقد انتمى الناقد الروسي الكبير يوري سليزنيوف لهذه الحلقة عندما جمعنا في أحد الأيام الهوس بدوستويفسكي ليصير لنا حبّ هذا القدّيس العظيم عهداً توّج علاقتنا بصداقة نقيّة وطّدتها الأعوام بعمقٍ لم ينل منه كيد الدنيا إلى أن رحل في اليوم التالي مباشرةً لزيارتي له في أحد أيام منتصف الثمانينات فلم أجده في البيت لأترك له مع قرينته مجلة «الصداقة» التي كنت أصدرها بوارسو باللغة البولندية حيث نشرتُ تلك الوثيقة المجهولة المكتوبة بيد دوستويفسكي عن «المسألة اليهودية»

مترجمةً إلى البولندية والتي كان سليزنيوف أول من كشفها لي منشورةً في مجلّة شهرية يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر اعتاد دستويفسكي أن يتناولَ على صفحاتها قضايا العصر تحت عنوان: «مفكّرة كاتب» فقمتُ بترجمتها إلى العربية ونشرها في مجلّة صديقي أمين الأعور «بيروت المساء» في بداية السبعينات؛ وهي المجلة التي تعرّفت فيها إلى الشاعر بلند الحيدري أثناء زياراتي لبيروت قبيل نشوب الحرب الأهلية. وليوري سليزنيوف يرجع الفضل في كشف قيعان الواقع الثقافي السوفييتي لي، بل ونبّهني إلى الصراع الدائر في الخفاء بين أنصار الأدب الروسي التقليدي المستعار من تجربة القرن التاسع عشر من جهة، ودعاة النزعة السوفييتية المروّجة للتلقين الأيديولوجي في الأدب من جهة أخرى. وهو صراع حضاري مسكوت عنه في الأوساط الثقافية نفسها برغم أنه لم يتوقّف منذ استيلاء البلاشفة على السلطة، ولم تفلح أساليبُ القمع الستاليني في خنق روح الأدب الكلاسيكي في وجدان الإنسان الروسي بعد أن صار أدب دوستويفسكي محرّماً بسبب نبوآته المعادية للشيوعية، وأدب تولستوي مشبوهاً بسبب الموقف من ثورة عام 1905م التي تعتبرها الأيديولوجيا السوفييتية «الأمّ الروحية» لثورة عام 1917م، وأدب تورجنيف رجعياً بسبب نزعته البرجوازية.. إلى آخر القائمة!

وأذكر أن سليزنيوف هو من نعت البروفسور بوغدانوف (أستاذ

الأدب الروسي للقرن التاسع عشر) بعبارة: «الإنسان الذي لا يؤمن بشيء!». وهو حكم لم يكن ليبقى غنيمة الذاكرة طوال هذا الأمد لو خلا من خطورة بمقاييس الأيديولوجية السوفييتية. فألاّ يؤمن الإنسان بشيء في ظلّ نظام تتحوّل فيه الأيديولوجيا معبوداً كالاتحاد السوفييتي لن يعني الإلحاد بالمفهوم الشائع كإنكار الله، ولكنه يعني اعتناق العدمية. والتحلّي بالروح العدمية تهمة يمكن أن تعرّض صاحبها للمساءلة، وربّما للملاحقة أيضاً بوصفها عقيدة معادية سيّما بالنسبة لإنسانٍ مخوَّلٍ بتلقين الأجيال الأدبية وصايا ثقافية يعوّل النظام على «نقاوتها» الأيديولوجية! ويبدو أن سببَ هذا الانطباع هو روحُ السخرية التي تحلاّ بها الرجلُ فلم تنجُ من استخفافه حتّى مقولات تتمتّع بحصانة قدسية كمقولات لينين. فقد دعوته مرّة لتناول العشاء في أحد مطاعم فندق «روسيا» ذي الستة آلاف غرفة فشاءت الصدف أن يجد نفسه في مواجهة لافتة غبيّة ترجع بعهدها إلى الثلاثينات معلّقة على أحد المصانع الواقعة على الضفة المقابلة لنهر موسكو موسّمة بشعارٍ لينيني يعرّف الشيوعية في ترجمة تقول: «الشيوعية هي السلطة السوفييتية زائد كهربة البلد!». وكان أن استوى بوغدانوف في مقعده وأطلق ضحكة استخفاف عالية قبل أن يعلّق قائلاً: «لا أعرف كيف يقرأ الأجانبُ شعاراً كهذا ثمّ نطلب منهم أن يبقوا على إيمانهم بالشيوعية!».

والأرجح أن نزعةَ الاستهانة بكل شيء حوله هي السرّ الذي أجاره من سخط السلطات بدل أن تكون له نقطة ضعف. وهي نزعة

استهوتني دوماً دون أن أعرف لماذا، ولم أكن لأكتشفها في نفسي إلى الأبد لو لم يهرع النقد الأدبي الأوروبي لنجدتي يوم لمسها في أعمالي الروائية بعد سنوات طويلة لأكتشف أيضاً أن سرّ قوّة أي مبدع ليس في التعبير عن ما يعي، ولكن في فضح ما لا يعي. أي أن الرهان من نصيب ما استخفى، لا ما استظهر. وهو ترجمة أخرى لتلك الأحجية التي عبّر عنها أحد أئمّة التصوّف على الروذباري بالقول: «علمنا هذا إشارة، فإن تحوّل إلى عبارة استخفى!». بلى! الرهان في الإبداع على البعد الذي استخفى، لا البعد الذي استظهر، لأننا إنّما ننهل من البعد المفقود، لا من بُعْد الوجود. وهو ما يعني أن سرّ صداقتي بالبروفسور بوغدانوف إنما يرجع بجذوره البعيدة إلى روح السخرية كقاسم مشترك نُخفيه دون أن نعيه. ويبدو أن هذا هو سببُ اختياري له مشرفاً على رسالة الدكتوراه عن دوستويفسكي عقب رحيل المشرف الأول البروفسور ماشينسكي الذي نصّبته الإدارة عقب انتهائي من الدراسة بالمعهد مباشرة. وهي الرسالة التي تمكّنتُ من أداء امتحاناتها، ولا أريد أن أتحجّج بأعذارٍ دنيوية فأقول أن ظروفي لم تسعفني للدفاع عن لقب الرسالة، ولكن اليقين أن روح الاستخفاف (أو بالأصح روح العبث) قاسمي المشترك مع أستاذي بوغدانوف، هي السبب الذي دفعني للتخلّي عن عملٍ أعرف مسبقاً أنّي لن أجني منه سوى الشهادة، برغم أن الشهادة كانت معبود عالمٍ ليس معنيّاً بالمعرفة التي تشهد بها لنفسك بقدر انهمامه بالمعارف التي يشهدُ بها لك

الأغيار، كعالم ذلك الزمان. إنها إهانة للمعرفة بقدر ما هي شهادة معرفة، لأنها تضحية بالحقيقة مقابل إعلاءٍ لشأن قرطاس! ولهذا لم تفلح حتى مبرّرات بوغدانوف في إقناعي بالذهاب باللعبة (كما راقه أن يصفها) إلى نهايتها. فروح البحث في عالمنا لم تكن لتغترب على هذا النحو المأساوي الذي نقف شهوداً عليه اليوم لولا عبادة شهادة صارت تلعب دور الغاية بعد أن كانت يوماً وسيلة. وأكبر شاهد على هذه النتيجة المخجلة هو حَمَلة الشهادات العلمية العليا سيّما في ليبيا حيث انقلب نيلُ شهادة الدكتوراه عملاً لا يختلفُ عن نيل شهادة محو الأميّة، لأن الهدفَ ليس الحصول بها على كلمة سرّ تعين في فتح بوّابات المعرفة، ولكن للفوز بالمنفعة سواء أكانت وظيفةً أو منصباً أو وجاهةً اجتماعية. وهكذا تحوّلت مثل هذه الشهادات وثائق لإثبات الجهل بدل أن تكون مستنداً للبرهنة على اجتهاد. من هنا أصبح الحصولُ على شهادة كهذه هو التهمة التي يجب أن ننكرها، لا الشرف الذي علينا أن ندّعيه!

في بداية عهدي بإمام الهزل بوغدانوف دعوته على العشاء ببيت الطلبة بهدف إجراء مقابلة نُشرت بمجلة «بيروت المساء» حول دوستويفسكي. ولم يكن القصد من المقابلة الحوار حول أدب أب روسيا الروحي بقدر ما كان القصد هو تحليل موقف نيتشه من ربّ فكرة التفوّق (دوستويفسكي)؛ هذه الفكرة التي كان حكيم النفس الإنسانية أول من بشّر بها، فكان أن اعتنقها نيتشه وروّج لها في

أعماله ترويجَ الهاجس الذي خلق منها تلك الفلسفة التي تبنّاها هتلر عمليّاً. ولمّا كان أدب نيتشه خاضعاً لتحريم صارم في الاتحاد، فمن الطبيعي أن يجهل بوغدانوف حقيقة عبقريّ الرواية الوجودية كملهمٍ لرموز الأدب الأوروبي القرن العشرين وفي مقدّمتهم نيتشه. ولم أجد حيلة لتذليل هذه العقبة سوى القيام بترجمة مقالة نيتشه المعنونة بـ«المجرم الشاحب» لخلق مناخٍ مناسب للجدل. كانت المقالة فصلاً في إنجيلٍ راهن عليه نيتشه وعدّه «كتاب كل الأزمنة» وهو: «هكذا تكلّم زرادشت» مترجمةً إلى العربية من قبل فلكسْ فارس في ثلاثينيات القرن بلغة ميّتة ورديئة في وقتٍ لم أحقّق فيه حلم تعلّم اللغة الألمانية بعد. وكنت قد قرأتُ الترجمة في وقتٍ بلغ فيه هوسي بدوستويفسكي الذروة، أي في الفترة الواقعة بين عامي 1972 و1976م. ولهذا لم يكن صعباً أن أكتشفَ أن نيتشه في إنجيله إنما كان يشخّص نموذج راسكولنيكوف بطل «الجريمة والعقاب» في مقالته الاستعارية عن «المجرم الشاحب» برغم أني لم أعثر في كل المصادر الكثيرة التي قرأتها عن العلاقة بين هذين العملاقين أيّ إشارة لهذه المقالة الداعية في مضمونها لتحويل راسكولنيكوف رمزاً عالمياً لتحقيق العدالة الأرضية بطريق القوّة. أي أنها الفلسفة المضادّة للعقيدة التولستوية عن اللاّعنف. وهو تضادٌّ أراده نيتشه، لا دوستويفسكي، لسبب بسيط وهو الموقف الأخلاقي من النموذج الذي يمثّله راسكولنيكوف. ففي حين استجار دوستويفسكي

بالإيمان المسيحي في موقفه من بطله الرهيب مستصدراً بشأنه حكماً بالإدانة، هرع نيتشه لاستصدار تبرئة بحقّ عمل راسكولنيكوف انتصاراً لعدالة يجب أن تُنال في عالمنا بالقوّة، بل بالقوة الفردية، لا القضائية!

وهو ما يعني أن ينتشه في «المجرم الشاحب»، بل وفي كل أعماله، تمرّد على معلّمه، وانتصر لأفكاره هو، بتبنّيه لأفكار أبطال معلّمه، لا أفكار المعلّم! هذا التمرّد على النصّ الأصلي هو نقطة الانحراف التي أدّت إلى الطلاق الأخلاقي بين العبقريّتين. وهي السرّ الذي عبّر عنه صديقي الناقد الكبير يوري سليزنيوف بالقول أن نيتشه في رأيه لا يعدو أن يكون بطلاً في رواية من روايات دوستويفسكي، لأن أفكاره التي تتغذّى من روح تطرّفٍ عدميّ لا تختلفُ عن أفكار راسكولنيكوف أو ستافروغين أو فرخوفنسكي الإبن، أو إيفان كارامازوف.

لقد قرأتُ بالروسية حتى ذلك الوقت كلّ اعترافات أئمّة الرواية الغربية عن تأثير دوستويفسكي عليهم أمثال النرويجي كنوت هامسون أو الألماني توماس مانّ أو الأمريكي فوكنر، أو الإيرلندي جيمس جويس أو الفرنسيس أمثال مارسيل بروست أو موریاك أو كامو أو سارتر، ولكنني لم أجد في هذه الإعترافات، ولا في الدراسات المؤلفة عن دوستويفسكي أي إشارة إلى «المجرم الشاحب» فاعتبرتُ الأمر اكتشافاً. وقد اجتمعت مع بوغدانوف

لمناقشة الاكتشاف الذي رأيت فيه تقنيناً لإضفاء الشرعية على الأيديولوجية الراسكولنيكوفية تمهيداً لتأسيس برنامج السوبرمان!

قرأ بوغدانوف ترجمتي للترجمة، ولكنه لم يعلّق في تلك المرّة، بل في مرّة أخرى بعد سنوات عندما دعوته لتناول طعام العشاء في مطعم «باكو» بشارع غوركي، عندما جئت موسكو زائراً أثناء إقامتي ببولندا برفقة صديق. فبعد نقاشٍ طويلٍ صرّح لي بوصيّة ترجمتْ قلقه لا عليّ وحدي، ولكن على الجيل بأسره كما خمّنت تالياً، لأنّه رأى في شططنا وتهوّرنا في الولع بالأفكار خطراً مميتاً لا يختلفُ عن الخطر الذي حاق براسكولنيكوف أو ستافروغين أو إيفان كارامازوف، وهو خطرٌ مخيّبٌ للآمال دوماً، لأنه يراهنُ على ذلك التغيير الذي تأتي به أفكار غالباً ما تكون ضلالاً، فقال في وصيّته القاسية: «أوصيكم أن تكفّوا عن إجراء التجارب على أنفسكم! وأدعوكم أن تحيوا الحياة كما هي لا كما تريدون لها أن تكون!».

لم أكن لأفهم يومئذٍ فحوى الرسالة المبثوثة في وصية هذا الرجل الحكيم. وكان عليّ أن أقطعَ شوطاً آخر في سبيل الأوهام المجبولة بأقسى الآلام قبل أن أدرك كم كان المعلّم بوغدانوف على صواب!

نحن بالأفكار ضحايا، ولكنّا بحياة التسليم قُدسُ أقداس!

6
الدمعة

«دوستويفسكي: بين حُجّة إبليس وحقيقة المسيح».

كان هذا هو موضوع الرسالة الذي استهواني في أدب هذا الحكيم العظيم، ولكنه قوبل باستنكار اللجنة العلمية بوحيٍ من الأيديولوجيا السائدة بالطبع. لقد أشفقت على المشرف الأوّل البروفسور ماشينسكي وهو يجاهدُ لتبرير موقف اللجنة العلمية عندما دعاني لتناول العشاء في بيته المرصّع بكتبٍ تتسلّق الجدران، وتعترض الأبواب، فلا يجد الضيف موطئ قدم خلا من كتاب على عادة الروس الذين يحتالون على ضيق مساحات بيوتهم فيخلونها من كل شيء بما في ذلك الأثاث ليفسحوا المجال لحضرة الكتاب!

كان المقام قد استقرّ بي بوارسو وقتها، وجئتُ إلى موسكو لمناقشة موضوع الأطروحة بعد أداء امتحاناتها في مرّة سابقة. وكان الخطر الأول في اختيار دوستويفسكي أساساً بسبب الحظر الأيديولوجي. وقد حاول الأساتذة ونائب العميد غالانوف إقناعي

بالعدول عن هذا الاختيار، ولكني كابرتُ انطلاقاً من مبدأ. قلت لهم أن الشهادة كوثيقة علمية خارج اهتماماتي، ولكن الغاية هي البحث في أدب مبدعٍ استهواني مبكّراً، وكان لي في مغامرة المجهول دليلاً. وقد استجابت الهيئة العلمية على مضض ليقينها أن أي موضوع تعلّق بدوستويفسكي هو حقل ألغام في ظلّ موقف الأيديولوجيّة السائدة. وكانوا على صواب. ولكن كونهم على صواب لم يقنعني للتخلّي عن موقفي لأني لا أعلم كيف يستطيعُ باحث أن يتناول أدب هذا المارد (أو هذا «**الآثم العظيم**» كما كان يريد أن يكتب عملاً بهذا العنوان لو أمهلته الأقدار، لأن كل أعماله يمكن أن تنضوي تحت راية هذا العنوان فيما إذا تأمّلناها مليّاً انطلاقاً من هويّتها **كجدلٍ** دامٍ بين الإثم والقداسة، بين ستافروغين وشاتوف، بين راسكولنيكوف وسونيا، بين الله والشيطان. وهو صراعٌ يحتدمُ في **شخص** دوستويفسكي الإنسان قبل أن ينشب بين النماذج التي يمثّلها أبطاله). ذلك أني اخترتُ العنوان بعناية استثنائية انطلاقاً من حُجّة إيفان كارامازوف الشهيرة في حواره مع شقيقه إليوشا بعد فراغه من رواية أسطورته الرهيبة عن «**المفتّش الأعظم**» التي صارت حُجّة الأجيال الأدبية بعدها، بل وحُجّة الفلاسفة الروس أيضاً (فلاديمير، سولوفيوف، وبريديايف، وغيرهم) إلى جانب كونها إنجيل الوجوديّين الأوروبّيين تالياً. إنه الحوارُ الذي أنتج الموقف الشهير عن الدمعة. بل سرّ الأسطورة المرجعية إنما كان في الدمعة. دمعة

الطفل التي لا يستطيعُ العالم أن يكفّر عنها حتّى لو قدّم نفسه قرباناً لشراء غفرانها. إنها البيّنة التي أعجزت القداسة دائماً وأسّست للنزعة البوليفونية (تعدّد الأصوات) التي يتحدّث عنها باختين كإعجازٍ من اختراع عبقرية دوستويفسكي.

أذكر كيف حاول ذلك الإنسان الوقور ذو الأصول العبرانيّة أن ينقذ ما يمكن إنقاذه بإيجاد مخرج. تحدّث عن **التأويل** طويلاً إلى أن انتهى إلى القول بأن المشكلة في الحرفية الإستفزازية الكامنة في الإسم، أي وجوب التضحية بالعنوان. كان العنوان دوماً نقطة ضعفي. فلم يحدث مرّةً منذ التجارب المبكّرة إلى هذا اليوم أن أفلحتُ في كتابة نصٍّ أو بيانٍ أو رواية دون أن أجد العنوان مسبقاً ليقيني بأن العنوان ليس مجرّد اسم يميّز هذا الكتاب عن ذاك الكتاب، ولكنه الخطاب السرّي. الشفرة الخفية التي توحي بالهويّة. إنّه نخاع العمل وعموده الفقري، والتضحية به تعني الضياع. تعني البلبلة، والتّيه عن الصراط المستقيم. العنوان للعمل الأدبي إيماءٌ دينيّ لا يختلف عن الإيمان في قلب الإنسان. إنه ضمير العمل.

ماشينسكي أضاف ليلتها قائلاً بعد أن خيّب التشبّث بموقفي ظنّه: «لو ظلّت لجاننا العلمية على ثرائها القديم بعقول أمثال باختين لما واجهنا مشكلةً كهذه، ولكن جيل هذا الرعيل يأبوا إلاّ أن يغادروا!» خلته يتحدّث عن مغادرة العلماء لحرم اللجان

العلمية، ولم يخطر ببالي أنه كان يشير إلى رحيل ميخائيل باختين أيامها عن دنيانا فتساءلت إلى أين يغادرون. فرمقني الشيخ بحزن قبل أن يجيب: «إنّهم ببساطة يموتون!». أخجلني الجواب ليلتها، وخجلتُ أكثر عندما بلغني نبأ رحيله أيضاً بعد أقل من شهر من ذلك التاريخ. لحظتها أدركت أن احتكام الرجل للإستعارة في حديثه عن جيل العلماء الذين يغادرون إنما كان لإخفاء الإحساس بدنوّ الأجل!

آل الأمر إلى أستاذي وصديقي بوغدانوف بعدها فصارحني بضرورة التخلّي عن موضوع الرسالة برمّته، لأن موضوعاً كهذا يصلح أطروحةً يمكن الدفاع عنها في أيِّ بلدٍ غربيّ، أمّا في الاتحاد السوفييتي، فلا! وعندما صارحته بقراري في التخلّي قال لي أن هذا لن يكون خطأً إلاّ في حال قرّرت احتراف العمل الأكاديمي، أمّا إذا ظللت على وفائي لمجال الإبداع الأدبي فالتخلّي لن يكون خسارةً بأي حال.

والحقّ أن امتهان العمل الأكاديمي هو ما لم يخطر لي يوماً على بال!

لقد اخترتُ أن أنتصرَ لدمعة دوستويفسكي، مقابل التضحية بشهادة موضوعها دمعة كارامازوف!

7
المناخ

إذا كان شبحُ الغول الأيديولوجي هو الروح الشريرة المهيمنة على مناخ المعهد كمنهج، فإن روح الوسط الثقافي السوفييتي المتململ هو السلطة السائدة على أجواء العلاقات الطلّابية خارج المعهد. فإذا كان القرن التاسع عشر قد مرّ تحت راية الثورة الفرنسية كما يقول المنهجُ الذي تعلّمناه بلسان لينين، فإن العقد الأوّل من سبعينيات القرن العشرين كان يحيا حتى ذلك الوقت تحت الراية الروحية لثورة براغ عام 1968، ويتغذّى أيضاً من الرصيد الروحي للثورة الطلّابية للعام نفسه؛ هذه الثورة التي لم يكن ليكون لها هذا التأثير لو لم تطح بعرش رمز التحرير الفرنسي ديغول، من حيث أخفقت ثورة براغ في الإطاحة بعرش الحزب الشيوعي بسبب التدخّل السوفييتي بالذّات. فالضمير الثقافي السوفييتي الذي تنفّس الصعداء بعد إصلاحات خروتشوف السياسية التي مسّت العصب الثقافي أيضاً بنشر نصوص ألكسندر سولجنتسين الجريئة كـ«يوم عن حياة إيفان دنيسيفتش» مثالاً،

ووعـدت بـانـفـتـاحٍ ثـقـافـي عـلـى الأدبـيـن الأوروبـي والأمـريـكـي المعاصرين كرتجمة أعمال كافكا في طبعة المختارات لعام 1965م لأوّل مرّة، ثم ترجمة مختارات من الأدب الوجودي بأعمال سارتر وكامو ومالرو، وقيام مجلّة «الآداب الأجنبية» بنشر أعمال فوكنر وجويس، ولكن مسيرة هذا التسامح ما لبثت أن تعثّرت بدفن التجربة الخروتشيفية في انقلاب عام 1965 باستلام بريجنيف لمقاليد الحزب بسياسة إعادة العجلة إلى الوراء. هذه السياسة التي بلغت الذروة في نزعتها الثقافية المحافظة بنفي سولجنتسين عام 1974، فخيّمت خيبةُ الأمل على الوسط الثقافي دون أن يفلح هذا التدبير في إماتة الأمل برغم ذلك.

الواقع هو عدم وجود ضمير ثقافي سوفييتي على مستوى النظام إلاّ كضمير أيديولوجي. والعالم كلّه يعلمُ المصير البائس الذي آل إليه الأدب كلّما تنفّس برئة الخطاب الأيديولوجي. وما سُمّي أدباً سوفييتياً أكبر دليل على اغتراب روح ذلك الأدب الذي عرفه العالم في الأدب الروسي الكلاسيكي. فبرغم محاولات السلطة تدجين الأدب بِحُقَن الأيديولوجيا عبر عشرات الأعوام بيد أن تقاليدَ الأدب الروسي الكلاسيكي لم تمت في وجدان الإنسان الروسي. وها هو الواقع الثقافي يتغنّى بأعمال كوكبة من فرسان الرواية الذين استعاروا خطابهم من تقاليد أسلافهم العظماء دون أن يفلح سدنة الأيديولوجيا في كتم أنفاسهم برغم محاولات النظام التقليل من

شأنهم أمثال راسبوتين أو شوكشين، أو بيكول، أو بيلوف، أو زالاتوخين أو زاليغين، أو غيرهم. وزاليغين هو الأديب الذي انتدبه اتّحاد الكتّاب لكي يؤدّي مهمّة الإشراف على سيمينار النثر الذي ينعقد أسبوعياً لمناقشة إنتاج أحد طلبة المعهد لأجد نفسي أحد أعضاء هذا المحفل الذي حسدنا عليه بقية الزملاء من ذوي التخصّصات الأخرى كالشعر أو المسرح أو النقد أو الترجمة الأدبية، لأنهم رأوا في هذا الشرف بسمة حظّ قلّ أن تتكرّر.

ويبدو أن مفعولَ هذا الحسد لم يتأخّر، لأن هذا الروائي الذائع الصيت لم يمكث في رحاب محفلنا سوى عام واحد ليعلن انسحابه مع نهاية أول سنة درسية ليخلفه على تسيير مناقشات السيمينار كاتب آخر من أصل عبراني أقلّ موهبةً برغم أنه لم يقلّ عن سلفه حكمةً هو بيريوسكو. أمّا سبب انسحاب زاليغين المفاجئ، فلا يخلو من دراما جديرة بأن تُروى. فقد تزامن حلوله ضيفاً على سيمينارنا صدور روايته المثيرة للجدل المعنونة بـ«**احتمال جنوب أمريكي**» التي صاحبتها ضجّة في وسائل الإعلام الأدبية. وكان من ضمن مجموعتنا فتاة روسية تتعاطى كتابة النثر وتتمتّع بموهبة تداولت سيرتها الألسن كما يحدث عادةً في معهد غوركي حيث ينتقل الصيتُ سريعاً سواءاً أكان سلباً بفقدان الموهبة أو إيجاباً اعترافاً بحضور الموهبة. وأسوأ ما يمكن أن يواجه مريدُ الأدب في هذا الحرم هو أن ينعت بغياب الموهبة! كما أن العكس

صحيح بالطبع. وفي هذا العكس يكمن الخطر؛ لأن الورمَ اللعين الذي دأب أساتذتنا في الواحات على استئصاله من أرواحنا بالعصا (وهو الغرور) لا بدّ أن يرابط هنا فينعكس على صاحبه سلباً، بل تدهوراً في الحالة النفسية قد يتطوّر إلى الجنون إذا لم يُعالج كما ينبغي (سواء بأسلوب أساتذة الواحات، أو بأسلوب أستاذ كارل غوستاف يونغ). ويبدو أن حالات الجنون التي حاقت بعباقرة كثيرين أمثال ستريندبرغ أو فان غوغ أو رامبو لم تلعب فيها الكآبة الوجودية دور البطولة وحدها، ولكن غياب عصا الواحات أو عقاب أستاذ كارل غوستاف يونغ كان من أسبابها. فقد حدث أن ناقشنا قصّة أحد الزملاء مرّة. وكان أن استأذنت تلك الفتاة أستاذنا طالبةً الكلمة. أومأ لها زاليغين بابتسامة ساحرة كانت له علامة لأنها لا تفارق شفتيه أبداً، في حين استجبنا لندائها بصمتٍ مزموم انتظاراً لرأيها الذي بخلت به دوماً بسبب التزامها الصمت. ذلك الصمت الذي يحوّل مريده قدّيساً في نظر الناس إذا احترفه طويلاً، فإذا قرّر أن يتكلّم مرّةً فلا بدّ أن تشرئبّ الأعناق لأن الكلّ على يقين بأن صوت الله سوف ينطلقُ في لسانه، أي أن الناس سينتظرون من فمه النبوءة!

نحن أيضاً انتظرنا أن نسمع نبوءةً يومئذ: تكلّمت الفتاة. علقّت بلغة مبلبلة، وحجج غير مفهومة حتّى أيقنّا أنها محمومة، وسوف تسقط بين لحظةٍ وأخرى في الغيبوبة. ولكن بدل أن تفقد الوعي

وتريحنا من متابعة الهراء الذي يتدفّق من فمها وجدناها تعرّج على رواية زاليغين المثيرة للجدل لتصبّ عليها اللعنات بأعلى صوت. عَقَدتْ الدهشة ألسنتنا في حين ارتجّت الفتاة في وقفتها بعنف وترنّحت بالهستيريا. انهارت على المقعد لتستسلم لنوبة بكاء كأنها النواح!

لم تختفِ بسمة السّحر من سيماء زاليغين طوال هذه المسرحية. ليس هذا فحسب، ولكنه أمر زميلة الفتاة أن تهرع لتهدئتها قبل أن يواصل مناقشة النصّ قيد الدرس بوجهٍ يفيضُ بشاشةً. أمّا الفتاة فقد غادرت بعون زميلتها إلى الممرّ. ومن الممرّ إلى السبيل الذي لم تعد منه أبداً!

وتجربة مبدع في قامة زاليغين لا بدّ أن تقود إلى سيرة التدريس في المعهد كفلسفة تعليمية مميّزة. هذه السيرة التي يصلح جومبينوف أن يكون لها نموذجاً ردّ الاعتبار لمؤسسة علمية أُريد لها صيتاً منافساً لمثيلاتها الأوروبية لا المعاصرة وحسب، ولكن الكلاسيكية أيضاً؛ أي محاولة بعث الروح في التقاليد الأوروبية الغابرة عندما كان عباقرة الفكر الفلسفي الأوروبي مثل كانط أو هيغل أو هايدغر لا يجدون حرَجاً في ارتياد حرم الجامعات لتلقين الأجيال المعرفة كأنّهم يستلهمون هذا العمل بدورهم من تقاليد الأكاديمية زمن أفلاطون. إنه ذلك التقليد الذي أرسى نظامه سقراط كمتطوّع لا يحترفُ تلقين المعارف لغاية دنيوية، ولكنه

يسخّر حضوره في هذا الوجود لإعلاء شأن معبودة اسمها الحقيقة مثلها مثل أي نبيّ حتى إذا خُيِّر بين التخلّي عن قراءة مزاميره وبين جرعة السمّ المميت لم يتردّد في اختيار جرعة السمّ. جومبينوف صاحب السيماء المغولية القادم من سهوب صحراء غوبي كان مبشِّراً من هذا الطراز أيضاً. وها هو يقرأ تعاويذه السحرية لا علينا وحدنا، ولكن على مريدين آخرين أقبلوا من كل الأركان بعد أن نالوا موافقات خاصّة من رئاسة إتحاد الكتّاب ومن وزارة التعليم العالي كي يفوزوا بامتياز الإستماع إلى خطاب هذا الرسول وهو يروي سيرة الأدب الأوروبّي والأمريكي للقرن العشرين. وجومبينوف لا يروي بالطبع، ولكنّه يغنّي. يتلو. ينشد سارداً شجونه وشؤونه واغترابه، كأنه لا يروي سيرة أدب، أو أدباء، ولكنّه يروي غيوبه. يروي نزيفه ووجوده وحنينه. يقرأ نفسه لنفسه كأن لا وجود لمخلوقٍ سواه في العالم. وهذا الحضور في ملكوت البعد المفقود هو ما جعل منه أسطورة تلك الأعوام برغم صغر سنّه الذي لم يجتز عتبة الأربعين: أسطورة الغياب في الواقع، والحضور في الحلم، هو ما ينفي عن المعلّم هويّة التلقين، ويحوّله في نظر المريدين شهيداً يدبّ على قدمين!

8
المنطق

في تلك الأعوام كانت موسكو قبلةً لساسة العالم بعد أن كانت في الماضي محجّاً يقصده مثقّفو الدنيا. وهي نزعة عبّرت عنها معبودة تلك الأيام فرقة «البتلز» في أغنيتها الشهيرة «محظوظٌ أنت أيها الذاهب إلى أرض السوفييت!». ويبدو أن السرّ كامن في طبيعة التحوّلات الكبرى الواعدة دوماً بتأسيس الفراديس، لأنّها كأعمال جسورة تتغذّى عادةً من حماسٍ مستعار من روح الفنون، في مقابل الأمجاد السياسية التي تقصي الفنون ما أن تحقّق الهيمنة لتستبدلها بأساطين الدعاية ودهاة الديماغوغيا، وطوابير مريدي السلطة المدجّجين بسلاح الأيديولوجيا. فالسياسة لم تكن يوماً عمل مريد الحقيقة، ولكنّها عمل من لا عمل له، أو فلنقل عمل من لا موهبة له، والطفلة الروسية التي قالت لي يوماً أن الإنسان السويّ لا يمارس السياسة لم تخطئ. وها هم فرسان هذه البدعة يحلّقون في سماء العاصمة، فلا تغادر طائرة تقلّ رئيساً حتّى تحطّ

أخرى تقلّ زعيماً. وطبيعي أن يكون لأولياء أمر العالم العربي نصيب الأسد في هذه التظاهرة سيّما في ذلك الزمان الذي بلغ فيه التغنّي بـ«تحرير فلسطين» نبرة الذروة في الخطاب السياسي العربي. وها هم قادةُ المقاومة يلتحقون بالركب ليتداولوا الحضور في حضرة القادة السوفييت على نحوٍ دوريّ. وها هم يتفضّلون بالتقاء الأوساط الطلابية في ندوات سياسية لمناقشة آخر مستجدّات «القضية» ما أن يفرغوا من محادثة سدنة الكرملين. ويحضرني الآن كيف احتدّ النقاش بين الطلبة من جانب وبين ياسر عرفات المصحوب بعدد من زعماء المنظمات الفلسطينية من جانبٍ ثانٍ إلى حدٍّ تجرّأ أحد هؤلاء الطلبة باتّهام عرفات بالخيانة بعد سنوات من أحداث الأردن، فما كان من زعيم منظمة التحرير إلاّ أن عقّب على صحيفة الاتّهام بمحاضرة ساخنة انتهت إلى وعدٍ خطير يقول حرفياً: «إذا رأيتموني يوماً مصافحاً للملك حسين فتلك خيانتي التي تخوّلكم أن تبصقوا في وجهي!». ولكن السياسةَ التي لا تُقيمُ وزناً لوعد، ولا تعترفُ بضمير، ما لبثت أن أجبرت عرفات بعد أشهر قليلة لا أن يصافح الملك حسين وحسب، ولكن أن نكون شهوداً على المشهد الذي جمعهما بالأحضان أيضاً دون أن نعطي لأنفسنا الحقّ في أنه نبصق في وجه الرجل!

ولكن طغيانَ السياسة في الواقع السوفييتي آنذاك لم يكن ليهمّش الثقافةَ على مستوى الداخل الذي كان يشهدُ مخاضاً ثرياً

سواء في حركة الترجمة من اللغات الأجنبية، أو على مستوى زخم الإبداع بأقلام سوفييتية. وإذا كان المناخُ الثقافي العام ما زال مهموماً بالجناح التقليدي للحرية المتمثّل في حرية التعبير، فإنّ همّ الجيل الثقافي البديل الذي يمثّله معهد غوركي أصدق تمثيل كان حرية من جنس آخر. كان مدى القدرة (أو الحقّ) في كسر شوكة المنطق في صلب العملية الإبداعية ذاتها، لا خارجها. أي تحرير الخيال الإبداعي من أسر القوانين المعتمدة في نظرية الأدب كمسلّمات. هذه المسلّمات التي حوّلها التقليد محرّمات يُعتبر العبث بها تجديفاً لا في حقّ الأدب وحده، ولكن في حقّ مبدأ نصّبته الفلسفة معبوداً وهو: المنطق. ولم يكن الأمر ليبلغ تخوم التحريم لو لم تعتنق الأيديولوجية السوفييتية صاحب فلسفة علم المنطق هيغل انطلاقاً من إيمانها بجدليّته (الديالكتيك) كركن أساس للماركسية في تثنية تنتصب فيها المادية التاريخية ركناً ثانياً. وقد لعب الجهل حتّى ذلك الوقت بأعمال كافكا دوراً في تأجيج الحنين للتنصّل من قُمقم الواقع المدجّج بسلطان المنطق، برغم صدور مختارات كافكا عقب الإنفتاح الخروتشوفي عام 1965 في طبعة ضئيلة النسخ هي حكر على صفوة الصفوة إن لم تكن حكراً على بعض المكتبات المغلقة لا بهدف الاطّلاع، ولكن لاستخدامها كمادّة للدراسات النقديّة من وجهة نظر الواقعية الاشتراكية بالطبع؛ وهو ما يعني تحلّيها بنزعة تحليلية هجومية بالضرورة. وقد كان إصدار «مائة عام من العزلة» عام 1972 خطوةً

شجاعةً بشّرت بالتسامح مع نظرية غارودي عن «واقعيّة بلا ضفاف» تتّسع لوجود أدب كابوسي يتزعّمه كافكا، وآخر وجودي يرفع رايته كامو، وثالث تمثّل في تيّار الوعي بريادة بروست. . إلخ. إنه اعتراف خجول بدعوة فكرية ماركسية المنطلق تعود إلى بدايات الخمسينات زمن صدور مؤلف غارودي المرجعي السالف الذكر.

فإذا كان «كل شيء موجود معقول، وكلّ معقولٍ موجود» حسب المقولة الهيغليّة فإنّ الطبيعة الحُلُمية في الفنّ تهفو للإفلات من قيد المعقول والانطلاق إلى آفاق اللامعقول. أي أن الفنّ إجمالاً، في المتن الأدبي خصوصاً، ما هو إلاّ كلمة إدانة بحقّ هذا المعقول الهيغلي الذي تعتنقه الأيديولوجية السوفييتية كقداس أقداس. وما حقّقه كافكا بكسر شوكة هذه المعقولية بتحرير الواقع من هيمنة المنطق كان ثورة حقيقية قلبت قوانين الأدب رأساً على عقب وفتحت لأدب القرن العشرين آفاقاً جديدة لم تكن الواقعية السحرية منذ أستورياس حتى ماركيز سوى شهادة انتصار لها. لقد روى ماركيز معاناته الطويلة في سبيل الخروج من قُمقم الواقع إلى أن اهتدى إلى كافكا ليكتشف المفتاح الذي مكّنه من تحقيق هذه الأعجوبة. ومن حقّه أن يستولي عليه الذهول بعد أن قرأ «التحوّل» ليتساءل محموماً: «أيعقل أن يكون هذا ممكناً؟». والمدهش ليس أن يكون عمل هذا ممكناً وحسب، ولكن أن يكون هذا الفعل (تحوّل الإنسان إلى صرصار) ممكناً بمثل هذه البساطة التي أنجزتها عبقريةُ فنان دقّ مسماراً في نعش المنطق وفي نعش

المعقول ليرفرف بعيداً جدّاً محوّلاً الواقع إلى مادّة أسطورية، ومحلّقاً في رحاب اللاّمعقول الذي يحكم عالماً نأبى إلا أن نسجنه بقوانين المنطق، ونعقله بعقال العقل.

كان الإبحار في فضاء الحلم (تحرّراً من أسوار الواقعية الاشتراكية المميتة) في ظلّ تجارب القرن موضوعاً مركزيّاً في مجادلاتنا بمعهد غوركي. كنّا نتردّد على أسواق الكتب السوداء عَلَّنا نعثر على بغيتنا النفيسة (كافكا، أو ماركيز) المخوّلة أن تكون لنا دليلاً في العثور على المنفذ إلى البعد المفقود. ولكنّنا كنّا نتكلّم دون أن نملك الجرأة على التجريب؛ لأننا كنا نحترف الثرثرة حول الأدب أكثر ممّا نحترف كتابة الأدب!

والواقع أن همّ حرية الإفلات من الواقع ما هو إلاّ إرادة الفرار من حرية التعبير عن الواقع لا في مناخٍ ما زال يُهيمن عليه شبح ستالين وحسب، ولكن في مناخ ثقافي عربي تهيمن عليه عقلية أيديولوجية مستنسخة استنساخاً رديئاً من أيديولوجية السوفييت. وهو همٌّ يجمعنا مع أدباء روسيا ذلك الزمان في وقتٍ كنّا فيه شهوداً على اعتراف العالم بآداب تجريبية كانت إلى وقتٍ قريب مجرّد تقاليع كأدب العبث (أو اللاّ معقول) من خلال تتويج رائده صمويل بيكيت بجائزة نوبل للآداب عام 1969م. لقد كانت الواقعية الاشتراكية تكتم أنفاسَ الجميع بعبادة الحرف وتحوّل الخطاب الأدبي تقريراً أيديولوجياً يميت في النصّ أقدس قيمة

وهي روح الشعر. ولم يكن ترويج سلعة كهذه بالعمل الهيّن لو لم يجنّد النظام آلته الدعائية الهائلة دعماً لهذا الخطاب الذي لم يعد رسالةً جمالية، أو وصيّةً أخلاقية تبشّر بالحقيقة، ولكنّه تحوّل مجرّد أداة تؤدّي وظيفةَ السلاح في حربٍ أيديولوجية. وكان على من شاء أن ينجز أدباً أن يحيي الروحَ المغتربة في الحرف المستبدّ دون أن تهدينا تجربتنا الهشّة إلى الحقيقة: حقيقة أننا لم نتألم بعد بما يكفي كي نكتب أدباً حقيقياً. ولو تأمّلنا حُجّة كافكا في رواية مرجعية كالمحاكمة بعقليّة أقلّ طيشاً لاكتشفنا أنّها أبعدُ دلالةً من مجرّد إدانة عالم السلطة الدنيوية في بُعْدها كطغيان سياسي، ولكنها إدانة لتلك السلطة الميتافيزيائية التي استصدرت بحقّنا حكماً مسبقاً بالإعدام على جُرمٍ مجهول، أي أنّنا ضحيّة لجورٍ ميتافيزيائي لا سبيل لتبرئة ساحتنا من قصاصه لسببٍ بسيط وهو جهلنا لطبيعة التهمة الموجّهة إلينا، بل وجهلنا للجرم الوارد في صحيفة الاتّهام أصلاً. والروح العبثية تكمن في استحالة الدفاع عن النفس ضدّ خصم مجهول مسلّحاً بتهمة مجهولة طلباً للقصاص عن جرم مجهول. إنّها الأليغوريا التي يجب أن تكون موضوع كلّ عملٍ أدبي حقيقي، وميتافيزيائيّتها هي ما يبيح لها أن تستعيرَ جرأة تتحدّى حرف الواقع بكسر شوكة المنطق دون أن يكون ذلك مبرّراً للمساس بالقوانين الكلاسيكية للإبداع.

9
الموت

في رحاب المعهد عرفت الروائي العراقي برهان الخطيب الذي سبقني في الإلتحاق بسنة دراسية أو سنتين، وكنّا نتأمّل الواقع الثقافي السوفييتي دون أن يفوتنا تسقّط أخبار الواقع الثقافي العربي أيضاً. وكنّا نعود من رحلاتنا الموسمية إلى الوطن بما استطعنا الحصول عليه من آخر الإصدارات العربية الفائزة باهتمام الأوساط الثقافية، فنتبادل الكتب لنجد مادّة لحوار يغذّي فينا الإحساس بالتواصل مع مناخنا الثقافي المفقود. وأذكر أنه كان أوّل من أعارني رواية عبد الرحمن منيف «عن الأشجار واغتيال مرزوق» التي كانت موضوع احتفاء النقد العربي آنذاك، وقد صارحته بخيبة أملي عندما طلب رأيي مترجماً في عبارة لم أنسها لا لتعبيرها على حقيقة هذه الرواية وحسب، ولكن لأن برهاناً استحسنها واعتبرها أصلح عنوان على روايات تلك الأيام، وهي: «فقّاعة صابون».
فهل كان ذاك حكماً جائراً؟ لا أدري، ولكن ما لم أنفيه هو أنّه حكمٌ وفيٌّ لزمانه. إنه استجابة لروح الزمان الرومانسيّ وتلبية لنداء

جيل يبحث عن واقع يقع في بعد أبعد من الواقع. ومن الطبيعي أن تنتج هذه الروح عقلية نقدية ترفض أدباً لا يطيرُ بجناحين. بل ترفض كلّ أدب لا يحلّق بألف جناح. لأنه بدون استعارة الألف جناح يستحيل تحقيق المستحيل. بدون الألف جناح الأسطوري يستحيل تحييد العقبة. يستحيل افتضاض ختم الزمان والمكان للخروج إلى ساحة البعد المفقود. والأدب الذي يزحفُ في الأحاضيض زحف السلحفاة مشدوداً إلى حرف الواقع بألف قيد، مسمّماً إلى جانب ذلك بروح الأيديولوجيا المميتة، أدب لن يشفي غليلَ الجيل الظمآن إلى تلك الحرية التي لا تُنال إلا بالبعد المفقود المجبول بسيماء الموت. بلى! الموت كان هاجسَ تلك الأيام. الموت كان معشوق تلك الأيام. كان معبوداً في زمانٍ حقّ لنا أن نخلعَ عليه لقب «الفطحل» الذي راق الأوائل أن ينعتوا به زمن التكوين عندما كانت الأحجار طريّةً. وعبادة الموت كانت جزءاً من تكوين الروح الرومانسية أيضاً، لأن من آلى على نفسه أن يتنفسَ أدباً، ويقتات أدباً، ويترنّم أدباً، لا بدّ أن ينتهي به المطاف إلى عبادة الموت ويستمرئ الانتحار في زمنٍ كان ما يزال تخيّم عليه ظلال تجربة همنجواي. هذه التجربة التي غذّت في جيلنا عطشاً غيبيّاً إلى الخلاص مستنزلةً مسوحاً شعرية مغرية على الانتحار. هذا الانتحار الذي لا بدّ أن يكون عقيدةً لكلّ جيلنا الذي تعشّق دوستويفسكي. إذْ لم يحدث أن روّج مبدع لنزعة الانتحار ليجعلَ منها أسطورة الخلاص كما فعل هذا الكاهن

الرهيب بنموذج كيريلوف في رواية العصر النبوية، ورواية كل العصور «الممسوسون». بلى! لقد أحببنا الموت لأننا أحببنا كيريلوف، وعبدنا الانتحار لأننا كرهنا الخوف من الموت كما يروّج كيريلوف. فلا يتنادم اثنان في محفل معهدنا إلاّ ليكون كيريلوف ثالثهما. ويكون شبح همنجواي رابعهما. أمّا «الآثم العظيم»، أما دوستويفسكي، فتحوّل مهلماً يسكننا، ضيفاً لا يفارقنا على نحو يذكّر بزيارات إبليس الليلية لخلوات نموذجه الرهيب الآخر إيفان كارامازرف. لقد كنا نسكن الرواية أكثر مما نسكن الدنيا، ونحيا نماذج الروايات أكثر ممّا نحيا الحياة، ونتغذّى أفكار الروايات لتسري فينا وصايا الأدباء أكثر مما نتعلّم من الواقع، لأن الواقع لا يغتربُ في رؤيتنا إلاّ لهذا السبب. حضورنا في الأدب كان سرّ عدم وجود الواقع، وعلّة عدم الاعتراف بالواقع كواقع. وكان من الطبيعي أن يحصد هذا الإيمان ضحايا. وها هو مريدُ الموت الموهوب الذي دأب على كتابة متون مميّزة نالت اعتراف الجميع يطوف علينا في أحد الأيام مودّعاً بعد أن ارتدى هنداماً غاية في الأناقة لأنه قرّر أن يذهب في رحلة إلى رحاب القوفاز ليفاجئ الكل في اليوم التالي وقد بلغ تخوماً أبعد من رحاب القوقاز بما لا يقاس: لقد عُثر على الشقيّ معلّقاً في السقف بحبلٍ بكامل أناقته التي لم يعهدها فيه أحد! ويبدو أن قنّاصي التفاصيل في محفلنا الأدبي انتهزوا الفرصة فتأمّلوا ظاهرة الأناقة انطلاقاً من أهمية التفاصيل في النصّ الأدبي، فتساءلوا عن سرّ المنتحرين

الذين يولون عادةً أهمية استثنائية للهندام والاستحمام والعطور كلّما قرّروا أن ينتحروا كأنّهم في شكّ من قدرتهم على التخلّص من لعنتهم التي لم تكن يوماً سوى هذه القشرة التي يمثّلها جسدهم، فما كان من أحد الخبثاء إلاّ أن احتكم إلى إنجيلنا في كلّ ما مسّ قضيتنا المركزية آنذاك (الانتحار) منبّهاً إلى موقف كيريلوف الذي لم يحلم يوماً بشيء كما حلم باللحظة التي سيحقّق فيها الخلاص الأخير بالانتحار، ولكنه عندما حانت هذه اللحظة ووقف في مواجهة الجلّاد الحامل لوصية الخلاص إرتدّ. إرتدّ لا خوفاً من الألم كسبب وحيد يفزع من الموت، ولكن بسبب الشكّ. الشكّ في صواب خلع الجسد كما يخلع الثوب كطريق خلاص. ولكن هل هو الشكّ حقاً؟ السبب يقيناً ليس الشكّ، ولكنه اليقين. السرّ الكامن وراء العناية بالجسد وشأن الجسد قبل الرحيل هو كلمة حنين، بل نشيد مديح في حقّ الجسد، وترجمة صريحة ليقينٍ نحسّه ولا ندركه يؤكّد عدم وجود بديل لهذا الثوب الذي نخلعه هنا ظنّاً منّا أننا نستطيع أن ننال حضوراً في أيّ مكان بغيابه. هذا إذا كنّا نعترف بحضورٍ عندما نتحرّر من حضورنا فيه!

هل كان الهوس بالبعد المفقود سبب عبادة الموت، أم أن الهوس بهذا البعد هو طُعم الضلال؟ أم الحضور في البعد المفقود هو ما يهب الحياة ذلك العمق الذي يجعلها جديرةً بأن تعاش، لأن مَنْ لم يعش تجربة الميلاد الثاني إنسانٌ ضائعٌ حتى لو سلخ من العمر ألف عام تيمّناً بوصية همنجواي التي تقول أننا لا نفلح

في كتابة أدب حقيقي ما لم نحدّق في الأبدية؟ بلى! الحياة من جانب الموت دوماً ألذّ طعماً. الحياة برؤية عين الموت أصدق. الحياة تحت رقابة الموت أثرَى. الحياة المجبولة بروح الموت أنبل لأنها رهينة حرية: حرّية هي حميمة حقيقة. فأين هو الخلل في نظام عالِم تعبد فيه الصفوة رسول العدم هذا؟ الخلل موجود بالطبع. الخلل وليد عطب كوني عاشه القرن بأكمله. عطب أحدثته الثوراتُ الكبرى (آخرها الروسية، ثم الصينية، ثم الكوبية) وحروب كونية بدايةً بالأولى، ونهايةً برعب القنبلة النووية في الثانية. ومن لم يعش رعب أن يدخل الكون كلّه في حربٍ يقتل الكلّ فيها الكلّ لن يكتب له أن يفهم مدى العطب النفسي والوجودي الذي سينتج عن هذه القيامة المجانية المفاجئة. إنها الكارثة التي أطاحت بكل القيم التي هدهدتها الإنسانيةُ على مدى ألوف الأعوام، وكانت كفيلةً بأن تزعزع ثقة البشرية في السلطان الذي نصّبته على نفسها ربّاً وهو: العقل!

وكان من الطبيعي أن تصيب الصدمة الفئة الأكثر حساسية في هذا النظام البشري وهي أهل الثقافة. لقد حرث شبح الإبادة الشاملة الناتجة عن استخدام القنبلة الذرية جرحاً عميقاً كان ينزفُ حتى ذلك الوقت بغزارة. وهو شبح لم يختفِ من مسرح الواقعة لأن بعبع الحرب الباردة سرعان ما انتصب بديلاً يتوعّد باستدعائه في أيّ لحظة.

ولهذا حقّ لنا أن نتغنّى بالموت لا ترفاً، أو استهانةً بالحياة،

ولكن لأننا نريد حقاً أن نجرّب الموت. نريد أن نحيا الموت كما جرّبه من ذاقوا طعمَ الموت. نريد أن نجرّب الموتَ لأننا لا نعدّ أنفسنا أفضل من الجموع التي التهمتها أفرانُ المحارق، أو الملايين التي صرعتها نيرانُ الحمق السياسي الإجرامي الذي أشعل فتيلَ الحروب، أو الملايين التي قطفتها فقاقيعُ السلاح النووي. إنه الإحساس القديم بوجوب القربان. الإحساس بوجوب التكفير عن جرمٍ لم نرتكبه، ولكن عدم ارتكابه لا ينفي مسؤوليتنا عنه. كنّا نتوقّ لخوض تجربة الموت تكفيراً عن حمقٍ ميتافيزيقي لا يختلفُ عن الخطيئة الأولى. لا يختلفُ عن جرم آدم في حقّ السلالة الإنسانية. كنّا نرى أنفسنا مسيحاً يهفو لحمل الصليب الذي سيشتري به الخطيئةَ الأولى؛ لأن الحرب النووية الحاملة لكارثة الإبادة الجماعية هي قيامة لا تختلف في يقيننا عن جريمة الطرد من الفردوس. فالموت إذا كان في ناموس الأحياء كعب أخيلوس الذي يحيل هؤلاء أمواتاً يدفنون موتى، فإن الموت في عرف الأدباء هو شعرةُ شمشون التي تحيل هؤلاء شهداء على قيد الحياة.

10

السخرية

وإذا كان الموتُ شعرةَ شمشون لنا كأدباء، فإنّ أشياخَ الصحراء الكبرى كانوا لي بمثابة كعب أخيلوس. بلى! أشياخ صحرائي الحكماء نقطة ضعفي المركزية. وإذا كنت أتحجّج بزيارة الأهل في الجنوب كلّما حللت ضيفاً على الوطن، فإنّ المثولَ في حضرة هؤلاء الكهنة العظماء كان بالنسبة لي قدس أقداس. إنه الظمأُ الخالد إلى روح الصحراء. إلى روح الصحراء المسكونة بنبض التكوين. روح الصحراء التي لا تسكن أحداً كما تسكن هؤلاء. إنهم مستودعُ الأعراف التي غذّت أنبل تقاليد هذا الوطن النبيل على مدى أجيالٍ وأجيال. إنهم خزنةُ الوصايا التي أجارت قبائل الصحراء من الضياع. إنهم تلك الأطياف التي تستعيرُ شفافيّتها من شفافية أرواح الأسلاف الهائمة في الخلوات، وتجير الصحراء بحكمتها، فإن أعجز الحكمة صيانة الصحراء احتكموا إلى القوّة ليحموها بسيوفهم. وأعترف أن لمجالسة هؤلاء يرجع الفضل في تلقيني درس الصحراء. درس الصحراء المجبول بروح الأسطورة

التي صارت لي في كل المراحل إنجيل حياة، برغم أنها لم تستقم في متون الإبداع إلاّ تالياً لأن ترويض الأسطورة هو الاختبار الأعسر منالاً في تجربة كل مبدع يحلم بجني فاكهة البعد المفقود.

والأشياخ لا يلقّنون الوصايا عبارةً، ولكن مثلهم مثل أهل الكهانة يفعلون إيماءً، وحتّى صمتاً؛ لأن صمت الحكيم وحده دلالة. صمت الحكيم وحده قداسة. صمت الحكيم القداسة المستعارة من صمت الغيوب. من صمت الربوبية. فإن لم تلقّن الإشارة تولّى الأمر المسلك الأخلاقي. فسيرة هؤلاء الدنيوية وصيّةٌ حيّة، درسٌ متنقّل، خطابٌ مترجمٌ في حرف الحضور. إنه الناموس الذي حملته الدياسبورا معها إلى أوطانٍ كثيرة ليتحوّل متناً لديانةٍ في مصر القديمة: متن «آنهي» كدرس أخلاقي استعارت منه ديانات التوحيد (وغير التوحيد) وصايا العهد القديم مترجمةً في نصّ الوصايا العشر. إنهم سدنةُ معبد الروح الذين علّموا الأجيالَ الخصال الأخلاقية التي يروي بلوتارك كيف كان ديناً اعتنقه جناح الدياسبورا، الذي انطلق شمالاً في رحلة البحث عن الغيوث كالإسبارطيين الذين لم يحرّموا استبدال اللحون إلا ليقينهم بأن اللحنَ ليس ترانيم لدغدغة الإحساس بالطرب، ولكنها ترجمة لإيمان، وابتهالٌ مرفوعٌ إلى رحاب الربّ؛ واستبدالها ليس عبثاً بقيمتها الدينيّة وحسب، ولكنّه إماتة لروح الذاكرة الأخلاقية في وجدان الأمّة. كما لم يرث هؤلاء التحريم الآخر القاضي بحظر

ممارسة التجارة إلا لعلمهم يقيناً بالطبيعة اللاّأخلاقية لهذه المهنة المُهينة، والدليل هو اسمها المنكِر الذي تقول ترجمته من لغة مغتربة كالسومرية ما تزال لغة القوم مسكونة بشفرتها في كلمة «تامكارّا» الدّالة على معنى: «المكيدة»؛ لأن ما هي الصّفقة التجارية إن لم تكن مكيدةً مدبّرةً وعلنيةً حقاً؟ ومن هو مريد التجارة إن لم يكن لصّاً حقيقياً كما تقول كلمة «مكر» السومرية أيضاً إذا ترجمناها من لغة القوم، وهي المصطلح ذاته الذي عبر الآفاق إلى أوطان السند لتستعيره السنسكريتية بالدلالة ذاتها. فالوصية موروثة من ثقافة الصحراء لا حرفاً وحسب، ولكن عملاً أيضاً؛ فأهل هذه الفطرة المجسّدة الملقبة في ألسنة الأمم بالصحراء لم يحتقروا هذه الحرفة الملوّثة بالغش إلا لاستنكارهم البدئيّ لهويّتها اللاأخلاقية، بل واستنكارهم لحقيقتها كوساطة آثمة لأنها لا تختلف عن ممارسة الوساطة في العلاقة بين رجل وامرأة، أي القوادة! وهو ما أجبرهم على سنّ الناموس القاضي بفرض المكوس على القوافل التجارية العابرة لأوطانهم دون المشاركة في الغنيمة بعقد صفقات تجارية. وهي مكوس رمزية ليست مفروضةً على أرباب القوافل مقابل عبور الأرض بقدر ما فُرضت مقابل توفير الحماية للقوافل من قطّاع الطرق، وأقول «مكوس رمزية» لأن القومَ ينفقون على هذه القوافل من مواشيهم وقوتهم أضعاف ما يتلقّونه كرسوم عبور، أو مكوس حماية، لأن الإنفاق على

استضافة الغرباء بسخاءٍ دَيْنٌ في رقبة قوم يؤمنون بهذا الطقس دِيناً كما يروي الإخباريون وقدماء الرحّالة الذين عبروا الصحراء في العصور الوسطى!

ولكن أي فلسفة أخلاقية يمكنُ أن يخفيها تقليد كالإمتناع عن طرق الأبواب، أو الترفّع عن الدخول في خصومات مع أهل الجوار بسبب شجار الصغار؟ الجواب: طرق الأبواب عدوانٌ سافرٌ على خلوة إنسان أقفل على نفسه باب حرّيته. إنه فعل استباحة لحرمة إنسان قرّر أن يعتزلَ ليتلو صلواته في محراب حريّته. فنحن لا نتخذُ لأنفسنا بيوتاً لتجيرنا من تذبذب مزاج الطبيعة وحسب، ولكن لنخلو لأنفسنا. والخلوة رديفٌ حريةٍ شرعيّ. وإذا كنّا نُدخل إلى هذا المحراب شريكاً فإنما نفعل لكي نبادله عزلتنا. لنتبادل معاً عزلةً بعزلة، لأنّ فعلَ التماهي الذي يستوجبه ازدواجٌ مبرم بين ضدّين بموجب عقد قران لا يتحقّق بدون هذه الصفقة: صفقة تبادل العزلة التي لن تعني في النهاية سوى تبادل أنبل غنيمة في هذا الوجود وهي الحرية. لهذا السبب يقدّسُ الأوائل خلوةَ الإنسان فلا يبيحُ لنفسه الذهاب لقرع باب بيته (سواء أكان ملفّقاً من طين أو من جلود أو من قشّ) طلباً لحاجة سواء أكانت هذه الحاجة ذات طبيعة دنيوية أو ذات هوية دينيّة، لأن الامتناع هنا هو الممارسة الحقيقية للطقس الديني. أمّا الزهد في الدخول مع الجار في مهاترات بسبب مشاجرات الصغار فلا يخلو من دلالة أوجدها

دين الفطرة أيضاً واعتنقها الإسبارطيّون كما اعتنقها أهلُ الصحراء. فإذا شاهد أحدهم جاره يؤدّب سليله عبّر له عن امتنانٍ بدل أن يهرع لنجدته لينتشله من بين يديه. وهو لا يفعل من باب ضبط النفس، أو التحلّي بالتسامح، ولكن عن قناعة أصيلة مؤدّاها أنّ الجار إنما يقومُ بالواجب نحو ذريّة هي ذخيرة القبيلة. يقومُ بواجب ذي طبيعة تأديبية، ذي طبيعة تربوية، أي أخلاقية، لعضوٍ في القبيلة يختزلُ في شخصه الجيلَ المقبل بأكمله. وهو بهذا الفهم لا يكتفي بهذه الفضيلة، ولكنه يضيفُ لمأثرته رصيداً آخر عندما يتولّى الأمر تطوّعاً. أي أنه يقوم بدور الأب بدون حاجة لتفويضٍ من الأب. وهو ما يعني أنه يستعيرُ دورَ الأب، يستعيرُ صلاحيات الأب لأنه ليس بحاجة لوصاية بالإنابة كي يؤدّي واجباً نحو ابن ضلّ، ولكنه هو الأب. وإذا أعطى لنفسه الحقّ في أن يرى نفسه أباً فإن الابنَ الذي يقعُ عليه فعل القصاص هو بمثابة ابن، بل هو منذ هذه اللحظة ابنه أيضاً!

إنه انضباط مستوحى من ناموس أناسٍ لصيقون بالطبيعة التي لم يروا فيها خصماً كما رأى إنسان الاستقرار، ولكنها كانت لهم دوماً تلك الأمّ التي لم يكن ليحتقروا أمّة الفلاّحين لو لم يعمل هؤلاء على انتهاك حرمتها آناء الليل وأطراف النهار بدل أن ينالوا ما تهبهم طوعاً كما اعتادوا هم أن يفعلوا.

من العلاقة الحميمية بهذه الأمّ تعلّم أشياخنا أفدَح أجناس

التضحية أيضاً. وها أنا أمثل في حضرة حكيم الزمان خليفة حاكم خلّ أبي الحميم ورفيق رحلته الدنيوية الدامية عبر عشرات السنين. أمثل في حضرته كلّما عدت إلى الوطن، كما أمثل في حضرات أمثاله (على قلّتهم) برغم تناثرهم في واحات الصحارى الجنوبية الواقعة بين غدامس في الشمال الغربي إلى غات وأوباري في الجنوب مروراً بـ«آدري» الشمال و«آدري» الجنوب. ولكن خليفة حاكم كان للأشياخ دوماً نموذجاً مميّزاً، لأنه من طينة هؤلاء الأكابر الذين إذا عرفناهم مرّة فلا نملك إلاّ أن نحبّهم إلى الأبد. فعلاوة على كونه مستودع خبرة دنيوية قاسية، متوّجة ببطولات أزمان الفروسية بيد أنه قلبٌ ثريّ يفيضُ رحمةً لا تتناسبُ مع تجاربه المميتة. وعلّ السياق هنا هو صاحب الفضل في ما عَنَّ لي أن أرويه اختياراً من مخزون تجريبه الغنيّ، لأنه يشفي غليلَ كلّ ظامئ لمعرفة موقف ديانة الفطرة من مملكة الطبيعة كأمّ تراجيدية: تراجيدية في حقّ نفسها إذْ تجد نفسها مجبرةً في كل مرّة بالتضحية بالفرد الذي أنجبته من صلبها كلّما حتّمت الضرورة الاختيار بينه وبين النوع. وشيخنا المجبول بروح السخرية أصدق مثال على ذلك. وهي سخرية تبدو عزاءً في دنيا تدين بباطل الأباطيل، ولكنها تنقلبُ لعباً بالنار عندما لا نعلمُ هويّتها كدمية مفضّلة في كفّ القدر. وها هو الشيخ خليفة يستخدم هذا السلاحَ في مبارزة استخدم فيها الخصم السلاح نفسه، وحجّته في ذلك هي الدفاع عن النفس. فقد أجبرته بليّة الجدب في صحراء الشمال إلى شذّ

الآفاق نحو بلاد «آير» في الجنوب في زمنٍ لم يشهد بعد تمزيقَ جسد الصحراء بمكيدة الحدود. هناك مكث بضعة أعوام مغترباً، ولكنه ما لبث أن شدّ الرحال عائداً ما أن اشتمّ رائحة الغيوث في أنفاس الشمال. عاد برفقة قافلة رجل مغلول بلعنتين: لعنة خيانة الناموس بممارسة التجارة، ولعنة أخرى تمثّلت في عصيان وصيّة ورثها عن سلفه يقول حرفها: «إذا فرض عليك الضلال أن تمتهنَ التجارة فإيّاك أن تحترفَ تجارة رأس مالها كائن حيّ سواء أكان إنساناً أم حيواناً!».

ولكن لسوء حظّ الوريث أن يحيا في ذلك الزمن الذي شهد كساد أنفس سلعتين رائجتين بين أعالي الشمال وأسافل الجنوب وهما التبر وقرينهِ الملح (أي سمّ الروح وسمّ البدن كما راق أئمّة الطرق الصوفية أن يطلقوا على هذين الكنزين)، فلم يجد الوريث مفرّاً من أن يخالف حرف الوصية الموروثة بممارسة التجارة بإحدى بضاعتين لم يشأ الزمان أن يُفقدهما سحرهما بَعْد وهُما: الأنام أو الأنعام، أو بعبارة أخرى: **العبيد** أو **القطعان!** فاختار أهون الشرّين: وهو القطعان من إبل أو أبقار أو أغنام. وكان عليه أن يكتشفَ غلطته بالطبع في أول امتحان ليدرك صوابَ الوصية، بل سرّ الوصية. فقد نفق نصفُ القطيع في الطريق إلى أوطان الشمال. نفق نصفُ القطيع في بيداء «تينيري» عطشاً وجوعاً ليقرأ الوريث الرسالةَ المخفيةَ في وصية السلف بعد فوات الأوان.

اكتشف أن المتاجرةَ في رؤوس الكائنات الحيّة ليس تجديفاً في حقّ ناموس الأسلاف لأنه إهانة للروح وحسب، ولكن لأنه قراءةٌ حكيمة لسليقة الصفقة التجارية التي تقدّس الربحَ ولا تعترف بالخسارة؛ والكائن الحيّ (سواء أكان إنساناً أم حيواناً) في هذه الصفقة خسارة بسبب هشاشة طبيعية يعدم حضورها في الأجرام الميتة كالتّبر أو الملح أو ما شابه. وهو سرّ ملفوف بغموض ديني لم يكن الملهوف بحسابات الربح والكسب أن يفكّ له طلسماً.

وهكذا ركب الرجلُ رأسه وعرف كيف يقف على قدميه ليعيد الكرّة مستفيداً من عيوبِ الكبوة الأولى، ومن وصايا أهل التجارة الذين زكّوا له الكبوةَ كضريبة تُدفع للقدر كما تُدفع المكوس للسلطات لتسهيل أمر الصفقة. أي أنها قربان! وقد أفلح الرجل بالفعل في الرحلة التالية ليعتنقَ دينَ السّخرية. فلولا هذا الدين لقصمت الخسارة ظهره. ولكنه ارتكب خطأً مميتاً لأنه ترجم هذه السّخرية حرفاً بدل أن يحتفظَ بها سرّاً. أقدم على ترجمة السخرية استهزاءً يجري على اللسان على طريقة فئة الحدّادين الشقيّة فأذاع السرّ. وقد استخدم سمّ اللسان هذا في الاستخفاف برفيق رحلته خليفة دون أن يخطر بباله ما يخفيه قلبُ هذا المهاجر الذي لم يكن ليغترب لو لم يخفِ في القلب سرّاً. وتشاء سخريةُ القدر أن يكون هذا السرّ الذي يخفيه رفيق الرحلة هو السّخرية أيضاً. ولكن

الفرقَ بين سخرية علنيّة وأخرى خفيّة كالفرق بين السرّ المعلَن والسرّ المكنون!

في الطريق الطويل إلى «آزجر» ظلّ صاحبُ القطيع يلذع خليفة حاكم طوال الوقت حتّى أدركا تخوم صحراء الشمال بعد رحلة شاقّة استغرقت ثلاثة أشهر. في برزخ هذه التخوم الغنيّة بالكلأ والمياه قرّر مريد التجارة أن يلتقطَ لنفسه ولقطيعه الأنفاس، فاستغفله المهاجر وانسلّ ليلاً. نزل ضيفاً على زعيم إحدى القبائل ليومين. هناك قرّر أن يترجمَ سخريته المكنونة عملاً فأنجز مع الزعيم صفقة تنازل بموجبها لرأس القبيلة عن كامل القطيع الذي بدأتْ تتبدّى في الأفق فلوله السابحة في الغُبار يهشّها مملوكه المنتصب على ظهر جمل مقابل عملات ذهبية ممهورة بختم الإمبراطورية العثمانية التي كانت قد استعادت سلطةَ السلطان على المملكة الطرابلسية قبل ذلك التاريخ بأعوام. وهكذا صنعت السّخريةُ الخبيئةُ من صاحب السّخرية العلنية مملوكاً في قبضة زعيم القبيلة، ومن القطيع غنيمة في جيب مريد الاغتراب. ولكن الرواة لم يذهبوا بعيداً في تأويل البليّة التي حاقت بصاحب التجارة لأن السببَ كان في متناول اليد كلّما تعلّق الأمر بخيانة الناموس، أو بالاستهانة بوصايا الأسلاف. فهل نجا العمّ خليفة من فعلة الإستسلام لإغواء سخرية هي حكر على القدر؟

القدر لم يمهله طويلاً، وها هو النصل يرتدّ ليقتصّ منه أيضاً.

فقد حمل الرجل معه جرثومةً مميتةً هي الجُذام في أعطاف العودة من بلاد الأغراب. وهي جرثومةٌ يمكن أن تهونَ لو كانت ككل جرثومة، لأن القبائل تستطيعُ أن تتسامحَ حتّى مع وباء كالطاعون، ولكن مع البلاء الذي يتآكلُ فيه الجسد ويتساقطُ فيه اللحم عن هيكل العظم، فلا وألف لا! ولمّا كان العمّ خليفة ذكياً بما يكفي كي يعرف المصير الذي ينتظره فقد تقبّل قدره الذي أقرّه الناموس في مثل هذا الامتحان. وها هو يستسلم لعزلته الأخيرة وهو يرى القبيلة تعدّ العدّة للهرب، لأنّ ضياعَ الفرد، أيّ فرد حتّى لو كان زعيم القبيلة نفسه، أهون من ضياع القبيلة. إنه صوتُ الطبيعة الأم يتكلّم في حرف الناموس الموروث جيلاً عن جيل. يستطيعُ الإنسان أن يهلك كما تهلك العشبة ولكن يستحيل القبول بهلاك الإنسانية (هلاك النبات) مقابل بقاء الإنسان ـ العشبة!

في تلك التجربة مات في خليفة حاكم إنسان ليولد إنسان آخر. هلك إنسانُ السّخرية ليولد إنسانُ التجربة. هلك إنسان الطيش ليولد في شخصه سليلُ أيّوب. سخر القدر سخريته التي ابتعلت سخريات الإنس والجنّ كما ابتلعت عصا موسى حيّات سحرة فرعون، فبعث له خصمه القديم في فنّ السخرية ليكونَ له رسول خلاص. بعث له صاحب التجارة الذي رهن رقبته في أصفاد العبودية ليحرّره: عبد يحرّر سيّداً! فيا لسخرية القدر الذي لا يفوقه في السّخرية إنس ولا جان!

أعترفُ الآن بأن لا شيء استهواني في دنياي كما استهوتني سخريةُ القدر؛ وكان من الطبيعي أن أتأمّل تجربةَ شيخنا العظيم دون أن أفلحَ في التعبير عنها كما يجب أن أعبّر. لا أنكر أنّي استخدمتُ ظلالها في أسطورة «البحث عن المكان الضائع»، ولكني لم أفلح في ترجمتها كتراجيديا نعيشها كل يوم. لقد ذكّرتني هذه السّيرةُ بتجربة دوستويفسكي عن السّخرية في بدايات عهده بالأدب. فقد انتمى إلى حلقة يسارية تخطّط للإطاحة بالسلطة القيصرية يتزعّمها ثائر اسمه بتراشيفسكي. وقد قررت الحلقة أن تبدأ بتأليف معجم ثوريّ كخطوة أولى في طريق تقويض حكم أسرة رومانوف التي تسلّطت على روسيا لثلاثمائة عام خلت. ولم يكن ليخفى على القيصر أمر هذه الحلقة بالطبع لا لفراسة جواسيسه وحسب، ولكن عملاً بوصية حكيم الجامعة التي تحذّر سبّ الحاكم ولو في السرّ لأن الطيرَ سيسمع فينقل له الخبر. ولكنّ الطيرَ لم يكتفِ بنقل الخبر إلى وليّ الأمر، ولكنّه أتاه بنسخة المعجم الثوري محمولةً على جناح. وقيل أن القيصرَ ظلّ يتسلّى بقراءة نصوص المعجم المُعادي أياماً دون أن تفارق شفتيه بسمةُ السّخرية. ومضى يتسلّى إلى أن وقع بصره على تأويل الحلقة لمفهوم السّخرية في المعجم. لم يحتمل القيصر ففزّ من عرشه كاللديغ ليصرخَ بأعلى صوت: «سوف أريكم أيها الأوباش ما معنى السخرية!». وقد أذاق القيصر أعضاء الحلقة (بمن فيهم دوستويفسكي) مرارةَ السّخرية حقاً. لقد أمر باعتقال أفراد حلقة

بتراشيفسكي، وحكم على الجميع بالإعدام! حكم بالإعدام وأوقفهم أمام طابور الرماة ليُرموا بالرصاص. لم يكتفِ القيصر بالحكم، ولكنه أقبل على الساحة ممتطياً جواده مرصّعاً بكافة نياشينه المهيبة ليتسلّى بتنفيذ حكم الإعدام. تسكّع بجواده طويلاً وهو يتلذّذ بمشهد إنسان ينتظرُ تنفيذَ حكم الإعدام. وكان كلّما طال الانتظار أكثر، ومات المحكومون أكثر وأكثر، كلّما استمتع أكثر. ولم يغادر الساحة ليستبدل حكم الإعدام بحكم النفي إلى سيبيريا إلا بعد أن أيقنَ أن هؤلاء البؤساء الذين يقفون في انتظار الموت قد ماتوا بالفعل! ماتوا بموتٍ أسوأ من الموت، لأنّ انتظارَ الموت حكم أسوأ من الموت. لأنّ الخوفَ من الموت أسوأ من الموت.

وأعتقد أن تجربة الوقوف أمام الموت هي التي صنعت دوستويفسكي في ميلاده الثاني. لأن صاحبَ رواية «المساكين» المبكّرة ليس هو صاحب الروايات الخمس الكبرى كما يسمّيها مريدو هذا الرسول العظيم.

بلى! من بُعِث بعد الموت حيّاً وحده يستطيعُ أن يجروَ فيكتب أدباً، بل ويعطي لنفسه الحقّ في أن يكون نبيّاً!

العمّ خليفة أيضاً بُعِث من جديد. ولو لم يولد من جديد لما صمد في وجه المحن التي عصفت به تالياً، بل ولما عاند الدهر ليحتملَ عمراً ناهز المائة والعشرة أعوام كأنه يتيمّن بالرقم الأمثل للحياة الذي سنّه كهنة مصر القديمة كنموذج للعمر الأمثل؛ كأنه

رآهم في غيبوبة امتحانه الرهيب وهم يرفعون الأنخاب ليتمنّوا لبعضهم البعض العمر المديد في عبارة: «**نخب المائة وعشرة!**».
فلماذا عمر المائة وعشرة؟ لأنّ الإنسانَ بعد المائة والعشرة أعوام لن يريد أن يعيش. لن يريد أن يعيشَ لأنّه سوف يبيد. يبيد ليصير فيه العقل قبل البدن خرقة بالية. ولكنه يبقى رقماً مثالياً لا بسبب امتداده الأسطوري، ولكن لأن الإنسان لا يريد **قبلها** أن يموت، كما لا يريد **بعدها** أن يبقى على قيد الحياة. إرادة الموت هنا هي الحُجّة الأولى، وهي المقياسُ الأخير. ولهذا السبب أجاب الحكيمُ السابع من محفل حكماء الهند القديمة الذين جلبهم الإسكندر من غزوته بأن الإنسان **يجب** أن يموت **فقط** عندما لا يريدُ أن يعيش أكثر، جواباً على سؤال الإسكندر: «متى على الإنسان أن يموت؟».

يُقال أن بالوسع الاحتيال حتّى على القدر. والدليل شيخنا الجليل خليفة حاكم الذي استغفل هذا الإله الذي لا تمتلك حتّى الآلهة سلطاناً عليه كما أجاب إله معبد دلفى عن سؤال ملك ليديا كريوز. احتال عليه فاختلس من مكنونه عمراً أسطورياً في وقتٍ ابتلاه بالوباء الذي لم يحدث أن نجا من قبضته مخلوق. أم أن القدر أمهله أياماً أُخَر كي يعاقبه يقيناً منه بأننا لا نهلك إلا بما نحبّ، ولا ننجو إلاّ بما نخاف؟ ألم تكن المنيّة أهون مصيراً من مديد العمر الذي شهد فيه الرجل ابنته الوحيدة يجرفها السّيلُ أمام عينيه؟ ألم يشقَ كثيراً قبل أن يُرزق بوليدٍ آخر حسبه خليفةً له في

الأرض إلى أن اختطفته المنيّةُ في حادث في وقت بلغ فيه من العمر أرذله؟ أليس قصاصاً آخر، أو ميتة في الواقع، أن يحيا حتّى يشهد وفاة أعزّ الأخلّة، وعلى رأسهم أبي الذي كان له أكثر من خلّ والذي دفنه عام 1979 بعد أن كان له **الأنا الثانية** التي يتحدّث عنها أفلاطون؟

لقد أقبل من واحة «آدري» مرفوقاً برفيقة رحلته العظيمة التي كانت شاهداً على فقيدَيها فلم تزعزعها البليّة. جاء إلى أوباري حاملاً على منكبيه عبء المائة عام، مكابراً، صامتاً، صابراً، ككل أشياخ الصحراء العظماء. ولم يتزعزع إلا في اللحظة التي دخلتْ فيها عليه لأصافحه بعد فراقٍ طويل. لحظتها فقط ارتجّ وذرف الدمعَ لأوّل مرّة في حياته على الإطلاق، فما كان من رفيقته إلاّ أن انتهرته بقسوةٍ قائلةً أن عليه أن يكونَ لأبناء الفقيد قدوةً تحتذى لا مثالاً للضعف. كفكف الشيخ دمعه قبل أن يخاطبني يومئذٍ قائلاً: «يجب أن تتذكّروا أنّ مَنْ تيتَّمَ اليوم هو أنا، لا أنتم!».

ألم يقدّم، أخيراً، هذا الحكيم باحتياله على القدر ذلك البرهان الذي عَبَّر عنه كانط عندما قال أنّنا لا نكبر الأشياخ الذين بلغوا من العمر عتيّاً بسبب ثراء تجربتهم الدنيوية بقدر ما نكبرهم لأنّهم احتالوا على القدر فاختلسوا منه قَدْراً أعجز الأغيار؟ أم أنه كان ضحية القدر الذي لا يمهل طويلاً إلا ليسخرَ كثيراً؟

11
الحسناء

ـ النهاية الكابوسيّة أهونُ من كابوسٍ بلا نهاية!

هذه هي عبارة الوداع التي خاطبت بها الحسناء السّلافية سليلَ الضلال الذي أقبل من آخر أصقاع الدنيا يجرجر علامة الربّ في قدمه اليمنى عبر القارات طلباً لفردوس البُعْد المفقود.

تلك كانت تحية الوداع التي وضعت خاتمة الرواية التي لم تكن بهذه الروح الدرامية لو لم تتّسم البداية بروح الرومانسية القرينة لكلّ تجربة عاطفية من جهة نظر روسيّة. وهي الروح الرومانسية التي ترجمتها الحسناء في عبارة كانت جواباً على سؤال يقول: «لماذا أنا وليس أي أحد آخر؟»، فكان الجواب الجسور الذي لا يليقُ إلا بامرأةٍ تعرف جيّداً ماذا تريد: «لأنّك الرجلُ الوحيد الذي لم أقرأ في سيمائه رجلاً يبحثُ عن امرأة لليلة واحدة!».

سيماء رجل يبحث عن امرأة لليلة واحدة! يا له من جواب! ويا لها من ملاحظة تصلح مدخلاً (بل وموضوعاً) لرواية حقيقية:

رواية عبثية! لماذا؟ لأن العبارة كانت تعبيراً شجاعاً وذكياً عن روح العصر، عن روح السبعينات التي بلغت فيها الثورة الجنسية في أوروبا الذروة. وهي الثورة التي أطاحت بآخر عروش الحياء الرومانسي الذي كان دوماً معبود المرأة الروسية. وكان على الجمال السّلافي الموسوم بآي أعمق الآلام أن يستميتَ للدفاع عن أطلال هذا العرش المزلزل بروح استهتار صار تقليعة تلك الأيام.

امرأة لليلة واحدة؟ يا له من جواب عن سؤال كان نتيجة لمفاجأة تلك العادة الماكرة المترجمة في عبارة «الرقصة البيضاء»، التي تقوم فيها النساء بدعوة الرجال للرقص بدل الرقصة التقليدية التي يقوم فيها الرجال بدعوة النساء للرقص بحكم العادة! ففي فصل الشتاء عندما يهجم موسم الكآبة، فنختنق إحساساً بالعزلة، يروق أمثالي أن يبحثوا عن عزاء بشدّ الرحال إلى شارع «أربات» الشهير بمقاهي الرقص ومطاعم تحفل بالحسان. هناك يروقني أن أسترخي بصحبة صديقي محمد التاجوري الأقدم منّي عهداً بالحياة الدنيا وبالحياة في موسكو أيضاً. ففي صيف العام 1971 عدتُ من زيارة لوطنٍ كان قد بدأ الدخول في دهليز قدره الذي قاده في ظلمات اغترابه المَرير والطويل. وتصادف قيام انقلاب هاشم العطا ضدّ حكم النميري في سودانٍ ارتبط مع النظام في ليبيا بمعاهدات تتشدّق بالوحدة حرفاً وتعتنق حمايةَ الأنظمة ضمناً. وها هم سادةُ البلاد الجدد يحتكمون إلى القرصنة الجوية باختطاف طائرة وفد

الحكومة السّودانية الجديدة المتجهة إلى السودان واعتقالهم ثم تسليمهم للنميري بعد فشل الانقلاب ليقومَ الأخير بإعدامهم. تلقيتُ خبر الانقلاب من العزيز محمد التاجوري أثناء تجوالي مع جيلاني طريبشان بشارع الاستقلال. وعندما سافرت إلى الجنوب لتأدية واجب زيارة الأهل، ولتلبية نداء الحضور في حضرة من تبقّى من أشياخ قبائل الصحراء، أبلغني أحد الأقرباء بنبأ وصول برقية عاجلة إلى كافّة نقاط الحدود الصحراوية تفيد سلطات هذه المواقع الأمنية باتخاذ ما يلزم للحيلولة دون فِراري من البلاد عبر هذه المنافذ. وهو فرار لم يخطر ببالي يوماً. وكان يدهشني إصرار هذا النظام، وكذلك النظام الملكي السالف، على خلق أبطالٍ من بسطاء أبرياء جرمهم الوحيد هو أن يحلموا بحرية وسلام. لقد تندّر جيلاني مراراً تعليقاً على مطاردات الأمنية السرية الغبيّة وهي ترصّد حركاتنا وسكناتنا قائلاً: «إن هؤلاء البلهاء لا يتخيّلون أنهم يجبروننا أن نكون أبطالاً لم نرد أن نكونهم يوماً»، وكان يروقه أن يضيف في كل مرّة يتلقّى فيها نبأً جديداً من أنباء تدابير السّلطات ضدّي في زياراتي للبلاد: «يجب أن تتباهى بأنهم صنعوا منك تشي غيفارا دون أن يدركوا!». وكان يعقب تعليقاته بضحكاته العصبية السّاخرة في كلّ مرة، لأنه لا يجد سوى السخرية عزاءً وهو الذي ألصقت به أجهزةُ النظام الملكي التهمةَ ذاتها وهي اعتناق الشيوعيّة، وهي التهمة ذاتها التي ورثها ضدّنا النظام الجديد

ليرفعها سيفاً مسلّطاً على رقابنا في ذلك الوقت المبكّر الذي كان يدّعي فيه معاداة الشيوعية. وكان يدهشنا جداً أن نكون ضحايا أحلام لا تؤذي أحداً، ولا تنوي أن تكون حُجّةً لغايةٍ دنيوية على الإطلاق، لأنّنا لا نخطّطُ لقلب نظام الحكم، ولم ننتوِ نيل السّلطة يوماً، بل ولم نسعَ لنيل أتفه منصب، أو حتّى وظيفة هي حقٌّ تافه يمارسه كل من هبّ ودبّ. فهل احتراف الأحلام عمل هدّام إلى هذا الحدّ؟ كانت روح العداء لكلّ ما له صلة بالثقافة والمثقّفين قد دفعت النظام حتى ذلك الوقت بوضع كل الأدباء في خانة الخوَنة بدون أي مبرّر. وكان على جميعهم أن يحيوا تحت رقابة صارمة ليل نهار، ويُروى أن الشاعر علي الفزاني خضع لاستجواب بسبب إحدى قصائده في تلك الأيام فما كان منه إلا أن احتجّ على المساءلة بسؤالٍ موجّه للمحقّق: «هل سبق وبلغكم يوماً نبأ قصيدة تسبّبت في قلب نظام حكم؟». بلى! لم يكن لحلمٍ منسوجٍ في أبيات القصيد أن يقوّض نظام حكم برغم أنه استطاع أن يدفع فتىً بريئاً عاري الروح إلى الانتحار في تشيلي بعد قراءته لقصيدة بابلو نيرودا الشهيرة، وهو الانتحار لروحٍ عاريةٍ أخرَى كان الفتيل الذي أشعل الحريق الذي التهم أنظمة الشمال الأفريقي بعد نصف قرن من الزمان!

في ذلك العام (1971) عندما عدتُ إلى العاصمة طرابلس كانت جريمة القرصنة قد أثمرت بإعادة النّميري إلى الحكم، فزاول

النظام الفزع من بعبع الشيوعية المزعوم؛ وهو كما برهنت الأيام فزعٌ موهوم، أو فلنقل مدبّر من قبل تلك الأنظمة في عالمنا الثالث (سيّما العربية) التي اعتادت استخدام هذه التهمة (الشيوعية) كفزّاعة لقمع الرأي الآخر في الدّاخل، في حين تحتفظُ بأكثر العلاقات السياسيّة حميميةً مع إمام الشيوعية بزعامة الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية دون أن يفوت هذه الأنظمة الربح الذي ستجنيه بهذه النّزعة في العلاقة مع الغرب في زمنٍ كان يحيا حرباً إعلامية مسعورة لم يُطْلَقْ عليها مصطلح «الحرب الباردة» إلاّ من باب تخفيف نبرة العداوة رحمةً بعالمٍ حديث العهد بكابوس حرب كونيّة لعب فيها السلاح النووي دور البطولة. وهكذا انقلب الوطنُ لمريد الوطن منفى بسبب الملاحقة الأبدية كأنها قدر، لأجد نفسي أفرّ من هذا المنفى إلى المنفى الآخر الذي لم يتحوّل منفى فقط لمجرّد هويّته كأرضٍ تقعُ خارج تخوم الوطن، لكن بسبب الظروف البيئيّة القاسية، والمناخ الاجتماعي المكبّل بأغلال قانون طوارئ ظلّ سارياً فعلياً منذ قيام الثورة البلشفية. ولهذا من الطبيعي أن تصيرَ العزلة عنوان كل مريد حرية، والكآبة هي الوطن البديل للوطن. أفَلَن تكون المرأة في واقعٍ كهذا هي بلسم العزاء؟ ألم يكتشف ميرسو (بطل «الغريب» لألبير كامو) أن المرأة هي الحرية لأنها كانت الشيء الوحيد الذي حرمه منه القانون في سجنه؟ ألم أكن أيضاً سجيناً مميّزاً بوصفي مخلوقاً يحيا بين سجنين اثنين دون أن يحرمه قانون الطوارئ السوفييتي من إدخال المرأة إلى سجنه؟

بلى! المرأة في روسيا كانت عزاء الغرباء باعتراف كل من حكمت عليه الأقدار أن يحيا واقع الاتحاد السوفييتي تلك السنوات. ولهذا راقنا أن نتسلّى مع الصديق التاجوري كلّما ضاقت بي الدنيا واستهوتني فكرة الانتحار. وأعترف أنّي لم أكتشف مدى جاذبية الانتحار إلاّ في تلك الأعوام. في ذلك الوقت أدركت مدى اللذّة التي يستشعرها المنتحرون قبل الإقدام على فعلتهم. اكتشفتُ أن الانتحار ليس جذّاباً وحسب، ولكنه لذيذ. وهو ما يعني أن المنتحرين لا ينتحرون غمّاً، ولكنهم يعفلون وهم سعداء. هذه السعادة التي يعدُ بها الانتحار هي أخطر ما في الانتحار. وكان التاجوري يحدس مثل هذه اللحظات بسلطان البراءة التي يتمتّع بها. كان يقرأ ذلك في سيماء هوية هذا الزائر كلّما أقبل عليّ أو كلّما أقبلتُ عليه فيبتسم بخبث. يبتسم فأبتسم أيضاً ردّاً على ابتسامته. كانت تلك البسمة بمثابة كلمة السرّ للانطلاق. يطوي التاجوري صحفه، ويهبّ واقفاً من كرسيه كإعلان لبدء رحلة الخلاص. رحلة الخلاص إلى حرم البهجة القابع في ركنٍ من أركان شارع «أربات» العتيد الذي كان في عهد القياصرة مأوى لأمثالنا من ضحايا الماليخوليا. في إحدى هذه الغزوات وقفتْ فوق رأسي تلك الحسناء لتدعوني لرقصة البياض. لرقصة الحياء، وإلا لما سُمّيت بيضاء. لرقصة الخطر ما ظلّت رغبةً خبيئةً في قلب حسناء. رقصة هي جنس مبتكر من دعابة تحقّق للمرأة أن تقول كلمتها. صفقة تفصحُ المرأة بموجبها عن نيّتها. حيلة لقهر

الخجل الكاذب في روح امرأة تتباهى باستكبارها. شَرَكٌ اختلقه الدهاة لاستدراج هذا المخلوق الغامض ليُعرف. وأن يُعرف يعني أن يُجرّد من السلاح. من شعرةِ شمشمونٍ كامنةٍ في الغموض.

لم أجرؤ على تأمّلها في حلبة الرقص بسبب داء قديم خدعني سارتر عندما قال أنه عادة ثورية: الخجل! أو ربّما اسمه الحرج. أو ربّما مجرّد الإحساس بالإثم إزاء مواجهة إنسان لا نملك الحقّ، أو لا نعطي لأنفسنا الحقّ، في مواجهته، لأن المواجهةَ هنا هي بمثابة تَعَدٍّ، بمثابة استخدام لصلاحيات لا نملكها. إنه انسحاب من مواجهة، من عدوان، أي تحرّر من خطيئة! لم أتأمّلها ولكن الحُسن لم يكن ليخفى: قامة فرعاء تكاد تفوقني في طول القامة، شعرٌ فاحم، بشرة بيضاء مشرّبة بلون الورد، بعينين دعجاوين، وقوام مثالي. هل قلت أن الشعر فاحم، والعينان سوداوان؟ يا لخيبة المسعى! لماذا؟ لأن هاتين الخصلتين مخيّبتين للأمل؛ فالشعر الذهبي هو ما يجتذبني، والعيون الزرقاء هما ما يستهويني! كأنّي لا أنوي أن أخون جمال الشمال التقليدي فأنتصر للجمال الذي يشذّ عن القاعدة، برغم أن الاستثناء هنا (المتمثّل في سواد العينين وجهمة الشعر) هو ما يفتن في المرأة رجال المكان. ولكنّي لم أعبّر عن فضولي المترجم في سؤال: «لماذا وقع اختيارك عليّ بالذّات؟» ليلتها، ولكن في لقاء آخر لأحصل على ذلك الجواب الذي لا يحمل إطراءاً بقدر ما يترجم حقيقةَ إنسان لا يبحث عن امرأة لليلة واحدة، لا يبحث عن مغامرة. لا يبحث عن

تجربة حسيّة عابرة. ولم تكن المسكينة فالنتينا (أو فاليا كما يصغّرها اللسان الروسي) تدري أن هذه الميزة لا تعودُ إلى فضيلة أخلاقية أو زهدية بقدر ما كانت مزيّة إنسان جريح لا يحتفي بحضوره في واقع المكان (حتّى لو عدّ هذا المكان فردوساً وقتيّاً في نظر الأغيار)، ولكنه يحيا غيبوبة الحلم حتّى وهو يتسلّى بصحبة الصديق؛ لأن محادثة الصّديق فردوس يلغي الحضور في أي فردوس فيغيّبني الحوار عن وجودي في الأمكنة، ولولا هذا المسلك لما استطعت أن أفهم وصيّة أفلاطون القائلة بأن أصدق سعادة هي سعادة محادثة الصديق!

والواقع أنّي لم أكن لأتنبّأ بما يمكن أن يحدث لو استجبت لنداء تلك المرأة فأحببتها كما أحبّتني. يقيناً أنها كانت ستنكّل بي كما نكّلت أوديت بحبيبها سوان في ملحمة مارسيل بروست «البحث عن الزمن الضائع»، لأن ذاك كان قصاص الغيوب الذي ندفعه ثمناً لخيانة حدس حذّرنا من تعشّق امرأة ما كان يجب أن نعشقها. فقوّة شخصيّتها، وحسنها، وروحها المندفعة التي ترفضُ الاعتراف بالعقبة، كلّها مؤهّلات تشهد بهويّتها كامرأة خطرة. فكثيراً ما كنت أجلس في مواجهتها لأتأمّل خصالها: جمالها، فطرتها، صرامتها، إرادتها، تمرّدها وصدقها في ثوريّتها فأسائل نفسي: ما الذي ينقصها كي أرفضها؟ لماذا لا أبادلها حبّاً بحبّ؟ هل كنت في بلادي لأحلم بمثلها؟ أيعقل أن أصدّها لمجرّد غياب

الزرقة في عينيها أو ذهاب الذهب في شعرها؟ ولكن سلطة الباطن كانت تحتجّ برغم سخف الحجج. سلطة المجهول تحكم سلباً في كلّ مرّة أحتكم فيها إلى ساحتها. كنت أحاول أحياناً أن ألجأ إلى الخداع فأتظاهر بالحبّ! ولمّا كنتُ أفشل ممثل في كل الدنيا فإن ذلك يثيرُ اشمئزازي أكثر ممّا يثيرُ حنقها، لأني إذا كنت لا أحسنُ إتقان الدور بيني وبين نفسي، فكيف أفلحُ في إقناعها هي لتنطلي عليها الكذبة؟ فالحقيقة أنّنا نستطيعُ أن نخدعَ المرأة في كل شيء إلا في أن ندّعي الحبّ! بل المرأة تستمرئ أكاذيب الرجل، بل وتتلذّذ بأكاذيب الرجل الصغيرة وتدفعه إلى ممارستها دفعاً بشرط ألاّ تتعلّق هذه الأكاذيب بأنفس كنز في حياة المرأة وهو: الحبّ! والأغرب من كلّ شيء أنّني لم أشتهِ الحسناء برغم كلّ مؤهلاتها المثيرة للشهوة. فهل انقشع الحبّ بسبب غياب طعم الحبّ؟ أليس الحبّ رهين الاشتهاء؟ ولكن الاشتهاء رهين ماذا؟ حافز الشهوة سرٌّ آخر. سرّ غيبيّ أيضاً. فليس الجمال هو ما يستثيرُ الشهوة، ولكنّ غموضاً قد نجد له سبباً في إيماء. والدليل أن بداية الشهوة هي نهاية الإحساس بالجمال كما أنّنا قد نشتهي امرأة لا تملك من مؤهّلات الجمال شيئاً. نشتهيها بدافع مجهول قد يكمن في ابتسامتها، أو لون بشرتها، أو بسبب وميضٍ في عينيها، أو ربّما في فرجة فستانها التي كشفت عن ساقها. السبب دائماً في هذه الحال يبدو تافهاً، ولكن ليس بلا نتائج لا تحمد عاقبتها. ليس بلا

نتائج تحيلنا ضحايا؛ وهو ما يعني أن الحبّ كالشِّعر يروقه أن يضحّي بالحرف ليستجير بالاستعارة.

ولكن ما فاجأني بعد زمن هو اكتشافي لحقيقة جهلتها في طبعي حتّى ذلك الوقت وهي: الصلة الحميمة بين عاطفة كالحبّ وإرادة آثمة كالملكيّة. فمن يريد أن يكون موضوعاً لحبّ هو إنسانٌ لا يجد مانعاً في أن يُمتَلك، في أن يكون مملوكاً حقيقياً للمحبّ ما قبِل أن يقع عليه فعل الحبّ. أمّا من اختار أن يكون في الصفقة فاعلاً، أي عاشقاً، فهو من انتصر في طبعه للملكيّة. فهل من وجودٍ لفرق بين الضدّين؟ من وجهة نظر وجودية لا فرق ما دمنا لا نختلف مع من سَنَّ ناموس: «كل ما لكِ مملوك». وهو ما يعني أن الحبّ صفقة لن تستقيمَ حقّاً ما لم يتبادل فيها الطرفان الأدوار: مالكٌ يمتلك مملوكاً، ومملوكٌ يمتلك مالكاً! العاشق والمعشوق هما عابد ومعبود. وليس كلّ عابد يستطيع أن يكون معبوداً، كما لا يفلح كل معبود في أن يكون عابداً. فإلى أيّ فريق أنتمي؟

أظنّ أني من الفصيلة التي يعجزها أن تكون المعبود بقدر ما يسعدها أن تتولى دورَ العابد. لأن العابدَ بالصلاة في محراب المعبود يحيا، ولكن المعبود حضور في الرمز، لا في الحياة. للعابد فرصة في أن يتخلّى، في أن يتحرّر، ولكنّ العبادة قدر المعبود لأنه حضور في الرمز، لا في الواقع. فالعاشق كعابد يتبتّل في محراب المعشوق مريدٌ غايته النهائية التحوّل معشوقاً، أي

معبوداً. لتحقيق هذه الغاية يضحّي مريد رهيب كديمتري كارامازوف بالمعشوقة التي طاردها طويلاً جدّاً، وعندما قررت أن تستسلم له نفاجأ به يتنازل عنها لا لشيء إلا لكي يحقّق الإحساس الإلهي المقدّس الذي لا ينال إلا بالتخلّي. إنه برهان آخر من دوستويفسكي على حقيقة الحقيقة التي تبقى باطل أباطيل ما لم تكن الحرية لها وجهاً آخر لعملة واحدة. فليس على المريد هنا أن يجرّ المعشوقة إلى مخدع العشق كي ينالها نيلاً حقيقياً، ولكن عليه أن يجرّ على نحرها نصل المنيّة، لأن المرأة إذا كانت تستطيع أن تنال الرجل في المخدع (باختلاس جرثومة الذريّة من صلبه)، فإن الرجل لا يستطيع أن ينال المرأة إلاّ في الموت؛ ووصل الجسد بالجسد في التجربة الحسيّة ممارسة لاستنزاف كان في كل الثقافات رديفاً لإفناء الذات في الذات.

كانت تلك بلبلة شتّتتني في وقتٍ كنت فيه في أشدّ الحاجة لحضور الإرادة بسبب تزامن التجربة مع معركة الالتحاق بالمعهد. وكم كنت سعيداً يوم تلقّيت ذلك الخطاب الدرامي الطويل، الممهور بإمضاء الحسناء، والمختتم بعبارة «النهاية الكابوسيّة أهون من كابوس بلا نهاية». كانت تلك سعادة التحرُّر ن عبء المعبود، ولكنّها مجدوحةٌ بحزن الإحساس بالعزلة. كأنَّ رسالة العابد أن يجير المعبود من شبح ذلك البعبع الذي لم تكن الأمم أن ترتضي العبودية قدراً لولا خشيته، أَلاَ وهو: **العزلة!** أليس شوبنهاور هو

مَن قال أن مَن لا يحبّ العزلة لا يحبّ الحرية؟ ولكن لعنة الذهب المبثوثة في خصلات الشّعر والمشعّة في زرقة العين سرعان ما استنزلت على رأسي القصاص. وها هو الخفاء يستجيب للهوى فتنتصب في وجهي أميرة الإغواء الخالد في صيف عام 1972 لتذيقني درس القصاص المتمثّل في ذلك العشق الذي ربّما كان أقلّ تراجيديةً لو لم يستقم في عهدٍ متوّج بوثيقة القِران. فهل تريد بنا الأقدار الخير دائماً عندما تستجيب لأمانينا؟ كلاّ بالطبع. ربما كان العكس أصحّ، لأننا لا نشقى عادةً إلاّ بأحلامنا، كما أنّنا لا نسعدَ طويلاً أيضاً حتّى بتلك الأماني التي رأيناها دوماً محالاً، فإذا تحققت واقعاً تبخّرت بهتاناً. لقد ارتكبتُ خطأً عندما قررت أن أسلّم زمام أمري للعادة وأسكن إلى امرأة تعتنقُ ثقافةً أخرى من بيئةٍ اجتماعيةٍ أخرى مبرّراً هذا الاستسلام البليد بترديد حجّة أكثر بلادة تقول أن الارتباط بالأنثى قَدَرٌ حتّمته الطبيعة، وإذا كان قَدَر الإنسان في هذا الوجود هو أن يبتني أسرة تلبية لنداء النوع فإن المنطق يقضي بأن نفعل اليوم ما يتوجّب أن نفعله غداً، لأن فلسفة الصحراء التي لقّنها الدهاة لسان الذئب تقول: «اللقمة التي في جوفي أفضل من اللقمة التي في فمي، لأن ما أدراني ألاّ يفزعني عدوّ فألفظها قبل أن أبتلعها؟!». أقول حجّة غبيّة لأن ليس كل أبناء الطبيعة أهلاً لتلبية نداء الطبيعة. فليس للمغلول بوزر رسالة أن يلبّي نداء الطبيعة إذا كان قد صار القربان الذي يدبّ على قدمين منذ زمن بعيد. فالتاريخ الذي لم يعرف ذريّة الأنبياء، ولا أُسر

حقيقية لرسل الأفكار الذين لقّنوا الدنيا درس الحقيقة. ليس له أن يرجو مصير السواد الأعظم لأن أسرة المريد **الأفكار**، وذريّته **الحقيقة!**

لا أستحي أن أعترف بأني اقترفت بالقران حماقةً لم أكن لآتيها لو تأمّلت سيرة أبي العلاء المعرّي مليّاً، ولو هدتني الأقدار لدليل الجيل الذي سطّره بلزاك في رواية «الأب غوريو» كأكبر برهان على عدم جدوى إنجاب الأبناء، وأقوى مسمار في نعش صنع الذرّية، فلم يكن من قبيل المصادفة أن تكون هذه الرواية هي العمل الأدبي الوحيد الذي وقع عليه اختيار دوستويفسكي ليترجمه إلى الروسية، وهو الذي لم ينجب أبناءً، كأنّه يثمّن على وصية فونتينيل القائلة بأن المرأة، كالثالوث في كوميديا دانتي الإلهية، لأنها إذا كانت للنظر نعيم، وللجيب مطهّر، فإنّها للروح جحيم. فالجمال هنا يبدو في المعادلة حرفاً يخفي طبيعة اللّغز الذي يسكنُ هذا الكائن الملفوف منذ الأزل بالغموض كأنه الطُّعم المجسّد الذي يستدرجنا بدغدغة غريزة الحفاظ على النوع ليحيد بنا عن الصراط. فكم من قدّيسٍ أضاعته متاهة الأسرة، وكم من مريد حقيقة ضلّ السبيل إلى الحقيقة بسبب الذريّة؟ فهل خذلني الحدسُ يوم أعلنتُ في «التّبر» أن فناء الآباء رهين مجيء الأبناء؟

بمجيء الأبناء نحن نَفْنَى روحاً تُحيي، قبل أن نَفْنَى بدناً يُميت!

12
الأدباء

عندما تتباهى الأيديولوجية السوفييتية باعتناق «الاشتراكية العلمية»، فليس للنظام إلاّ أن يبرّر عملياً هويّة هذه الاشتراكية تمييزاً لها عن بقية الاشتراكيات من طوباوية، أو إسلامية، أو عربية، إلخ. . وهي هويّة حدّدها كهنة الأيديولوجيا بـ«العلمية» التي لا يجب أن تعني شيئاً آخر غير نبذ الأوهام والاحتكام في كل شيء إلى ساحة العلم. وهي نزعة ضمنت للنظام استمراراً، دام ثلاثة أرباع القرن، وكان يمكن أن تستمرّ بالنظام عمر نوح لو لم تتقاطع هذه الروح العلمية في مسيرتها مع عقلية احتكار الحقيقة المترجمة في نفي ضدّيّة هي عصب تقوم عليه الفلسفة الجدلية التي تتخذها العقيدة السوفييتية ديناً مستكملاً في المادية التاريخية. ولا أحسب أن نزعة احتكار الحقيقة يمكن أن تتجلّى في فعل كما تجلّت عبر كل هذه التجربة في سياسة نفي المعارضة فكراً وعملاً (أي نظرياً وحزبياً) بحيث اغترب الرأي الآخر من واقع دنيويّ يقوم أساساً على صراع الأضداد. ولهذا نستطيع أن نخلص إلى نتيجة

منطقية تقول أن النظام السوفييتي بسقوطه إنّما قضى **انتحاراً** منذ اليوم الذي أقرّ فيه انتهاج سياسة **الحزب الواحد** مخالفاً بهذه الخطيئة جوهر عقيدته وهي الديالكتيك الهيغلي. هذا يعني أن خيانة الوصيّة الجدلية إذا كانت بمثابة القشّة التي قصمت ظهر النظام، فإنّه يمكن القول أن الروح العلمية في اشتراكية النظام هي بمثابة الشّعرة التي أنقذت الإمبراطورية من الغرق طوال ثلاثة أرباع القرن. والدّليل؟ الدليل عشناه في الحياة العامّة التي لم تتنفّس برئة الخطط الخمسية المقرّرة من قبل السلطات الحزبية، ولكن في واقع تغذّى من مجانية التحصيل العلمي أكثر ممّا تقوّت من مجانية الصحّة. واقع مهووس بكلّ ما متَّ بصلة لمعبودة اسمها الثقافة. واقع كان فيه العلماء رسلاً، وأهل الإبداع أنبياءً. واقع تطبع فيه الآداب الكلاسيكية بملايين النسخ، فلا نطمع بالحصول عليها إلاّ في ساحات السوق السوداء برغم الكمّ ليكون هذا الضرب من الأسواق أجدر باسم «أسواق الفخر» لأن تسابق الناس للحصول على كتاب بعشرات أضعاف ثمنة لهو إنجاز ثقافي جدير بالفخر، لا بالعار. واقع اجتماعي ظامئ للبلسم الثقافي برغم الأمسيات الشعرية الليلية، والقراءات الأدبية اليومية، والندوات والمؤتمرات التي تعقد فتؤمّها الوفودُ الأجنبية من كلّ القارات. ناهيك عن المتاحف الكثيرة العامرة بأندر ما أنتجه عباقرةُ الفنّ التشكيلي الأحياء منهم والأموات، بمختلف المدارس الفنية سواء الكلاسيكي أو الحديث. واقع يحفل بعشرات المسارح التي تقدّم

أندر العروض على مدار العام، وتستقبل الفرق الأجنبية في عروضها أيضاً ضمن خطط التبادل الثقافي مع دول العالم. أمّا السياسة السوفييتية فلم تخضع يوماً لأهواء الساسة، ولا لارتجال زعماء الحزب، لا في الداخل ولا في الخارج، عكس ما قد يظنّ البعض، لأن القرارات مستوحاة عادةً من دراسات المعاهد العلمية التابعة لأكاديمية العلوم السوفييتية التي ورثها النظام عن الإمبراطورية القيصرية والتي لا يدري الكثيرون أنها تستطيع أن تتباهى بعضوية إمام الفكر الفلسفي الأوروبي الأكبر عمّانويل كانط إبّان القرن الثامن عشر. فهناك معاهد علمية تعنى بشؤون كل القارات، وشؤون كل الدول حسب أهميتها الاستراتيجية والسياسية، وهناك معاهد علمية في كل مجالات الحياة الحيوية تابعة لأكاديمية العلوم أيضاً بما في ذلك الدراسات الأدبية التي يتولاّها معهد الأدب العالمي باسم غوركي أيضاً، ولكنه ليس معهد غوركي التعليمي الخاضع لاتحاد الكتاب ولوزارة التعليم العالي.

هذا الانهمام بالعلوم من الطبيعي أن يفرز تجربة عزاء تبدو ظلاًّ لفردوس؛ فردوس يبقى مثقلاً بهمّ غياب حرية التعبير، ولكنه كان ما زال قادراً على تأجيل قدر الانهيار الكبير.

هذا الواقع هو ما أهّل التجربة السوفييتية في الاشتراكية لتكون نموذجاً برغم كلّ الأخطاء، وكلّ السلبيات، وكل النكسات، فيما إذا قورنت بالتجارب الاشتراكية الأخرى التي ستبدو أكثر هشاشةً وبؤساً بتجارب عالمنا الثالث سيّما العربي، حيث تهيمن العقلية

التي تستهين بالعلم في استنساخ التجربة مقابل الهوس بالشعار الملوّث بوباء الأيديولوجيا.

بفضل زمن عبادة الثقافة هذا عرفت أدباء عرب عدّة جاءوا إلى موسكو إمّا تلبيةً لدعوات رسمية للاشتراك في مؤتمرات أدبية، أو أقبلوا ليستجيروا ببلاد السوفييت فراراً من جور أنظمة بلدانهم السياسية، كما هو الحال مع عبد الرحمن الخميسي الذي التقيته لأوّل مرة عام 1976م أثناء سفرنا إلى طشقند لحضور مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا الشباب بدعوة من اتحاد الكتّاب السوفييت.

هناك، في إحدى المنارات الثقافية الأسطورية للحضارة الإسلامية طشقند، عرفت أيضاً سامي مهدي، وصالح الجابري، بعد الخطاب الافتتاحي العاصف للمؤتمر الذي ألقاه شاعر الكازاخ الأشهر ألجاص سولييمينوف الذي كان قد درس بمعهد غوركي أيضاً، ولكنه طُرِدَ من المعهد بسبب مسلكه البوهيمي الذي بلغ حدّاً كان يعامل فيه زميلاته كخادمات فيجبرهنّ على غسل قدميه كأنهنّ خادمات في بلاط سلفه جنكيز خان!

لم أتبادل مع الخميسي في تلك الرحلة سوى الحديث العابر بسبب كثافة برنامج الزيارة الذي تُوِّج بحلول الوفود أضيافاً على قبلة العالم الإسلامي القديم الثانية سمرقند، ولكن لقاءاتنا تواصلت تالياً في طرابلس في تلك السنوات من بداية الثمانينات التي شهدت تأسيس جبهة معارضة للرئيس السادات لعب فيها الخميسي دور البطولة. وفي إحدى زياراتي إلى موسكو في زمن الإقامة بوارسو

استضافني في بيته بموسكو لتناول طعام العشاء حيث عرّفني على ابنه أحمد الخميسي الذي كان يواصل الدراسة بجامعة موسكو إن لم تخذلني الذاكرة. في تلك الجلسة أدركت كم هو مريض، وكم هو عنيد أيضاً في الاستهانة بمرضه. كان يعاني نوبات سعال عنيفة دون أن يكفّ عن سحب أنفاس السمّ من لفافة التّبغ المميت كأنه يستهزئ بوصية الحكيم سينيكا القائلة: «ملعونةٌ تلك اللذّة التي تقود إلى التهلكة!»، بل ظلّ يلقي النكات طوال السهرة، ويروي تجاربه الثرية بمرح طفولي دون أن يفوته أن يعرّج من حين لآخر على سيرة النساء ليعبّر عن عشقه لهذه المخلوقات الخفيّة بلا استيحاء!

لم أكن أعلم يومئذٍ أن ذلك اللقاء كان لقاء الوداع. ففي أوّل أيام عودتي الثانية إلى موسكو من شتاء عام 1987م تلقّيتُ مكالمةً هاتفيةً من صديقنا المشترك إيغور يارماكوف قبل أن ألتقط أنفاسي من رحلة برّية رهيبة ليبلّغني نبأ رحيل الرجل. وممّا ضاعف حزني نبرة يارماكوف وهو يسمعني مرثية عن معنى أن يرحل أمثال عبد الرحمن الخميسي من عالمنا دون أن يترك هؤلاء وراءهم بديلاً. ولم أكن بالبلبلة التي يمكن أن تغيّب عنّي هول الفراغ الذي يتركه جيل هؤلاء الروّاد في واقع بائس كواقعنا الثقافي إلى الحدّ الذي يقرع فيه الأصدقاء نواقيس الخطر لينبّهونا إلى ضرورة أن نتحمّل نحن، لا سوانا، واجبنا فنحمل الصّليب الذي تركوه أمانةً في أعناقنا. أقول هذا الآن ببرود بعد ضياع عشرات السنين، ولكن

يجب أن أعترفَ أنني في ذلك اليوم فوجئت: فوجئت بسبب لؤم الزمن الذي استغفلني كما استغفل الأغلبية قبلي، فوجئت لأنني لم أتخيّل أنّي سأكون بديلاً لاحقاً لجيلٍ سابق بمثل هذه العجالة. فوجئت كما فوجئ بطل «الغثيان» لـ سارتر بمواجهة الموت في لحظةٍ لم يخطر بباله الموت ليقينه بأنه خالد. فوجئت فحزنت أشدّ الحزن لاكتشافي بأنني لم أفعل أي شيء ذو قيمة يؤهّلني لشرف استلام صولجان الولاية، صليب الولاية، لأكون جديراً بأداء الواجب. والمرارة كان يمكن أن تكون أهون يومئذٍ لو لم تتزامن مع نكبات على المستوى الشخصي، وعلى مستوى الوطن، وعلى مستوى القبيلة. أي أن التجربة آنذاك كانت تبشّر بانهيار أسرة يعلّق عليها كلٌّ منّا عادةً الآمال قبل أن يكتشف أنها أوهام. وتبشّر في الآن ذاته بخيبة أمل في خلاص الوطن وهي الأمرّ. كما قطع الزمان شوطاً بعيداً في اختلاسنا من الوجود لا بحلول الكهولة، أو الشيخوخة، ولكن باختطاف أولئك الأشياخ العظماء الذين عوّلنا عليهم دوماً، وظننّا أنهم سيحيون بيننا دوماً، ونسينا أن جلّهم كان قد توارى في غفلةٍ منّا، والبقية التي تنتظر رجلها في الأرض والأخرى في القبر.

إنّهم أولئك الأطياف الذين يعيشون بين الناس كأنّهم أضياف، ولكن يرجع لهم الفضل في صون القبائل، وفي إجارة الوطن، وفي حقن الأجيال بحبّ الوطن، وعلينا منذ اليوم أن نكون في مستوى المسؤولية لِنَرِثهم. هذه هي قراءتي لنبوءة يارماكوف:

نبوءة قاسية، ولكنها مُلْهِمَة سيّما لإنسانٍ يتململ يأساً مهدهداً في الوجدان بعثاً!

في تلك السنوات من بداية السبعينات زارني أيضاً الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر الذي سبق وتخرّج من حرم معهد غوركي في نهاية الستينات فأقبل ليلتقيني وليروي الحنين إلى الزمن الضائع برغبته في تناول وجبة هي الأكثر شعبية في قائمة الأطعمة الروسية الشحيحة ككلّ أطعمة أمم الشمال: إنها وجبة الكفتة الروسية! لم يكن صعباً أن أحدس سرّ الرغبة عندما قدت الرجل لأحد المطاعم المجاورة للمعهد لتناول الوجبة المنشودة ليقيني بأن الحنين لاستعادة روح الزمن المفقود هي العلّة وليس اللقمة. فالحنين هنا طلب لنكهة الزمن، استطعام لمذاق الزمن الذي اغتنمه النسيان ولكنه ظلّ شفرةً تسكن الذاكرة. وإحياؤه لا يتحقّق بدون دغدغة هذه الخزانة المذهلة بإحدى الحواس: بالشمّ، أو الطعوم، أو البصر. ويبدو أن الشاعر لم يشفِ غليله الانطباع الذي حقّقه كشاهد عيان في فكّ الطلسم في ميتافيزيقاء الزمان فقرّر أن يستنجد بالحواس الأخرى ليستكمل استعادة المشهد الزائل ليحقّق الحريّة بحضوره في البعد المفقود، لأن في هذا البعد فقط يبطل مفعول الزمن، ويتلاشى بعبع الثالوث (الأمس واليوم والغد) ليهيمن الزمن الأسطوري، الزمن الخالد، لأن لا زمان هناك حيث لا وجود للمكان. والبعد المفقود وحده تجسيد اللاّمكان!

أمّا متنبّي القرن العشرين محمد مهدي الجواهري فلم أتشرّف

بلقائه إلاّ بعد خمسة عشر عاماً، أي في منتصف الثمانينات، أثناء حضوره إلى وارسو للمشاركة في أحد المؤتمرات. كنت أحيا تجربة منفاي الخامس في سلسلة المنافي التي بدأت (بعد الخروج) بالواحة، ثم حاضرة الواحات، ثم حاضرة الوطن، ثمّ قبلة الأحلام (بالخلاص) موسكو، وها هي الآن وارسو. كنت أعاند أحزان تلك المرحلة من تجربتي الدنيوية الشقيّة في كافيتيرا فندق «فكتوريا» الذي اتخذته بمثابة منتدى آوي إليه بين الحين والآخر للإسترخاء، عندما دخل شاعر العرب الأكبر (كما راق وسائل الإعلام العربية أن تلقّبه) بقامته النحيلة، وقلنسوته التقليدية التي صارت له شعاراً منذ زمن بعيد ليجلس إلى مائدة بالجوار، فرأيت من واجبي أن أقفَ لأحيّي في هذا الهرم المكابر النموذج الذي حمل راية الشعر العربي الكلاسيكي مجبولةً بآلام المنافي، وشقوة الوجود، وتعب التسعين عاماً. كنت قد كتبتُ عن الجواهري لأوّل مرة عام 1969 بجريدة «الثورة» تحية ترحيب بعد عودته من منفاه في براغ، ثم كتبتُ عن مرثيّته لعبد الناصر في بداية السبعينيّات، وأعتقد أن إحدى هاتين المقالتين قد نشرت في كتابي الضائع «ملاحظات على جبين الغربة» الصادر عام 1974م والمصادر من قبل السلطات أيضاً. في سيمائه قرأتُ تعباً ماورائياً. إنه التعبُ الذي يقول شوبنهاور أنه قدر الشيخوخة التي لا تعود تعترف بخلٍّ غير العزلة. ولكي لا أثقل على الرجل أو أتطفّل على خلوته صافحته وتسلّلت خارجاً لإحساسي الخفيّ بأن أفضل تحية (أو

هدية) بوسعي أن أقدّمها له هي أن أدعه يتلو صلواته في عزلته التي لم يأتِ إلى هذا المقهى إلا ليختلي بها فراراً من ثرثرات المؤتمرات. ألم يقل هيغل أن الإنسان الدَّيِّن حقّاً ليس من يؤدّي صلوات الشعائر، ولكنه الإنسان الذي يخلو إلى نفسه متأمّلاً؟ هل نكبر الكبار يا ترى عندما نأبى إلا أن نكبّلهم بالمراسم الخاوية بدعوى تقديم فروض الولاء والطاعة؟ ألاَ نضع أنفسنا موضع ذلك الرجل الذي أصرّ أن يقتحمَ خلوة مريد العزلة اليوناني القديم بحُجّة الاحتفال بيوم العيد، وعندما تساءل، بعد احتساء كؤوس النبيذ، كم تبدو جلستهما بهيجة، أجابه المريد قائلاً أن البهجة كان يكمن أن تكون أكبر بكثير فيما لو لم يوجد هو إلى جواره؟

ولكن كان عليّ أن أنتظر أعواماً حتّى أدرك هذه المرحلة (مرحلة المخاض المبشّر بطلوع فجر الميلاد الثاني) لأنها الخلاص الرّهين بعبور جحيمٍ مؤجّل، برغم تململ الشّفرة في مجهول اللاّوعي: شفرة الحنين لمحاكاة ذاك الذي لم يكن ليوصف بـ«ليس كمثله شيء»، بتعبير أهل السّر، لو لم يكن المكتفي بنفسه، المتأمّل لذاته بتعبير الفلسفة. فالجلوة (بالجيم) إذا كانت في عرف أهل التصوّف حقيقةً، فإن الخلوة (بالخاء) في عرف أهل الإبداع حرية!

13

التقاعد

في المرحلة التي تزامنت مع خوضي لمعركة الالتحاق بالمعهد ابتلتني الأقدار بامتحان آخر ذي صلة بذيولي الوظيفية. فبعد انقضاء الإجازة الأولى الغير مدفوعة المعاش بحلول صيف عام 1971م توجّب الالتحاق بالعمل أو تمديد الإجازة عاماً آخر كما تملي نصوصُ الخدمة المدنية. وهو ما يعني ضرورة استصدار قرار آخر من وزارة الثقافة بتمديد الإجازة السنوية. وقد قمت بالفعل بتقديم طلب إلى الوزارة عن طريق السفارة بموسكو. ولمّا كانت الأوضاع بالبلاد ما زالت تتمتّع ببقايا النظام الإداري والسياسي الموروث عن النظام الملكي، ولم تسقط في أحاضيض الفوضى والانحلال واللامبالاة الذي أدركته تالياً، فلقد تلقيتُ الردّ من الوزارة (التي تحوّلت إدارة تابعة لوزارة التعليم العالي تنفيذاً لسياسة التنكيل بكل ما له صلة بالثقافة نكايةً في المثقفين بالطبع) تشترط فيه تزويدها بنتائج امتحانات السنة الدراسة التحضيرية بالجامعة كي تسمح بالتمديد. وهو شرط عادل وطلب منطقي من شأنه أن يأخذ بيد من استحقّ ويعترض سبيل من تكاسل أو

تلاعب. وكنت على يقين من الاستجابة لطلب التمديد إيجاباً ثقةً في أناسٍ همّهم الحقيقة و إلاّ لما كلّفوا أنفسهم عناء الاستفهام عن نتائج السنة الأولى التي أستطيع أن أتباهى (ويتباهوا معي أيضاً) بعلامة الامتياز في كلّ المواد الخمس الواردة في شهادة الاجتياز. ولكن ما لم أحسب له الحساب، وكان من الطبيعي أن يخيّب ظنّي ويشلّني بالدهشة، هو روح العبث التي بدأت تستشري في مؤسسات الوطن والمتمثّلة في الرد السلبي الذي تلقيته عن طريق السفارة بعد أسابيع. أقول روح العبث لأن ما معنى أن يكلّف أصحاب الشأن أنفسهم عناء المراسلات في طلب موافاتهم بالنتائج إذا كانوا يخفون النيّة بالرفض منذ البدء؟ أم أنّهم فعلوا ما فعلوا استجابةً لمشيئة الروتين وحسب؟ ولكن لون السخرية في هذه اللعبة سوف يستعير مسوحاً أكثر كآبة بالتحوّل سخرية سوداء عندما نعلم أن الردّ لم يكن مجرّد رفض لتمديد الإجازة السنوية، ولكنه عقاب في حقيقته الإدارية والأخلاقية! إنّه استغناءٌ عن الخدمة بالوزارة وإحالة إلى مكبّ سُمّي في ذلك الوقت بالخدمة المدنية. فهل هو انتقام؟ هل هو قصاصٌ على الامتياز؟ هل هو قصاصٌ من ذلك الجنس الذي يعاقب على التفوّق ويتسامح مع الإخفاق الذي عرفته من أساتذة الواحات وعرفه كارل غوستاف يونغ من أساتذته؟ كلّا، كلّا! ذاك كان قصاصاً نبيلاً لأنه تأديبيّ. ذاك كان قصاصاً عادلاً لأن غايته كسر روح الاستكبار الناتجة عن كلّ تفوّق، في حين يلبس ضرب العقاب الوزاري جبّة الانتقام بعد أن خلع مسوح

العبث، بل يرتدي قناعاً أبشع هو قناع المكيدة، وقناعاً تستحي منه حتّى البشاعة عندما تتضح الملامح بالزمن لتنجلي المكيدة عن وجهها السياسي! هذه المكيدة التي لا تعترف بالمنطق، ولا بناموسٍ أخلاقيّ أو حتى إنساني عندما يطيب لها أن تعادي سواء بسبب أو بلا سبب. فقد تعوّدنا في عالمنا أن نفتّش عن أصابع هذه البدعة (السياسة) كلّما أعجزنا المنطق في فكّ طلسم أي أحجية. فهل اكتفى لؤم الساسة بهذا الفصل في مسرحيّتهم الأبدية، بل في مسرحيتهم العدمية؟ كلّا بالطبع. فها هو العدوّ (المتمثّل في شخصي) يتلقّى عن طريق السفارة قراراً آخر يقضي بإحالة ملفي إلى التقاعد! فيا لها من نكتة! لقد ضحكت يومئذٍ بأعلى صوت. ويبدو أنّ هذه فضيلة بعض المكائد التي يتفوّق فيها أصحابها عن أنفسهم فخذلهم الحدس ليفضحوا نواياهم، و إلاّ ما أحوجهم أن يستصدروا قرار فصل بدل مهزلة إحالة شاب لم يجتز عتبة الثلاثة والعشرين عاماً إلى التقاعد لو لم تتغذَّ أفعالهم من حقدٍ أفقدهم صوابهم إلى درجة نسوا فيها أن عملاً كهذا مخالفة صريحة لأبسط القوانين الإدارية، فكيف بالأخلاقية؟ ولكن حجّتهم السياسة التي إذا كانت قد أباحت لنفسها الاستهانة بالقانون الأخلاقي، فكيف لا تستهزئ بالقانون الإداري، لأن الاستهانة بالناموس الأخلاقي هو بمثابة إنكار لوجود الله، ومن ينكر وجود الله يبيح لنفسه ارتكاب أكبر الكبائر بما في ذلك اقتراف الجريمة كما يقلول دوستويفسكي؟

والواقع أن الإحالة إلى التقاعد لم تكن قرار مصادفة. ذلك أن التقاعد كان بعبعاً قبيحاً لا يمكن أن يقارن إلاّ بحكم الإعدام في مفهوم الجيل. فمن أراد أن يتخلّص من خصم أو الإيقاع بعدوّ فليس له إلاّ أن يبحث له عن حيلة ترميه في جبّ التقاعد! إنه بمثابة تصفية جسدية مهذّبة في العرف السائد تلك الأيام. والسبب في يقيني يعود إلى غياب **ثقافة التقاعد** الناتجة عن غياب فلسفة العمل. فالإنسان المفطور على الذهاب كل يوم إلى العمل لا لتأدية واجب قدسي يرتقي إلى مستوى الصلاة، ولكن فراراً من ورم وجودي خبيث هو **الملل**، أو لتزجية وقتٍ هو سيف مسلّط على الرقبة ما لم يجد متنفّساً مّا يلهيه عن نفسه (أي عن رسالته الوجودية كإنسان)، يستحيل أن يستوعب معنى هذا الفعل؛ وهو ما يعني انعدام ذلك المبدع وهو: **الإيمان**. وغياب الإيمان في هذا الفعل اليومي النبيل يعني انعدام شرط الغاية التي لن تكون غير **السعادة**!

ولهذا فإن ممارسة العمل في غياب هذه الشروط هو تجريد لهذا الدور من روحه الدينية العميقة وتحويله تجربة دنيوية خالية من روح الشعر: أي تحويله إلى مجرّد **عادة**! إنه نوع إدمان لا يختلف عن التدخين أو تعاطي المخدّرات. والنتيجة؟ النتيجة أن التقاعد الذي يأتي كتتويج لهذه الرحلة الطويلة لا يستعير هنا دلالته الرمزية **كحرية**، دلالته كفرصة لتأمّل التجربة، دلالته كتفرّغ معرفي لاستنطاق النفس بعيداً عن بلبلة الدوّامة الدنيوية، دلالته لا كنهاية

رحلة، ولكن لقطف ثمار رحلة عراك تأهّباً لبداية رحلة أخرى: رحلة موقعنا من عالمٍ جاهدنا بأن نؤدّي فيه الدَّيْن، وعلينا الآن أن نخلو لأنفسنا لنرى مدى حضور هذا العالم فينا. إنّها رحلة التألّه التي يعرف فيها الإنسان نفسه تمهيداً للانطلاق في رحلة الحرية التي تجعل من الموت ميلاداً، لا نهايةً. فأين نحن من هذا المفهوم؟

التقاعد بيقين العادة ينقلب نهاية مطاف، ولهذا هو بعبع. التقاعد بمفهوم إنسان العادة هو حكم جائر بالإعدام لأنه يلغي حياة هذا الإنسان بإلغاء حكم العادة، بإلغاء حكم عمل لم يعد عملاً، ولكنه في جوهره ضربٌ من لهوٍ يوميّ مبتذل. مبتذل لأنه يعمي عن الحقيقة ويصنع من الإنسان حماراً يحمل في رحلة الذهاب والإياب أسفاراً. أي أنه نشاط بليد خالٍ من روح الصلاة. والدليل؟ الدليل يكمن في ظاهرة تبدو تافهة وبلا معنى في حين تبرهن على حقيقة هذا النشاط وهي العزوف في بلادنا عن التمتّع بالإجازة من العمل. فالخروج في إجازة في مفهوم هذا النموذج يعني مواجهة الذّات. يعني التخلّي عن النصيب المعتاد من حقنة الأفيون بالتحرّر من الدوّامة. أي أنها فسحة حريّة وهو ما يستنكره هذا النموذج ويفرّ منه كأنه الوباء. إنه موقف عداء من الحرية. التقاعد حرية مريبة، معادية، تخفي في عبّها الحرمان من العادة، من اللّذة، من الأفيون!

ولهذا فإن الإحالة على التقاعد يُعدّ عملاً أسوأ من الفصل من

العمل، لأن القوانين تبيحُ للمفصول من العمل أن يعود للعمل في أي مؤسسة أخرى من مؤسسات الدولة، في حين تمنع القوانين المتقاعدين من العمل في مؤسسات الدولة. وكان بالإماكن وجود مخرج من هذا المأزق أيضاً فيما لو وُجدت مؤسسات أخرى غير مؤسسات الدولة في ظلّ النظام الاشتراكي الذي كان قد قطع شوطاً بعيداً في تصفية كل ما له صلة بمؤسّسات القطاع الخاص، لتبقى مؤسسات القطاع العام هي المؤسّسات الوحيدة المهيمنة على سوق العمل في كلّ البلاد.

ولكن الزمن الذي آلى على نفسه أن يكشف كل خافية، ويفكّك لغم كلّ لغز هرع لنجدتي. فقد علمتُ في أوّل زيارة للوطن أن ما حدث كان مكيدة من تدبير محترفي أكبر عمل لاأخلاقي يمكن أن يمتهنه إنسان وهو: السياسة. والواضح أن الاستفهام عن نتائج السنة الأولى كان مجرّد إجراء إداري روتيني نفّذه موظف معنيّ باللوائح الإدارية المعمول بها في حالة كهذه، ولكن أصابع الحظْر السياسي تدخّلت في اللحظة التي بلغت فيها مسيرة الملفّ عتبة الرؤساء لتوقيع الإجراء بالموافقة على التمديد طبقاً لمستند الامتياز في كل المواد، فما كان من أصابع الاتهام إلاّ أن انتصبت بـ«الفيتو» ما أن وقع البصر على اسم المنتفع من الإجراء في وقتٍ صار فيه هذا الاسم بالذات مضغةً سلبية في الأفواه من وجهة نظر النظام الجديد. ففي مثل هذه الأجواء الموبوءة يُستحسن الاختباء لا عن الأنظار وحسب، ولكن عن

الذاكرة أيضاً، بل الأحسن على الإطلاق هو الغرق في هاوية النسيان؛ لأنّ مجرد أن يجري الاسم على اللسان كفيل بتأجيج شهيّة الأجهزة الأمنية فيبدأ نصب الأشراك! وها هي شكوك المسؤولين الذين صنعوا أمجادهم في تلك المرحلة لا على العمل أو الكفاءة أو الالتزام بالقوانين، ولكن على التقيّد بمشيئة الأجهزة الأمنية واسترضاء سادتها بكل حيلة ووسيلة. وها هو جمعة الفزاني الذي آلت إليه مقاليد الثقافة المغضوب عليها (والمحسوب على أسرة المثقفين) يقوم بإحالة الملفّ إلى مكتّب الخدمة المدنية تطهيراً للثقافة من أمثالي. ولكن مفارقة حدثت هنا جديرة بالتأمّل: فالملف المحال إلى الخدمة المدنية لم يكن ليعبر إلى هناك دون المرور بوزارة التعليم التي تولّى أمرها وقتها السيد بشير هوادي عضو مجلس الثورة ووزير التعليم. وقيل لي أن الرجل استوضح عمّا إذا كان هذا الاسم هو نفسه صاحب الاسم الذي ملأ وسائل الإعلام عقب قيام الثورة مباشرة، وعندها أُجيب بالإيجاب شطب الاسم من قائمة الموظفين المحالين على الخدمة المدنية ليأمر بإعادته إلى حضيرة الثقافة من جديد. حدث هذا من إنسانٍ لم أعرفه ولم يعرفني شخصياً ممّا يبرهن على حقيقة كون بلايانا إنّما تأتي من أولئك الذين عرفناهم وعرفونا أكثر ممّا تأتي من طرف مَنْ لم نعرف. بل التجربة أثبتت أن من جهلنا هم أسبق لخدمتنا وتقديم العون لنا، ومَن عرفنا هم السبّاقون للإساءة لنا؛ ربّما لأن المعرفةَ مشروعُ علاقة. والعلاقة سواء أنجبت استهانة، أو

استثارت الحسد فهي في الحالين شرّ! فإذا كان الواجب الأخلاقي يملي علينا أن نعبّر بيننا وبين أنفسنا عن امتناننا العميق لمن وقف معنا في محنتنا ممّن لم نعرف، فإن التسامح يقضي أن نغفر لأولئك الذين أساءوا لنا ممّن عرفنا، بل ونبحث لهم عن العذر. وقد غفرت لجمعة الفزّاني كما غفرت لكثيرين آخرين، سيّما في تلك المرحلة التي بلغ فيها حقد السلطة ذروته لأرى كيف ينفضّ حتّى الأخلّة من حولي، وكم من مرّة تحاشاني هؤلاء وغيرهم من المعارف في الطرقات لئلاّ تصيبهم عدوى الشبهات التي تحوم حولي. فبرغم براءتي من كلّ التّهم التي تُلفّق ضدّي، بيد أنه عليّ أن أحمل صليبي وحدي، ولا ألوم خلّ، أو حميم، أو حتّى شقيق، إذا تجنّب لقائي في ذلك الزمن الذي تنفّس فيه الناس الهواء ملوّثاً بالخوف. أمّا الامتنان الأوّل والأخير في كل محني التي سلفت والتي ستلي تلك المرحلة إنّما يُوجّه للعناية الإلهية التي حكّمتها في براءتي فلم تخذلني، واستجرت بها في غربتي فآوتني، وسلّمت لها أمري فَنَصَرتْني، فكيف لا يصير الإيمان دليلي إذا كنتُ كلّما أسأتُ الظنون بعنايته هبّ لنجدتي، وكلّما استهنت كافأني، وكلّما أنكرتُ قدّم لي الحجّة تلو الحجّة على حضوره إلى جواري؟ فالويل لك، ثمّ الويل لك، أيها الإنسان، إذْ تتجاسر فتخاصم صاحب إيمان!

14
المؤتمر

في عام 1971م أيضاً بدأ النظام الجديد مسلسلاً تلفزيونياً لمحاكمة ما أسماه بـ«رموز النظام البائد» ثمّ أعقبه بمسلسل آخر لمحاكمة تلك الفئة الشقيّة التي بيّت لها الحقد وناصبها العداء منذ أوّل يوم وهي فئة أهل الرأي أو المثقفين، بتهمة المشاركة في «تضليل الرأي العام» شملت رجال الصحافة وبعض الكتّاب الذين اعتادوا كتابة التعليقات السياسية للإذاعة. في محفل هذه المسرحية صرخ عبد القادر طه الطويل باحتجاجه الشهير الذي جرى على الألسن مثلاً لإدانة المهزلة والمبثوث في سؤاله الموجع «أتتركون الفيلة وتحاكمون البراغيث؟». وهي مسرحيات ذات طابع ترهيبي ردعي في الأساس، وقد أخلص لها النظام طوال المرحلة التالية في مختلف المناسبات حتى صارت تقليداً وطابعاً مميّزاً في سياسة النظام للاحتفاظ بالسلطة. ولم يجد النظام حُجّة للزّج باسمي في هذه المعمعة التشهيرية لأني لم أكتب حرفاً واحداً لا في مديح النظام الملكي، ولا في مديح الملك إدريس طوال الخمس سنوات

التي قضيتا بالعمل الصحفي. أمّا عبد القادر طه الطويل فقد لقي مصرعه بعدها بعامين في حادث الطائرة المدنيّة الليبية التي أسقطتها إسرائيل بالصواريخ فوق صحراء سيناء عام 1973م والتي كان على متنها صالح بويصير أيضاً. حدث هذا بعد مشاركة الرجلين في مؤتمر الأدباء الذي انعقد ببنغازي في يناير من العام ذاته. وقد أُطلق عليه نعت «الأوّل» من باب النكاية بالعهد الملكي الذي سبق ونظّم مؤتمر الأدباء الأوّل في سبتمبر من عام 1968م كما أسلفنا. والواقع أن ما تبدّى في البداية مجرّد نكاية أماط الزمن عنها اللثام لتتكشّف كسياسة مبيّتة. هدفها الحطّ من شأن كلّ ما مَتّ بصلة لهذه الفترة التاريخية الرائدة من تاريخ ليبيا الأليم. وهي السياسة التي انتهت إلى محو هذه المرحلة من المناهج الدراسية وتصوير ليبيا تاريخاً لم يولد إلاّ في أول سبتمبر من عام 1969م قطعاً لدابر الماضي المجيد من ذاكرة الأجيال. وعندما يُفاجأ أحدنا اليوم بجهل الجيل بأبسط البديهيات عن تاريخ ليبيا فليس ذلك إلاّ دليلاً على نجاح النظام في تنفيذ مكيدته الرهيبة ضدّ حقيقة أمّة أعرق من كل الأمم، ولو لم تكن كذلك لما أفرد لها أبو التاريخ هيرودوت كتابه الثالث كاملاً ليكون لها شرف لعب دور البطولة في التأثير على ديانة اليونانيين القدماء وثقافتهم الإنسانية الرائدة حسب اعتراف هيرودوت نفسه. إنها حجر الزاوية والأسّ المفقود في تاريخ ثقافة التكوين ذات الأركان الأربعة مصري وبابلي وهلّيني وليبي.

وقد تزامن انعقاد المؤتمر بالعطلة الدراسية الشتوية ممّا مكّنني من المشاركة في جلساته التي كان من المقرّر أن تنعقد بطرابلس، ولكن وجود رئيس مجلس الثورة في القاهرة ونيّته في زيارة بنغازي أوجبت نقل مكان الانعقاد إلى الشرق لملاقاته. في وقتٍ كان فيه أبو زيد دوردة وزيراً للثقافة، وصادق النيهوم أميناً للدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي، وعبد الوهّاب الزنتاني محافظاً لبنغازي. وهي أسماء سوف يكون لحضورها دور في الخلفية السياسية للمؤتمر لا في رسالته الأدبية، وهو ما دفعنا لاستنتاج الغاية السياسية لعقد المؤتمر أو بالأصحّ، النيّة المخفية في تنظيم المحفل التي بدأت خيوطها تتضح في جلسة الافتتاح عندما نشب عراك مفاجئ بين وزير الثقافة وبين صالح بويصير الذي كان وزيراً للخارجية والوحدة ولكنه يشغل حين انعقاد المؤتمر منصب عضو مجلس الأمّة الاتحادي على ما أذكر. وعلّه من المضحك أن ينشب خلاف بين هاتين الشخصيتين البارزتين على موضوع (أو لا موضوع) هو: صورة الرئيس أنور السادات! والصورة هنا بالمعنى الحرفي، لا المجازي. ففي القاعة التي انعقدت فيها الجلسات بفندق «برينيتشي» التاريخي عُلّقت صورة الزعيم عبد الناصر إلى جانب صورة رئيس مجلس الثورة، ممّا دعا بويصير لأن يتساءل عن سرّ غياب صورة أنور السادات كرئيس للدولة الاتحادية المأمولة، مومئاً في خطابه الموجّه للسيد وزير الثقافة، إلى وجود سوء نيّة في هذا التغييب. ولمّا كان الوزير قد حضر كضيف، ولم

يشرف على مراسم التحضير للمؤتمر، فقد استنكر التهمة وطالب السيد بويصير بالإيضاح. فما كان من الأخير إلاّ أن صرّح بوجود موقف عدائي من قيام الاتحاد ليتحوّل الجدل قضية سياسية أثارت دهشتنا نحن الذين أقبلنا من كل الأركان لنناقش همّاً عضالاً في ظلّ كل الأنظمة وهو الثقافة. ولم نكن ندري أن جدلاً عقيماً آخر كان ينتظرنا في الجلسة التالية عندما طالب صادق النيهوم بوصفه أميناً للدعوة والفكر في التنظيم السياسي الوحيد في البلاد بضرورة انخراط المثقفين في صفوفه، فما كان من عبد الله القويري إلاّ القيام ليتصدّى لهذه الدعوة باستنكارٍ شديد اللهجة. وعندما جاء رئيس مجلس الثورة ليلقي في المؤتمرين كلمته هبّ علي صدقي عبد القادر ليواجهه في كلمة غاضبة بضرورة الالتفات إلى أهل القلم أخيراً، والتعجيل بتأسيس اتّحاد أو نقابة تتولّى شأنهم كما في كل الدول. ويبدو أن هذه الهبّة كانت من ضمن «الآثام» التي لم يغتفرها وليّ أمر المجلس للمؤتمرين بدليل قيامه بإطلاق ما سُمّي بـ«الثورة الشعبية» بعد خروجه صفر اليدين من ذلك المؤتمر الذي أُريد له «ترويض» الأدباء على نحوٍ مّا، وعندما انتهى الأمر إلى إخفاق، قرّر الثأر زجّاً بهم في غياهب السجون. في هذا المؤتمر تقدّم منّي صالح بويصير ليطرح عليّ سؤالاً حول مصير كتابي «نقد ندوة الفكر الثوري» المصادر «الذي مَيّره الميّار» على حدّ تعبيره في إشارة إلى دور عبد الحفيظ الميّار في منعه، وعندما أجبته بأن الكتاب ما زال «يمتار في أسواق الميّار» ضحك ووعدني بأن يفعل

كلّ ما بوسعه لفكّه من الأسر. ولكن الأقدار لم تمهله لأنه لقي مصرعه في الرحلة المشؤومة للطارئرة المنكوبة التي لم ينجُ من ركّابها أحد.

في إحدى جلسات هذا المؤتمر التاريخي ألقيتُ مداخلتي التي عبّرت فيها عن عدائي المبين والقديم للأيديولوجيا (الابنة الوفية والشرعية لرذيلة السياسة) في بحث بعنوان: «الإبداع ومشكلة الأيديولوجيا» الذي نُشر بجريدة «الأسبوع الثقافي» في حين قام مربّي الجيل خليفة التلّيسي ليضع على صدري في رحاب هذا المحفل وسام إشادته بأعمالي القصصية سيّما «الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمس». أمّا الاعتقالات في صفوف المثقفين فقد بدأت بعد مغادرتي إلى موسكو بأيام، كأنَّ العناية الإلهية تريد أن تذكّرني بالبند القديم المنصوص عليه في عهدي القديم مع الربّ، برغم يقينٍ عبّر لي عنه كل من عرفت يقول أن لا فرار لي من سجون النظام، وقد ذهب فوزي البشتي إلى القول بأن الأفضل لي أن أدفع هذا الدَّيْن للنظام في زمن الشباب أفضل من أن أدفعه بعد أن أبلغ من العمر عتيّاً، لأن ما لمسه من أسئلة المحققين بالأجهزة الأمنية يوحي بوجود قرار مُسبَق يقضي بوجود أداء دَينٍ قدريّ هو الإحتفاء برؤيتهم لي وراء القضبان بعد أن دفع هو الدَّين عام 1975م بعد أن فاته دفع هذا الدَّيْن مع الزملاء في الحفل الجماعي عام 1973م نظراً لتغيّبه خارج البلاد. وهو ما عبّر لي عنه أيضاً زميل لي التحق

بجامعة بموسكو بعدي بسنوات فاعتقل أيضاً وأدّى «الفرض» في منتصف السبعينات، ولمس من الاستجواب مدى شهيّة الأجهزة للإيقاع بي؛ ولم يكن البلهاء يدرون أن مكر الله أعظم! يحدث هذا برغم أنّي لم أَغِبْ عن أبصارهم يوماً، لأنّي لم أفكّر مجرّد التفكير في أن أهجر الوطن لأستبدله بوطنٍ آخر كما فعل الكثيرون الذين كنت شاهداً على اغترابهم البائس في موسكو عرباً وأجانب. أقول لم أفكّر في اللجوء إلى أيّ بلد لأني لم أتخيّل أن أتنكّر لجذرٍ هو لي بمثابة إيمان قبل أن يكون طبيعة لفّقتني الأقدار من طينتها لأستعير طينة وطن آخر امتثالاً لمشيئةٍ ظالمة لم أرتكب في حقّها جرماً، اللّهم إلاّ إذا كان التعبير عن الانتماء للأقلية العرقية جرماً، أو إذا كان الخلاف في الرأي يمكن أن يفسد للودّ قضيّة. وهكذا لم يعد نظام كهذا في حاجة لأن يودع الأبرياء غياهب السجون بعد أن حوّل الوطن كلّه سجناً كبيراً ينقلب فيه الطلقاء سجناء لا معنوياً أو نفسياً وحسب، ولكن عملياً أيضاً ما داموا يُمنعون مزاولة أبسط حقوق المواطنة وهو حرية التنقّل. فبعد أن كان المواطن الليبي يستطيع أن يستخرج وثيقة السفر لكي يغادر إلى أي نقطة في العالم بلا تأشيرة خروج من البلاد، وبلا تأشيرة دخول لأي بلدٍ كان، أصبح الحصول على تأشيرة خروج أعجوبة، أمّا تأشيرة دخول لأيِّ بلدٍ أجنبي أو حتّى عربي فمعجزة!

يحدث ذلك في زمن كان فيه العالم شاهداً على الدعم

الجنوني المتزايد من قبل النظام للمنظمات المتطرفة بدعوى الإنتصار للحرية. فكيف لا يصير أبناء الوطن غرباء الوطن؟ وكيف لا يمسي طلقاء الوطن سجناء الوطن في ظلّ نظامٍ انتحلنا له الأعذار طوال السنوات الأولى ظنّاً منّا أن كل التدابير الاستثنائية التي اتخذها إنما كانت دفاعاً عن النفس ضدّ محاولات انقلابية غايتها اغتنام السلطة وليس لتحقيق العدالة أو استئصال الفساد كما وعد قادة الانقلاب في بيانهم الأوّل، ولم نكن ندري أن تلك المحاولات لم تكن سوى صراع على السلطة لأجل السلطة، والوعود ليست سوى حُجّة للاحتفاظ بهذه المعشوقة الأبدية التي آلت على نفسها ألاّ تترك عشاقها إلاّ أمواتاً لتستبدلهم بعشاق جدد لا يتأخرون أبداً في تلبية ندائها القاتل؟!

15

العمل

إذا كان من طبع مَن لم نعرف أن يُحسن، فإن من طبع مَن عرفنا وعرفونا أن يسيئوا، ولن يعدموا في سبيل ذلك الحيلة. وها هو جمعة الفزاني ينتهز فرصة خروج هوّادي من الوزارة ليعيد بالملف الكرّة في الترحيل إلى دهاليز الخدمة المدنية المفتوحة على متاهة التقاعد استجابةً للحلف الخفيّ المبرم بين جهازين كانا منذ الأزل قطبين يستعيران سلطتهما من طبيعتهما المستوحاة من عمل المحافل السريّة وهما: الجهاز الوظيفي والجهاز الأمني. ذلك أن الجهاز الوظيفي يحاول أن يحاكي في أسلوب عمله استسراراً كان حكراً على النظام الأمني. فكلّ موظف في هذا الهيكل يحاول أن يضفي على عمله غموضاً يتوقّف عليه مصيرُ الكون. أي أنّه سادنٌ مخوّلٌ من قِبَل الربّ لتسيير قارب الكون. وأتفه شأن في هذا الهيكل يُحاط بسرّية استثنائية توحي بإعجازٍ قدسيّ. فكلّ ملف أو متن أو قرطاس أو حتّى قصاصة ورق هو كنزٌ محفوفٌ بالخطر، وهو لذلك في غنىً عن العبارة الشائعة

«سرّي جداً» التي يراها الكهنة الحقيقيون لهذا المعبد ابتذالاً بالعبارة لعلمهم الذي لا يعترف بغير الإشارة لغةً. فجيوش الموظفين هم الطابور الخفي في عسكر الأنظمة السياسية. وتتعاظم أهميّتهم بقدر قدراتهم على إنتاج الانطباع الآثم بالإستسرار. فوزارات الداخلية في كل نظام تأتي على رأس القائمة عادةً بسبب مسؤوليتها المباشرة في صيانة النظام، تليها مؤسسات الجيش، لتستكمل الخارجية هذا الحلف الشيطاني المثلث الأضلاع. يحدث ذلك ضمناً دون حاجة لتنسيق مسبق أو خطّة محكمة كأنَّ الواقع حكم غير غيبيّ مُنزَّل غايته تثبيت أقدام منظومة ردع ذات طبيعة ميتافيزيائية. إنّها تلك العقلية التي عبّرت عنها أعمال كافكا ليتبدَّى الجور في عالمنا مكوساً غيبيّة مقدّرة سلفاً وغير قابلة للنقض. فكلّ شيء وُجِدَ هو عقبة قصاص. ولمّا كنت قد استطعمت هذا الضرب من القصاص زمن العمل بجريدة «فزّان» وعرفت طبيعة الحلف الجهنّمي بين هذين القطبين (الأمني والإداري) في تلك التجربة أيضاً فلم تكن المكيدة الجديدة لتدهشني برغم جهلي حتّى ذلك الحين بوصية ثورو عن الحبوس كقدرٍ وحيدٍ مناسبٍ لإنسان النزاهة. ولكنّي لم أتوقّع أن تبلغ التفاهة بهذين الشريكين حدّاً يدفعهما للاستيلاء على الحقوق المادّية أيضاً إلى جانب الحقوق القانونية. فها هما يحيكان دسيسة تليقُ بعصابة لصوص لا بسياسة دولة عندما فوجئت بهما يقرران

دفع ثمانية عشر جنيهاً لا غير مقابل تصفية الحقوق عن خدمة ستة أعوام بدل بضعة آلاف! والأسباب؟

إيضاح الإسباب ليس من اختصاص الموظف المختصّ، ولكن من اختصاص الأجهزة الإدارية العليا والبحث في أدغال مصطلح فظيع كالأجهزة الإدارية العليا يستدعي خوض معركة تفوق في التعقيد معركة «السيد كاف» الأسطورية في «محاكمة كافكا» والتسليم بالهزيمة مسبقاً في مثل هذه المعارك لا يُعدّ نصراً حقيقياً إذا قورن بنصرٍ قد يكسب فيه المرء مالاً ويخسر فيه وقتاً وربّما عمراً، ووصيّة الوصايا تتساءل:

ما نفع أن يكسب الإنسان العالم إذا كان قد خسر نفسه؟

فإذا كان الواجب يقضي بأن نتسامح حتّى مع الدسائس أو الغشّ المدبّر من قبل الكلّ، سيّما إذا كان التدبير من سادة هذا العالم، فإن هذا الواجب هو الذي قضى بألاّ نتسامح مع الأكذوبة. وهي العملة اللاّأخلاقية التي استخدمها حلف إبليس ذاك في سلب الحقّ المشروع. إذْ فوجئت بكشفٍ مزوّر يطرح من المبلغ المستحقّ أرقاماً خرافية أحالت القيمة في النهاية حسنةً مضحكة بالكاد تكفي لاحتساء قهوة!

ولكن كم سيصاب بخيبة الأمل هذا الثنائي لو علم أنّه إنّما استخرج لي بعمله هذا الشهادة بالخروج من حظيرة القطيع؟ بلى! لقد كسر الثنائي قيدي دون أن يدري! وهو ما تكرَّر في تجربتي

مراراً في مراحل تالية كأنَّ الأقدار تريد أن تنبّئني كما أنبأت الكثيرين قبلي بأننا إنما نقاد إلى الجنّة بالسلاسل عندما نعاند مشيئتها التي تتبدّى دوماً شرّاً في حين تُخفي في نتيجتها دوماً خيراً. بلى! فالأقدار التي نتّهمها دوماً بالتجديف في حقّنا إنما تريد بنا خيراً أكثر ممّا نريده لأنفسنا بتعلّقنا الأبله بكل ما يبدو في الظاهر خلاصاً في حين يخفي في عبّه أشراكاً. فما نحسبه فصلاً من عمل، أو طرداً جائراً لا نلبث أن تبرهن لنا الأيام على حقيقته النهائية كخلاصٍ من عبودية. كتحرّرٍ من أصفاد ظنناها عملاً. فما هو العمل في واقعٍ يُدين بالاشتراكية أيديولوجيةً؟ إنّه محاكاة ركيكة للعمل وليس عملاً. إنه تظاهر بالعمل وليس ممارسةً لصلاة نسمّيها عملاً. إنه بطالة تتقنّع بمظهر عمل. إنه تجديف رذيل في حقّ أنفس قيمة في الوجود وهي الوقت. ولهذا تصير مهزلة روتين الذهاب والإياب نشاطاً عبثيّاً لا ينتج إبداعاً ولا ينجز إختراعاً. فالدولة التي تتظاهر بدفع أجور جيوش العاملين في مؤسساتها تحصد تظاهراً بالعمل مقابل الفوز بإنتاج العمل. وهكذا تنشأ دائرة سحرية تستغلق بتقدّم الزمن لتتحوّل الأجور جنساً من هبات، لا معاشات مدفوعة مقابل بطالة مقنّعة، بل مقابل تضييع الوقت. أي أنها مكافأة على خطيئة أخلاق إلى جانب كونها جريمة قانونية. إنه ضرب متبادل للإستهانة بوقود الحياة الأعظم وهو الوقت، واستخفاف صريح بمبدأ قدسي هو الصلاة كقرين شرعي للعمل. فإذا كانت قيمة كل إنسان فيما يُحسن كما يعلّم عليّ بن أبي

طالب، فإن إنساناً في واقعٍ كهذا بلا قيمة لأنّه لا يحسن شيئاً. أفَلا يُعدّ الخروج عن عالمٍ كهذا نجاةً بالروح من شَرَكٍ يصير فيه الإنسان جثّةً على قيد الحياة؟

فالإبقاء على صلة، أتفه صلة، بجهاز الدولة الوظيفي، قد يحقّق أماناً مّا، ولكنه يدفعنا للاندماج في واقع القطيع. إنه أمان كاذب مثيل لأحضان حوريات البحر الفاتنات في أمثولة هوميروس عن أوليس: الأحضان التي تحتويك لتقتلك. الدولة في عالمنا أيضاً تهدهدنا في أحضانها لنسكن إليها، ولا نستيقظ من طمأنينتنا لأنها تختلس أرواحنا بدفء أحضانها! فشعار «مَن لا يعمل لا يأكل» هو الشَرَك الخبيث الذي نصَّبته الأيديولوجيّة الشيوعيّة لتستدرج به السواد الأعظم الحاقد على الظلم في مجتمع يتثائب فيه صحبان رؤوس الأموال بطالةً عن العمل في حين تتكدّس الثروات في جيوب هذه القلّة وحدها، فينقاد هؤلاء بسحر الوعد أملاً في تحقيق الحلم الرومانسي الخالد بالمساواة. يستجيب السواد الأعظم للنداء طمعاً في تحصيل فائض قيمة العمل. ولكن هيهات! فالقيمة الزائدة تغترب في هذا النظام على نحوٍ أسوأ بسبب لعنة جديدة هي **اللاّمبالاة**. فما ندّعي أننا نملكه جميعاً لا يملكه في الواقع أحد. وألاّ يملكه أحد يعني ألاّ يعني أحداً. وألاّ يعني أحداً هو الشهادة له بالوفاة. لأن اللاّمبالاة هي آفة القداسة في العمل. هي الوباء الذي يميت القيمة في العمل. هي التجديف

الذي يقضي على بُعْد الصلاة في العمل؛ أي البعد الرسالي في العمل. ولهذا السبب تلجأ الجموع إلى التظاهر بالعمل بدل التسابق للحضور في محراب العمل كما تتسابق لحضور قدّاس الأحد في الكنائس أو التجمهر في المساجد لتأدية صلاة الجمعة. وبدل أن تعمل الأنظمة السياسية على تشخيص هذا الخلل نجدها تثأر لنفسها بردّة فعل غبيّة. تلجأ لتدابير أليق ما تكون بلعب دور في مسرحية. تدفع للشريك بالعملة الرديئة نفسها. تدير ظهرها للعلّة وتتظاهر بأنّها تدفع أجراً على العمل بعد أن تستقطع بالطبع قيمة تزيد عن فائض القيمة الرأسمالية بضعفين على الأقل بدعوى تغطية الإنفاق على المؤسسات السيادية التي لا تدرّ ربحاً كالجيش والتعليم والصحة في حين برهنت الدراسات في إمبراطورية عظمى كالاتحاد السوفييتي على تخصيص ميزانية أكبر جيش في العالم وهو الجيش الأحمر، وكذلك ميزانية أكبر مؤسسة تعليمية في العالم وهي وزارتي التعليم العام والعالي، على عائدات تلك السموم المميتة التي يدفع المواطن أربعة روبلات ثمناً للقارورة منها وهي الفودكا، في حين تكلّف هذه الزجاجة كوبيكاً واحداً فقط، أي ما نسبته واحد مقابل أربعمائة إذا علمنا أن الروبل يحوي مائة كوبيك!

فإذا كان المواطن يقوم بتمويل هذين العملاقين على حساب عافيته الجسدية والروحية عندما يسترخي ليحتسي كأساً من مشروبه

الكحولي المفضّل فأين تذهب عائدات نزيف الأرض المتمثّل في النفط، أو الغاز الذي يغذّي العالم بالأنابيب، ومناجم الماس التي تتدفّق في أسواق العالم بالأطنان، وثروات غابات سيبيريا التي تغطي حاجات العالم من الأخشاب الخام، وكنوز المصانع التي لا تكفّ محرّكاتها عن العمل آناء الليل وأطراف النهار سيّما عوائد الإنتاج الحربي؟

كل هذه الكنوز الأسطورية تغرق في هاوية اللامبالاة، وسوء التدبير، ورداءة التقدير، ورتين **إبادة الحوافز**، إلى درجة يبلغ فيها سيل الزبى حدّاً تعجز فيه إمبراطورية خرافية الموارد والإمكانات كهذه عن إطعام أهلها فتتنازل عن كبريائها السياسية والأيديولوجية لتتسوّل من عدوّتها الأيديولوجية والسياسية أمريكا أكياس القمح مقابل التوقيع على معاهدات مذلّة!

بلى! الاشتراكية ابتكارٌ إبليسيٌّ لئيم يجرّد الإنسان من مارد وجودي قبل أن يكون اقتصادياً هو **الحافز** لأنه يدغدغ في الإنسان طبيعة مميتة هي الخمول ليجني بالمقابل **ذلاً**! وهكذا يصبح وهم المساواة هو البعبع الذي نكسبه في الصفقة التي نخسر فيها أنفسنا!

فإذا كان الحال على هذا النحو في أوطانٍ قطعت شوطاً بعيداً في سبيل التقدّم العلمي، فكيف سيكون الحال في عالمنا الذي اعتاد أن يحاكي ولا يبدع، يستنسخ التجارب استنساخاً ولا يبتكر، يعاني خمولاً تاريخياً غذّته العوامل المناخية والبيئية ليصير العمل

في يقينه لا إيماناً أو رسالةً، ولكن جهداً يليق بالعبيد؟ ألن يكون إنسانٌ كهذا جديراً بالذلّ مرتين؟

فالنهضة المرجوّة أملٌ رهين العمل. والعمل رهين تلك الحرية المشروطة بالروح الرسالية. فالاشتراكية فارس أحلام، بل فردوس أحلام، ولكنّها (بالحضور في الواقع) كابوس!

فالاشتراكية كوليدة حنين للمساواة هي ابنة لا تخون ناموس الحُلم بالتغيير المترجَم في اسم الثورة. هذه الثورة التي تبدو ضرورةً، ولكنّها، بالضرورة أيضاً، الثورة المخيّبة دوماً للآمال!

16

في طلب البعد المفقود

في تلك السنوات كنّا مهووسين بالأدب، وبكل ما متَّ لهذا المعبود بصلة؛ ولكننا لا نمارس الادب. لا ننتج الأدب. لقد عيّرتنا إحدى الزميلات بالمعهد (التي صارت لي شريكة حياة فيما بعد) بالقول: «أنتم تكتبون سطراً، ثم تحتفون بميلاد هذا السطر شهراً!». هل نكتفي بالاحتفال شهراً، أم آننا نحتفل لأمدٍ قد يمتدّ عاماً؟ فنحن نتكلّم عن الأدب كثيراً، نتكلّم أكثر ممّا ينبغي، ولذلك نكتب قليلاً، لأنّ من يتكلّم كثيراً يعمل قليلاً. وكثيراً ما نعبر الممرّ المتوّج عادةً بمنشورات طلبة المعهد في الصحافة الأدبية السوفييتية معلّقةً وراء زجاج على الجدار، فننكّس رؤوسنا خجلاً لغياب إنتاجنا هناك. وقد نذهب لنهنّئ الزملاء الذين تألّقت أسماؤهم هناك في إحدى كبريات المجلاّت، أو الجرائد الأدبية الأسبوعية الذائعة الصيت. وهي التهاني التي تلقيتها من الزملاء في أحد أيام عام 1973م على نحوٍ مفاجئ، لأني كنت آخر من أُحيط علماً بنشر إحدى قصصي في إحدى هذه المجلاّت كان يرماكوف قد ترجمها منذ عام، ولم تجد طريقها إلى النشر إلاّ في ذلك اليوم الذي تلقّيت فيه تهاني الزملاء الذين وجدوا المجلّة معلقةً

علىٰ جدار المنشورات. وعندما استنكرت تأخير النشر بدل أن أفرح سخر منّي الزملاء وقالوا أني محظوظ لأن النشر في الاتحاد السوفييتي أعجوبة لا لقلّة الصحف الأدبية فقط، ولا لكثرة الأدباء الذين يعدّون بعشرات الألوف، بل مئات الآلاف، ولكن بسبب صرامة المقاييس بالدرجة الأولى. وهي صرامة ذات شقّين: شقّ له علاقة بالقيمة الأدبية، وشقّ تمليه النظرة الأيديولوجية. ولمّا كانت طبيعة الشقّين ذات بعد ضدّي في الأساس فمن الضروري أن يصير توفر الشرط في النص المعدّ للنشر جنساً من أعجوبة، هذا إذا لم يكن ضرباً من إعجاز!

وأعتقد أن مثل هذه المعاهد كمعهدنا ليس ورشة أدب بقدر ما هو منتدى أدب. ومنتديات الأدب فردوس لا لمن يريد أن ينجز أدباً، ولكنها فردوس لمن قرّر أن يتذوّق أدباً، لمن قرّر أن يستمتع بأدب. والدليل أن أدباء هذا المعهد لا ينجحون كأدباء إلاّ بعد أن يهجروا هذا المنتدى بزمن طويل. فهل الولع بالأشياء يلحق الضرر بالأشياء؟ ألا نميت ما نعشق عندما نعشق المعشوق أكثر مما ينبغي؟ بلى! حبّ الأدب باللّغو حَوْل الأدب بلا حدود يغرّب الأدب، لأنه يحوّله مادّةً للترف. ومبدأ الترف مع الأدب في خصام منذ عرفت الدنيا الأدب. لأن الأدب ترمومتر لقياس نبض الوجود ولا يصلح أيقونةً لذاته. إنه جمالٌ حقاً، ولكنه الجمال الذي يخفي الوجع الوجودي. إنه جمال، ولكنه الجمال المهووس بالحقيقة. يحضرني الآن ما قاله غوته في سيرته الذاتية الموسومة بـ«الشعر والحقيقة» عن طلبة الطبّ إبّان دراسته بالجامعة. قال إنهم أكثر الطلبة هوَسَاً بمهنتهم. ويبدو أن ما يجمع هاتين الحرفتين

(الأدب والطبّ) ليس اللغة اللاتينية وحسب، ولكن هذا الصنف من الهوس أيضاً. الهوس بالحرفة ذاتها لا بموضوع الحرفة. هذا الموضوع الذي لن يكون في الحالين سوى: **الإنسان**، أو حضور لغز اسمه الإنسان في محنة اسمها الوجود. يعني الأطباء بشقّه المستظهر، ويعني الأدباء بشقّه المستبطن.

ضلالنا إذاً كان في الافتتان بالحرفة. الافتتان بالحرفة على حساب طبيعة الحرفة، أو موضوع الحرفة. الموضوع لا ينهل من العلم، ولكن من الحياة. أي أن دراسة الأدب هو تعلّم التقنية التي لا جدوى منها إن لم تستخدم لاستنطاق رصيد تخفية التجربة. والتجربة هي ذلك الألم الذي ينتظرنا خارج الحرم الجامعي لا داخله. وهو ألمٌ كثيراً ما يبلبل على نحوٍ ينسينا التقنية وينسينا أننا أدباء أصلاً. ولكنها بلبلة ليست عديمة الجدوى، لأن نجاح الأدب رهين تخزين الألم. وهو ما يعني أن علينا أن ننسى أننا أدباء ونحيا الحياة كما يحياها أيُّ كائنٍ حيّ، كائن طبيعي لا كائن ثقافي، إذا شئنا أن نستيقظ ذات مساء لنجد التقنية المنسيّة بانتظارنا فتهرع لنجدتنا بعد اغتراب. لماذا؟ لأننا كلّنا بلا حول ولا قوّة بغياب العمق. فالمعرفة وحدها ليست مؤهّلاً يخوّل إنجاز الأدب. لأن الأبعاد التي تعني المبدع ليست هي الأبعاد ذاتها التي تعني عالم الطبيعة، أو ممتهن الهندسة. فمريد الإبداع يضع نصب عينيه ثلاثة أبعاد في ظاهرة الواقع: البعد المستظهر، والبعد المستبطن، والبعد المفقود. وهذا الأخير هو الأهمّ على الإطلاق. لماذا؟ لأنه البعدُ الذي يستحيلُ التعبير عنه باللغة. لماذا؟ لأنه البعدُ الذي يخفي كنزَ الكنوز المسمّى: **الحقيقة**! والحقيقة هي ما يعجز

الكلم، ويقهر اللغة، ولا يعترف بغير الإيماء لغةً. من هنا توجّب استخدام الحيل الأدبية للتعبير عن هذا المحال. هنا يأتي دور الإيحاء، والتلميح، والترميز، والأهمّ من كل ذلك: **الأسطرة**. ولهذا لم يخطئ أرسطو الذي قال منذ ألفين وثلاثمائة عام أن غاية العمل الأدبي هو خلق الأسطورة. ومن هنا نستطيع أن نفهم وصية همنجواي عندما شبّه النصّ الأدبي بالجبل الجليدي العائم الذي لا يبدو للعيان سوى عشره فقط، أمّا التسعة أعشار الباقية فهي مستترة تحت الماء. وإذا كنت قد اكتشفت وجود هذا البعد المفقود في ظاهرة الوجود مبكراً بما يكفي، بيد أن اكتشاف وجود هذا البعد ليس كالتعبير عن حضور هذا الوجود في العمل الأدبي. أعترف الآن أني بدأتُ الطوافَ مبكراً، ولكن التعبير عن هذا البعد ظلّ تحدّياً شبه مستحيل حتى ذلك الوقت. لم أكن أعلم أيضاً أنه طريقٌ إلى الأسطورة. وكان عليّ أن أنتظر أعواماً أُخَر أَعْبُر خلالها أوّلاً جحيماً حقيقياً كقدر ضروري لتحقيق معجزة **الميلاد الثاني**. ففي هذه التجربة فقط تجلّى البعد المفقود عارياً!

(نهاية الجزء الأوّل ويليه الجزء الثاني)

سالو (إسبانيا)، غولديفيل (الريف السويسري)، الشارقة

(الإمارات المتحدة)، تونس (العاصمة)، دبي

(الإمارات)، دوربان (جنوب أفريقيا).

في الفترة بين تموز/ يوليو 2011م، وآذار/ مارس 2012م.

مُؤلفَاتُ إبْراهِيم الكُوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص)1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية)..

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة(رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

68 ـ جنوب غرب طوادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م.

69 ـ فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

70 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

71 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

72 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

73 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م.

74 ـ ثوبٌ لم يُدنَّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م.

75 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م.

الفهرس

THE NIGHT'S WANDERER

سيرة
AUTOBIOGRAPHY

عدوس السرى

روح أممٍ في نزيف ذاكرة

لماذا الغرباء دون الناس جميعًا؟
الغرباء ملائكة لأنّهم وحدهم ملّة حريّة، لأنّ حضورهم في البعد المفقود أقوى من حضورهم في بعد الوجود، وإذا كنّا قد حاولنا رصد الحضور في البعد المفقود من خلال عشرات الأعمال الاستعاريّة الصادرة حتى الآن، أفلا يحقّ لنا أخيرًا أن نشهد رصد الحضور في بعد الوجود بتأمّل الرحلة من هذا الجانب أيضًا؟ لأنّ ما هي دنيانا إن لم تكن متاهة اغترابٍ كلٌّ منّا فيها عدوسُ سُرى؟






ISBN 978-614-419-125-5
9 786144 191255